رسالة الله إلى الإنسان

منهج التثبُّت في الدِّين/ ٥

الأنباءُ الثَّلاثة الكُبرى

في الدِّين

٣ ـ رسالة الله إلى الإنسان

الطَّبعة الأولى

١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٢١٢) لسنة ٢٠١٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

الأنباء الثَّلاثة الكُبرى في الدِّين

النَّبأ الثَّالث

(رسالة الله إلى الإنسان)

مقدِّمة

أمور يجب البحث عنها

عقد البحث من خلال دين الإسلام والباعث على ذلك أمران:

(١) ـ امتياز الإسلام بكونه الوارث للأديان الإلهيَّة والمقرّ بها كلّها

اعتبار الإيمان بالرِّسالات الإلهيَّة كلِّها جزءاً من العقيدة الإسلاميَّة

(٢) ـ كون الإسلام أوثق الرِّسالات المأثورة تاريخيَّاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على جميع الأنبياء والمرسلين، لا سيَّما محمَّد خاتم النبيِّين وعلى آله الطَّيِّبين الطَّاهرين.

أمَّا بعد، فإنَّ من الضَّروريّ لكلِّ إنسانٍ راشد أن يتحقَّق حول مدى بعث الخالق رسالة إلى الإنسان يبيِّن له فيها آفاق هذا الوجود، وغاياته، وموقع الإنسان في هذه النَّشأة، ومصيره بعدها، ودور أعماله وخصاله في العاقبة الَّتي ينتظرها؛ وذلك من جهة أهمّيّة هذا الموضوع ودوره في سعادة الإنسان وشقائه.

وقد صادفت في بيئتي ـ الَّتي عشت فيها ـ الإيمان بإرسال الله سبحانه وتعالى رسلاً إلى الخلق إلى رجالٍ من بينهم، منهم موسى بن عمران، وعيسى بن مريم عليهما السلام، وآخرهم رسول الإسلام محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد تحقَّقتُ من هذا الأمر وتثبَّتّ لنفسي بالأدوات العقلانيَّة الملائمة مع مثل هذا الموضوع، فوجدت بعد التَّحرِّي والتَّأمُّل الجامع أنَّ هناك فعلاً شواهد قائمة وكافية على ذلك، أورثت قناعةً في عقلي، واطمئناناً في نفسي.

وليس المرء ملوماً في اعتقاد صواب ما يجده في بيئته إذا تحرَّى الحقيقة، وبحث عن الرُّشد، فوجد عليها علائم الحقِّ ودلائل الصِّدق؛ إذ لا تخلو العقائد المختلفة المنتشرة في

البيئات المتعدِّدة عن أن يكون بعضها حقَّاً.

وهذه دراسة ميسَّرة توضح المنهج السَّليم في البحث، والمبادئ المنطقيَّة المتوفِّرة في الموضوع، حاكيت فيها تجربتي الشَّخصيَّة بما تيسَّر، أرجو أن ينفع الله بها كلَّ إنسانٍ راشد يسعى إلى التَّبصُّر في حقيقة هذه الحياة وغاياتها وموقعه فيها، والله الهادي.

رسالة الله إلى الإنسان

(النَّبأ الثَّالث): ـ من الأنباء الكُبرى الدِّينيَّة ـ هي الرَّسائل الإلهيَّة إلى الإنسان.

إنَّ هناك سؤالاً خطيراً ومهمّاً للغاية، مطروحٌ في المجتمع الإنسانيّ، وهو أنَّه هل أنَّ خالق الكون والإنسان أرسل فعلاً رسالةً إلى الإنسان، يستشهد فيها على وجوده بالنَّظم الرَّائع والجميل لهذا العالم، ويبلِّغه بأنَّ هذه النَّشأة بالنِّسبة إليه فرصةٌ اختباريَّة لمعرفته وسلوكه من المنظور القيميّ، وسوف يُعاد في نشأةٍ أخرى يُجازى فيها بأعماله، ووصَّاه بالعمل بمقتضيات الضَّمير الإنسانيّ مع تعاليم إضافيَّة تضع حدوداً معيَّنة في المساحة الرَّماديَّة لحكم الضَّمير، وتتضمَّن وصايا تربويَّة يحتاج إليها الإنسان؟

فهذا سؤال خطير جدّاً، بل هو من جهةٍ أخطر من السُّؤال عن أصل وجود الله سبحانه؛ لأنَّ ثبوت وجود الله سبحانه من غير أن يكون معنيّاً بالإنسان ليس له ذلك التَّأثير في أحوال الإنسان، ووظائفه الفطريَّة، ومحتوى وجوده في هذه الحياة الدُّنيا، كما أنَّ هذه الرِّسالة هي الأساس في إثبات الحقيقة الأُخرى الخطيرة وهي المعاد، فلو لم تثبت الرِّسالة لم يثبت المعاد.

ومن ثَمَّ يمكن اعتبار هذا السُّؤال أخطر وأهمّ سؤال يواجهه الإنسان.

لقد جاء في الأخبار والآثار التَّاريخيَّة أنَّ هناك أناساً في طول التَّاريخ ذكروا أنَّهم جاؤوا برسالةٍ من الله سبحانه إلى خلقه، واعتقد بهم جمعٌ غفير من النَّاس في طول التَّاريخ، ومن أهمِّها رسائلُ ثلاث:

١ ـ رسالة موسى بن عمران ﷺ الَّتي كان عليها الأنبياء ﷺ من بني إسرائيل من بعده وهي التَّوراة، ويُسمَّى المذعنون لها بـ(اليهود)، يبلغ عددهم (١٤) مليون شخص،

وقد عاش موسى عليه السلام وفق بعض التَّواريخ في حدود القرن الثَّالث عشر قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

٢ ـ رسالة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وهي الإنجيل، ويُسمَّى المذعنون لها بـ(المسيحيِّين)، وهم جمع كثير يبلغ (٢،٢) مليار نسمة، بنسبة (٣٢٪) من سكَّان العالم، وهم بذلك أكبر مجموعة دينيَّة في العالم، وهذه الرِّسالة تقرُّ بالرِّسالة السَّابقة ورسولها.

٣ ـ رسالة نبيِّ الإسلام محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي القرآن الكريم، وقد عاش صلى الله عليه وآله وسلم في القرن السَّادس الميلاديّ، ويُسمَّى تابعوه بـ(المسلمين)، ويبلغ عدد أتباعه في العصر الحاضر (١،٦٢) مليار نسمة، بنسبة تفوق (٢٣٪) من سكَّان العالم، وهم بذلك ثاني أكبر مجموعة دينيَّة بعد المسيحيِّين.

وتشتمل هذه الرِّسالة على الإذعان بالرِّسالتين الأُولتين كغيرهما من الرِّسالات الإلهيَّة، كما تتضمَّن بشكل مؤكَّد أنَّها آخر رسالة إلهيَّة إلى الخلق.

فهذه رسائل ثلاث ذكر مبلِّغوها أنَّها أتتهم من الله سبحانه، وتبعهم على ذلك جمهرة من النَّاس.

فهل صحَّ فعلاً أنَّ الله سبحانه أرسل رسالةً أو رسائل في طول التَّاريخ الإنسانيّ من خلال بعض خلقه إلى الإنسان ينبِّهه على وجود الله سبحانه ودلائله، ويدعو إلى توحيده والاستعداد للدَّار الآخرة بالعمل الصَّالح، ويثبت فيها قواعد العدل في هذه الحياة؟

وهذا موضوع مهمٌّ للغاية؛ لأنَّه يطرح آفاقاً جديدة وخطيرة في شأن الإنسان، ويحمِّل الإنسان مسؤوليَّة التَّثبُّت في هذا النَّبأ، وأخذ مضامينه بنظر الاعتبار.

فمن شأن الإنسان ـ بحسب هذا النَّبأ ـ أن يتعرَّف على وجود الخالق للكون وغاياته من خلق الإنسان والكون، وأن يتصرَّف بمسؤوليَّةٍ في هذه الحياة؛ لأنَّه سوف يجد

آثار تصرُّفاته وأعماله في حياةٍ أخرى إنْ خيراً فخير وإنْ شرَّاً فشرّ.

إذن، لا يسع أيُّ إنسانٍ عاقلٍ ـ وفق مقاييس الاهتمام بالأشياء حسب أهمّيّتها ـ أن يتجاهل هذا الطَّرح، ولا يتحقَّق من صحَّته وعدمها بصدقٍ وأناة؛ وذلك لمكان خطورة هذا النَّبأ وأهمّيّته البالغة. ومن المعلوم أنَّ من مقتضيات الحكمة اهتمامَ الإنسان بالأشياء بالمستوى اللَّائق بأهمّيّتها وخطورتها.

أمورٌ يجب البحث عنها

ويقع الكلام هنا عن عدَّة أمور:

١ ـ مضمون الرِّسالة الإلهيَّة.

٢ ـ كيفيَّة إثبات الرُّسل لحقَّانيّتهم في مجتمعاتهم.

٣ ـ كيفيَّة ثبوت حقَّانيَّة الرُّسل للأجيال اللَّاحقة.

٤ ـ نقاط تساؤل حول الرِّسالات الإلهيَّة.

عقد البحث من خلال دين الإسلام والباعث على ذلك

ونحن نبحث عن هذه الأمور مع النَّظر بشكلٍ خاصٍّ إلى رسالة الإسلام، وذلك لأمرين:

١ ـ إنَّ هذه الرِّسالة هي وارث الرِّسالات السَّابقة كلِّها.

٢ ـ إنَّها أوثق الرِّسالات المأثورة تاريخيَّاً.

امتياز الإسلام بكونه الوارث للأديان الإلهيَّة والمُقرَّ بها كلِّها

أمَّا الأمر الأوَّل: ـ وهو أنَّ رسالة الإسلام وارث الرِّسالات السَّابقة ـ فلأنَّ هذه الرِّسالة تتضمَّن الإذعان بالرِّسالات السَّابقة وأنبيائها جميعاً على الإجمال، وبكثير منهم على التَّفصيل، كرسالة موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام، فقد تكرَّر ذكرهم في القرآن الكريم بالتَّوقير

والتَّكريم، وأمر النَّبيّ ﷺ بالاقتداء بهم، كما جاء بعد ذكر جمع من الأنبياء السَّابقين قوله سبحانه[1]: ﴿**أُولَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّـهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾.

كما ذُكرت كتبهم كالتَّوراة والإنجيل والزَّبور بالتَّصديق ـ وإن لاحظ عليهم القرآن إخفاء بعض فقراتها أو الزِّيادة فيها أو تحوير معناها[2] ـ، قال تعالى[3]: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّـهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾، وقال سبحانه[4]: ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ**﴾، وقال تعالى لبني إسرائيل[5]: ﴿**وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ**﴾.

اعتبار الإيمان بالرِّسالات الإلهيَّة كلِّها جزءاً من العقيدة الإسلاميَّة

بل اعتُبر الإيمان بصدق تلك الرِّسالات جزءاً من العقيدة الإسلاميَّة، وأمر نبيِّ

(١) سورة الأنعام: ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) كما قال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا**﴾ (سورة الأنعام: ٩١).

(٣) سورة المائدة: ٤٤.

(٤) سورة آل عمران: ٣ ـ ٤.

(٥) سورة البقرة: ٤١، ولاحظ: البقرة: ٨٩ و٩١ و٩٧ و١٠١، والنِّساء: ٤٧، والمائدة: ٤٨، والأنعام: ٩٢، وفاطر: ٣١، والأحقاف: ١٢.

الإسلام بالإقرار بها، كما قال تعالى في وصف المتَّقين(١): ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، وقال سبحانه(٢): ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، وقال عزَّ من قائل(٣): ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾، وقال جلَّ ذكره(٤): ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، وقال سبحانه(٥): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

بل إنَّ التَّعبير عن هذا الدِّين بالإسلام إنَّما كان لاشتماله على التَّسليم بكلِّ ما جاء من عند الله سبحانه، سواء ما كان من قبل أو الَّذي جاء به نبيُّ الإسلام ﷺ(٦): ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّـهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

---

(١) سورة البقرة: ٣ ـ ٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٣) سورة المائدة: ٤٨.

(٤) سورة الشُّورى: ١٥.

(٥) سورة النِّساء: ١٣٦.

(٦) سورة آل عمران: ٨٤ ـ ٨٥.

ولا يجوز بحسب نصوص القرآن الكريم أن يقف الإنسان على بعض رسل الله سبحانه، فيؤمن به، وينكر الآخرين؛ لأنَّهم من غير قومه ـ مثلاً ـ كما قال تعالى[١]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّـهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّـهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

وقد تضمَّنت هذه الرِّسالة ـ أعني رسالة الإسلام ـ سرد كثيرٍ من: المواعظ، والأنباء، والعبر، والأحكام عن الأنبياء السَّابقين، وعن الكتب السَّابقة، مع تصحيح ما وقع من التَّحوير والخطأ في شأنها، مثل ادِّعاء أُلوهيَّة المسيح وأمِّه ﷺ، كما قال سبحانه[٢]: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّـهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّـهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّـهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّـهُ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّـهِ وَكِيلًا﴾.

هذا كلُّه يمثِّل أنَّ هذه الرِّسالة جاءت استمراراً وإحياءً لتلك الرِّسالات رغم أنَّها لم تكن في بيئة الرِّسالات السَّابقة وأصحابها ـ وهم بنو إسرائيل ـ وإن وُجد قومٌ منهم في البيئة الجديدة، وهذا أمر راشد ورائع في مضمون الدِّين الإسلاميّ.

كون الإسلام أوثق الرِّسالات المأثورة تاريخيَّاً

وأمَّا الأمر الثَّاني: ـ وهو أنَّ رسالة الإسلام هي أوثق الرِّسالات المأثورة تاريخيَّاً ـ فلأنَّ التَّأكيد على الطَّابع الكتبيِّ لهذه الرِّسالة منذ البداية، واهتمام النَّبيّ ﷺ بكتابة هذه

(١) سورة النِّساء: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) سورة النِّساء: ١٧١.

الرِّسالة وحفظها بشكلٍ كتبيّ، وانتشار الكتابة منذ نزولها، واتِّصالها بشكلٍ واضحٍ أدَّى إلى ثبوت القرآن الكريم من دون أيِّ تغييرٍ ثبوتاً مقنعاً وواضحاً.

ومن الإنصاف القول: بأنَّه إذا كانت هناك أديان إلهيَّة تستوجب الثِّقة من حيث الثُّبوت التَّاريخيّ، ومضامين الدِّين، وصفات الرَّسول، والحوادث الَّتي اتَّفقت لها فإنَّ دين الإسلام ـ بعد التَّأمُّل الجامع في كتابه، ومضمونه، وشخصيَّة نبيِّه ﷺ، وتاريخه ـ دين يستوجب الوثوق به، بل هو أَولى الأديان بذلك.

فلنتحدَّث حول الأمور المتقدِّمة في مباحث أربعة:

المبحث الأوَّل

مضمون الرِّسالات الإلهيَّة إلى الخلق وغاياتها

ما جاء في الدِّين عن وجود الله سبحانه

ما جاء في الدِّين حول المعاد

ما جاء في الدِّين من قواعد السُّلوك الحكيم والعادل

أقسام تعاليم الدِّين

(١) ـ تحديد السُّلوك الحكيم والعادل مع الله سبحانه

(٢) ـ تعاليم الدِّين للإنسان تجاه الخلق

(٣) ـ تعاليم الدِّين للإنسان فيما يتعلَّق بنفسه

اشتمال تعاليم الدِّين على جزأين معرفيٍّ وسلوكيٍّ

اتِّفاق الرِّسالات الإلهيَّة في التَّعاليم الاعتقاديَّة وأصول التَّعاليم العمليَّة

(المبحث الأوَّل)

مضمون

الرِّسالات الإلهيَّة إلى الخلق وغاياتها

إنَّ مضمون الرِّسالة الَّتي جاء بها الرُّسل عن الله سبحانه تتضمَّن بيان أبعاد الحياة والوجود ومستقبله، فهي تتضمَّن:

(أوَّلاً): بيان وجود الله سبحانه، وتوحيده، ونبذ عبادة الأصنام وغيرها من الآلهة المختلقة.

(ثانياً): بيان بقاء الإنسان بعد الممات، ووجود الدَّار الآخرة ليُجازى كلُّ امرئٍ بحسب سلوكه وأعماله.

(ثالثاً): بيان قواعد السُّلوك الحكيم والعادل في الحياة، سواء مع الله سبحانه أو مع الخلق أو مع النَّفس.

هذه المضامين الثَّلاثة الَّتي جاؤوا بها.

ومن ثَمَّ جاء في الآيات الشَّريفة أنَّ غاية الأنبياء هو تعليم الكتاب ـ المتضمِّن للأنباء الكُبرى ـ والحكمة، وإجراء العدل، قال تعالى[1]: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾، وقال

---

(١) سورة البقرة: ١٥١.

سبحانه[(١)]: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وقال عزَّ من قائل[(٢)]: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّـهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وقال جلَّت آلاؤه[(٣)]: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّـهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وقال سبحانه[(٤)]: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّـهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾، وقال عزَّ وجلَّ[(٥)]: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّـهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّـهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

ويشتمل كلُّ واحدٍ من الأبعاد الثَّلاثة على منظومةٍ منسجمةٍ من الأفكار والمعاني الَّتي يتَّسم غالبها بالوضوح والرُّشد من المنطلق العقليّ والفطريّ.

وتمثِّل الأبحاث الَّتي ذكرناها في سائر حلقات هذه السِّلسلة إلى مقامنا هذا توصيفاً

---

(١) سورة الجمعة: ٢.

(٢) سورة الزُّخرف: ٦٣ ـ ٦٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٤) سورة الحديد: ٢٥ ـ ٢٧.

(٥) سورة الشُّورى: ١٥.

لهذه الأبعاد ومبانيها، كما ذكرنا إيجازاً لذلك في بحث (حقيقة الدِّين).

وفيما يلي نبذة حول ذلك:

ما جاء في الدِّين عن الحقيقة الأولى ـ وجود الله سبحانه ـ

أمَّا (**الحقيقة الأولى**): فقد تضمَّن الدِّين إثبات وجود الله سبحانه مستدلَّاً عليه بالنَّظم الكونيِّ الرَّائع، منبِّهاً الإنسان على دقَّة هذا الخلق، ودلالته على كائنٍ عاقلٍ ومبدعٍ وراءه، ومزيلاً عن ذهن الإنسان حجاب الاعتياد.

وتضمَّن أيضاً إثبات توحيد الله سبحانه مفنِّداً حديث تعدُّد الآلهة، منبِّهاً على أنَّ سائر ما عُدَّ إلهاً لا يتَّصف بالصِّفات اللَّائقة بالإله، وهو أيضاً فكرة واضحة وراشدة رغم شيوع الشِّرك في المجتمعات البشريَّة الَّتي كانت موطن الرِّسالات الإلهيَّة.

وتضمَّن بيان صفات الله سبحانه على ما يليق به، وبما يتمثَّل في خلقه من: العلم، والقدرة، والحكمة، والذَّوق، والضَّمير الأخلاقيّ، وغير ذلك ممَّا تقدَّم ذكره في بحث خصائص الإله.

ما جاء في الدِّين حول المعاد

وعن (**الحقيقة الثَّانية**): ـ وهي بقاء الإنسان بعد الممات مرهوناً بأعماله ـ اشتمل الدِّين على أنَّ حقيقة الإنسان ليست حقيقةً مادّيّةً بحتة، بل له جزء روحانيّ ملتئم مع هذا الجسد المادّيّ، وأنَّ هذا الجزء يبقى بعد الممات ليعود الإنسان إلى الحياة في النَّشأة الأُخرى، ويمثِّل وجود تلك النَّشأة الغاية النِّهائيَّة من خلق الإنسان وهذا الكون المادّيّ، ويغيِّر معنى هذه الحياة الدُّنيا للإنسان من حياةٍ لاهيةٍ إلى فرصة اختبارٍ معرفيٍّ وأخلاقيٍّ للإنسان ليلقى المرء درجته وجزاءه في الحياة الأخرى، فيجد بالحسنة حسنةً مثلها أو ضِعفها وبالسَّيِّئة سيِّئةً مثلها، وتكون المجازاة في الدَّار الآخرة وفق موازين العدل والقسط في محكمةٍ عادلةٍ يحقُّ

للإنسان فيها أن يدافع عن نفسه، ولا يلقى جزاءً حتَّى تُقام الحُجَّة على ارتكابه لما يوجبه وفق تفصيلٍ في الكلام عن هذه الحقيقة تقدَّم فيما مضى من أبحاث.

ما جاء في الدِّين من قواعد السُّلوك الحكيم والعادل

وعن (**الحقيقة الثَّالثة**): ـ وهي قواعد السُّلوك الإنسانيّ الحكيم والعادل في الحياة ـ فقد تضمَّن الدِّين أنَّ الإنسان مُتِّع بخصال عديدة، وهي: العقل، والضَّمير، وروح الحكمة، والاختيار مضافاً إلى الرَّغبات الاعتياديَّة المادّيّة.

وقد أودع الله سبحانه تلك القواعد في الضَّمير الأخلاقيّ للإنسان، وهي قواعد ملائمة للتَّكوين النَّفسيّ والمادّيّ للإنسان بطبيعة الحال.

وبذلك كان مدار تلك القواعد ـ وفق المنظور الدِّينيّ ـ على الحقوق الفطريَّة والخصال الفاضلة، وتبقى الحاجة إلى تشريعاتٍ إضافيَّة تحدِّد مواضع الاشتباه والإبهام، وهو ما يتضمَّنه الدِّين في قسم الأحكام التَّأسيسيَّة منه. وقد بيَّنّا ذلك في بحث حقيقة الدِّين في الكلام على الرُّؤية التَّشريعيَّة الدِّينيَّة.

وتبتني التَّعاليم الدِّينيَّة بشكلٍ عامٍّ على أساسٍ مناسبٍ وراشدٍ في جميع شؤون الإنسان وأبعاد حياته من: العقلانيَّة، والعلم، والحكمة، والأخلاق، والإلهام، والرُّوحانيَّات، والعدالة، والحرِّيَّة، والسَّعادة، والقانون، والسِّياسة، وغيرها على ما يليق بالدِّين ويُتوقَّع منه على وجهٍ يناسب الأزمنة المختلفة متى تأمَّله الإنسان بفطنةٍ وذكاءٍ، كما أوضحنا ذلك في بحث (اتِّجاه الدِّين في مناحي الحياة).

أقسام تعاليم الدِّين

وتنقسم هذه التَّعاليم إلى ثلاثة أقسام:

تعاليم السُّلوك الحكيم والعادل مع الله سبحانه

(القسم الأوَّل): ما يتعلَّق بالسُّلوك الحكيم والعادل تجاه الخالق تعالى، فالخالق سبحانه قد خلق الإنسان، ومنحه العقل والضَّمير والاختيار حتَّى يخاطبه بعقله ويتعامل معه بضميره، فهو ليس مُعرِضاً عنه وتاركاً له.

على أنَّ الإنسان أيضاً ككائنٍ عاقلٍ يحتاج بحسب تكوينه الفكريّ والنَّفسيّ إلى الاطِّلاع على الخالق الَّذي هو الإله الحقّ للكون والحياة، والقيام تجاهه مقام الأدب والخضوع؛ استجابةً لشعورٍ نفسيٍّ له ينزع به إلى الغيب، وصيانةً له عن البدائل الخُرافيَّة كالأصنام، وحمايةً له عن الخطايا من أنواع الفحشاء والمنكر.

ويتمثَّل هذا القسم في العبادات الشَّرعيَّة، وهي على ضربين:

١ ـ عبادات عامَّة، مثل: ذكر الله سبحانه، وتوقيره، والثَّناء عليه، والاستعانة به.

٢ ـ عبادات خاصَّة، وهي عبادات خمس[1] توجد أصولها في الاعتقادات الرُّوحيَّة لدى مختلف الأقوام، وهي كما يلي:

١ ـ **الصَّلاة**، وهي ذكر وإذعان وخضوع لله سبحانه، وثناء عليه، يستحضر الإنسان من خلالها الله سبحانه الَّذي هو القيِّم على هذه الحياة في آناء اللَّيل والنَّهار، وتكون بمثابة إلقاء التَّحيَّة عليه في مواعيدها ـ الَّتي هي آيات كونيَّة عظيمة تحيط بمشهد الحياة الإنسانيَّة من الفجر والزَّوال والغروب ـ، يناجي الإنسان بها الله سبحانه فيما يشكوه من ضعفٍ وحاجةٍ، فتثير فيه السَّكينة، ويقترب بها من روح الحكمة والفضيلة، ويتذكَّر من خلالها الأُفق الحقيقيّ للحياة الَّذي يتجاوز هذه الدُّنيا المادّيّة ـ رغم سعتها ـ إلى ما وراء الغيب من

---

(١) وقد تُضاف إليها الزَّكاة؛ لوجوب دفعها على وجه التَّقرُّب إلى الله وإن لم تكن عبادةً بدنيَّة كالخَمس المذكورة.

وجود الله سبحانه والدَّار الآخرة.

٢ ـ **الصِّيام**، وهو إمساك عن الرَّغبات تقصُّداً، كنوعٍ من الأدب في محضر الله سبحانه، له تأثيراتٌ تربويَّة معنويَّة على الإنسان في طول اليوم، ويوجب استحضار الله سبحانه وآفاق الآخرة فيه. وقد أُوجب في الإسلام في شهرٍ محدَّد من السَّنة، فيؤدِّي إلى استمرار هذا التَّأثير المعنويّ والتَّربويّ في مجموع الشَّهر فيكون أشبه بدورة مستمرَّة لمدَّة شهرٍ واحد.

٣ ـ **الحجّ**، وهو زيارة دينيَّة للبيت الحرام والمشاعر من حوله، يجب على مَن استطاع من السَّفر مادّيّاً، وقد خصَّ الله سبحانه لنفسه بيتاً في هذا المكان، وحفَّه بمزيدٍ من التَّكريم والتَّوقير، وأوجب زيارته ليشعر الإنسان في مدَّة عمره بضيافة الله سبحانه وزيارة بيته، وهو سفر تربويٌّ ومعنويٌّ يرسِّخ في الإنسان الشُّعور بالله والتَّعلُّق به، ويستجيب لنزعته الفطريَّة في الارتباط بالخالق سبحانه وتعالى.

ويقترن بحسب السُّنَّة النَّبويَّة بزيارة المدينة المنورة؛ لاستحضار الإنسان المؤمن لنبيِّ هذا الدِّين الَّذي هو موضع القدوة والأسوة في خصاله الكريمة وخُلقه العظيم، ولهذا الاستحضار أبعاده التَّاريخيَّة من حيث استحضار المسلم للأُسس التَّاريخيَّة لهذا الدِّين.

ومن متمِّمات ذلك بحسب الآثار الموثوقة الواردة عن أئمَّة آل البيت عليهم السلام زيارة مشاهد الأئمَّة الهداة عليهم السلام.

٤ ـ **الاعتكاف**، وهو المكث في مسجد من مساجد الله سبحانه الَّتي هي محلُّ عبادته والخضوع له، فلا يخرج المرء من المسجد في مدَّة اعتكافه إلَّا لحاجة، وحيث إنَّ المساجد بيوت الله سبحانه فإنَّ الإنسان المؤمن يشعر بالله تعالى والدَّار الآخرة في تمام مدَّة المكث، وهي عبادة روحيَّة ذات أبعاد معنويَّة وتربويَّة متعدِّدة، ولا يجب الاعتكاف في الشَّرع،

ولكنَّه مستحبٌّ وراجح.

٥ ـ **تلاوة كتاب الله سبحانه**، وهو يعطي شعوراً للقارئ ـ حتَّى إذا لم يفهمه ـ بأنَّ الله سبحانه يخاطبه بالوعظ والتَّذكير والنُّصح، ممَّا يوجب استحضار الله سبحانه والدَّار الآخرة، وإذا فهمه فذلك اطِّلاع من الإنسان على رسالة الله سبحانه وتعالى إليه وإلى سائر خلقه؛ إذ كان الجميع معنيَّاً بهذه الرِّسالة. والواجب من قراءة القرآن الكريم في الشَّرع ما أُوجب في الصَّلاة، ولا تجب لذاتها في غيرها، إلَّا ما يجب أن يعتني به المرء في مقام تهذيب نفسه وتزكيته من: الاستزادة من الأعمال الصَّالحة، والوقوف على الوعظ والنُّصح والتَّذكير.

تعاليم الدِّين للإنسان تجاه الخلق

(**القسم الثَّاني**): ـ من التَّعاليم الدِّينيَّة ـ ما يكون تجاه الخلق، وهو يشتمل على مبدأين:

(**الأوَّل**): مبدأ عدم الإساءة والتَّعدِّي على الآخرين، سواء أكان هذا التَّعدِّي على النَّفس، أم على الأعضاء، أم على الجاه، أم على غير ذلك من مقوِّمات شخص الإنسان وشخصيَّته، ومن ثَمَّ حُرِّم: القتل، والسَّبُّ، والإهانة، والانتقاص، والغيبة، والسُّخرية، والنَّميمة، والغدر، والخيانة، والكذب، وغير ذلك.

(**الثَّاني**): مبدأ الإحسان إلى الآخرين، فالإحسان عمل فاضل يكون راجحاً وفق الأصل الأوَّليّ في جميع الأحوال وإلى جميع النَّاس، وقد يجب من جهة علقة عامَّة أو خاصَّة: كالإنسانيَّة، والإيمان، والقُربى، والجوار، والصَّداقة، وغير ذلك.

ويتعلَّق بهذا المبدأ جميع الأحكام الاجتماعيَّة للدِّين، لكن عنصر الإساءة والإحسان واضح في بعضها، وقد يخفى في بعضها الآخر كأحكام الأحوال الشَّخصيَّة، مثل الميراث،

أو المعاملات الجارية بين النَّاس، إلَّا أنَّ التَّأمُّل فيها يفضي إلى الوقوف على انتهائها إلى مراعاة الحقوق والمبادئ الفاضلة المنظورة من ورائها ولو على نحوٍ نوعيٍّ.

تعاليم الدِّين للإنسان فيما يتعلَّق بنفسه

(القسم الثَّالث): ـ من التَّعاليم الدِّينيَّة ـ ما يتعلَّق بالإنسان نفسه، وما يليق به من السُّلوكيَّات والتَّصرُّفات الفرديَّة والتَّربويَّة، مثل الحفاظ على النَّفس وتجنُّب إيراد الأذى البليغ بها، وتجنُّب إذلال النَّفس أمام الآخرين، والإيفاء بالاقتضاءات الفطريَّة كالأكل والشُّرب والزَّواج وغير ذلك.

ويلاحَظ أنَّ الحديث عن انقسام التَّعاليم الدِّينيَّة إلى هذه الأقسام لا يعني أنَّ ما يتعلَّق بأحدها أجنبيٌّ عن الآخر، بل كثير من التَّعاليم الدِّينيَّة تشتمل على الأقسام الثَّلاثة، إلَّا أنَّ بعض الأقسام قد يكون أبرز في بعض التَّعاليم من بعضها الآخر.

فالصَّلاة ـ مثلاً ـ أدبٌ مع الله سبحانه، وتقدير لموقعه ونعمه، ولكنَّها تؤدِّي إلى استحضار حمايته سبحانه للقيم، وإخباره عن عواقب الأعمال في النَّشأة الأُخرى، وبذلك تؤدِّي إلى تقوية روح الفضيلة في الإنسان، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّـهِ أَكْبَرُ**﴾، ومثلها سائر العبادات؛ فإنَّها آدابٌ ولياقاتٌ مع الخالق سبحانه، إلَّا أنَّها تبعث في الإنسان روح الحكمة والفضيلة وتأمُّل العواقب والآثار، كما قال سبحانه في الصِّيام[2]: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾، وقال تعالى[3] في شأن الهدي الَّذي هو من جملة شعائر الحجّ:

(١) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٢) سورة البقرة: ١٨٣.

(٣) سورة الحجّ: ٣٧.

﴿لَن يَنَالَ اللَّـهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾.

اشتمال تعاليم الدِّين على جزأين معرفيٍّ وسلوكيٍّ

والمتحصَّل ممَّا تقدَّم: أنَّ مضمون الدِّين يشتمل على جزأين: معرفيٍّ، وسلوكيٍّ:

أمَّا الجزء المعرفيّ: فهو الإنباء بالحقائق الكُبرى الدَّخيلة في مصير الإنسان بمعرفة الله سبحانه، والاطِّلاع على رسالته إلى الخلق، وتشخيص الطَّريق الصَّحيح للسُّلوك المناسب مع الاستعداد للدَّار الآخرة.

وأمَّا الجزء السُّلوكيّ: فهو التزام الإنسان بالسُّلوك الفاضل في هذه الحياة وفق ما أُودع في الضَّمير الإنسانيّ، ورعاية التَّشريع السَّليم والحكيم في المساحات الغامضة.

اتِّفاق الرِّسالات الإلهيَّة في التَّعاليم الاعتقاديَّة وأصول التَّعاليم العمليَّة

ومن الجدير بالالتفات أنَّ الرِّسالات السَّماويَّة ـ وفق نصوص القرآن الكريم ـ تتَّفق على العموم في شأن التَّعاليم الاعتقاديَّة، وهي إثبات هذه الحقائق الثَّلاث، فكلُّها تثبت إلهاً واحداً للكون والحياة، وكلُّها تثبت إعادة الإنسان في نشأةٍ أُخرى ليُجازى على أعماله، كما أنَّ كلَّها تثبت رسالات أرسلها الله تعالى إلى العباد من خلال رسلها، ورسل جاؤوا قبلها، أو سوف يأتون بعدها، وقد دعاهم فيها إلى توحيده وعبادته والعمل بالعدل والصَّلاح والاستعداد لدار الجزاء.

كما أنَّ كلَّها تشترك في أصول التَّعاليم العمليَّة من: العبادات، والدَّعوة إلى الفضيلة والمعروف، والرَّدع عن الرَّذيلة والمنكر، كما قال تعالى[1]: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾.

(١) سورة الشُّورى: ١٣.

وقد جاء ذكر التَّوحيد، والنَّشأة الأُخرى، والعبادات، والعدالة في قصص الأنبياء المذكورة في القرآن الكريم[1].

---

(١) **أمَّا التَّوحيد ونفي الشِّرك**: فهو أصل دعوة الأنبياء جميعاً.

وأمَّا اليوم الآخر: فقد جاء في قصَّة ابني آدم ﷺ: ﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**﴾ (سورة المائدة: ٢٩)، وقد جاء عن نوح ﷺ: ﴿**وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّـهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**﴾ (سورة هود: ٢٩)، وفي قوله سبحانه: ﴿**مُّلَاقُو رَبِّهِمْ**﴾ إشارة إلى الآخرة، وجاء عن نوح ﷺ أيضاً: ﴿**قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ**﴾ (سورة الشُّعراء: ١١١ ـ ١١٣) والظَّاهر أنَّ المراد بـ(الحساب) هو حساب يوم القيامة، وجاء عن نوح ﷺ أيضاً: ﴿**وَاللَّـهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا**﴾ (سورة نوح: ١٧ ـ ١٨)، وقال سبحانه عن رسول أرسله بعد نوح ﷺ: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَـذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾ (سورة المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٧)، وقال سبحانه عن إبراهيم ﷺ: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ (سورة البقرة: ١٢٦)، وقال سبحانه: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَـذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**﴾ (سورة الأعلى: ١٤ ـ ١٩)، وجاء عن شعيب ﷺ: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّـهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ (سورة العنكبوت: ٣٦)، وقال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّـهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (سورة البقرة: ٩٤)، وقال سبحانه عن قول يوسف ﷺ: ﴿**إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَهُم**

بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّـهِ مِن شَيْءٍ﴾ (سورة يوسف: ٣٧ ـ ٣٨)، وعنه ﷺ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (سورة يوسف: ١٠١)، وقال سبحانه عن قول موسى ﷺ: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٦)، وقال سبحانه عن قول مؤمنٍ من قوم فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّـهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّـهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (سورة غافر: ٤١ ـ ٤٣)، وجاء قوله تعالى لموسى ﷺ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ (سورة طه: ١٥ ـ ١٦)، وقال سبحانه عن قول قوم قارون له، وكان قارون من قوم موسى ﷺ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّـهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (سورة القصص: ٧٦ ـ ٧٧)، وقال عزَّ وجلَّ في شأن مريم ﷺ: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّـهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٤٥).

وجاء عن الصَّلاة والزَّكاة آيات عديدة عن الأنبياء السَّابقين، فجاء في شأن إبراهيم ﷺ: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٧)، وقال سبحانه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٠)، وجاء في شأن إسماعيل ﷺ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (سورة مريم: ٥٥)، وقال سبحانه عن إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٣)، وقال تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّـهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة البقرة: ٨٣)، وقال

سبحانه فيهم أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّـهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّـهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّـهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (سورة المائدة: ١٢)، وقال عزَّ وجلَّ عن شريعة موسى ﷺ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس: ٨٧)، وجاء عن موسى ﷺ قوله تعالى له: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّـهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (سورة طه: ١٤)، وقال سبحانه عن الَّذين أوتوا الكتاب: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (سورة البيِّنة: ٥)، وجاء عن عيسى بن مريم ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (سورة مريم: ٣١)، وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (سورة هود: ٨٧)، وقال سبحانه بعد ذكر عدد من الأنبياء ﷺ: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّـهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (سورة مريم: ٥٨ ـ ٥٩)، وجاء عن لقمان ﷺ: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (سورة لقمان: ١٧).

وجاء عن الصِّيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٨٣).

وجاء عن الحجّ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (سورة الحجّ: ٢٦ ـ ٢٧).

وفي الآثار الرّوائيَّة زيادات وتفاصيل في شأن عبادات الأنبياء والرُّسل ﷺ.

وأمَّا سائر التَّعاليم المتعلِّقة بالعدالة وسائر القيم الأخلاقيَّة فهي أيضاً محكيَّة في القرآن الكريم عن

نعم، قد تختلف الرِّسالات في بعض التَّفريعات التَّفصيليَّة في التَّعاليم العمليَّة ممَّا يخضع لمتغيِّرات الزَّمان والمكان.

وهذا المعنى الَّذي أكَّد عليه الإسلام لطيفٌ ورائع، فالمفروض بالرِّسالات الإلهيَّة أن تكون على هذه الصِّفة من الاتِّفاق في الأمور العقائديَّة وأصول التَّعاليم العمليَّة؛ لأنَّ مصدرها واحد، واتِّجاهها واحد، وإنَّما تأتي اللَّاحقة منها تذكيراً للسَّابقة، وتأكيداً عليها، وتفصيلاً لما أُجمل فيها حسب اقتضاء البيئة الَّتي ترد الرِّسالة فيها.

فدين الله سبحانه دين واحد من بداية خلق الإنسان حتَّى نهاية هذه الحياة، ولكن في حال مجيء رسالة جديدة إلى الإنسان فإنَّ الإذعان بهذه الرِّسالة والاهتداء بتعاليمها يكون بطبيعة الحال فقرةً إضافيَّةً معتبرةً في الإيمان بالدِّين.

فهذا رسم معالم الدِّين ومضامينه على سبيل الإجمال.

الأنبياء السَّابقين أو كتبهم في مواضع عديدة:

منها: عناوين عامَّة تكرَّر ذكرها، مثل (القسط) و(التَّزكية) و(الظُّلم) و(الفساد) و(الخبائث) و(المنكر) و(الفواحش) وغيرها.

ومنها: تعليمات خاصَّة، مثل قانون القصاص، قال سبحانه: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّـهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** (سورة المائدة: ٤٤ ـ ٤٥).

المبحث الثَّاني

كيفيَّة إثبات الرُّسل لحقَّانيَّتهم في الدِّين

أهمّيّة هذا البحث

الاهتمام بكون الإثبات بالبيِّنات الواضحة

ذكر الدَّلائل البيِّنة على صدق الرُّسل

(المرتكز الأوَّل): الاحتكام إلى العقل في منطق الإقناع

(المرتكز الثَّاني): موافقة مضامين الدِّين للعقل والضَّمير الإنسانيّ

دور مضمون الدِّين في القبول الاجتماعيّ به

(المبحث الثَّاني)

كيفيَّة إثبات الرُّسل لحقَّانيَّتهم في الدِّين

بمعنى تحديد الأدوات الَّتي جاءت في تلك الرِّسالات لإثبات حقَّانيَّة الدِّين للنَّاس المخاطبين بها.

أهمّيّة هذا البحث

وهذا بحث مهمٌّ جدَّاً؛ بالنَّظر إلى أنَّنا وإن كنَّا نهتمُّ في هذا العصر بما يثبت حقَّانيَّة تلك الرِّسالات لنا ولهذا الجيل والأجيال اللَّاحقة، ولكنَّ الوقوف على أدوات الرُّسل في إثبات صدق نبأ الرِّسالة أمرٌ نافعٌ من وجهين:

الأوَّل: أنَّه جزء مهمٌّ من مضمون الرِّسالة، فهو المحتوى المعرفيّ للرِّسالة بجنب المحتوى المضمونيّ الَّذي تمَّ توصيفه من قبل. وبذلك يصلح هذا الجزء اختباراً لمدى صدق الرِّسالة ومصداقيَّتها، فإذا كانت الأدوات المتَّخذة في الرِّسالة لإقناع النَّاس أدوات راشدة ومناسبة كان ذلك مؤيِّداً لصدق الرِّسالة. وإذا كانت تلك الأدوات تعتمد الإيهام والتَّلبيس، والخديعة، والخرافة، ونحوها لأجل إقناع النَّاس كان ذلك مؤشِّراً على عدم صدقها.

الآخر: أنَّ معرفة الأدوات المعرفيَّة الَّتي استخدمت في الرِّسالة لإقناع النَّاس في حينها يساعد على معرفة الأدوات الصَّالحة لإثبات صدق الرِّسالة لنا، من جهة الدّلالات التَّاريخيَّة لها على ما سيجيئ توضيحه في المبحث الثَّالث.

الاهتمام بكون الإثبات بالبيِّنات الواضحة

هذا، ويدلُّ القرآن الكريم ـ فيما قصَّه من أحوال الرُّسل السَّابقة، وفيما تحدَّث به في شأن النَّبيِّ ﷺ ـ على اهتمام الله سبحانه بإقامة حججٍ واضحةٍ لمجتمعاتهم حتَّى لا يبقى مجال لاختفاء حقَّانيَّة الرُّسل على أيِّ إنسانٍ عاقلٍ ورشيد في تلك المجتمعات بوجود شبهات والتباسات حقيقيَّة لديهم.

ومن ثَمَّ عُبِّر عمَّا جاء به الأنبياء لإقناع أممهم بأنَّها كانت آيات بيِّنات، كما قال تعالى[١]: ﴿**تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ**﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿**أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّـهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٣]: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ**﴾، وقال جلَّ ذكره[٤]: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾، وقال سبحانه[٥]: ﴿**وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ**﴾، إلى عشرات الآيات الأُخرى[٦].

---

(١) سورة الأعراف: ١٠١.

(٢) سورة التَّوبة: ٧٠.

(٣) سورة البقرة: ٩٢.

(٤) سورة البقرة: ٨٧.

(٥) سورة البقرة: ٩٩.

(٦) وبالتَّأمُّل في هذه النُّقطة يظهر المذاق الشَّرعيّ في أسلوب تبليغ الدِّين للآخرين، وهو إقامة الحُجَّة الواضحة عليهم، بحيث تنتفي أيَّة شبهةٍ لأيِّ إنسانٍ راشدٍ في المجتمعات الّتي يُبلَّغ فيها الدِّين، كما وتنفي

ولكن ما هي الدَّلائل البيِّنة والواضحة الَّتي جاء بها الأنبياء لإقناع أممهم بكونهم حَمَلَةً للرِّسالة الإلهيَّة إليهم؟

ذكر الدَّلائل البيِّنة على صدق الرُّسل

الَّذي يظهر من القرآن الكريم أنَّ تلك الدَّلائل تتمثَّل في مرتكزاتٍ متعدِّدة كما يلي:

١ ـ الاحتكام إلى قضاء العقل الواضح في منطق الإقناع بالدِّين.

٢ ـ موافقة مضامين الدِّين العقديَّة والعمليَّة للعقل والضَّمير الإنسانيّ.

٣ ـ اتِّصاف شخصيَّة الرَّسول في مجتمعه بصفاتٍ وطباعٍ تورث الثِّقة والاطمئنان: كالصِّدق، والطِّيبة، والصَّفاء، والاسترسال، والاعتدال النَّفسيّ والإدراكيّ.

٤ ـ المقارنة بين قدرات النَّبيّ المرسَل قبل البعثة وبين ما يتمثَّل في الرِّسالة الَّتي جاء بها، ووجود البون الشَّاسع بينهما.

٥ ـ ملاحظة اختلاف أحوال الرُّسل بعد البعثة.

٦ ـ ملاحظة تعامل النَّصّ الإلهيّ القرآنيّ مع النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

٧ ـ كيفيَّة تلقِّي الرَّسول للنَّصّ المرسل.

٨ ـ بشائر الأنبياء السَّابقين بالرَّسول الجديد.

٩ ـ التَّنبيه على معلومات وشواهد تاريخيَّة ميسَّرة تتعلَّق بالأنبياء والأقوام السَّابقين.

١٠ ـ اطِّلاع صاحب النَّصّ الرِّساليّ على كوامن الحاضر وطوارئ المستقبل فيما يتعلَّق بمستقبل الرِّسالة، والمؤمنين بها، والجاحدين لها، وسائر الأمور المتعلِّقة بها.

١١ ـ الخوارق الَّتي صدرت من الأنبياء ممَّا هو خارج عن حدود المقدرة البشريَّة.

هذه النقطة أيضاً ما ربَّما يُظنُّ من أنَّ من الجائز الدَّعوة إلى الدِّين بالجهاد والقتال من دون سبق إقامة حُجَّة بديهيَّة وواضحة على الأقوام، فلاحظ.

الاحتكام إلى العقل في منطق الإقناع

(المرتكز الأوَّل): ـ لإثبات صدق الرِّسالة ـ الاحتكام إلى العقل في منطق الإقناع والاستدلال.

وهذا أمر بيِّن بملاحظة ما جاء في القرآن الكريم في مقام محاجَّة الكفَّار والمشركين، وكذا ما جاء من الاحتجاجات للأنبياء السَّابقين على أقوامهم، فهي احتجاجاتٌ عقلانيَّة تبتني على استنهاض العقل، وإثارة الضَّمير، وتحريك الفكر، ومن ثَمَّ ذكر الإمام عليّ عليه السلام أنَّ غاية الأنبياء إثارة دفائن العقول، فقال عليه السلام[1]: ((فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بَالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْف فَوْقَهُمْ مَرْفُوع، وَمِهَاد تَحْتَهُمْ مَوْضُوع، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجَال تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَاب تُهْرِمُهُمْ، وَأَحْدَاث تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ)).

فخطاب الأنبياء هو خطاب يتحاكم في المقام الأوَّل إلى العقل السَّليم، والإدراك الرَّاشد، والفطرة المستقيمة.

ومن ثَمَّ تجد القرآن الكريم يكرِّر بعد ذكر الحُجَّة: (أفلا تعقلون، لقوم يعقلون، أفلا يتفكَّرون، لقوم يفقهون، لذوي الألباب) ونحو ذلك من التَّعابير الَّتي تسعى إلى تحفيز التَّعقُّل والإدراك.

ويتمثَّل انطلاق الدِّين في الإقناع من العقل والمنطق في أمرين:

(أحدهما): التَّنبيه في مقام النَّقد والبناء على مرجعيَّة العقل والمبادئ الموضوعيَّة في اختيار الاعتقاد الصَّحيح، واستبعاد العوامل غير الموضوعيَّة، مثل الانطلاق من تقليد الآباء والأجداد، أو الاستبعادات الأَوَّليَّة كاستبعاد عود الإنسان إلى الحياة ونحوهما، وقد

---

(١) نهج البلاغة ص: ٤٣، الخطبة: ١.

فصَّلنا دلالات النُّصوص القرآنيَّة على ذلك في البحث عن القواعد الفطريَّة العامَّة للمعرفة الإنسانيَّة والدِّينيَّة[1].

و(**الآخر**): موافقة مضامين الدِّين للعقل والضَّمير الإنسانيّ، وعدم الاستناد إلى تحريك المشاعر والعواطف وتهييجها وإثارتها، وهذا ما نصفه في الأمر الثَّاني بمزيد من الشَّرح والبيان.

إذن، كان الأساس الأوَّل في إيجاب الإيمان في الدِّين هو إقامة الحجَّة الواضحة الرَّافعة لأيَّة شبهة في صدق الرَّسول.

وأمَّا الإنذار والبشارة حتَّى الأخرويّ منهما فهما يأتيان في المقام الثَّاني لإزالة الحواجب النَّفسيَّة المانعة من الإذعان والمؤدِّية إلى الجحود؛ إذ الإنسان في كثيرٍ من الحالات لا يذعن لمقتضيات العقل الرَّاشد، والاستحقاقات الفطريَّة إذا لم يرجُ نفعاً، أو لم يحذر ضرراً، ومن ثَمَّ تجد شيوع الاستهانة بحقوق المظلومين والمستضعفين الَّذين لا رجاء لمنفعةٍ تُنال منهم، ولا حذر عن ضررٍ يقع من جهتهم، ويجد كلُّ إنسانٍ بالتَّأمُّل أنَّ مراعاة الآداب والحقوق في كثيرٍ من الموارد إنَّما تتمُّ بملاحظة دعمها بآثار إيجابيَّة مرجوَّة منها، أو بمضاعفات سلبيَّة متوقَّعة في حال عدم مراعاتها، ومن ثَمَّ اشتهر (أنَّ الحقَّ للقوَّة).

وعلى الإجمال: فإنَّ منهج الرِّسالات ليس هو طلب الإيمان بالتَّعاليم الَّتي أتوا بها من خلال الوعد والوعيد ابتداءً، بل الخطوة الأولى والأساسيَّة هي إقامة حجَّة واضحة وبديهيَّة من خلال إدراك العقل، حتَّى يظهر التَّعسُّف في رفض القبول بالرِّسالة، وسقوط المعاذير المدَّعاة، ثُمَّ مواجهة الجحود والإنكار بالتَّرغيب والتَّرهيب؛ بالنَّظر إلى أنَّ هذا الجحود ينشأ عن الرَّغبة في الاحتفاظ بمزايا مترتِّبة على الوضع الحاليّ لهؤلاء الأقوام،

---

(١) يلاحظ: القواعد الفطريَّة العامَّة للمعرفة الإنسانيَّة والدِّينيَّة ص: ٣٥٨ وما بعدها.

والحذر من أضرار تترتَّب عليهم في حال الإيمان بهذا الدِّين الجديد، فكان توفير رغبةٍ بديلةٍ، وإيجاد رهبةٍ معاكسةٍ، دخيلاً في امتصاص التَّأثُّر بتلك الرَّغبات والمحاذير. وهذا أمر واضح بملاحظةٍ جامعةٍ لسيرة الأنبياء في إبلاغ الرِّسالة الإلهيَّة وفق ما ذُكر في القرآن الكريم، ومن ثَمَّ قال سبحانه[1]: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّـهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّـهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾.

هذا، على أنَّ الوعيد العامّ في الدِّين على جحود الرِّسالة كان هو الوعيد الأخرويّ. وأمَّا الوعيد بالعذاب الدُّنيويّ فالمعهود منه ـ على العموم ـ إنَّما هو النَّحو الخارق منه بنزول عذاب الاستئصال على المكذِّبين والجاحدين، ولم يكن الموجب له مجرَّد الكفر والمعصية، بل كان مبنيَّاً وفق النُّصوص الدِّينيَّة على أحد اعتبارين:

(الأوَّل): أنَّ إرسال الرَّسول من قبل الله سبحانه كان عملاً خارقاً يتجاوز السُّنن الطَّبيعيَّة العامَّة، وهو يستتبع بطبيعة الحال وضوح الأمر للمجتمع الَّذي أُرسل إليه الرَّسول بشكل مؤكَّد للغاية ـ وفق ما كان يتضمَّنه من الدَّلائل والبيِّنات على ما سنوضحه قريباً ـ ممَّا يؤدِّي إلى أن يكون عدم تصديق الرَّسول والتَّمسُّك بالشِّرك جحوداً تعسُّفيَّاً ذميماً للغاية.

ويبدو أنَّ من السُّنن الإلهيَّة أنَّه متى عنى الله سبحانه بقوم عنايةً خارقةً في مقام هدايتهم، واستجاب لما طلبوه من الآيات، وأقام لهم الشَّواهد والبيِّنات، ثُمَّ كذَّبوه فإنَّهم يستوجبون عقاب الاستئصال والإفناء.

وعليه: فإنَّ عقاب الاستئصال في هذه الحياة لن يكون لمجرَّد الكفر والمعصية؛ إذ ليس من سنَّة الله سبحانه أن يجازي النَّاس في هذه الحياة الدُّنيا بالعذاب الخارق، ولكنَّه من

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

جهة تكذيبهم الرَّسول المدعوم بالحجَّة البالغة الَّتي لا تُبقي محلَّاً للاشتباه والإبهام في كونه مبعوثاً من قبل الله سبحانه فعلاً. وينبِّه على هذا المعنى ما دلَّ على أنَّ الله سبحانه لم يعذِّب الأقوام حتَّى يبعث إليهم رسولاً، كما قال تعالى[١]: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾، وقال عزَّ وجلَّ[٣]: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾.

(الآخر): أنَّ المكذِّبين للرُّسل ـ في كثيرٍ من الحالات ـ لم يكونوا يقتصرون على التَّكذيب، ولكنَّهم كانوا يضطهدون الرَّسول والمؤمنين على إيمانهم ويهدِّدونهم، ويفتنونهم عن دينهم، فكان هذا العقاب نوعاً من الدِّفاع عن الرُّسل المبعوثين من قبل الله سبحانه وصيانتهم عن الأذى، كما فعل فرعون في تعقُّب موسى عليه السلام وقومه، وكان قد هدَّد به من قبل، كما قال تعالى نقلاً عن فرعون[٤]: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، وقال سبحانه[٥]: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، وقال عزَّ وجلَّ[٦]: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ

---

(١) سورة الإسراء: ١٥.

(٢) سورة القصص: ٥٨ ـ ٥٩.

(٣) سورة الشُّعراء: ٢٠٨.

(٤) سورة الشُّعراء: ٢٩.

(٥) سورة إبراهيم: ١٣ ـ ١٤.

(٦) سورة الأعراف: ٨٨ ـ ٨٩.

لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّـهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّـهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّـهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّـهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

كما إنَّ قوم الرُّسل كانوا يسخرون من الوعيد الَّذي تضمَّنته رسالتهم عن الله سبحانه، ويتحدَّونهم بأن يحقِّقوا ما يوعدونه، كما جاء قوله تعالى عن قوم نوح عليه السلام[(١)]: **﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّـهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾**، وجاء قوله سبحانه عن قوم هود عليه السلام[(٢)]: **﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّـهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّـهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾**، وجاء قوله عزَّ وجلَّ عن قوم لوط عليه السلام[(٣)]: **﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّـهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾**.

هذا، على أنَّ من أقوام الرُّسل مَن لم ينزل عليهم العذاب رغم تكذيبهم إيَّاه، ومنهم قوم نبيّ الإسلام ﷺ، فقد جاء وعيدهم بعذاب الاستئصال، كما قال تعالى[(٤)]: **﴿فَإِنْ**

---

(١) سورة هود: ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) سورة الأعراف: ٧٠ ـ ٧٢.

(٣) سورة العنكبوت: ٢٩ ـ ٣٠.

(٤) سورة فُصِّلت: ١٣.

أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، ومنهم قوم عيسى ﴿عليه السلام﴾، فإنَّ الله سبحانه لم ينزل عليهم عذاباً بتكذيبهم إيَّاه، رغم أنَّه أتاهم بالبيِّنات، نعم أوعد مَن كان معه بعد طلبهم نزول مائدة عليهم من السَّماء بالعذاب الشَّديد(١)؛ ولعلَّ ذلك كان من جهة أنَّهم كانوا من أهل الكتاب، ولم يكونوا مشركين، كما لم يرد أيضاً إنزال عذاب الاستئصال على قوم فرعون بعد غرق فرعون وجنوده رغم أنَّهم كانوا على دين فرعون.

على أنَّ الَّذي يظهر بملاحظة القرآن الكريم في ذكر سيرة الأنبياء مع أقوامهم أنَّهم تعاملوا معهم بمستوى لا يوصَف من الحلم، وصبروا هم ومَن تبعهم على أنواع من الأذى، والاضطهاد، والاتِّهام، والمجادلة بالباطل، يمتدُّ أحياناً لسنين عديدة حتَّى كأنَّهم ومَن خلفهم لا يملكون تنفيذ ما أُنذروا به، كما نجد أنَّ النَّبيَّ ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ عاش بعد البعثة ثلاث عشرة سنة في مكَّة المكرَّمة يبلِّغ فيها الرِّسالة سرَّاً، ثُمَّ جهراً وهو يحتمل من الأذى الشَّيء الكثير، ولم يخرج منها إلَّا بعد أن خلعه قومه، وهمُّوا بقتله، ثُمَّ لم يسلم مِن أذاهم بعد الخروج منها، حيث لحقوه بالحروب والغزوات، ولك أن تقدِّر مدى وضوح ما جاء به ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ من رفض الشِّرك وترك الظُّلم للكفَّار والمشركين بعد هذه المدَّة الطَّويلة، وهما مبدآن بسيطان وسهلان للغاية، على أنَّهم سلموا في نهاية الأمر من عذاب الاستئصال، واكتفى منهم بعد سيطرة المسلمين على مكَّة بإظهار الإسلام.

ومَن لاحظ الأساليب القرآنيَّة في السَّعي إلى إقناع المكذِّبين بالدِّين لقضى عجباً من

---

(١) قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة المائدة: ١١٢ ـ ١١٥).

بعض تلك الأساليب في لطفها ونصحها ورقَّتها، كقوله تعالى[١]: ﴿**وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّـهُ وَكَانَ اللَّـهُ بِهِمْ عَلِيمًا * إِنَّ اللَّـهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾.

موافقة مضامين الدِّين للعقل والضَّمير الإنسانيّ

(**المرتكز الثَّاني**): ـ لإثبات صدق الرِّسالات ـ موافقة مضامين الدِّين للعقل والضَّمير الإنسانيّ، والاستشهاد بهما في تقييم الأفكار نقداً وبناءً[٢].

قد ذكرنا أنَّه لم يكن المنهج الَّذي بُعث به الأنبياء في أداء الرِّسالة الإلهيَّة إلى الخلق عَرْضَ مبادئ معيَّنة والإلزام بالإيمان بها، ورفض ما يقابلها ممَّا كان سائداً في المجتمع على أساس الوعد والوعيد الدُّنيويّ والأُخرويّ، بل كان المنهج المعتمَد الاستناد في إثبات المبادئ المعتمدة إلى أُسس عقليَّة وفطريَّة واضحة، وردّ العقائد الرَّائجة على أساس نقدٍ معقولٍ ومنصف، وهذا أمر واضح بمتابعة نصوص القرآن الكريم ومنهجه في الإقناع والرَّفض.

ومن ثَمَّ عُبِّر في الآيات الكريمة على الإجمال عمَّا جاء به الأنبياء بـ(النُّور) و(البرهان)، كما قال سبحانه[٣]: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا**﴾، وقال تعالى[٤]: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّـهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ**

---

(١) سورة النِّساء: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) الفرق بين هذا المرتكز وسابقه أنَّ المرتكز السَّابق تعرَّض للاعتماد على العقل كأداةٍ معرفيَّةٍ في مقام إثبات حقَّانيَّة الرِّسالة، وأمَّا هذا المرتكز فهو يتعرَّض لموافقة مضامين الدِّين للعقل.

(٣) سورة النِّساء: ١٧٤.

(٤) سورة المائدة: ٤٤.

شُهَدَاءَ﴾، وقال عزَّ وجلَّ[١]: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾، وقال جلَّ ذكره[٢]: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾.

وأكَّد الإمام عليّ عليه السلام في خطبه علوّ مضامين الدِّين وحقَّانيَّتها، كما قال عليه السلام[٣]: ((أرْسَلَهُ بِالدِّينِ المشْهُورِ، وَالعَلَمِ المأْثُورِ، وَالكِتَابِ المسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللاَّمِعِ، وَالأَمْرِ الصَّادِعِ، إزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَاحْتِجَاجاً بِالبَيِّنَاتِ، وَتَحْذِيراً بِالآيَاتِ، وَتَخْوِيفاً بِالمَثُلاَتِ، وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيها حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي اليَقِينِ))، وقال عليه السلام عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[٤]: ((حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ، وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ، وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَات الْفِتَنِ، وَأَقَامَ بمُوضِحاتِ الأَعْلاَمِ، وَنَيِّرَاتِ الأَحْكَامِ))، وقال عليه السلام[٥]: ((فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَى، وَبَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَى، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سِيرَتُهُ الْقَصْدُ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَكَلاَمُهُ الْفَصْلُ، وَحُكْمُهُ الْعَدْلُ))، وقال عليه السلام[٦]: ((ابتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي وَالْكِتَابِ الْهَادِي .. أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ وَدَعْوَةٍ مُتَلافِيَةٍ، أَظْهَرَ بِهِ الشَّرائِعَ الْـمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ، وَبَيَّنَ بِهِ الأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ))، وقال عليه السلام[٧]: ((طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ

---

(١) سورة التَّغابن: ٨.

(٢) سورة إبراهيم: ١.

(٣) نهج البلاغة ص: ٤٦، الخطبة: ١.

(٤) نهج البلاغة ص: ١٠١، الخطبة: ٧٢.

(٥) نهج البلاغة ص: ١٣٩، الخطبة: ٩٤.

(٦) نهج البلاغة ص: ٢٢٩ـ ٢٣٠، الخطبة: ١٦١.

(٧) نهج البلاغة ص: ١٥٦، الخطبة: ١٠٨.

مَرَاهِمَهُ، وأَحْمَى مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وَآذَانٍ صُمٍّ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ؛ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ)).

توضيح ذلك: أنَّ الأنبياء قد بُعثوا جميعاً بتعاليم عقديَّة وأخرى عمليَّة:

أمَّا التَّعاليم العقديَّة: فأساسها وجود الله سبحانه، ونفي الشُّركاء عنه. وقد كان الاحتجاج في كلا الموضوعين بالاستناد إلى العقل الواضح.

فجاء في إثبات وجود الله سبحانه الاستناد إلى معطيات هذا الكون الرَّائع، بنظمه البديع، وظواهره المذهلة الجميلة الَّتي تثير في الإنسان ـ متى تأمَّلها ـ شعوراً بديهيَّاً بكائنٍ عاقلٍ مبدعٍ وراءها، كما قال تعالى[1]: ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّـهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّـهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾، وقد تقدَّم من قبل ذكرُ نماذج من الاحتجاجات القرآنيَّة من هذا القبيل.

وجاء في نفي الشُّركاء عنه تعالى التَّنبيه على أنَّ ما عبدوه من الشُّركاء لله لا صلاحيَّة لشيءٍ منهم لأَنْ يكون إلهاً وربَّاً يُعبَد من دون الله سبحانه، فالأصنام منها هي صناعة الإنسان، فكيف يصنع الإنسان شيئاً ثُمَّ يعبده! والبشر منهم من جنس سائر النَّاس، فيجري عليهم ما يجري على سائر النَّاس من وجوه الاحتياج والفقر والفناء وغير ذلك، فكيف يكونوا ربَّاً وإلهاً للنَّاس! كما جاء عن إبراهيم ﷺ قوله لقومه[2]: ﴿**قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا**

---

(١) سورة إبراهيم: ٩ ـ ١٠.

(٢) سورة الصَّافَّات: ٩٥ ـ ٩٦.

تَنْحِتُونَ * وَاللَّـهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، وجاء عنه عليه السلام أيضاً قوله[١]: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، وجاء عنه عليه السلام أيضاً[٢]: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّـهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾، وقال تعالى[٣]: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّـهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّـهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّـهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، وقال عزَّ وجلَّ في شأن المسيح وأمِّه[٤] ـ اللذين ادُّعيت ألوهيَّتهما من قِبَل النَّصارى ـ: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ

---

(١) سورة الشُّعراء: ٦٩ ـ ٧٤.

(٢) سورة الأنبياء: ٥١ ـ ٦٣.

(٣) سورة الرَّعد: ١٦.

(٤) سورة المائدة: ٧٥ ـ ٧٦.

نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّـهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

ولم يكن جواب الكفَّار والمشركين في مقابل هذه الاحتجاجات المنطقيَّة إلَّا التَّمسُّك بعقائد الآباء والأجداد، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّـهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾، وقال عزَّ وجلَّ[3]: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّـهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾.

وهناك معانٍ أخرى حول الله سبحانه جاءت في الرِّسالات الإلهيَّة من قبيل علمه المحيط، وقدرته الواسعة، وغير ذلك ممَّا تقدَّم منّا توضيح موافقته للعقل والشَّواهد الكونيَّة في بحث صفات الإله.

وأمَّا فيما يتعلَّق بالمعاد ـ أي إعادة الإنسان إلى الحياة ـ فهو نبأ غيبيٌّ في حدِّ ذاته، ولا منفذ جازم وواضح لكلِّ النَّاس في شأن إثباته ولا نفيه، وقد جاء في الآيات الكريمة بيان الاعتبارات المقرِّبة له بالنَّظر إلى الغاية من خلق هذا الكون والإنسان، وأوضحتْ أنَّ هذه الحياة في حقيقتها فرصة اختباريَّة للإنسان ليجد كلُّ إنسان عمله وسجاياه غداً، وقد سبق توضيح ما يتعلَّق به من المنظومة الفكريَّة في بحث المعاد.

---

(١) سورة سبأ: ٤٣.

(٢) سورة البقرة: ١٧٠.

(٣) سورة المائدة: ١٠٤.

وقد كان المكذِّبون للرِّسالة يثيرون في مقابله الاستبعاد المحض لعَوْدِ الإنسان إلى الحياة بعد مماته وتفرُّق أوصاله، ويستبعدون قيام نشأةٍ أخرى غير هذه النَّشأة؛ حيث لا علامة على وجود تلك النَّشأة، وربَّما كانوا يطالبون بإعادة آبائهم كدليلٍ على إمكانيَّة ذلك.

وقد عالج القرآن الكريم هذه الاستبعادات بالتَّذكير بقدرة الله سبحانه المتمثِّلة في خلق الإنسان ابتداءً، وفي إخراج الحيّ من الميت من الأرض، وخلق السَّماوات والأرض، كما قال تعالى[1]: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّـهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقال عزَّ وجلَّ[3]: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، وقال جلَّ ذكره[4]:

(١) سورة الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢.

(٢) سورة المؤمنون: ٣٥ ـ ٣٨.

(٣) سورة يس: ٧٧ ـ ٨٢.

(٤) سورة الرُّوم: ٢٧.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وأمَّا التَّعاليم العمليَّة فهي على أقسام:

قسم كان عملاً عباديَّاً لله سبحانه[١] تأدُّباً معه وشكراً لإنعامه؛ إذ هو صاحب النِّعمة على الإنسان، وهو بديل عن الأعمال العباديَّة تجاه الأصنام الَّتي كانت تُعبَد في تلك المجتمعات، فيتفرَّع على إلغاء عبادة الأصنام، كما قال سبحانه[٢]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّـهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وقال تعالى[٣]: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، وقال عزَّ من قائل[٤]: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقال جلَّت آلاؤه[٥]: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، وقال سبحانه[٦]: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وقال تعالى[٧]: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقسم يتعلَّق بمراعاة العدل بأداء الحقوق، وكان الاحتجاج في مقام إثباتها بقضاء

---

(١) يشمل المنظور بهذا الكلام أصل الإقرار بالله سبحانه وتعالى.

(٢) سورة البقرة: ١٧٢.

(٣) سورة الأعراف: ١٠.

(٤) سورة النَّحل: ١٤.

(٥) سورة المؤمنون: ٧٨.

(٦) سورة النَّمل: ٧٣.

(٧) سورة القصص: ٧٣.

الضَّمير الوجدانيّ بها، كما تشير إليه عناوينها من قبيل: المعروف والمنكر، والحسنة والسَّيِّئة، والصَّلاح والفساد، والخير والشَّرّ، والعدل والظُّلم، ونحو ذلك[1].

---

(١) كما قال تعالى عن القصاص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ١٧٨)، وقال سبحانه عن الوصيَّة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٨٠)، وقال عزَّ وجلَّ عن الأزواج: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (سورة البقرة: ٢٢٨)، وقال جلَّ ذكره: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٢)، وقال سبحانه عن الإنفاق على المطلَّقات: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّـهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٣)، وقال تعالى عن زواج المتوفّى عنها زوجها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٤).

وقال سبحانه عن كتابة الدَّين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّـهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (سورة النِّساء: ٥٨)، وقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة النَّحل: ٩٠)، وقال جلَّ جلاله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ

بل جعل تبنِّي الدِّين للقيم الأخلاقيَّة دليلاً على صدق النُّبوَّة، كما قال تعالى(١): ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾.

وقسم يتعلَّق بسائر القيم الأخلاقيَّة الَّتي هي أيضاً مصاديق للعناوين المحمودة أو المذمومة المتقدِّمة كعنوان المعروف والمنكر، كما جاء نهي لوط ﷺ قومه عن الفاحشة منبِّهاً على أنَّ قانون الخلقة يقتضي أنَّ الرَّجل خُلق للأنثى، كما خُلقت الأنثى للرَّجل، كما قال تعالى(٢): ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّـهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا**

الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّـهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الحجرات: ٩)، وقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّـهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّـهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّـهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ (سورة النِّساء: ١٣٥)، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّـهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّـهَ إِنَّ اللَّـهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة المائدة: ٨)، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّـهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (سورة الأنعام: ١٥٢)، إلى غير ذلك من الموارد الكثيرة.

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٢) سورة العنكبوت: ٣٦، وجه الاستشهاد بالآية أنَّ الفساد في الأرض يشير إلى الأفعال المنكرة من قبيل الظُّلم والاعتداء على الآخرين، كما هو الحال في سائر الآيات الَّتي تذكر الفساد في الأرض، لاحظ ـ مثلاً ـ (سورة البقرة: ٢٥٠).

فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وقال سبحانه في قوم لوط ﴿ﷺ﴾[1]: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ**﴾، وقال عزَّ وجلَّ عنهم أيضاً[2]: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾.

وقسم يتعلَّق بإلغاء الخرافات الَّتي كانوا يلتزمون ويُلزِمون مجتمعاتهم بها، كما تشير إلى ذلك آية الأعراف المتقدِّمة الَّتي جُعلت من مزايا النَّبيِّ ﷺ وشواهد صدقه، حيث قال عزَّ وجلَّ[3]: ﴿**يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾.

وحيث كانت الحكمة المنظورة في التَّشريع ممَّا لا يتأتَّى إدراكها للفهم العامّ في جملة من الموارد، حتَّى أنَّه لو ذكرت لهم لم يكن نافعاً، نجد تعقيب التَّشريع بأنَّ الله سبحانه (عليم) و(حكيم)، للدّلالة على أنَّ هناك وجهاً ملحوظاً من الحكمة فيه، وليس أمراً اعتباطيَّاً أو تحكُّماً محضاً، كما قال سبحانه بعد ذكر ميراث الوالدين والأولاد وجعل حصَّةٍ أكبر للأولاد[4]: ﴿**آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾.

---

(١) سورة الشُّعراء: ١٦٠ ـ ١٦٦.

(٢) سورة الأعراف: ٨٠ ـ ٨٢.

(٣) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٤) سورة النِّساء: ١١.

وهكذا كان دفاع الدِّين عن تعليماته في المجتمعات الَّتي بُعث فيها الأنبياء ﷺ كلّها على أساس استنطاق العقل، واستشهاد الضَّمير، واقتضاء المنطق، ولن تجد أسلوباً متعسِّفاً في فرض أيِّ تشريعٍ أو تعليمٍ ـ كما شرحنا ذلك في موضع آخر من هذه الأبحاث ـ.

دور مضمون الدِّين في القبول الاجتماعيِّ به

وإذا لاحظنا تاريخ الإسلام نجد شواهد عديدة على دور المضمون النَّاصع للدِّين في القبول به ولا سيَّما توصيته بمكارم الأخلاق، وفيما يلي شواهد منها:

١ ـ جاء في قصَّة بدء إسلام الأنصار عن رافع (أنَّه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتَّى قدما مكَّة، فلمَّا هبطا من الثَّنيَّة، رأى رجلاً تحت شجرة، قال: وهذا قبل خروج السِّتَّة من الأنصار، فلمَّا رأيناه قلنا نأتي هذا الرَّجل لنستودعه راحلتنا حتَّى نطوف بالبيت، فجئنا فسلَّمنا عليه تسليم أهل الجاهليَّة، فردَّ علينا تسليم أهل الإسلام، وقد سمعت بالنَّبيّ ﷺ، فأنكرنا فقلنا مَن أنت؟ قال: انزلوا، فنزلنا، فقلنا: أين هذا الرَّجل الَّذي يدَّعي ما يدَّعي ويقول ما يقول؟ قال: أنا هو، قلنا: اعرض علينا الإسلام، فعرض، وقال: مَن خلق السَّماوات والأرض والجبال؟ قلنا خلقهنَّ الله عزَّ وجلَّ. قال: فمَن خلقكم؟ قلنا: الله عزَّ وجلَّ. قال: فمَن عمل هذه الأصنام الَّتي تعبدون؟ قلنا: نحن. قال: الخالق أحقُّ بالعبادة أو المخلوق؟ قلنا: الخالق. قال: فأنتم أحقُّ أن تعبدوا ربَّكم وأنتم عملتموهن، والله أحقُّ أن تعبدوه من شيءٍ عملتموه، وأنا أدعوكم إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ، وشهادة ألَّا إله إلَّا الله، وأنِّي رسول الله، وصلة الرَّحم، وترك العدوان وإن غضب النَّاس. فقالا: لو كان هذا الَّذي تدعو إليه باطلاً لما كان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق..)[1].

٢ ـ وجاء عن ابن عبَّاس في حكاية إسلام أبي ذرّ وقومه (غفار)، قال: (لمَّا بلغ أبا ذرٍّ

---

(١) سُبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد ج: ٣، ص: ١٨٩ ـ ١٩٠.

مبعث رسول الله ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذ الوادي فاعلم لي علم هذا الرَّجل الَّذي يزعم أنَّه نبيٌّ يأتيه الخبر من السَّماء، فاسمع من قوله ثُمَّ ائتني. فانطلق الآخر حتَّى قدمه، وسمع من كلامه، ثُمَّ رجع إلى أبي ذرٍّ، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشِّعر، فقال: ما شفيتني ممَّا أردت. فتزود، وحمل شنة له فيها ماء، حتَّى قدم مكَّة، فأتى المسجد فالتمس رسول الله ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتَّى أدركه بعض اللَّيل اضطجع فرآه عليّ فعرف أنَّه غريب.. فقال: ألا تحدثني بالَّذي أقدمك؟.. فأخبره، قال: .. فإذا أصبحت فاتبعني .. حتَّى تدخل مدخلي .. فانطلق يقفوه حتَّى دخل على النَّبيِّ ﷺ ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانه)[1].

٣ ـ وجاء في حكاية قومٍ من وجوه بني شيبان بن ثعلبة مثل مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، ومثّنى بن حارثة، والنُّعمان بن شريك، أنَّهم لَّما قدموا على رسول الله ﷺ قال مفروق لرسول الله ﷺ: (إلى مَ تدعو إليه يا أخا قريش؟ فتقدَّم رسول الله ﷺ فقال: أدعو إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأنِّي رسول الله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإنَّ قريشاً قد ظاهرت على أمر الله، وكذَّبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحقِّ، والله هو الغنيّ الحميد. فقال مفروق: وإلى مَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّـهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾. فقال مفروق: وإلى مَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ**

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير ج: ١، ص: ٤٤٧.

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، والله لقد أفك قوم كذَّبوك، وظاهروا عليك)[١].

٤ ـ وجاء في السِّيرة النَّبويَّة عن عديٍّ بن حاتم، قال: (بُعث رسول الله ﷺ بالنُّبوَّة وما أعلم أحداً من العرب كان أشدُّ بغضاً ولا كراهيَّةً له منِّي حتَّى لحقت بالرُّوم، فلمَّا بلغني ما يدعو إليه من الأخلاق الحسنة وما قد اجتمع له من النَّاس ارتحلت حتَّى أتيته وعنده صهيب وسلمان وبلال، فرفع رسول الله ﷺ رأسه فنظر إليّ فقال: يا عديّ بن حاتم أسلم تسلم.. فقلت: وما الإسلام؟ قال: تشهد أن لا إله إلَّا الله وأنِّي رسول الله..)[٢].

٥ ـ وجاء في حكاية سفانة بنت حاتم الطَّائيّ ـ الَّذي يُضرب به المثل في الكرم ـ أنَّها لمَّا جيء بها إلى النَّبيِّ ﷺ بعد القتال بين قومها وبين المسلمين قالت للنَّبيِّ ﷺ: (يا محمَّد إنْ رأيت أنْ تخلي عنِّي ولا تشمت بي أحياء العرب، فإنِّي ابنة سيِّد قومي، وإنَّ أبي كان يحمي الذّمار، ويفكُّ العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضَّيف، ويطعم الطَّعام، ويفشي السَّلام، ولم يردّ طالب حاجة قطّ، وأنا ابنة حاتم طيء. فقال النَّبيّ ﷺ: يا جارية هذه صفة المؤمنين حقَّاً، لو كان أبوك مؤمناً لترحّمنا عليه، خلّوا عنها فإنَّ أباها كان يحبُّ مكارم الأخلاق والله تعالى يحبُّ مكارم الأخلاق، فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، والله يحبُّ مكارم الأخلاق؟ فقال رسول الله ﷺ: والَّذي نفسي بيده لا يدخل الجنَّة أحد إلَّا بحسن الخُلق)[٣].

---

(١) الرَّوض الأنف في تفسير السِّيرة النَّبويَّة ج: ٢، ص: ١٨١ـ ١٨٢.

(٢) سيرة ابن إسحاق ج: ٥، ص: ٢٦٧.

(٣) السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير ج: ١، ص: ١٠٩.

انتخاب الرَّسول بشخصيَّة ومؤهِّلات تساعد على تصديق الرِّسالة

(المرتكز الثَّالث): ـ من مرتكزات إثبات صدق الرُّسل في الدِّين ـ هي خصائص لوحظ وجودها في شخصيَّة الرَّسول:

إنَّ من العناصر المهمَّة المساعدة على تصديق الرَّسول هي شخصيَّة الرَّسول وصفاته، وهذا أمر أُخذ في الدِّين بنظر الاعتبار وفق النُّصوص الدِّينيَّة، ونحن نركِّز في هذا السِّياق بشكل أكثر على نموذج النَّبيّ المرسَل في الإسلام ﷺ، وهو يسري على آخرين من الأنبياء عليهم السلام حسب دلالة النُّصوص.

فقد دلَّت النُّصوص الدِّينيَّة على أنَّ اختيار الرَّسول من بين النَّاس لم يكن اعتباطيَّاً، بل كان لصفاتٍ تؤهِّله لأداء الرِّسالة، وتكون الرِّسالة معها أقرب إلى التَّصديق والإقناع، وأبعد عن الشَّكِّ والرِّيبة والتَّرديد، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّـهِ اللَّـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّـهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾، وقال عزَّ وجلَّ[3]: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّـهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾، وقال جلَّ جلاله[4]: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ**

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٣) سورة إبراهيم: ٤.

(٤) سورة الزُّخرف: ٣١ ـ ٣٢.

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وقال تعالى[1]: ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾.

أنواع الصِّفات الَّتي لوحظ وجودها في النَّبيِّ المرسَل

هذا، والصِّفات الَّتي لوحظ وجودها في النَّبيِّ المرسَل على ضربين:

(الأوَّل): صفات تساعد على تصديقه، وتنفي عنه الشَّكَّ والرِّيبة والتَّرديد، مثل اشتهاره بالصِّدق والسَّلامة.

(الآخر): صفات أخرى تساعد على أدائه للرِّسالة من قبيل التَّأهُّل المعنويّ للرَّسول من خلال تطلُّعه إلى معرفة الحقيقة، واتِّصافه بروح الأدب والخضوع تجاه الله سبحانه، وكذلك اتِّصافه بالحلم والصَّبر؛ لأنَّ الله سبحانه لم يقصد أن يبعث برسالة تهديدٍ يأمر فيها بالإيمان بها فوراً، وإلَّا أنزل العذاب على مَن لم يستجب لهذا الإنذار، كما يفعل ذلك بعض الخصوم بالنِّسبة إلى البعض الآخر، بل كانت عمليَّة إرسال الرُّسل ذات بُعدٍ تربويٍّ في المقام الأوَّل، فتحتاج إلى: حسن الأداء، والحلم، والصَّبر، والعفو، والتَّغاضي، والحكمة، والثُّبات، والنُّصح، والحرص على الإرشاد، والهداية، والصَّلاحيَّة للوقوع في موضع القدوة.

وما هو محلُّ اهتمامنا في هذا البحث هو الضَّرب الأوَّل الَّذي يرفع الشُّبهة في صدق الرِّسالة، على أنَّ كثيراً من الصِّفات واجد لكلا البُعدين، فهي من جهة تساعد على تصديق الرَّسول، ومن جهة أخرى تمثِّل مؤهِّلاً لحمل الرِّسالة.

---

(١) سورة الأعراف: ٦٣.

ذكر إجماليٌّ للصِّفات المساعدة على تصديق الرَّسول

وفيما يلي ذكر جملة من الصِّفات الَّتي لوحظ وجودها في النَّبيِّ المرسَل كي يستوجب وثوق النَّاس بصدقه وفق المنظور الدِّينيّ، وهي ثماني صفاتٍ:

١ ـ الاهتمام بوضوح عناصر شخصيَّة الرَّسول وطبيعة سلوكيَّاته العامَّة والخاصَّة.

٢ ـ اختيار الرَّسول من صميم المجتمع المبعوث إليه.

٣ ـ اتِّصاف الرَّسول بالصِّدق وطيب النَّفْس والصَّفاء الرُّوحيّ.

٤ ـ مصداقيَّة الرَّسول فيما يبلِّغه من الرِّسالة.

٥ ـ اتِّصاف الرَّسول بمستوى مناسب من مكارم الأخلاق.

٦ ـ اتِّصاف الرَّسول بالاعتدال النَّفسيِّ ورجاحة العقل.

٧ ـ بُعد الرَّسول عن طلب الخوارق والسِّحر والشَّعوذة.

٨ ـ بُعد الرَّسول قبل البعثة عن السَّعي في الجاه والمكانة أو الإصلاح الاجتماعيِّ.

مأخذ إثبات صفات الرَّسول من المنظور الدِّينيّ

وقد يقول قائل: إنَّه ما هو الطَّريق إلى إثبات واجديَّة الرُّسل ـ ومنهم رسول الإسلام ﷺ ـ لهذه الصِّفات؟ ومجرَّد ادِّعاء ذلك في نصوص الدِّين لا يفي بإثباته؛ لأنَّ هذه النُّصوص إنَّما جاء بها الرَّسول نفسه، فنَقْلُه كلاماً عن الله سبحانه في مديح نفسه غيرُ نافعٍ في الوثوق بصدق هذا المديح.

والجواب عن ذلك:

(أوَّلاً): إنَّ جملةً من هذه الصِّفات هي بديهيَّة من المنطلق التَّاريخيّ، بمعنى أنَّ النَّظر في مجمل التَّاريخ المرويّ يؤدِّي إلى وضوح اتِّصاف النَّبيّ بتلك الصِّفات، مثل كون النَّبيّ من القوم الَّذين أُرسل إليهم، واتِّصافه بجملةٍ من مكارم الأخلاق وبالصِّدق والطِّيب قبل

الرِّسالة وبعدها، وكذلك بالاعتدال النَّفسيّ ورجاحة الأخلاق، إلى غير ذلك من الصِّفات.

و(**ثانياً**): إنَّ النَّصوص القرآنيَّة الَّتي تتحدَّث عن خصال النَّبيّ ﷺ وما تتمثَّل فيه تلك الخصال من الحوادث المختلفة إنَّما نزلت نزولاً تدريجيَّاً مرافقاً لتلك الحوادث، كما هو واضح في تاريخ نزول القرآن الكريم ـ وهو محلُّ إقرار عامَّة الباحثين حول الإسلام حتَّى من غير المسلمين ـ، فالقرآن الكريم نزل منذ بعثة النَّبيّ ﷺ إلى وفاته طوال عشرين سنة ونيّف مرافقاً مع أحداث يسجِّلها ويعلِّق عليها في مشهدٍ اجتماعيٍّ عامٍّ، وليس نصَّاً مكتوباً جاهزاً نقله النَّبيّ ﷺ دفعةً واحدة، وبذلك يكون له قيمة تاريخيَّة في إثبات وقوع تلك الحوادث، وصواب توصيفاتها، والإشارة إلى الأجواء الَّتي نزل النَّصُّ فيها ممَّا تفصِّلها الآثار الواردة في شأن نزول الآيات الملائمة مع سياقها، وهذا أمر سيأتي مزيدُ توضيحٍ له في المبحث الثَّالث.

وعليه: فلنعد إلى بيان ثبوت الصِّفات المتقدِّمة للرَّسول المؤدِّي للرِّسالة الإلهيَّة.

الاهتمام بوضوح عناصر شخصيَّة الرَّسول وطبيعة سلوكيَّاته العامَّة والخاصَّة

(**الصِّفة الأولى**): الاهتمام بوضوح عناصر شخصيَّة النَّبيّ المرسل للمجتمع بكونه رجلاً اجتماعيَّاً مرتبطاً بالنَّاس، متفاعلاً معهم، مقترناً بهم، ولا يضيق ذرعاً باطِّلاع النَّاس على أحواله، فيكون بذلك أبعد من الشُّبهة والرِّيبة.

بل وقع الاهتمام بأن تكون حياة الرَّسول في بيته وأسرته واضحةً ومعلومةً للنَّاس، حتَّى نزل في شؤونه تلك قرآن يُتلى؛ ليكون القرآن مرآةً كاملةً عن حياة النَّبيِّ ﷺ، وتكون حياته صفحةً مكشوفةً للنَّاس لا غموض فيها، حتَّى يكون أقرب إلى الثِّقة والاطمئنان، ولا يكون حال الرَّسول حال كثير من الرُّؤساء الآخرين ممَّن يكون له وضعان مختلفان في

الأخلاق والسُّلوك: وضع مع النَّاس، ووضع آخر في شؤونه الشَّخصيَّة من أمورٍ أُسريَّة، وعلاقات صداقة، ومعاشرة خاصَّة، وغير ذلك. وبذلك يطرأ الغموض والإبهام في مدى تكلُّفه وتصنُّعه فيما يبديه ويقوله، أو اعتماده على آخرين في إعداد ما يذكره ويوجِّه به، ويتطرَّق إليه احتمال المكر والتَّدبير والخديعة.

ومن أمثلة بيان أحواله الخاصَّة في نصوص قرآنيَّة ما يلي:

فقد حرَّم النَّبيُّ ﷺ على نفسه شيئاً في قضيَّة أُسريَّة فجاء فيه(١): ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّـهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّـهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّـهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾.

ومرَّةً أخرى أسرَّ إلى بعض أزواجه حديثاً فبثَّته لزوجةٍ أخرى ممَّا أدَّى إلى تأذِّي النَّبيِّ ﷺ، فجاء الوحي(٢): ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّـهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّـهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّـهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا**﴾.

وجاء مرَّةً ثالثةً بمناسبة سلوكيَّات من بعض أزواجه(٣): ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّـهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا**

---

(١) سورة التَّحريم: ٢.

(٢) سورة التَّحريم: ٣ ـ ٥.

(٣) سورة الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩.

عَظِيمًا﴾.

وجاء مرَّةً رابعةً فيما يشبه ذلك أنَّ الصَّحابة كانوا يدخلون عليه ﷺ في بيته، ويطيلون المكث عنده من غير حاجةٍ، ويتحدَّثون مع نسائه بما كان ﷺ يضيق منه، فجاء قوله سبحانه[1]: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَـكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّـهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّـهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّـهِ عَظِيمًا**﴾.

إذن، القرآن الكريم مرآةٌ عاكسةٌ لشخصيَّة النَّبيِّ ﷺ في جميع أحواله، ومزيل عند استنطاقه لأيِّ غموض في شخصيَّته ﷺ.

اختيار الرَّسول من صميم المجتمع المبعوث إليه

(**الصِّفة الثَّانية**): أن يكون المبعوث رجلاً من المجتمع المبعوث إليه، وليس وافداً عليهم، كما كان أنبياء بني إسرائيل كموسى وعيسى عليهما السلام منهم، وكان موسى المبعوث إلى فرعون قد لبث عنده[2] أيضاً، وكان نبيّ الإسلام ﷺ الَّذي بُعث أوَّلاً إلى مكَّة وما حولها من الجزيرة العربيَّة من جملة قريش الَّتي هي أبرز العشائر العربيَّة وأوسطها وأشهرها.

وهذه الصِّفة ذات إيجابيَّات عديدة، من أهمِّها أنَّها توجب أن يتَّصف الرَّسول بالوضوح، وابتعاد أمر الرِّسالة عن الرِّيبة والغموض؛ فإنَّ كون الرَّسول من القوم الَّذين

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٣.

(٢) كما جاء عن فرعون: ﴿**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة الشُّعراء: ١٨ ـ ١٩).

أُرسِل إليهم يجعله واضحاً في: أصله، ونشأته، وخصاله، واهتماماته، ونصحه لدى قومه، كما هو حال الولد في داخل الأسرة حيث تكون نشأته وشؤونه عموماً واضحةً لأهله، والعشيرة في المجتمع القبليّ أشبه بالأسرة، فلا يخفى حال أولادها على رجالها وأهل الحلّ والعقد فيها، كما هو واضح لَمَن اطَّلع على أحوال هذه المجتمعات، وطبيعة العلاقة الاجتماعيَّة بين أفراد العشيرة فيها.

إذن، كون الرَّسول شخصاً معروفاً من المجتمع نفسه يؤدِّي إلى معرفة المجتمع: لصفاته، وتوجُّهاته، وطموحه، وكوامنه، وقدراته النَّفسيَّة، لاسيَّما أنَّ الرَّسول عموماً لم يكن صبيَّاً ولا مراهقاً، بل نجد في مثل حالة نبيّ الإسلام ﷺ كون بعثته في الأربعين من عمره، وهذا ما يؤدِّي إلى اكتمال عناصر شخصيَّته الفرديَّة والاجتماعيَّة، واتِّصافها بالوضوح والجلاء لدى المجتمع العامّ.

وهذه النُّقطة بالذَّات ـ أعني اتِّصاف حال الرَّسول ﷺ ونشأته وحياته بالوضوح العامّ ـ أمرٌ كان ملحوظاً في اختيار الرَّسول ﷺ؛ لأنَّ طبيعة العمل المناط به ـ وهي نقل رسالةٍ عن الله سبحانه ـ أمرٌ يتَّصف بالغموض للمجتمع العامّ، حول كيفيَّة اتِّصال البشر بالله سبحانه واستمداده منه، فكان من الضَّروريّ في مقياس الحكمة أن يُجعل الرَّسول شخصاً تكون نشأته، وصفاته، وعلاقاته، ونشاطاته معروفةً للجميع من خلال طبيعته في نفسه، وعلاقاته الأسريَّة والعشائريَّة والاجتماعيَّة.

ومن ثَمَّ اختير أن يكون الرَّسول من القوم المبعوث إليهم، كما قال تعالى عن نوحٍ عليه السلام(١): ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ**﴾، وقال سبحانه

---

(١) سورة الأعراف: ٦٣.

عن قوم هود ﷺ[١]: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾، وقال عزَّ من قائل[٢]: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، وقال جلَّت آلاؤه[٣]: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، وقال تعالى[٤]: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقال سبحانه[٥]: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، وقال عزَّ من قائل[٦]: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، وقال جلَّ ذكره[٧]: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وقال سبحانه[٨]: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ..﴾، وقال تعالى[٩]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾، وقال عزَّ من قائل[١٠]: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

وقد جاء التَّنبيه على تأثير هذه النُّقطة في الوثوق بقول الرَّسول، كما قال تعالى[١١]: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي

---

(١) سورة الأعراف: ٦٩.

(٢) سورة هود: ٥٠.

(٣) سورة هود: ٦١، ولاحظ سورة النَّمل: ٤٥.

(٤) سورة هود: ٨٤، ولاحظ سورة العنكبوت: ٣٦.

(٥) سورة البقرة: ٥٤.

(٦) سورة الأعراف: ٥٩.

(٧) سورة يونس: ٧٤.

(٨) سورة النَّمل: ٥٤.

(٩) سورة الرُّوم: ٤٧.

(١٠) سورة الزُّخرف: ٢٦.

(١١) سورة يونس: ١٥ـ ١٦.

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاءَ اللَّـهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

تأثير كون الرَّسول من القوم المبعوث إليهم في الثِّقة به

ومن إيجابيَّات كون النَّبيّ المرسل من القوم الَّذين أُرسلت الرِّسالة إليهم أنَّ ذلك مدعاة للثِّقة به منهم، وعدم إساءة الظَّنِّ به من قبلهم؛ لأنَّ مصلحة الرَّسول مرتبطةٌ بمصلحة قومه بطبيعة الحال، وفي مثله يصدق المثل العربيّ السَّائد: (الرَّائد لا يكذب أهله)[1]، والمراد بـ(الرَّائد) مَن يبعثه القوم لتحرِّي مواطن الكلأ والماء، فهو إذا أخبرهم بوجودهما في مكان ما لكي يتحرَّكوا إليه مع خيمهم ودوابِّهم فالمتوقَّع صدقه؛ لارتباط مصلحته بمصلحتهم، وليس هناك من مصلحة للرَّائد في أن يكذب على قومه، فالحال في النَّبيِّ المرسل مع قومه كذلك[2].

---

(١) يلاحظ: جمهرة الأمثال ج: ١، ص: ٤٧٤.

(٢) وقد قيل: إنَّ ذلك هو الموجب لإيجاب نفْر طائفةٍ من كلِّ قومٍ إلى المدينة ليتفقَّهوا في الدِّين ولينذروا قومهم، كما قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾** (سورة التَّوبة: ١٢٢).

وجاء في نهج البلاغة (ص: ١٥٧، الخطبة: ١٠٨) قول الإمام عليّ عليه السلام يحثُّ النَّاس على تصديقه: ((فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، واسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ، وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ))، وقال عليه السلام أيضاً (ص: ٢١٥، الخطبة: ١٥٤) يحثُّ على اتِّباع أهل البيت عليهم السلام: ((فلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيَحْضِر عَقْلَهُ))، وجاء فيه أيضاً (ص: ٢٤٤ ـ ٢٤٥، الخطبة: ١٧٠): (ومن كلام له عليه السلام في وجوب اتِّباع الحقِّ عند قيام الحجَّة كلَّم به بعض العرب، وقد أرسله قومٌ من أهل البصرة لَّما قرب عليه السلام منها ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجمل لتزول الشُّبهة من نفوسهم، فبيَّن له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنَّه على الحقِّ.

ثُمَّ قال له: ((بايع)).

وممَّا يعبِّر عن تعلُّق النَّبيِّ المرسل بقومه لغته وأسلوبه في دعوة قومه، ومشاعره تجاههم ممَّا يدلُّ على الحرص عليهم والنُّصح لهم، كما قال سبحانه(١): ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وقال تعالى(٢): ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، وقال عزَّ وجلَّ(٣): ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّـهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، وقال جلَّ ذكره(٤): ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّـهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّـهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

اهتمام الإسلام بكون الرَّسول من أوسط قريش ومن فرع بني هاشم خاصَّة

هذا، وقد اختير في رسالة الإسلام أن يكون النَّبيّ المرسل من قريش، وهم من ذرِّيَّة إبراهيم ﵇ ـ الَّذي كان صاحب البيت الحرام وبانيه ـ؛ لأنَّ قريش كانت لُبّ العرب

فقال: إنِّي رسول قوم، ولا أُحدِث حدثاً حتَّى أرجع إليهم.

فقال ﵇: ((أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلَإِ وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إلى الْمَعَاطِشِ وَالْـمَجَادِبِ، مَا كُنْتَ صَانِعاً؟)).

قال: كُنْتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إلى الْكَلَإِ وَالْمَاءِ.

فَقَالَ لَهُ (ع): ((فَامْدُدْ إذاً يَدَكَ)).

فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَالله مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ ﵇).

وفي تاريخ الطَّبريّ (ج:٤ ص:٢٩٧) أنَّ مسلم بن عقيل قد كان كتب إلى الحسين قبل أن يُقتل.. (أمَّا بعد، فإنَّ الرَّائد لا يكذب أهله، إنَّ جمع أهل الكوفة معك، فأقبِل حين تقرأ كتابي، والسَّلام عليك).

(١) سورة الكهف: ٦.

(٢) سورة الشُّعراء: ٣.

(٣) سورة فاطر: ٨.

(٤) سورة التَّوبة: ٨٠.

ووسطه الَّذي يعترف لها العرب بالمكانة والحسب والنَّسب وتستقطب الأنظار، كما كان موطنها ـ وهي مكَّة ـ بمثابة العاصمة للجزيرة العربيَّة؛ ومن ثَمَّ عُبِّر عنها بـ(أمِّ القرى) ـ وهو أمر مهمٌّ في مقاييس التَّلقِّي الاجتماعيِّ عند العرب المعنيِّين بالأحساب والأنساب ـ.

ومن ثَمَّ كان المنفذ لتغيير المجتمع في الجزيرة العربيَّة أن يُبعث رجلٌ من هذه القبيلة لتبليغ الرِّسالة إليها أوَّلاً، ثُمَّ لسائر العرب والنَّاس، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾، ولو اختير النَّبيُّ ﷺ من عشيرةٍ أخرى ربَّما لم ترضخ لها سائر القبائل حتَّى مع بذل الجهود الَّتي بُذلت لاحقاً، وهذا واضح وفق المقاييس الاجتماعيَّة.

وقد اختير أن يكون النَّبيُّ ﷺ من فرع بني هاشم من قريش، وهو فرع كان معروفاً بين قريش بالشَّرف والفضيلة والسُّؤدد ومكارم الأخلاق[2]، ولم يكن من الفروع الخاملة، ولا المعروفة بالدَّهاء والمكر والحيلة والسِّياسة ـ كما كان الحال في فرع بني أميَّة من فروعها ـ وذلك كلُّه كان مساعداً على تصديق الرِّسالة.

---

(١) سورة الشُّعراء: ٢١٤.

(٢) وإلى ذلك أشار الإمام عليّ عليه السلام في بعض خطبه، حيث قال: ((حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ الله سُبْحَانَهُ إِلَى مُحَمَّد ﷺ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ الأَرُومَاتِ مَغْرِساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ. عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الأُسَرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ، وَثَمَرٌ لاَ يُنَالُ)) (نهج البلاغة ص: ١٣٩، الخطبة: ٩٤)، وقال عليه السلام أيضاً: ((مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فِي مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ السَّلاَمَةِ)) (نهج البلاغة ص: ١٤١، الخطبة: ٩٦)، وقال عليه السلام أيضاً: ((اخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الأَنْبِيَاءِ، وَمِشْكَاةِ الضِّيَاءِ، وَذُؤَابَةِ الْعَلْيَاءِ، وَسُرَّةِ الْبَطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ)) (نهج البلاغة ص: ١٥٦ الخطبة: ١٠٨)، وقال عليه السلام أيضاً: ((أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ، أَغصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ، عَلا بِهَا ذِكْرُهُ، وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ)) (نهج البلاغة ص: ٢٢٩ ـ ٢٣٠، الخطبة: ١٦١).

هذا، ولم يُختَر أن يكون ﷺ من مشايخ أصحاب الحلِّ والعقد، والجاه، والمال الكثير من قومه ـ كما اقترحه بعض المشركين في قولهم[1]: ﴿**لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ ـ؛ إذ كان المراد أن يكون تصديقه على أساس عوامل موضوعيَّة ـ كالَّتي سبق وصفها ـ وليس من جهة المكانة والجاه والمال، فيكون قبوله مشوباً بالعوامل غير الموضوعيَّة، وكان يكفي من الجاه كونه من وسط قريش وفرع بني هاشم منها.

الاهتمام باتِّصاف النَّبيِّ المرسل بالصِّدق والطِّيبة والصَّفاء

(الصِّفة الثَّالثة): ـ الَّتي لوحظ وجودها في شخصيَّة النَّبيِّ المرسل ـ اتِّصافها بالصِّدق وما ينطوي عليه من الخصال الأخلاقيَّة: كالطِّيب، والاسترسال، وسلامة النَّفْس، والاعتدال، والأمانة، والصَّفاء، والنُّصح، وبُعده عن الكذب، والخبث، والازدواجيَّة، والخديعة، والمكر، والحيلة، فمتى كانت طبيعة شخصيَّة الرَّسول تشتمل على تلك الصِّفات، وتنفي عنه هذه، كان ذلك أقرب إلى الثِّقة به، والرُّكون إلى قوله، وأبعد عن محلِّ الشَّكِّ والرِّيبة؛ لما يستتبعه ذلك من وضوح الصُّورة وجلائها، وبعدها عن الغموض، واستغنائها عن التَّعمُّق والاكتناه.

إنَّ أوَّل اتِّهام يواجه الرَّسول من مجتمعه ـ الَّذي استقرَّت فيه التَّعاليم الخاطئة ـ هو كونه (كذَّاباً) وليس (كاذباً) فحسب؛ لأنَّه إذا لم يكن صادقاً فإنَّه لا بُدَّ أن يكون قد لفَّق كلَّ هذه الأقوال والمعلومات الَّتي ينقلها عن الله سبحانه حسب الحوادث الَّتي يُبتلى بها، وهو يحتاج إلى قابليَّة متميِّزة في التَّلفيق والازدواجيَّة ونحوهما من الخصال النَّفسيَّة، وهي خصال لا تنشأ دفعةً، وإنَّما تتكوَّن تدريجاً في أثر الإدمان على الممارسات الخاطئة.

وعليه: فإنَّ اتِّصاف شخصيَّة الرَّسول بصدق اللِّسان والقول يدفع احتمال التَّلفيق.

---

(١) سورة الزُّخرف: ٣١.

وقد كان نبيُّ الإسلام ﷺ يتِّصف بهذه الصِّفة بوضوح بحسب التَّاريخ، فقد كان من فرعٍ من قريش عُرفوا بالشَّرف والنُّبل ومكارم الأخلاق ـ وهم بنو هاشم ـ، كما عُرف شخصه بالصِّدق والأمانة حتَّى جاء أنَّه قد لُقِّب بـ(**الصَّادق الأمين**)، وذلك ممَّا ينطوي عليه وُصفُ القرآن الكريم له بـ(الخُلُق العظيم).

ومن ملامح طيبته ﷺ ميله إلى التَّسهيل على النَّاس، والسَّتر عليهم، والتَّصديق لهم، حتَّى عدَّه بعض المنافقين ساذجاً، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّـهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّـهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾، وقال سبحانه في مَن اعتذر للرَّسول ﷺ عن الحضور للجهاد فقبل ﷺ عذره[2]: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّـهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللَّـهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾.

ومن ثَمَّ نلاحظ أنَّ الكفَّار عندما اتَّهموه بالكذب لم يستندوا إلى كذبٍ معهودٍ منه في سائر أقواله، وإنَّما استندوا إلى غرابة ما جاء به، كما قال سبحانه[3]: ﴿**وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن**

---

(١) سورة التَّوبة: ٦١.

(٢) سورة التَّوبة: ٤٢ ـ ٤٣.

(٣) سورة ص: ٤ ـ ٨.

ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

وجاء مثل ذلك في شأن غيره من الأنبياء ﷺ، كما قال تعالى[1]: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ**﴾.

دلالة ثبات مضمون الرِّسالة وعدم اختلافها طيلة مدَّتها على صدقها

على أنَّ في مضمون الرِّسالة ما ينفي الكذب فيها، لاسيَّما في مثل رسالة الإسلام، فقد جاءت هذه الرِّسالة تدريجاً خلال أكثر من عشرين سنة في خضمِّ الظُّروف والأجواء والحوادث المختلفة، فلو لم تنطلق من مبادئ ثابتة لاختلف مضمونها بعض الشَّيء، ولم تكن منسجمةً من بدايتها إلى نهايتها؛ لأنَّ ما بُني على الكذب والتَّلفيق يستحيل ـ عادةً ـ أن يبقى على نسقٍ واحدٍ في اضطرابات الحياة ومراحلها، بل إنَّنا نلحظ في المبادئ والتَّعاليم ـ حتَّى في المشاريع البشريَّة التَّغييريَّة الكبرى الجادَّة ـ استجابةً للتَّكامل والنُّضج التَّدريجيِّ ومتغيِّرات الحياة، وكأنَّ إلى ذلك أُشير بقوله تعالى[2]: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّـهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾.

عدم كون الرَّسول شاعراً

وممَّا يتِّصل بهذه الصِّفة اتِّهامُ النَّبيّ المرسل بكونه شاعراً، وهو اتِّهامٌ وقع للرَّسول في الإسلام ﷺ من قبل المجتمع العربيِّ الَّذي كان مهتمّاً بالشِّعر اهتماماً بالغاً، وقد تكرَّر في القرآن الكريم حكاية هذا الاتِّهام، قال تعالى[3]: ﴿**بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ**

---

(١) سورة القمر: ٢٣ ـ ٢٦.

(٢) سورة النِّساء: ٨٢.

(٣) سورة الأنبياء: ٥.

شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، وقال سبحانه[١]: ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**﴾، وقال عزَّ وجلَّ[٢]: ﴿**فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾، وقال جلَّ ذكره[٣]: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾.

والوجه في مناسبة النُّبوَّة للشِّعر عند العرب: أنَّ الشُّعراء واسعو التَّخيُّل، فيذهب بهم الخيال كلَّ مذهبٍ، حتَّى شاع عند العرب أنَّ لكلِّ شاعرٍ جنِّيّاً يوحي إليه الشِّعر، ومن ثَمَّ فإنَّ الشُّعراء يفترضون لأنفسهم ما شاءوا من غير التزامٍ بالواقع وتحرٍّ له، كما قال تعالى[٤]: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**﴾.

لكنَّ نبيَّ الإسلام ﷺ لم يكن شاعراً، فلم تُعرف عنه هذه الصِّفة لا قبل البعثة ولا بعدها، كما قال تعالى[٥]: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ**﴾، على أنَّ من الواضح أنَّ القرآن الكريم ليس من قبيل الشِّعر في مضامينه وأسلوبه، وإنَّما هو نمط من الكلام الجادِّ في فهم آفاق الحياة وأبعادها والتَّعاليم الَّتي ينبغي العمل بها.

مصداقيَّة الرَّسول فيما يبلِّغه من الرِّسالة

(الصِّفة الرَّابعة): ـ الَّتي لوحظ وجودها في شخصيَّة الرَّسول ـ هو أن يكون ذا مصداقيَّة فيما يبلِّغه من التَّعاليم والمبادئ، فيكون أشدَّ النَّاس بها يقيناً وإيماناً وامتثالاً، حتَّى

(١) سورة الصَّافَّات: ٣٦.

(٢) سورة الطُّور: ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) سورة الحاقَّة: ٤٠ ـ ٤٢.

(٤) سورة الشُّعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٥) سورة يس: ٦٩.

يكون أوَّل النَّاس عملاً بتعاليمه، فيعمل بالمعروف قبل أمر الآخرين به، ويترك المنكر قبل نهي الآخرين عنه، لكي يكون عمله مصدِّقاً لقوله حتَّى وإن كان ذلك ثقيلاً عليه، كما قال الإمام عليّ ﷺ في بعض خطبه[١]: ((أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي وَاللهِ مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلاَ أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا)).

وقد كان نبيُّ الإسلام ﷺ وفق توصيف الآيات القرآنيَّة كذلك، فكان هو المتقدِّم في كلِّ شيء، كما قال تعالى[٢]: ﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّـهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّـهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا**﴾، وقال سبحانه[٣]: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٤]: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾، وقال جلَّ جلاله[٥]: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّـهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾، وقال تعالى[٦]: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**﴾.

ومن المعلوم في التَّاريخ أنَّه ﷺ كان على حدِّ سائر عامَّة المسلمين في ضيق المعيشة

---

(١) نهج البلاغة ص: ٢٥٠، الخطبة: ١٧٥.

(٢) سورة النِّساء: ٨٤.

(٣) سورة الأعراف: ٢٠٥.

(٤) سورة الكهف: ٢٨.

(٥) سورة المزّمّل: ٢٠.

(٦) سورة طه: ١٣٢.

ومعاناة الجوع، وكذلك الحال في أقربائه، كابنته فاطمة ، وصهره الإمام عليّ ، وغيرهما.

كما ورد أنَّه ﷺ كان يقدِّم أقرباءه في الحرب، وقد استشهد منهم عمَّه حمزة وابن عمَّه جعفر، قال الإمام عليّ [1]: ((وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَى بِهِمْ أَصَحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْر، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُد، وَقُتِلَ جعفر يَوْمَ مُؤْتَةَ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَلكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ، ومَنِيَّتَهُ أُجِّلَتْ)).

ولهذا أُمر المؤمنون بالتَّأسِّي به ﷺ كما قال سبحانه[2]: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّـهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّـهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّـهَ كَثِيرًا**﴾.

هذا، وقد كان اتِّصاف الرَّسول بهذه الصِّفة ـ وهي المصداقيَّة التَّامَّة فيما يبلِّغه إلى النَّاس ـ أمراً كبيراً حقَّاً؛ وذلك لما ذكرناه من قبل من أنَّ شخصيَّة النَّبيِّ المرسل كانت شخصيَّةً اجتماعيَّةً منفتحةً على النَّاس ومعاشرةً لهم، فقد كانوا يعلمون طبيعة ممارساته حتَّى في خلواته، من جهة العلاقات الأُسريَّة والقبليَّة، حتَّى أنَّه كان ينزل في شأن بعض مشاكله الأسريَّة قرآن يُتلى، وكلُّ واحدٍ منّا يعلم أنَّ من الصُّعوبة على المرء لاسيَّما إذا كان معلِّماً للقيم الأخلاقيَّة والوظائف العمليَّة أن يكون داخله مكشوفاً للَّذين يتعلَّمون منه، فيعلم تعامله في بيته، وأخلاقه مع أسرته، وكيفيَّة قضائه لأوقات فراغه.

وقد يُظنُّ أنَّ ما ورد من التَّعبير بـ(العفو) و(الذَّنب) في شأن الأنبياء يدلُّ على عدم

---

(١) نهج البلاغة ص: ٣٦٨ ـ ٣٦٩، الكتاب: ٩.

(٢) سورة الأحزاب: ٢١.

اتِّصافهم بالمصداقيَّة فيما يبلِّغونه، كقوله تعالى[١]: ﴿**لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّـهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾، وقوله سبحانه[٢]: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾، وقوله عزَّ من قائل[٣]: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّـهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ**﴾، وقوله جلَّ ذكره[٤]: ﴿**عَفَا اللَّـهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾.

لكن لا يُراد بـ(الذَّنب) في مثل هذه النُّصوص الخطيئة، بل كلّ تصرُّفٍ أمكن أن يوصَف بأنَّه لم يكن ينبغي صدوره من الرَّسول ولو وفق الآداب والأخلاقيَّات العالية الَّتي تليق من مثله تجاه الذَّات الإلهيَّة، فهذا الإطلاق يشبه ما نجده من اعتذار أحدنا للآخر، وطلب العفو منه إذا بدر منه ما لا ينبغي تجاهه ولو لم يكن عن عمدٍ وتقصُّد، كما لو غفل عن جواب سلامه، أو انشغل عنه بغيره في موضع ينبغي أن يلتفت إليه، أو نحو ذلك ممَّا لا شكَّ في أنَّه لا يُعَدُّ خطيئةً وإثماً.

كون الرَّسول متَّصفاً بمكارم الأخلاق

(**الصِّفة الخامسة**): ـ الَّتي لوحظ وجودها في شخصيَّة الرَّسول ـ أن يكون متَّصفاً بدرجةٍ ملائمةٍ ومناسبةٍ من مكارم الأخلاق، من قبيل: الحلم، والشَّجاعة، والكرم، والعفاف، والتَّواضع، والمحبَّة للنَّاس، والتَّألُّم لمعاناتهم؛ لأنَّ هذه الخصال هي جزءٌ أساس من مضمون الدِّين ـ كما بيَّنّا ذلك في موضعٍ سابق ـ، فلو لم يكن الرَّسول متَّصفاً بها لم يكن

---

(١) سورة الفتح: ٢.

(٢) سورة محمَّد: ١٩.

(٣) سورة غافر: ٥٥.

(٤) سورة التَّوبة: ٤٣.

تبليغه لما يدعو إليها مقروناً بالمصداقيَّة اللَّازمة، وفي ذلك ما يثير فيه الشَّكَّ والرِّيبة من المنظور العامّ.

وقد جاء أنَّ نبيَّ الإسلام ﷺ كان متَّصفاً بهذه الصِّفات، كما قال تعالى[١]: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّـهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾.

ورغم ذلك فقد جاء التَّأكيد عليه بهذه الخصال ومقتضياتها، كما قال تعالى[٣]: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾، وقال سبحانه[٤]: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّـهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾، وقال عزَّ وجلَّ[٥]: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾، وقال تعالى أيضاً[٦]: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، وقال جلَّت آلاؤه[٧]: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ ***

---

(١) سورة القلم: ٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٣) سورة فُصِّلت: ٣٤ ـ ٣٥.

(٤) سورة التَّوبة: ١٠٣.

(٥) سورة الكهف: ٢٨.

(٦) سورة الشُّعراء: ٢١٥.

(٧) سورة المدَّثِّر: ١ ـ ٦.

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ[١] *** وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾**.

موارد يُظَنُّ عدم ملائمتها للخصال المفترضة للرُّسل

هذا، ويُنقَض على إثبات بعض هذه الخصال للرُّسل ولنبيِّ الإسلام ﷺ بموارد **ممَّا** جاء ذكره والعتب عليه في القرآن الكريم، أو في تاريخ الأديان والإسلام عن السِّيرة العامَّة والخاصَّة للرُّسل[٢]. فهذه الموارد تنافي ما سبق من مراعاة مصداقيَّة الرُّسل فيما يبلغونه عن الله من قيمٍ وآداب.

ولكنَّ الواقع: أنَّ التَّأمُّل الجامع في تلك النُّصوص والتَّاريخ يعطي أنَّ تلك الموارد على ضربين:

(الأوَّل): ما لا يمثِّل نقطة ضعفٍ حقيقيَّة متى استحضر الإنسان الأجواء الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة المحيطة بتلك النُّصوص والأحداث، وخصوصيَّات الحادث المنظور[٣].

---

(١) إنَّ الأمر بتطهير الثِّياب ـ فيما قيل ـ كنايةٌ عن تقصيرها؛ لما يوجبه من عدم توسيخها بمماسّة الأرض، وذلك من ملامح التَّواضع، كما أنَّ الثِّياب الطَّويلة الَّتي تجرُّ على الأرض من ملامح الكبر.

(٢) يُلاحَظ أنَّ الكلام في هذا النَّقض طبعاً لا يشمل موارد موافقة عمل الرَّسول مع التَّعليم الَّذي ينقله عن الوحي؛ لأنَّ السُّؤال في تلك الموارد إنَّما يتَّجه على حقَّانيَّة الوحي لا على شخصيَّة الرَّسول ـ كما هو محلُّ الكلام في بحثنا هذا ـ وقد تعرَّضنا لجملة من هذه الموارد في الكلام على (اتِّجاه الدِّين في مناحي الحياة).

(٣) وممَّا يندرج في هذا الضَّرب: ما طُرح من منافاة تعدُّد أزواج نبيِّ الإسلام ﷺ مع المستوى المعنويّ والرُّوحيّ اللَّائق بالرَّسول؛ فإنَّه يدلُّ على نهمٍ شخصيٍّ في هذا الجانب.

ولكنَّ الَّذي ينبِّه على عدم صحَّة هذا المأخذ:

أمَّا على الإجمال فإنَّه لو كان حقَّاً لطُرح من قبل المكذِّبين للرِّسالة أو المنافقين المسلمين الَّذين يطرأ لديهم

(الآخر): ما قد يمثِّل نقطة ضعفٍ ـ وإن لم يبلغ حدَّ الخطيئة الآثمة ـ ولكنَّها لا تنفي ثبوت الخصلة الأخلاقيَّة ذات العلاقة؛ لأنَّها حالة مفردة وليست ظاهرةً في سلوكيَّاتهم. وقد نُبِّهوا عليها فوراً من السَّماء من خلال الرِّقابة الإلهيَّة الصَّارمة. ومن ثَمَّ يكون في

الشَّكُّ لأوَّل عارضٍ من شُبهةٍ، وقد كانوا جزءاً كبيراً من المجتمع الإسلاميّ في زمان الرَّسول بحيث ذُكرت مطاعنهم في الرَّسول في القرآن الكريم، ولم يعهد طعنُ أحدٍ فيه ﷺ بذلك، على أنَّ مَن عَلِمَ حكمة الرَّسول وأسلوبه في رعاية المجتمع يتوقَّع تجنُّب الرَّسول لذلك فيما لو استشعر منه أنَّه يوجب طعناً في مصداقيَّته.

وأمَّا على التَّفصيل فيرتفع هذا المأخذ بالالتفات ـ من جهةٍ ـ إلى دور المصاهرة في المجتمع العربيّ في تقريب القلوب، وزوال البغضاء، ودفع سوء الظَّنِّ، والممانعة في الحروب من جهة ارتباط المصالح، وهو أمر مشهود حتَّى في العصر الحاضر.

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ ملاحظة زوجات النَّبيِّ ﷺ وعمرهنَّ وأحوالهنَّ وانتسابهنَّ تُظهر أنَّ الغاية من جلِّ هذه الزِّيجات كانت غايات اجتماعيَّة من قبيل ما تقدَّم؛ ليكون ذلك إزاحةً للحسَّاسيَّات النَّفسيَّة المانعة من تقبُّل الرِّسالة.

وأضعف من ذلك الطَّعن على نبيِّ الإسلام ﷺ في الزَّواج من زوجة ابنه بالتَّبنِّي (زيد بن حارثة) باعتقاد أنَّ ذلك إنَّما كان من جهة رغبته ﷺ فيها لجمالها، وقد فُسِّرت الآية النَّازلة في شأن هذه القضيَّة بأنَّها تشير إلى ذلك لمكان قوله سبحانه: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّـهُ مُبْدِيهِ**﴾ (سورة الأحزاب: ٣٧).

وهذا خطأ فاحش؛ إذ مع هذا التَّفسير تكون الآية أدعى لصدق النَّبيِّ ﷺ فيما جاء به من الرِّسالة، إذ لو كانت الرِّسالة مصطنعةً لم يأت بآيةٍ تكون منشأً للطَّعن فيه، فكيف يجعل ذلك مطعناً على الرَّسول!

على أنَّ الآية واضحة في أنَّه ﷺ أوصى زيداً بالتَّمسُّك بزوجته على التَّأصيل العامّ في كراهة الطَّلاق شرعاً، وهو ما ينفي رغبته في الاقتران بها. وأمَّا الآية فهي ناظرة إلى إخفائه أنَّ الله سبحانه قد أخبره بأنَّ زيداً لا يلتئم مع زوجته مهما وُصِّي بذلك، وأنَّ على النَّبيِّ ﷺ أن يتزوَّجها إذا انفصلت منه، فكان ﷺ يستحي من إبلاغ ذلك إلى النَّاس؛ لما يجده من الحزازة فيه، لكونه مظنَّةً لاتِّهامه، وهو ما يدلُّ على مدى حيائه ورغبته عمَّا يشينه كرسولٍ مبعوث عن الله سبحانه.

حكاية تلك النُّقاط والتَّوجيه الصَّحيح فيها مزيدٌ من الدّلالة على اتِّصاف الرُّسل ـ على العموم ـ بالخصال الَّتي تؤصِّل فيهم سلامة التَّصرُّف؛ إذ كان الخروج عن مقتضياتها استثناءً ينبِّه عليه الرَّقيب، ومن ذا يحتمل هذا المستوى من الرِّقابة على سلوكيَّاته العامَّة والخاصَّة.

على أنَّ بعض لغة التَّشديد مع الأنبياء لم يكن لصدور ما يستوجبه منهم، بل كان لإسماع الآخرين وفق أسلوب (إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة)[1].

اتِّصاف الرَّسول بالاعتدال في السُّلوك ورجاحة العقل

(الصِّفة السَّادسة): ـ الَّتي لوحظ وجودها في شخصيَّة الرَّسول ـ هو أن يتَّصف بالاعتدال السُّلوكيِّ، وسلامة الإدراك، ورجاحة العقل، والسُّلوك المعتاد عند عامَّة العقلاء، والخلوِّ عن شائبة الأمراض العقليَّة والنَّفسيَّة الَّتي تؤدِّي إلى الهلاوس الذِّهنيَّة والسَّمعيَّة والبصريَّة؛ وذلك لأنَّ **ادِّعاء** الاتِّصال بالسَّماء، وطرح معلوماتٍ جديدةٍ وغريبةٍ لدى المجتمع من غير أن يكون مثل هذه المعاني والأفكار معهوداً من الشَّخص من قبل **مظنَّةٌ** لاتِّهام الشَّخص باتِّهامات من قبيل الجنون الأدواريّ وأشباهه؛ لأنَّ ذلك أبرز الأسباب المؤدِّية إلى إبراز أفكار غير مألوفة ولا معهودة من صاحبها من قبل.

ولا شكَّ تاريخيَّاً أنَّ الأنبياء ﷺ لم يكونوا متَّصفين بالانحراف في المزاج وعدم الاتِّزان والاعتدال والرَّزانة وشبهه قبل الرِّسالة. نعم، قد اتُّهموا بالجنون من قِبَل مَن لم يصدِّقهم بعدها، لكن لم يزعم المتِّهمون أنَّ الأنبياء كانوا كذلك من قبل، وإنَّما كان ما جاءوا به هو الموجب لتوصيفهم بالجنون، ويوضِّح ذلك ملاحظةُ سياق الاتِّهام بالجنون في

(١) يلاحظ: جمهرة الأمثال ج: ١، ص: ٢٩.

الآيات الكريمة، قال تعالى(١): ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وجاء عن فرعون(٢): ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وجاء عن قوم نوح ﷺ(٣): ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾.

على أنَّ اتِّهامهم بطروِّ الجنون عليهم بعد الرِّسالة من جهة ما تمثَّل في رسالتهم لم يكن اتِّهاماً صائباً ووارداً عند عامَّة المجتمع بوضوح؛ لأنَّ مضامين رسائلهم رؤيةٌ كونيَّةٌ مشتملةٌ على منظومةٍ من الأفكار العقديَّة والتَّشريعيَّة والأخلاقيَّة.

بُعد الرَّسول عن طلب الخوارق والسِّحر والكهانة

(الصِّفة السَّابعة): ـ الَّتي لوحظ وجودها في شخصيَّة الرَّسول ـ أن يكون بعيداً عن السَّعي في الخوارق والأنباء الخارقة من خلال السِّحر والشَّعوذة والكهانة ونحوها؛ لاعتبارات عديدة:

١ ـ إنَّ الرَّسول مطالَب ـ وفق التَّلقِّي الاجتماعيِّ العامّ آنذاك بشكلٍ مؤكَّد للغاية ـ بالإتيان ببعض الخوارق لإثبات اتِّصاله بوجودٍ أعلى ذي قُدراتٍ خارقةٍ ـ وهو الإله ـ، ومثل هذه الاهتمامات يمكن أن تؤدِّي إلى الرِّيبة فيما يأتي به الرَّسول من الخوارق بإذن الله سبحانه، وهذا رغم وجود الفرق النَّوعيِّ بين تلك الخوارق وبين ما تنتجه تلك الاهتمامات على ما سيأتي توضيحه؛ لكنَّ وجودها في الرَّسول يؤدِّي إلى وقوع الشُّبهة في الرِّسالة في أذهان المجتمع العامّ.

---

(١) سورة الحجر: ٦ ـ ٧.

(٢) سورة الشُّعراء: ٢٧.

(٣) سورة القمر: ٩.

٢ ـ مضافاً إلى أنَّ هذه الاهتمامات هي ذميمة وغير ذات قيمة وفق التَّعاليم الدِّينيَّة، فلا يصحُّ أن يكون النَّبيُّ المرسل ممَّن يتَّصف بها.

٣ ـ على أنَّ تلك الاهتمامات تخُلُّ عادةً بالسَّلامة النَّفسيَّة؛ لأنَّها توجب انحرافاً في المزاج النَّفسيِّ وخروجه عن الاعتدال والاستقامة.

ومن ثَمَّ لا نجد في تاريخ نبيِّ الإسلام ﷺ ـ مثلاً ـ قبل الرِّسالة ما يشير إلى اهتمامه بمثل هذه الأشياء أصلاً.

نعم، اتَّهم المكذِّبون بالرِّسالات الرُّسل بهذه الاتِّهامات، ولكن كلُّ ذلك بسبب ما جاءوا به من الرِّسالة ومقتضياتها، ولم يقولوا: إنَّهم كانوا من قبل سحرةً وكهنةً، بل قالوا: إنَّ ما جاءوا به سحرٌ، مع العلم أنَّ السِّحر والكهانة ليست أموراً دفعيَّة، بل تحتاج إلى مدَّةٍ زمنيَّةٍ غير قصيرة لأجل الحصول على تلك القدرات الغريبة ـ في افتراض أصحابها ـ.

وينبِّه على منشأ اتِّهامهم بذلك سياق الآيات الَّتي تحكي هذه الاتِّهامات، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾.

وربَّما يتراءى من بعض الآيات الكريمة اتِّهام الرَّسول بكونه كاهناً، ومن ثَمَّ جاء نفي ذلك[3]: ﴿**فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ**﴾.

وقد كثُر اتِّهام موسى عليه السلام من بين الأنبياء بالسِّحر؛ وكان ذلك ـ على ما يبدو ـ

(١) سورة ص: ٤ ـ ٥.

(٢) سورة الطُّور: ٥٢.

(٣) سورة الطُّور: ٢٩.

لشيوع السِّحر في ذلك المجتمع، فكان أقرب المحامل لما فوجئوا به من خوارق موسى ﵇، كما قال سبحانه(١): ﴿**قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**﴾، وقال تعالى(٢): ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَـذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ**﴾.

فالملاحَظ: أنَّهم ـ على العموم ـ لم يقولوا على الرَّسول إنَّه كان من قبل ساحراً، كما قالوا ـ مثلاً ـ إنَّ ما جاء به من المعاد ممَّا وعِد به من قبل آخرون، قال تعالى(٣): ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَـذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾، ولكنَّهم قالوا إنَّه فعلاً ساحرٌ من جهة شبه ما يأتي به بالسِّحر.

نعم، قال فرعون عن موسى ﵇ إنَّه هو كبير السَّحرة، كما قال سبحانه عن لسان فرعون(٤): ﴿**قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**﴾، إلَّا أنَّ هذا القول لم يكن استناداً إلى معهوديَّة السِّحر منه ﵇ من قبل، بل من باب ما رآه من أنَّ ما جاء به موسى ﵇ كان فوق سحر هؤلاء السَّحرة، وقد استطاع ﵇ إبطال سحرهم، ومن ثَمَّ جعله كبير السَّحرة.

---

(١) سورة الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٢.

(٢) سورة يونس: ٧٦ ـ ٧٧، ولاحظ: طه: ٦٣ ـ ٦١، والشُّعراء: ٣٤ ـ ٤٩، وغافر: ٢٤، والزّخرف: ٤٩، والذَّاريات: ٣٩.

(٣) سورة النَّمل: ٦٧ ـ ٦٨.

(٤) سورة طه: ٧١، والشُّعراء: ٤٩.

كون الرَّسول في نفسه بعيداً عن الطُّموح للجاه

(الصِّفة الثَّامنة): ـ الَّتي لوحظ وجودها في شخصيَّة الرَّسول ـ أنَّه لم يكن له بحسب طبيعة شخصيَّته وظروفه أيُّ مسعىً يمكن أن يوصَف بأنَّه طالبٌ للجاه أو ساعٍ إلى الإصلاح الاجتماعيّ(١)، كي يفسَّر ادِّعاء الرِّسالة بأنَّه كان سعياً منه في تبوُّء مكانة عالية في المجتمع، أو يطمح إلى إصلاح الوضع الَّذي كان يعيش فيه، ومن ثَمَّ كان الطَّرح الَّذي جاء به الرَّسول مفاجأةً غير متوقَّعة منه بحسب شخصيَّته.

لقد كانت شخصيَّته من قبل لا تعطي أيَّة مؤشِّرات ومبادئ تناسب مثل هذا السَّعي والطُّموح في الإصلاح، فصفاته كانت بعيدةً عن هذا المستوى من الطَّرح بما فيه من الجرأة والتَّخطيط والتَّصدِّي للقوى الاجتماعيَّة الفاعلة في المجتمع.

مثلاً: إذا تأمَّلنا حال موسى ﵇ قبل الرِّسالة ـ وفق حكاية القرآن الكريم ـ نجد أنَّه نشأ في وضعٍ مريحٍ بتبنِّي فرعون له، وعندما وقع الخلاف بين رجل من بني إسرائيل وآخر قبطيّ، وقتل موسى الرَّجل القبطيّ خرج من المدينة هارباً من بطش فرعون ورجاله، كما قال تعالى(٢): ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْـمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْـمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ**

---

(١) نعم، قد يُفهم خلاف ذلك في شأن موسى ﵇ من قول الرَّجل الَّذي أراد موسى أن يبطش به، كما جاء قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّـهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْـمُصْلِحِينَ**﴾ (سورة القصص: ١٩)، ولكنَّ الرَّاجح أنَّ الآية لا تدلُّ على أنَّ موسى ﵇ كان يريد إصلاحاً اجتماعيَّاً عامَّاً، بل مفاد قول الرَّجل لموسى ﵇ هو كأنَّك تريد أن تحلَّ الخلاف مع الآخر بالبطش بالآخر لا بإصلاح ذات البين، فلاحظ.

(٢) سورة القصص: ٢٠ ـ ٢١.

الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وعليه فما الَّذي أوجب جرأته على أن يأتي إلى فرعون برسالة تقتضي ضلاله وضلال قومه، وينبِّهه على ضرورة خضوعه لله الواحد الأحد؟

وإذا تأمَّلنا حال نبيّ الإسلام ﷺ وسيرته وظروف بعثته لاحظنا أنَّه عندما بُعث في الأربعين كان الشِّرك مستقرّاً في مجتمع مكَّة المشرَّفة وقبيلته قريش بشكلٍ متجذِّرٍ للغاية، بحيث أصبح من أصول الوضع السِّياسيِّ والاجتماعيِّ القائم فيها، بل وفي الجزيرة العربيَّة، رغم وجود أشخاصٍ في قريش وبعضٍ آخر من القبائل على دين إبراهيم عليه السلام التَّوحيديّ.

وذلك أنَّ العشائر العربيَّة في الجزيرة كانت قد اتَّفقت مع قريش منذ عشرات أو مئات السِّنين على وضع معيَّن تكون مكَّة بحسبه مركز الجزيرة من الجانب العقائديِّ والعشائريِّ والاقتصاديِّ والأمنيِّ.

ويرتكز هذا الوضع على أن تضع تلك العشائر أصنامها في بيت إله إبراهيم عليه السلام (المسجد الحرام) على أن يذعن العرب بأنَّ هذا الإله هو الإله الأعظم المشترك بين الجميع، ولكلِّ عشيرة إلهها الخاصّ بها، فأصبح المسجد الحرام بيت آلهة العرب ومجمعها، وأدَّى ذلك إلى أن تصبح مكَّة عاصمة الجزيرة العربيَّة وقلبها؛ إذ كانت العرب تحجُّ إلى آلهتها.

وترتَّب على ذلك عدَّة مزايا لقريش:

١ ـ إنَّ قريش قد أصبحت سيِّد هذه القبائل؛ إذ كانت هي المتولية للأمور في مكَّة.

٢ ـ إنَّ عقائد قريش وشعائرها نفذت في سائر القبائل العربيَّة، فقد كان إله إبراهيم (صاحب البيت) هو إله الآلهة الَّذي يذعن به الجميع، وإنَّما تُعبَد الآلهة الأخرى للتَّقرُّب إلى الإله، كما قال تعالى[1]: **﴿أَلَا لِلَّـهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ**

---

(١) سورة الزُّمر: ٣.

إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّـهِ زُلْفَى﴾، كما أنَّ شعائر الحجّ الإبراهيميِّ ـ كالطَّواف بالبيت، والصَّلاة فيه، والسَّعي بين الصَّفا والمروة، والذَّهاب إلى سائر المشاعر كالمزدلفة وعرفات ومنى ـ أصبحت على الإجمال شعائر عامَّة للجميع.

٣ ـ إنَّ هذا الوضع ضَمِنَ أمن مكَّة وأطرافها؛ إذ كانت تُعتبر (حرماً) يُحظَر فيها القتل والقتال وفق تعاليم إبراهيم ﵇، كما قال تعالى[١]: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّـهِ يَكْفُرُونَ﴾**.

٤ ـ كان لهذا الوضع الآمن نفعٌ اقتصاديٌّ كبير لقريش؛ إذ لم تكن مكَّة محلّاً للزِّراعة؛ لأنَّها تقع بين وديان وصحاري قاحلة، فكانت حياتها الاقتصاديَّة مرهونةً بهذه المركزيَّة الَّتي بُنيت كلّها على أساس الشِّرك.

٥ ـ وأدَّى ذلك إلى تصدُّر قريش في الفصاحة؛ إذ كانت تُقام فيها الأسواق الأدبيَّة الَّتي يلقي فيها الشُّعراء العرب قصائدهم، وقد عُلِّقت قصائد مختارة منها في الكعبة فعُرفت بـ(المعلَّقات).

هذا، ولو بُني على إلغاء الشِّرك وهدم الأصنام أو إرجاعها إلى أصحابها من القبائل العربيَّة لأدَّى إلى زوال هذه المزايا وانعكاس الأمر تماماً، فلم يكن تبقى لقريش هذه الصَّدارة ولا كان بلدها مكَّة مَحَجّاً للعرب، ولا بقيت مكَّة على أمنها؛ لأنَّ القبائل العربيَّة كانت تعادي قريش بطبيعة الحال، ممَّا يؤدِّي إلى عدم استتباب الأمن في مكَّة، ويؤدِّي بطبيعة الحال إلى تردِّي الوضع الاقتصاديِّ فيها.

على أنَّ معظم قريش كانت قد تبنَّت الشِّرك كسائر القبائل، فصنعت لنفسها آلهةً كما كان هناك آلهة للقبائل الأخرى، وسمَّت أبناءها بالعبوديَّة لتلك الآلهة.

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٧.

نعم، كان هناك فرع من قريش ـ كبعض بني هاشم ـ لم يزل على دين إبراهيم من التَّوحيد وعدم الاعتقاد بالأصنام، ولكنَّ هذا الفرع كان محدوداً ومعايشاً مع الواقع الجاري، فكان الشِّرك مهيمناً على مكَّة ومتجذِّراً في الوضع القائم بشكلٍ لا يخطر لأحدٍ فيها تبليغ فكرة التَّوحيد، ونفي مشروعيَّة الشِّرك فيها حتَّى لقريش فضلاً عن القبائل الوافدة إليها للحجّ والزِّيارة.

ومن ثَمَّ لم يكن هناك أيُّ معارضةٍ عمليَّةٍ للشِّرك قبل بعثة النَّبيِّ ﷺ من قبل الموحّدين من قريش ـ على ما يحدِّثنا التَّاريخ ـ؛ لذلك كان طرح النَّبيِّ ﷺ طرحاً مفاجئاً لقبيلته (قريش) وللعرب جميعاً.

وعلى الإجمال: فقد كان وضع مكَّة والجزيرة العربيَّة عقائديَّاً واجتماعيَّاً وأمنيَّاً واقتصاديَّاً مبنيَّاً على الشِّرك بشكلٍ عميقٍ للغاية، ولم يكن طرح تبليغ التَّوحيد وتسفيه الشِّرك أمراً وارداً في مخيَّلة أحدٍ، فهذا التَّبليغ من قبل قريش ومَن ينتمي إليها كان يتلقَّى تخريباً منها لمجدها وموقعها وأمنها وكلِّ مصالحها بشكلٍ جذريٍّ، وموجباً لاستعداء جميع القبائل العربيَّة من حولها، ولذلك جاء في التَّاريخ أنَّ قريش توسَّلت بالنَّبيِّ ﷺ أن يكفَّ عن هذه الدَّعوة وله كلُّ ما يشاء حتَّى لو رغب في أن يكون مَلِكاً عليهم فهم يقبلون بذلك.

هذا، وممَّا يؤكِّد عدم انبثاق دعوى الرِّسالة من طلب جاهٍ أو سعيٍ شخصيٍّ في الإصلاح أنَّ النُّصوص القرآنيَّة تدلُّ على أنَّ النَّبيَّ المرسَل كان يجد في الخطوات الَّتي يوصى بها ـ والَّتي تشتمل على تخطئة العقائد المستقرَّة في المجتمع ـ ثقلاً كبيراً، إلَّا أنَّه كان يأتي بها إطاعة للأمر الملزم له، اعتماداً على المدد الَّذي وُعد به، فهو كمَن يمشي اعتماداً على سندٍ يستند إليه وعمادٍ يعتمد عليه، فلو خُلِّي هو ونفسه لم يقم بما قام به من المواجهة مع قومه

وسائر العرب.

ويدلُّ على ذلك ما تكرَّر في القرآن الكريم من أمر النَّبيِّ ﷺ بالصَّبر، وتوصيته بمزيدٍ من الذِّكر والعبادة لله سبحانه؛ فإنَّه يوجب السَّكينة، ويزيد القُدرة على التَّحمُّل، وتهدئته بأن لا يحزن، ووعده بأنَّ الله سبحانه سوف ينصره في النِّهاية، وما يلقاه من التَّكذيب من النَّاس فقد لقي مثله مَن سبقه من الأنبياء، كقوله سبحانه[1]: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾، وقوله تعالى[2]: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ...وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**﴾، وقوله عزَّ من قائل[3]: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ... وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا * وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**﴾، وقوله جلَّ جلاله[4]: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، وقوله سبحانه[5]: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ**﴾، وقوله تعالى[6]: تعالى[6]: ﴿**فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ***

(١) سورة الإنسان: ٢٣ ـ ٢٥.

(٢) سورة المدَّثِّر: (١ـ ٣)، ٧.

(٣) سورة المزَّمِّل: (١ـ ٥)، (٨ ـ ١٠).

(٤) سورة القلم: ٤٨ ـ ٥٠.

(٥) سورة الطُّور: ٤٨ ـ ٤٩.

(٦) سورة ق: ٣٩ـ ٤٠.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾، وقوله عزَّ وجلَّ[١]: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وقوله جلَّ ذكره[٢]: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّـهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، وقوله سبحانه[٣]: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّـهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾، وقوله تعالى[٤]: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وقوله عزَّ من قائل[٥]: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، وقوله جلَّ وعلا[٦]: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا * وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾، وقوله سبحانه[٧]: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّـهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّـهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، وقوله تعالى[٨]: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّـهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

---

(١) سورة الأحقاف: ٣٥.

(٢) سورة غافر: ٧٧.

(٣) سورة غافر: ٥٥.

(٤) سورة ص: ١٧.

(٥) سورة طه: ١٣٠.

(٦) سورة الكهف: ٢٧ ـ ٢٨.

(٧) سورة النَّحل: ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٨) سورة فاطر: ٤.

وهذه النُّصوص كلُّها نزلت مرافقةً لصعوباتٍ جمَّة كان يجدها النَّبيُّ ﷺ في أمر الدَّعوة إلى التَّوحيد في مجتمعٍ تجذَّر فيه الشِّرك، لاسيَّما في السَّنوات الثَّلاثة عشر الَّتي كان خلالها في مكَّة، وهو محارَبٌ ومضطهَدٌ من قومه وعشيرته، وفي مراجعة شأن نزول هذه الآيات وأخواتها ما يزيد ذلك توضيحاً.

هذه هي الصِّفات الَّتي لوحظ وجودها في مثل نبيّ الإسلام ﷺ لأجل أن تكون رسالته عن الله سبحانه أقرب إلى تصديق المجتمع.

فهذا بحثٌ عن كيفيَّة انتقاء شخصيَّة الرُّسل ﷺ في الأديان من خلال التَّأمُّل في نموذج نبيِّ الإسلام ﷺ وفق الشَّواهد التَّاريخيَّة الواضحة.

(المرتكز الرَّابع): المقارنة بين قدرات الرَّسول قبل البعثة ومضمون الرِّسالة الَّتي جاء بها

حال نبيِّ الإسلام ﷺ قبل البعثة

تميُّز بلاغة القرآن الكريم

(المرتكز الخامس): التَّحدِّي البلاغيّ بالنَّصّ المنزل

(المرتكز السَّادس): دلالة أحوال الرَّسول بعد البعثة على تلقِّي الرِّسالة من مصدر آخر

وضوح حياة النَّبيّ ﷺ بعد البعثة كما قبلها

(المرتكز السَّابع): دلالة ملاحظة تعامل النَّصّ القرآنيّ مع الرَّسول

(المرتكز الثَّامن): دلالة كيفيَّة تلقِّي الرُّسل للنَّصِّ الرِّساليِّ على صدقهم

المقارنة بين قدرات الرَّسول قبل البعثة ومضمون الرِّسالة الَّتي جاء بها

(**المرتكز الرَّابع**): ـ من مرتكزات إثبات صدق الرُّسل وفق ما يتمثَّل في القرآن الكريم ـ التَّنبيه على المقارنة بين قدرات النَّبيِّ المرسَل قبل البعثة وبين مضمون الرِّسالة، فإذا كان مضمون الرِّسالة فوق إمكانات النَّبيّ المرسَل كان ذلك شاهداً على صدقه في نقل الرِّسالة.

قد عرفنا من قبل الاهتمام بانتخاب الرَّسول من قومه الَّذين سيُبعث إليهم، وبذلك يكون قومه مطَّلعين على مؤهِّلات الرَّسول وإمكاناته وقدراته، وما يمكن أن يصدر منه أو لا.

وهذا مقياس مناسب للتَّحقُّق من صدق الرِّسالة، فإذا كانت الرِّسالة مناسبة مع المستوى المعهود عن الرَّسول وقعت محلّاً للرِّيبة والتَّشكيك. وأمَّا إذا كانت فوق مستوى الرَّسول ومؤهِّلاته فإنَّ الرِّسالة بطبيعة الحال تكون دليلاً على تلقِّي الرَّسول لها من مصدرٍ آخرٍ، وحيث لا يكون هناك مصدرٌ بشريٌّ من خلال معروفيَّة بيئة الرَّسول وأسرته وعلاقاته قبل البعثة لدى قومه فيتعيَّن أن يكون مصدراً فوق بشريٍّ.

فموسى بن عمران ﷺ ـ مثلاً وفق ما يتراءى من التَّوراة والقرآن الكريم ـ لم يعهد منه في مجتمعه ما يناسب التَّوراة الَّتي جاء بها فيما تشتمل عليه من معانٍ مختلفة تتعلَّق بالإله، وبتاريخ الأنبياء، وبالشَّرائع الَّتي يحتاج إليها الإنسان، والَّتي تضمَّنتها الألواح الاثنا عشر، ومن ثَمَّ يكون مجيئه بالتَّوراة بنفسه حجَّةً على تلقِّيه إيَّاها من مصدرٍ آخر، وليس إلَّا الله سبحانه.

حال نبيِّ الإسلام ﷺ قبل البعثة

وإذا نظرنا إلى نبيِّ الإسلام ﷺ وجدنا أنَّ ما جاء به من القرآن الكريم ـ الَّذي تضمَّن منظومةً اعتقاديَّة وتاريخيَّة وتشريعيَّة(١) ـ لم يكن مناسباً مع ما كان يُعلَم عنه وعن قومه قبل البعثة، فلم يكن لدى قريش وسائر القبائل العربيَّة كتابٌ إلهيٌّ يبيِّن لهم تعاليم الدِّين وتاريخ الأنبياء ـ كما كان الحال لدى أهل الكتاب، وهم اليهود والنَّصارى ـ ولم تكن التَّوراة والإنجيل قد تُرجمتا إلى اللُّغة العربيَّة آنذاك، كما لم تكن لهم معرفة بالكتابة والقراءة، ومن ثَمَّ كانت توصَف العرب بأنَّها أمَّة أمِّيَّة، كما تشير إلى ذلك كلِّه الآيات القرآنيَّة كقوله تعالى(٢): ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾، وقوله سبحانه(٣): ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَـكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقوله عزَّ وجلَّ(٤): ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، وقوله جلَّ ذكره(٥): ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّـهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقوله تعالى(٦): ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا

---

(١) قد وصفنا المضمون الاعتقاديّ والتَّشريعيّ إجمالاً في الكتاب الأوَّل من هذه السِّلسلة، كما وصفنا المضمون الاعتقاديّ المتعلِّق بالإله وبالمعاد في البحث عن الحقيقة الأولى والثَّانية في هذا الكتاب. وأمَّا المنظومة المتعلِّقة ببحث الرِّسالة فهي ما يتَّضح من خلال هذا البحث.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٨.

(٣) سورة الشُّورى: ٥٢.

(٤) سورة الضُّحى: ٦ ـ ٧.

(٥) سورة يونس: ١٦.

(٦) سورة الأعراف: ١٥٧.

عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾، وقوله سبحانه[١]: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾.

ويبدو أنَّ هذا كان أمراً واضحاً لقوم النَّبيِّ ﷺ وسائر أهل مكَّة ثُمَّ المدينة، ومن ثَمَّ اضطرَّ بعض المكذِّبين له إلى افتراضاتٍ إجماليَّةٍ لم يجدوا مؤشِّراً عليها، ولكن من منطلق أنَّ عدم صدق الرِّسالة يقتضي أن تكون قد وُجدت على هذا الأساس، كقولهم إنَّه ﷺ اكتتب أساطير الأوَّلين وأعانه عليها قوم آخرون، ولكن مَن يا ترى يكون هؤلاء القوم، وهم يعرفون مداخله ومخارجه وطباعه ﷺ؟ وكيف وقف على أساطير الأوَّلين، وهو لا يعلم القراءة والكتابة؟ وكيف برز ذلك منه بعد البعثة فجأةً؟ كما قال سبحانه[٢]: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾، وقالوا مرَّةً أخرى إنَّه تلقَّى ذلك من رجلٍ أعجميٍّ، كما قال تعالى[٣]: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**﴾، والحال في هذه الدَّعوى كسابقتها.

تميُّز بلاغة القرآن الكريم

يُضاف إلى ذلك التَّميُّز البلاغيّ للقرآن الكريم، فإنَّه رغم كون النَّبيّ ﷺ من فصحاء قومه، إلَّا أنَّ مستواه كان معهوداً لدى قومه ومجتمعه قبل البعثة ـ وقد بلغ الأربعين ـ وبعدها حيث كان يخطب في المسلمين. لكنَّ النَّصَّ القرآنيَّ كان من سنخٍ آخر،

---

(١) سورة الجمعة: ٢.

(٢) سورة الفرقان: ٤ ـ ٥.

(٣) سورة النَّحل: ١٠٣.

فهو نصٌّ متميِّز في بلاغته وأدائه وأسلوبه، فلم يكن باستطاعة النَّبيِّ ﷺ أن يُنشِئ مثله بحالٍ، كما أنَّ كلام تلميذه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة لا يبلغ في بلاغته مستوى القرآن الكريم، كما تجده النُّخبة الأدبيَّة من أهل اللُّغة العربيَّة، رغم أنَّ كلامه عليه السلام لم يكن إنشاءً مبتدعاً لا على سابق مثال، بل إنَّه عليه السلام قد احتذى على مثال القرآن الكريم، واستطاع من صناعة تلك النُّصوص البليغة بفضل حفظ القرآن الكريم، وكثرة تلاوته، وتذوِّقه له كما هو ظاهر.

وقد تكرَّر تحدِّي المكذِّبين للنَّبيِّ ﷺ بإتيان سورة من قبيل سور القرآن، ولكنَّهم لم يستطيعوا من ذلك، كما يرشد إليه سياق آيات التَّحدِّي في القرآن الكريم.

ومن ثَمَّ لَمَّا اتَّهمه بعض المكذِّبين له بأنَّه تعلَّمه من أعجميّ أُجيب على ذلك في الآية المتقدِّمة بأنَّ الأعجميّ لا يستطيع صياغة المعنى بهذا الأسلوب الرَّائع، وهو إشارة إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ أيضاً لم يكن يقدر على ذلك.

التَّحدِّي البلاغيّ بالنَّصِّ المنزل

(المرتكز الخامس): ـ من مرتكزات إثبات صدق الرُّسل لمجتمعاتهم ـ ما وقع في الإسلام من التَّحدِّي البلاغيِّ بالنَّصِّ المنزل.

وهذا تحدٍّ وقع بشكلٍ واضحٍ منذ بداية البعثة، وتكرَّر ذكره في الآيات القرآنيَّة، فممَّا جاء في التَّحدِّي في مكَّة قوله تعالى[1]: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**﴾، وقوله سبحانه[2]: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**

---

(١) سورة يونس: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) سورة الإسراء: ٨٨.

وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، وقوله عزَّ من قائل[١]: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّـهِ وَأَن لَّا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾، وقوله جلَّت آلاؤه[٢]: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ**﴾.

وممَّا جاء في التَّحدِّي في المدينة قوله تعالى[٣]: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾.

وقد تمثَّل ذلك في السِّيرة النَّبويَّة في عدَّة قضايا، نذكر بعضها:

١ ـ فقد جاء فيها: (أنَّ عتبة بن ربيعة، وكان سيِّداً، قال يوماً ـ وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده ـ: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمَّد فأكلِّمه، وأعرض عليه أموراً لعلَّه يقبل بعضها، فنعطيه أيّها شاء، ويكفَّ عنّا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلِّمه، فقام إليه عتبة حتَّى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنَّك منّا حيث قد علمت من السِّطَةِ في العشيرة، والمكان في النَّسب، وإنَّك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيمٍ فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلَّك تقبل منّا بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع. قال: يا ابن أخي، إن كنت إنَّما تريد بما

---

(١) سورة هود: ١٣ ـ ١٤.

(٢) سورة الطُّور: ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) سورة البقرة: ٢٣ ـ ٢٤.

جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتَّى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا، حتَّى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الَّذي يأتيك رِئْياً تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطِّبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتَّى نبرئك منه، فإنَّه ربَّما غلب التَّابع على الرَّجل حتَّى يداوى منه، أو كما قال له. حتَّى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منّي، قال: أفْعَلُ، فقال: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ..**﴾، ثُمَّ مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه، فلمَّا سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، ثُمَّ انتهى رسول الله ﷺ إلى السَّجدة منها، فسجد ثُمَّ قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الَّذي ذهب به. فلمَّا جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنِّي قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالشِّعر، ولا بالسِّحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرَّجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونَّن لقوله الَّذي سمعت منه نبأٌ عظيمٌ، فإنْ تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكُه مُلكُكُم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد النَّاس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم)[١].

٢ ـ وجاء في السِّيرة النَّبويَّة أيضاً: (كان الطُّفيل بن عمروٍ الدَّوسيُّ يحدِّث: أنَّه قدم مكَّة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجالٌ من قريشٍ، وكان الطُّفيل رجلاً شريفاً شاعراً

(١) السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام الحميريّ ج: ١، ص: ١٨٩ ـ ١٩١.

لبيباً، فقالوا له: يا طفيل، إنَّك قدمت بلادنا، وهذا الرَّجل الَّذي بين أظهرنا قد أعْضَلَ بنا، وقد فرَّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وإنَّما قوله كالسِّحر يفرِّق بين الرَّجل وبين أبيه، وبين الرَّجل وبين أخيه، وبين الرَّجل وبين زوجته، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلِّمنَّه ولا تسمعنَّ منه شيئاً. قال: فوالله ما زالوا بي حتَّى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلِّمه، حتَّى حشوت في أُذُنيَّ حين غدوت إلى المسجد كرسفاً فَرَقاً من أن يبلغني شيءٌ من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه. قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلِّي عند الكعبة. قال: فقمت منه قريباً، فأبى الله إلَّا أن يُسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً، قال: فقلت في نفسي: وا ثكل أمِّي، والله إنّي لرجلٌ لبيبٌ شاعرٌ وما يخفى عليَّ الحَسَن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرَّجل ما يقول! فإن كان الَّذي يأتي به حَسَناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

قال: فمكثت حتَّى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فاتَّبعته حتَّى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمَّد، إنَّ قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للَّذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوِّفونني أمرك حتَّى سددت أُذُنيَّ بكرسفٍ لئلَّا أسمع قولك، ثُمَّ أبى الله إلَّا أن يُسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض عليَّ أمرك. قال: فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قطُّ أحسن منه ولا أمراً أعدل منه. قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحقِّ، وقلت: يا نبيَّ الله، إنّي امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام)(١).

٣ ـ (ويروى أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا أُنزل عليه: ﴿**حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّـهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ**﴾، قام إلى المسجد، والوليد بن المغيرة

---

(١) المصدر السَّابق ج: ١، ص: ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

قريب منه يسمع قراءته، فلمَّا فطن النَّبيُّ ﷺ لاستماعه لقراءته، أعاد قراءة الآية. فانطلق الوليد حتَّى أتى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمَّدٍ آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنِّ، وإنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّ أعلاه لمثرٍ، وإنَّ أسفله لمغدقٍ، وإنَّه ليعلو وما يُعلى. ثُمَّ انصرف إلى منزله. فقال قريش: صبأ والله الوليد، والله لتصبأنَّ قريش كلُّهم. وكان يُقال للوليد ريحانة قريش، فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جانب الوليد حزيناً، فقال له: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ قال: هذه قريش يعيبونك على كبر سنِّك، ويزعمون أنَّك زيَّنت كلام محمَّدٍ! فقام مع أبي جهل، حتَّى أتى مجلس قومه، فقال: أتزعمون أنَّ محمَّداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق قِطٍّ؟ فقالوا: اللّهم لا. قال: أتزعمون أنَّه كاهن، فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك؟ قالوا: اللّهم لا. قال: أتزعمون أنَّه شاعر، فهل رأيتموه أنّه ينطق بشعر قطّ؟ قالوا: اللّهم لا، قال أتزعمون أنَّه كذَّاب، فهل جرَّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا: اللّهم لا، وكان يُسمَّى الصَّادق الأمين قبل النُّبوّة من صدقه. فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكَّر في نفسه، ثُمَّ نظر وعبس، فقال ما هو إلَّا ساحر، ما رأيتموه يفرِّق بين الرَّجل وأهله، وولده ومواليه، فهو ساحر، وما يقوله سحر يؤثر)[1].

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ج: ١٠، ص: ١٧٨ ـ ١٧٩.

دلالة أحوال الرَّسول بعد البعثة على تلقِّي الرِّسالة من مصدرٍ آخر

(المرتكز السَّادس): ـ من مرتكزات إثبات صدق الرُّسل لمجتمعاتهم وفق ما يتمثَّل في القرآن الكريم ـ ملاحظة أحوالهم بعد البعثة، فإنَّها تدلُّ على تلقِّي المعلومات من مصدر أعلى بكلِّ صدقٍ.

وضوح حياة النَّبيِّ ﷺ بعد البعثة كما قبلها

وقبل توضيح ذلك ينبغي استذكار نكتةٍ مهمَّة سبق بيانها، وهي اتِّصاف حياة النَّبيِّ بالوضوح عند قومه حتَّى بعد البعثة، وبُعدها عن أيَّة ازدواجيَّة وكتمان، فقد كانت أموره وأحواله ظاهرة لهم عياناً، فيعلمون عنه كيف يقضي وقته، ومَن ذا يلتقي، وكيف يتعامل مع الآخرين، بل كيف يتعامل مع أزواجه، وماذا يعمل في أوقات فراغه، فقد كان وقته على قسمين: قسم يكون فيه في بيته، وقسم يكون فيه بين أصحابه، ولم تكن له غيابات مشتبهة ومجهولة لا يُعلَم فيها محلُّه ومقصده، فإذا كان بين أصحابه فهم ناظرون إلى أفعاله وأحواله، ومنها حال نزول الوحي عليه، وكان في المجتمع الإسلاميّ منافقون قد آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، فهم يتتبَّعون تصرُّفاته وما عسى أن يكون فيها من عثراتٍ وأمورٍ تثير الرِّيبة والشَّكّ، على أنَّ كثيراً من المؤمنين كانوا على حافَّة الإيمان، بمعنى أنَّ أيَّة حالة متشابهة يمكن أن تؤدِّي بهم إلى التَّراجع عن الإيمان، وقد جاء ذكر أقوالهم والدِّفاع عن النَّبيِّ ﷺ في مقابلها في آيات قرآنيَّة نزلت بنحوٍ معاصرٍ لتلك الظُّروف نفسها.

وإذا كان ﷺ في بيته فهو بين أزواجه الَّلائي كُنَّ من أقارب أصحابه من مؤمنين ومنافقين، فتتسرَّب أحواله إليهم وإلى عامَّة المجتمع ـ كما وقع ذلك فعلاً حسبما يتمثَّل في الأخبار المرويَّة عن أزواجه ـ.

ونظراً لتعدُّد أزواجه والغيرة بينهنَّ وانعكاس ذلك على تعاملهنَّ معه كانت أحواله

داخل بيته معروفة، حيث كان ينزل بشأنها قرآنٌ يُتلى على المجتمع جميعاً، يتضمَّن تحذير أزواجه عمَّا لا ينبغي لهنَّ، ونهيهنَّ عن إيذائه، كما جاء في سورتي الأحزاب والتَّحريم.

وبذلك كلِّه كان أخصُّ خصوصيَّاته ﷺ من قبيل: عبادته، ونومه، ومأكله، ومشربه، وأخلاقيَّاته داخل البيت، أموراً معروفةً وواضحةً لَمن يريد الاطِّلاع عليها. ومن ثَمَّ كانت حياةُ النَّبيِّ ﷺ حياةً مكشوفةً وواضحة، ليس شيء منها في طيِّ السِّرِّيَّة والكتمان.

وهذا كما ذكرنا من قبل يدلُّ على مبلغ سلامة النَّبيِّ ﷺ؛ لما يعلمه كلُّ إنسانٍ من صعوبة كشف جميع تفاصيل حياة الإنسان للمجتمع حتَّى داخل البيت في ممارساته وأحاديثه مع أزواجه وغير ذلك.

وقد كان ذلك فيما يبدو أمراً مقصوداً في شأنه حتَّى لا يكون هناك أيُّ غموضٍ في شخصيَّته وشؤونه يثير الرِّيبة، ويفتح الباب على الاحتمالات والشُّكوك، بل يكون موجباً للطَّمأنينة والسَّكينة والثِّقة وفق أساسٍ موضوعيّ، وليس على أساس القوَّة أو العواطف المحضة.

والملاحَظ أنَّه قد اعتُني أن ينعكس كلُّ ما يدور في المجتمع العامّ أو في داخل أسرة النَّبيِّ ﷺ في القرآن الكريم، وهو كتاب يُتلى حتَّى يكون ذلك مؤكِّداً لعنصر الوضوح والجلاء في شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ وأحواله وأفعاله، فإذا قال المنافقون شيئاً نُقل قولهم في القرآن الكريم وأُجيب عنه، وإذا حدثت في بيته ﷺ مشكلة بينه وبين أزواجه نُقل ذلك فيه، وعُلِّق عليه بشكلٍ صريحٍ.

وبالالتفات إلى هذه النُّكتة يتَّضح أنَّ أحوال النَّبيِّ ﷺ بعد البعثة تصلح بنفسها مرتكزاً لإثبات صدقه فيما جاء به من الرِّسالة؛ إذ يزول كثيرٌ من الشُّكوك والاحتمالات في

شأن النَّبيِّ ﷺ بملاحظتها، فلم يكن يُحتمل أن يلتقي خلسةً برجلٍ يعلِّمه ويتلقَّى منه التَّعاليم الَّتي يذكرها، كما لم يكن يُحتمل أن يكون القرآن الكريم كلاماً صادراً من النَّبيِّ ﷺ يتكلَّف في ترتيبه في وقتٍ يختلي بنفسه ثُمَّ يظهره لقومه، وكذلك لم يكن من المحتمل أن يكون إنساناً كاذباً غير معتقدٍ بما ينقله، ولكنَّه أراد أن يلي جاهاً أو يصلح المجتمع فحسب، بل كانت أحواله وسلوكيَّاته وتصرُّفاته كلُّها دليلاً على أنَّه ﷺ كان يعتقد ويعمل بكلِّ ما يذكره، ويخشى الله سبحانه في ذات نفسه أشدَّ من خشية الآخرين له.

وهذا كلُّه واضح بشكلٍ غير مباشرٍ من خلال القرآن الكريم ودلالاته على الظُّروف والبيئة الَّتي نزل فيها.

دلالة ملاحظة تعامل النَّصّ القرآنيّ مع الرَّسول

(المرتكز السَّابع): ـ من مرتكزات إثبات صدق الرُّسل لمجتمعاتهم وفق ما يتمثَّل في القرآن الكريم ـ ملاحظة تعامل النَّصّ الإلهيِّ القرآنيِّ مع النَّبيِّ ﷺ، فهذا النَّصُّ بأدبيّاته ولغته يتعامل مع النَّبيِّ ﷺ بمباينةٍ، بل وبفوقيَّةٍ واستعلاءٍ واضح، كما أمره بالإيمان بسائر أنبياء الله سبحانه والاقتداء بهم، وهدَّده في حال أيِّ تخلُّف بالأخذ الشَّديد، ولم يستجب لرغبته بمزيدٍ من الآيات عسى أن يؤمن بها قومه، ونبَّه على أنَّ الفضل في النَّجاحات الَّتي تيسَّرت له يعود إلى الله سبحانه، وعتب على مسارعته في بعض الأمور، إلى غير ذلك من المعاني الَّتي لن يمكن فرض صدورها من الشَّخص تجاه نفسه حتَّى في حال قدرته على الازدواجيَّة والتَّمثيل بأقصى مراتبها؛ لما فيه من النَّقد المحرِج المعلَن للشَّخص بنحوٍ يكون قرآناً يُتلى، ويقف عليه أهل الدِّين من الحاضرين والأجيال المقبلة.

يضاف إلى ذلك عدم انسجام هذا الافتراض مع طبيعة شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ في الصِّدق والاسترسال والبُعد عن التَّكلُّف، وفيما يلي جملة من تلك الآيات:

١ ـ قال سبحانه(١): ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّـهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

٢ ـ وقال تعالى(٢): ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّـهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٣ ـ وقال سبحانه(٣): ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّـهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللَّـهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

٤ ـ وقال تعالى(٤): ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

٥ ـ وقال عزَّ وجلَّ(٥): ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾.

٦ ـ وقال جلَّ جلاله(٦): ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّـهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٦ ـ ١٢٨.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٨.

(٣) سورة التَّوبة: ٤٢ ـ ٤٣.

(٤) سورة الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥.

(٥) سورة الحاقَّة: ٤٤ ـ ٤٧.

(٦) سورة الأنعام: ٣٣ ـ ٣٥.

وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّـهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

٧ ـ وقال سبحانه[1]: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

٨ ـ وقال تعالى[2]: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّـهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

٩ ـ وقال عزَّ من قائل[3]: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّـهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّـهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّـهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّـهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّـهِ مَفْعُولًا * مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّـهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّـهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّـهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

١٠ ـ وقال جلَّ ذكره[4]: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّـهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا﴾.

١١ ـ وقال تعالى[5]: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّـهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّـهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

---

(١) سورة القيامة: ١٦ ـ ١٩.

(٢) سورة القصص: ٥٦.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٧ ـ ٣٨.

(٤) سورة الكهف: ٢٣ ـ ٢٤.

(٥) سورة النِّساء: ١١٣.

وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّـهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

إنَّ عامَّة الآيات القرآنيَّة تتعامل مع النَّبيِّ ﷺ ـ بل ومع سائر الأنبياء، ومع عامَّة المجتمع ـ بنَفَسٍ مغايرٍ بوضوح لنَفَس الرَّسول نفسه وطريقته وأسلوبه، فهي تتكلَّم مع الرَّسول ـ مثلاً ـ بآدابٍ ونَفَسٍ استعلائيٍّ واضح مهيمن على الرَّسول، ومتحكِّم في سلوكه، ويختلف أدبه معه عن الأدب اللَّائق لسائر النَّاس في الخطاب معه، وهو ما يدلُّ على أنَّه من إنشاء جهةٍ أخرى دون الرَّسول نفسه.

دلالة كيفيَّة تلقِّي الرُّسل للنَّصِّ الرِّساليِّ على صدقهم

(المرتكز الثَّامن): ـ من مرتكزات إثبات صدق الرُّسل لمجتمعاتهم وفق ما يتمثَّل في القرآن الكريم ـ كيفيَّة تلقِّي النَّبيِّ المرسل للنَّصِّ المنزل.

ذلك أنَّ النَّصَّ الَّذي يأتي به النَّبيُّ المرسل إذا كان نصَّاً مجعولاً من عنده فيكون هو المتحكِّم في النَّصِّ كما يشاء. وإذا كان نصَّاً نازلاً عليه فيكون النَّصُّ هو المتحكِّم فيه وفي أحواله، فقد يقع في مشكلةٍ فينتظر النَّصَّ حتَّى يأتيه بحلٍّ لها، وقد يتوقَّف في موقف فيأتيه النَّصُّ مقوِّياً لإرادته، وقد يُسْأَل عن موضوعٍ فينتظر أن يأتي النَّصُّ مجيباً عن السُّؤال، وقد يتَّخذ موقفاً فيأتيه النَّصُّ معاتباً له بما لم يتوقَّعه، ونحو ذلك من الحالات الَّتي يجدها الإنسان في حال أداء مهمَّةٍ صعبةٍ عن الغير، حيث إنَّه يجد نوعاً من التَّأثُّر بالغير، والاتِّكال عليه، والانتظار لموقفه ولتعليماته، بخلاف ما إذا كان الإنسان هو الرَّأس في الموضوع الَّذي ينشط فيه والمهمَّة الَّتي يتصدَّى لها.

فهناك بون كبير بين الأمرين في السُّلوكيَّات والأفعال وردود الأفعال، وليس باستطاعة المرء أن يمثِّل دوراً غير ما هو الواقع في مدَّةٍ طويلةٍ ـ كنيِّفٍ وعشرين سنة والَّتي هي مدَّة بعثة نبيِّ الإسلام ﷺ إلى وفاته ـ، لاسيَّما إذا كانت عمليَّة التَّأثير في المجتمع

مقرونةً بحوادث متوالية مستمرَّة من: تشويهٍ، وخصومةٍ، واضطهادٍ، وتهديدٍ، وحصارٍ، وحروبٍ ـ كما عليه الحال تقريباً في تمام مدَّة حياة نبيِّ الإسلام ﷺ بعد البعثة ـ.

ومَن لاحظ سياق الآيات القرآنيَّة الَّتي نزلت نزولاً متدرِّجاً منذ بداية البعثة إلى وفاة النَّبيِّ ﷺ طوال أكثر من عشرين سنة مقروناً بالحوادث الاجتماعيَّة المختلفة وجد أنَّها تعبِّر تعبيراً بليغاً وواضحاً عن أنَّ تعامل النَّبيِّ ﷺ مع النَّصِّ القرآنيِّ كان تعامل مَن يتلقَّاه من جهةٍ مهيمنةٍ على الموقف، وليس من قبيل تعامل مَن يكون النَّصُّ أداةً مسخَّرةً له، فهو يُنشِئه حسب رغبته وإرادته.

وهذا المعنى ممَّا يؤكِّده تتبُّع الآثار التَّاريخيَّة والرّوائيَّة الواردة في شأن نزول الآيات وأجوائها، والَّتي نجد قرائن صدقها من سياق الآيات نفسها، كما أنَّ فيما تقدَّم توضيحه من عناصر شخصيَّة النَّبيِّ المرسل وطباعه ـ كالصِّدق، وطيب النَّفْس، والاسترسال، وعدم التَّكلُّف ـ ما يساعد على توضيح تلك الدّلالات في الآيات والحوادث المرافقة لها.

والآيات الَّتي تتضمَّن تلك الدّلالة بدرجة أو أخرى هي مجموعات عديدة:

(**منها**): الآيات الَّتي تُصبِّر النَّبيَّ ﷺ تجاه الصُّعوبات الَّتي يعاني منها في تبليغ التَّوحيد وسائر مبادئ الدِّين، وقد تقدَّم ذكر طائفةٍ منها قريباً.

و(**منها**): الآيات الَّتي تتضمَّن بعض العتاب على النَّبيِّ ﷺ في مواضعٍ جرى فيها على طبعه الكريم في الرِّفق والتَّغاضي، وقد تقدَّم بعضها.

وممَّا يتعلَّق بذلك ما ورد في استبطاء تبليغه لما أُمر به حتَّى وإن كان هذا التَّأخُّر لهواجس واعتباراتٍ ترجع إلى حسن أداء الرِّسالة واستجابة النَّاس.

ومن ذلك قوله تعالى(١): ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا**

---

(١) سورة المائدة: ٦٧.

بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّـهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

ويبدو من سياق الآية أنَّ المأمور به كان أمراً مهمّاً في الدِّين يَحْذَرُ فيه النَّبيُّ ﷺ ردَّ فعل النَّاس وارتدادهم عن الدِّين، ويبدو من الآثار أنَّ هذا الأمر كان تبليغ ولاء الإمام عليّ عليه السلام والَّذي أمر به النَّبيُّ ﷺ في حجَّة الوداع، لكنَّه عندما تحدَّث عن الإمامة في مسجد الخيف بمِنى في اجتماع النَّاس، وذكر أنَّ الإمامة لقريش، وأنَّ الأئمَّة اثنا عشر حدث ضجيجٌ لم يُسمَع معه الصَّوت، فأخَّر ذلك حتَّى تمَّ الحجُّ وتحرَّك الحجَّاج للرجوع، وبلغ مفترق طرق الحجَّاج بـ(غدير خمٍ) وكأنَّه كان ينتظر دعماً إلهيَّاً خاصَّاً بهذا الموقف فنزلت الآية وبلَّغ هذا الأمر.

ومن هذا الباب ما ذكرناه من قوله تعالى[1]: **﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّـهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّـهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّـهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّـهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّـهِ مَفْعُولًا * مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّـهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّـهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّـهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّـهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّـهَ وَكَفَى بِاللَّـهِ حَسِيبًا * مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـكِن رَّسُولَ اللَّـهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّـهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾**.

ويبدو أنَّ موضوع الآية أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان قد أُخبر من خلال الوحي (غير القرآنيِّ) أنَّ زيداً ـ الَّذي كان ابن النَّبيِّ ﷺ بالتَّبنِّي ـ سوف يطلِّق زوجته زينب، وأنَّ على النَّبيِّ ﷺ إذا طلَّقها أن يتزوَّجها حكماً من الله سبحانه؛ تثبيتاً لإلغاء فكرة التَّبنِّي في الإسلام،

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٧ ـ ٤٠.

حتَّى لا يجد النَّاس حرجاً في الزَّواج من زوجات مَن سبق لهم تبنِّيه تأسِّياً بالنَّبيِّ ﷺ، إلَّا أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان في حرجٍ اجتماعيٍّ من ذلك؛ لما يجده من الحزازة من إبداء الرَّغبة في زوجة مَن يُعَدُّ بمثابة ابنه اجتماعيَّاً.

نعم، كان الله سبحانه قد ألغى من قبل التَّبنِّي، إلَّا أنَّ الحزازة الاجتماعيَّة في هذا الأمر كانت موجودةً بطبيعة الحال، ممَّا يؤدِّي إلى إساءة الظَّنِّ به ﷺ ووقوعه في مواقع الرِّيبة والاتِّهام، لاسيَّما أنَّه لم ينزل بها أوحي إليه قرآن يُتلى يتضمَّن أمره بالزَّواج منها، ولكنَّه ﷺ استجاب للوحي طاعةً لله سبحانه، ثُمَّ نزلت هذه الآية تبيِّن حقيقة ما جرى في هذا الشَّأن، وليس هذا المشهد مصطنعاً بحالٍ من قِبَله ﷺ، ولاسيَّما مع ما عرفت من طباعه وسمات شخصيَّته.

و(**منها**): الآيات الَّتي تجيب عمَّا يُعرَض على النَّبيِّ ﷺ من الأسئلة، فينتظر ﷺ الوحي حتَّى ينزل عليه بالجواب، وتلك الأسئلة يتعلَّق جلُّها بالتَّشريع في شؤون الحياة، كالسُّؤال عن: الأنفال، والميراث، وعن الأشياء المحلَّلة لهم، وعمَّا ينفقونه، وعن القتال في الشَّهر الحرام، وعن الخمر والميسر، وعن التَّعامل مع اليتامى، وعن التَّعامل مع المرأة في حال الحيض، ومنها أسئلة عن موضوعات مستقبليَّة أو حوادث سابقة، كالسُّؤال عن السَّاعة، وعن ذي القرنين، وعن حال الجبال (عند حلول السَّاعة)، ومنها سؤال عن بعض الموجودات مثل الأهلَّة والرُّوح.

وربَّما سُئل النَّبيُّ ﷺ عن شيءٍ فوعد بالجواب إلى وقتٍ يتوقَّع نزول الوحي عليه فتأخَّر الوحي، ونُهِيَ ﷺ أن يعد بوقتٍ محدَّدٍ وعداً جازماً، بل يستثني بمشيئة الله سبحانه، كما قيل في قوله تعالى[1]: ﴿**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّـهُ وَاذْكُر**

---

(١) سورة الكهف: ٢٣ ـ ٢٤.

رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَـذَا رَشَدًا﴾.

و(**منها**): آيات تقوِّي من عزيمته واطمئنانه، وتأمره بالتَّوكُّل على الله سبحانه في ما يجده من المصاعب والشَّدائد في أداء الرِّسالة، كما قال تعالى[1]: ﴿**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّـهِ إِلَـهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾، وقال عزَّ من قائل[3]: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّـهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ وَكَفَى بِاللَّـهِ وَكِيلًا**﴾.

وعلى العموم، فإنَّ من كان يعاشر النَّبيَّ المرسل كان يجد عياناً ويلمس بوضوح ـ حسب ما يتمثَّل في النَّصِّ القرآنيِّ ـ من خلال أحواله في التَّعامل مع نصِّ الرِّسالة أنَّه فعلاً وسيطٌ بين النَّاس وصاحب النَّصِّ، وأنَّه يتفاعل مع النَّصِّ تفاعل المستجيب للنَّصِّ وليس المبدع له، وهذا المعنى يتمثَّل بشكلٍ واضحٍ في آيات القرآن الكريم الَّتي نزلت تدريجاً مرافقةً مع سيرة النَّبيِّ ﷺ في أداء الرِّسالة.

---

(١) سورة النَّمل: ٧٩ ـ ٨١.

(٢) سورة الشُّعراء: ٢١٣ ـ ٢٢٠.

(٣) سورة الأحزاب: ١ ـ ٣.

بشائر الأنبياء السَّابقين بالرَّسول الجديد

(المرتكز التَّاسع): ـ من مرتكزات إثبات صدق الرُّسل لمجتمعاتهم وفق دلالة القرآن الكريم ـ بشائر الأنبياء السَّابقين بالنَّبيِّ المرسل اللَّاحق، وهو الدَّليل المقارن بين الأديان.

إنَّ من أهمِّ عوائق تصديق الأنبياء الجدد ـ وفق ما يتَّضح من خلال القرآن الكريم، وكذلك التَّوراة والإنجيل ـ ما كان يتَّفق في الوسط الَّذي يتَّبع الأنبياء السَّابقين من مقاومة أيِّ نبيٍّ جديد يُرسَل للنَّاس؛ إذ كان يتكوَّن في داخل المجتمع الدِّينيِّ رجالُ دينٍ يعتبرون أنفسهم ورثةً للأنبياء السَّابقين، وذا مكانةٍ مرموقةٍ وشأنٍ كبيرٍ في الوسط الدِّينيِّ، وكان ذلك ممَّا يعيق تسليمهم للنَّبيِّ الجديد وإذعانهم بحقَّانيَّته واتِّباعهم لتعاليمه، ومن ثَمَّ كانوا يكذِّبون النَّبيَّ الجديد ويحاربونه، ويطبِّقون عليه النُّصوص الدِّينيَّة الَّتي تحذِّر من أدعياء النُّبوَّة كذباً.

وهذا أمرٌ متوقَّعٌ بطبيعة الحال، وهو ما قد وقع من بني إسرائيل (اليهود) تجاه المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وفق اعتقاد المسيحيِّين، وما وقع منهم ومن المسيحيِّين تجاه نبيِّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وفق اعتقاد المسلمين.

ولأجل إزالة الالتباس من هذه الجهة تضمَّنت نصوص الأديان بشائر بالأنبياء الجدد على نحو يتَّضح في وقته عند بعثتهم، فيكون الإيمان بالنَّبيِّ اللَّاحق من جملة تعاليم الدِّين وبنوده في الدِّين السَّابق، كما كُلِّف الرَّسول اللَّاحق والَّذين يؤمنون به بتصديق الرَّسول السَّابق حتَّى لا يقع أتباعه في تفنيد الرِّسالات السَّابقة من جهة المقابلة بينهم وبين أتباع تلك الرِّسالات[1].

---

(١) كما نجد في القرآن الكريم مكرَّراً ذكر كون الرَّسول مصدِّقاً لما بين يديه من آثار الرُّسل السَّابقة

وهذا المعنى على ما يبدو كان أشبه بقاعدةٍ كلِّيَّة في الموارد المناسبة، حيث يكون الرَّسول الجديد مبعوثاً إلى بيئة أُرسل فيها رسولٌ سابقٌ، أو يوجد فيها قومٌ ممَّن ينتسبون إلى الرَّسول السَّابق، ويرون أنفسهم متمسِّكين بتعاليمه، ولاسيَّما إذا جاء هذا الرَّسول بتشريعاتٍ ناسخةٍ لبعض تشريعات الرَّسول السَّابق، فإنَّه يصعب تقبُّله على القيادة الدِّينيَّة

وأمره بإبراز الإيمان بالرُّسل السَّابقة، كما قال تعالى خطاباً لبني إسرائيل: ﴿**وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ**﴾ (سورة البقرة: ٤١)، وقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ**﴾ (سورة البقرة: ٩١، ولاحظ البقرة: ٩٧، وآل عمران: ٣، والمائدة: ٤٨، وفاطر: ٣١، والأحقاف: ٣٠، ويونس: ٣٧، ويوسف: ١١١).

وكذلك أكَّد على إيمان الرَّسول بالرُّسل السَّابقة، كما قال تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ (سورة البقرة: ٢٨٥)، وقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا**﴾ (سورة النِّساء: ١٣٦)، وقال عزَّ من قائل: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّـهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (سورة البقرة: ١٣٦)، وقال جلَّت آلاؤه: ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّـهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (سورة آل عمران: ٨٤ ـ ٨٥).

كما أكَّد على عدم التَّفريق بين الرُّسل في الإيمان، كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّـهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّـهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا**﴾ (سورة النِّساء: ١٥٠)، ومثلها بعض الآيات السَّابقة.

من أتباع الرَّسول السَّابق، وكذلك إذا لم يكن الرَّسول الجديد من الشَّخصيَّات الأبرز فيستنكف علية القوم من اتِّباعه والانقياد لتعاليمه حينئذٍ وفق العوامل الاجتماعيَّة.

قال تعالى[1]: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّـهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾.

وقال الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة بعد ذكر إرساله تعالى للرُّسل[2]: ((وَلَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَاب مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لاَزِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ، رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَلاَ كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ: مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ. عَلَى ذْلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ، وَمَضَتِ الدُّهُورُ، وَسَلَفَتِ الآباءُ، وَخَلَفَتِ الأَبْنَاءُ. إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم لإِنْجَازِ عِدَتِهِ وَإِتَمامِ نُبُوَّتِهِ، مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ، كَرِيماً مِيلادُهُ)).

ومن مصاديق ذلك ما وقع في توراة موسى عليه السلام الموجودة، وما لحقها من كتب أنبياء بني إسرائيل من تكرُّر بشارة الأنبياء السَّابقين بالأنبياء الَّذين سوف يأتون بعدهم، ومن ذلك بشارتها بالمسيح عليه السلام في نصوصٍ عديدةٍ ومتكرِّرةٍ، إلَّا أنَّ اليهود ـ وهم الَّذين لم يصدِّقوا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام في ما جاء به من النُّبوَّة وعدَّوه دجَّالاً ـ زعموا أنَّه ليس هو الشَّخص المبشَّر به في التَّوراة، وهم لا يزالون ينتظرون المسيح الحقيقيّ.

هذا، ويلاحَظ أنَّ بشائر الأنبياء السَّابقين بالنَّبيِّ الجديد لا يقتصر نفعها على إثبات

---

(١) سورة آل عمران: ٨١ ـ ٨٢.

(٢) نهج البلاغة ص: ٤٣ ـ ٤٤، الخطبة: ١.

صدق الرِّسالة الجديدة للتَّابعين لهؤلاء الأنبياء فقط، بل تفيد في إثباتها للآخرين من جهة أنَّه يمثِّل دلالةً تاريخيَّةً قويَّةً تدلُّ على وجود واقعٍ حقيقيٍّ في منظومة النَّاقلين للرِّسالة، فبشائر التَّوراة وما بعدها من كتب أنبياء بني إسرائيل بالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام متى كانت واضحةً وموثوقةً تاريخيًّاً تنفع في إثبات حقَّانيَّة كلا الرَّسولين المبشِّر والمبشَّر به بطبيعة الحال.

كما جاء في القرآن الكريم خطاباً لمشركي العرب[١]: ﴿**وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ**﴾.

بشائر التَّوراة والإنجيل بحسب القرآن بنبيِّ الإسلام ﷺ

هذا، وقد جاء في القرآن الكريم بشارة التَّوراة والإنجيل بالنَّبيِّ ﷺ على نحوٍ يبدو أنَّ انطباقها على النَّبيِّ ﷺ كان واضحاً لدى اليهود والنَّصارى الَّذين كانوا في الجزيرة العربيَّة، حتَّى أنَّهم كانوا يبحثون عن نبيٍّ موعودٍ في تلك البلاد من قبل، فلمَّا جاءهم تنكَّروا له، ولم يؤمنوا به، قال سبحانه[٢]: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾، وقال تعالى[٣]: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّـهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ**

(١) سورة الشُّعراء: ١٩٦ ـ ١٩٩.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٣) سورة الصَّفّ: ٦.

مُّبِينٌ﴾، وقال جلَّت آلاؤه[1]: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقال عزَّ وجلَّ[2]: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾، وقال تعالى[3]: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ... وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّـهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّـهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّـهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أين هي بشائر التَّوراة والإنجيل بنبيِّ الإسلام ﷺ؟

وربَّما قد يسأل السَّائل عن تلك البشائر في التَّوراة والإنجيل بنبيِّ الإسلام ﷺ فأين هي فعلاً إذا كانت محفوظةً في ما بقي من التَّوراة والإنجيل حتَّى ظهور الإسلام؟ فإنَّ ما كان محفوظاً إلى زمان ظهور الإسلام فعلاً قد بلغنا في هذا العصر؛ لعدم طروِّ أيِّ تغييرٍ تاريخيٍّ على الكتابين بعد ظهور الإسلام؛ لما ذُكر من أنَّ لكلٍّ من التَّوراة والإنجيل نسخاً موجودةً ممَّا قبل الإسلام[4].

---

(١) سورة البقرة: ١٤٦.

(٢) سورة الأنعام: ٢٠.

(٣) سورة البقرة: ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١.

(٤) أقدم ما يوجد من نسخ العهد القديم مخطوطات البحر الميت المعروفة الَّتي تمَّ العثور عليها سنة (١٩٤٧م) بعضها عبريَّة تاريخ كتابتها حدود (١٥٠ق.م) وبعضها آراميَّة ترجع إلى (١٥٠ق.م ـ ٧٠م)

والواقع: أنَّ هذا البحث ليس معقوداً أصالةً لإثبات حقَّانيَّة الإسلام بخصوصه، بل لإثبات حقَّانيَّة الدِّين، ولكنَّنا قد تعرَّضنا للإسلام لكونه حلقةً أخيرةً في هذه السِّلسلة لم تُطمَس، ولم تشتبه شواهده، ليكون مثالاً ونموذجاً للرِّسالات الإلهيَّة.

ولكنَّا مع ذلك نذكر توضيحاً بهذا الشَّأن على سبيل الإيجاز في نقاطٍ ثلاث تتضمَّن إجمالاً ما يلي:

١ ـ المؤشِّرات التَّاريخيَّة الَّتي تستبطنها الآيات القرآنيَّة ومضامينها.

٢ ـ العوارض الَّتي تكون نصوص البشارات في التَّوراة والإنجيل مظنَّةً لها.

٣ ـ عرض موجز لبعض نصوص البشارات في التَّوراة والإنجيل.

دلالة القرآن الكريم على وجود تلك البشائر في العهدين

(**النُّقطة الأولى**): إنَّ الآيات القرآنيَّة الَّتي تدلُّ على وجود تلك البشائر لا يجوز تاريخيَّاً أن تنطلق من فراغ، بل لا بُدَّ أن يكون ما يشير إليها مشهوداً تاريخيَّاً في حينه، وذلك:

(**أوَّلاً**): أنَّ هذه الآيات قد جاء بها نبيُّ الإسلام ﷺ في مجتمعٍ كان أهل الكتاب جزءاً منه، حيث كان يجاور اليهود والنَّصارى مثل بني النَّضير، وبني قريظة، ونصارى

وبعضها يونانيَّة ترجع إلى (٧٠م) والمخطوطة السّبعونيَّة (١٠٠ ـ ٣٠٠ق.م) والمخطوطة الفاتيكانيَّة (أجزاء ـ القرن ٢ق.م) والمخطوطة السّينائيّة (كاملة ـ القرن ٤م) وهناك نسخة بشيطتا ـ سريانيَّة (أوائل القرن ٥م) ومخطوطة فولغاتا ـ لاتينيَّة (أوائل القرن ٥م) وتوجد برديّات أقدم من ذلك.

وأمَّا العهد الجديد فأقدم ما يوجد من نسخها مخطوطات جون رايلاند (١٣٠م) ومخطوطات تشستري بيتي (٢٠٠م) وبرديّة بُدمر (١٥٠م ـ ٢٠٠م) والنّسخة الفاتيكانيَّة (٣٢٥م ـ ٣٥٠م) وهي باليونانيَّة والنُّسخة السّينائيَّة (٣٥٠م) والنُّسخة الاسكندرانيَّة (٤٠٠م) والنُّسخة الافراميَّة (٤٥٠م) والنُّسخة الاخميميَّة (٤٠٠م).

نجران.

وتتضمَّن الآيات القرآنيَّة الكريمة جزءاً كبيراً في محاجَّة هؤلاء ـ المعبَّر عنهم بـ(أهل الكتاب) ـ منذ هجرة النَّبيِّ ﷺ إلى المدينة الَّتي كان هؤلاء متواجدين فيها ومن حولها، وكان فريقٌ من هؤلاء من أشدِّ المعارضين لهذه الرِّسالة الجديدة والمجادلين في شأنها، كما يتمثَّل في الآيات القرآنيَّة الكريمة، كقوله تعالى[1]: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾، وقوله سبحانه[2]: ﴿**وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّـهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّـهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّـهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّـهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾، وقوله عزَّ من قائل[3]: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّـهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾، وقوله جلَّت آلاؤه[4]: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ**

---

(١) سورة آل عمران: ٦٥.

(٢) سورة آل عمران: ٦٩ ـ ٧٣.

(٣) سورة آل عمران: ٩٨ ـ ١٠٠.

(٤) سورة النِّساء: ١٥٣.

فَقَالُوا أَرِنَا اللَّـهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾، وقوله سبحانه[1]: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾، وقوله تعالى[2]: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾.

وقد جاء خطاب بني إسرائيل خاصَّةً في آيات كثيرة، كقوله جلَّ وعلا[3]: ﴿**سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّـهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّـهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾، وقوله عزَّ من قائل[4]: ﴿**إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾.

وعليه: فلو كان ادِّعاء وجود بشائر واضحة في التَّوراة والإنجيل غير صادقٍ ـ ولا سيَّما البشارة الصَّريحة المحكيَّة عن قول عيسى عليه السلام في سورة الصَّفّ ـ لردُّوا عليه بتكذيبه، وكانت لهم الحجَّة الواضحة على تكذيب النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم بما يؤدِّي إلى فلج حجَّته وبطلانها أمام المجتمع العامّ، وهو أمر لو كان موجوداً لنُقل في القرآن الكريم والسِّيرة النَّبويَّة وسُعي إلى الجواب عنه ولو على نحوٍ متكلّفٍ، بينما لا نجد أيّ تكذيبٍ منهم لذلك.

و(**ثانياً**): بل إنَّنا نجد أنَّ قوماً من أهل الكتاب عامَّةً ومن الأحبار والرُّهبان خاصَّةً

---

(١) سورة المائدة: ٦٨.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٦.

(٣) سورة البقرة: ٢١١.

(٤) سورة النَّحل: ٧٦.

قد آمنوا بدين الإسلام، ودخلوا فيه اقتناعاً باحتجاجاته على أهل الكتاب، كما قال تعالى[(١)]: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّـهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَـٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، وقال سبحانه[(٢)]: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّـهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّـهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّـهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّـهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾، وقال عزَّ من قائل[(٣)]: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّـهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**﴾.

وقد حُكي تفصيل ذلك في تاريخ السِّيرة النَّبويَّة في ذكر شأن نزول هذه الآيات. ومن المعلوم أنَّه لا يصحُّ طرح هذه المدَّعيات في المجتمع إذا لم يكن هناك واقعٌ خارجيٌّ مشهود يصدِّقه بإيمان جماعةٌ من الأحبار والرُّهبان بهذه الرِّسالة الجديدة.

و(**ثالثاً**): بل إنَّ القرآن الكريم يستشهد بأهل الكتاب على المشركين العرب الَّذين كانوا يشترطون شروطاً غريبة للإيمان بالرَّسول كأن يبعث إليهم ملكاً، أو يُنزل عليهم أنفسهم كتاباً أو غير ذلك، وكان أهل الكتاب قادرين على أن يبيِّنوا لهم سُنَّة الله سبحانه في

---

(١) سورة آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٩.

(٣) سورة المائدة: ٨٢ ـ ٨٤.

إرسال الرُّسل ونزول الآيات.

ولأجل ذلك اعتُبر أهلُ الكتاب شهداءَ على سائر النَّاس، قال تعالى(١): ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّـهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾، وقال سبحانه(٢): ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾، وقال عزَّ من قائل(٣): ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ**﴾، وقال جلَّت آلاؤه كما تقدَّم(٤): ﴿**أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾.

إذن، لو لم تكن تلك البشائر ـ الَّتي نقلها القرآن الكريم عن التَّوراة والإنجيل ـ موجودةً لدى أهل الكتاب الموجودين في مجتمع الرِّسالة لافتضحت الرِّسالة، وبان عدم صدقها أمام النَّاس، ولتمثَّل ذلك في التَّاريخ الإسلاميِّ ولو في مقام الجواب عنه ـ كما تمثَّلت فيه أشياءٌ كثيرة من أقاويل المكذِّبين للرِّسالة ـ، وهذا ما لا نجده بتاتاً. فيدلُّ ذلك على وجود مصداقيَّة مشهودة لما جاء في القرآن الكريم من بشائر الإنجيل والتَّوراة بالرَّسول الأعظم ﷺ ولا سيَّما البشارة في الإنجيل بالاسم.

والواقع: أنَّ قدرة القرآن الكريم على مخاطبة اليهود والنَّصارى وعلمائهم، والاحتجاج عليهم، ونقل حججهم، والتَّعليق المعقول عليها، وإقناع جماعةٍ منهم ذات مغزىً كبير جدَّاً في صدق هذه الرِّسالة، لا يقارَن بالاحتجاج على مشركي العرب

(١) سورة آل عمران: ٩٩.

(٢) سورة الأنبياء: ٧.

(٣) سورة النَّحل: ٤٣ ـ ٤٤.

(٤) سورة الشُّعراء: ١٩٧.

وإقناعهم؛ ذلك أنَّ مشركي العرب لم يكن لهم كتابٌ إلهيٌّ يتَّبعونه، ولا علماء عالمين بتفاصيل الدِّين، ولا عقائد ومناهج ومؤسَّسات دينيَّة مرتَّبة، وهم لا يهتدون بطبيعة الحال إلى سُبل التَّأويل والتَّحوير والاحتجاج، بل كانوا يتَّبعون أموراً خرافيَّة واضحة البطلان، وأمَّا اليهود والنَّصارى فكان لهم كتاب يدرسون فيه، وعلماء يعلمون الكتاب، ويقودون جمهور أهل الدِّين، وهم يتقنون سبل الاحتجاج والإخفاء والكتمان والتَّحوير، ويستطيعون إحراج الرَّسول ـ إن لم يتَّصل بمنبعٍ مهيمنٍ على كتبهم ـ من خلال الأسئلة المتعلِّقة بالعقائد، وتاريخ الأنبياء وسائر ما يشتمل عليه التُّراث الدِّينيِّ، فالقدرة على مواجهتهم بخطابٍ عقلانيٍّ ومناسبٍ من غير فلج وتعسُّفٍ أمر يدلُّ على الهيمنة الكبيرة على مجمل التُّراث السَّابق ومضامينه الاعتقاديَّة والتَّاريخيَّة والثَّقافيَّة والتَّشريعيَّة، ولا شكَّ في أنَّ مثل هذا أمر لم يكن متاحاً لرسول الإسلام ﷺ وفق شخصيَّته المتمثِّلة في تاريخ نشأته وبيئته مع أمّيَّة قومه وبداوتهم وجهلهم واعتمادهم على أمور خرافيَّة بيِّنة.

فكان الإتيان بكتابٍ مصدِّقٍ لما سبق، بل ومهيمنٍ عليه ـ كما قد جاء في القرآن الكريم[١] ـ معلماً واضحاً على اتِّصال هذا الرَّسول بمنبعٍ يستمدُّ منه ويسدِّده في خطاه، فتأمَّل ذلك جيِّداً.

عوارض نصوص البشارات في التَّوراة والإنجيل

(النُّقطة الثَّانية): في العوارض الَّتي تكون نصوص البشارات مظنَّةً لها في التَّوراة والإنجيل.

إنَّ نصوص البشارات مظنَّةٌ لعوارض عامَّة وأخرى خاصَّة بها.

---

(١) كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (سورة المائدة: ٤٨).

العوارض العامَّة

أمَّا العوارض العامَّة: فهي ما يكون النَّصُّ الدِّينيّ مظنَّةً له من وجوه الزِّيادة والنُّقصان والإبهام بمرور الزَّمن عدا القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم يُعتبر حالةً فريدةً في السَّلامة من هذه العوارض؛ لوقوع الاهتمام فيه بصياغته ومضمونه جميعاً، حيث إنَّه قد طُرح كنصٍّ معجزٍ في أدائه وخصائص ألفاظه ممَّا اقتضى حفظ هذه الرِّسالة بلفظها حفظاً دقيقاً، فسلم بذلك من عوارض النَّقل بالمعنى، سواءً كان بشكلٍ طبيعيٍّ لسهولة النَّقل بالمعنى، وإدخال الإيضاحات الملحقة في المتن، أو كان مقصوداً ومتعمداً من أجل تحوير النَّصِّ وتوجيهه إلى منحىً آخر.

كما اقتضى حفظ النَّصِّ الاهتمام بلغته وآدابه ممَّا حفظ اللُّغة العربيَّة بمستواها الَّذي كانت عليه في زمان نزول القرآن، وجعل لغته حيَّةً ومفهومةً بلا حاجةٍ إلى تعمُّقات استثنائيَّة وتخصُّصيَّة كما هو حال اللُّغات التَّاريخيَّة، فلم تحل ترجمةُ القرآن الكريم بلغةٍ أخرى محلّ النَّصِّ بلغته الأصليَّة، كي تحدث حوله شوائب عدم دقَّة التَّرجمة وتعدُّدها.

عوارض عامَّة طارئة على نصوص التَّوراة والإنجيل

ولكن لا شكَّ تاريخيَّاً أنَّ التَّوراة والإنجيل لم يكونا على حدِّ القرآن الكريم في ذلك، فهما تعرَّضا لنوعين من العوارض:

تعرُّض الكتابين للنُّقصان والزِّيادة في المضامين الكاملة

(النَّوع الأوَّل): تعرُّض أصل الكتاب وفصوله للنُّقصان أو الزِّيادة في المضامين الكاملة[1] من خلال الانتقاء وإعمال النَّظر فيما يُنقَل فيه أو يُجعَل جزءاً منه.

---

(١) والمراد بها ما يقابل ما يأتي في النَّوع الثَّاني من طروِّ التَّغيير على جملةٍ واحدةٍ ـ مثلاً ـ بالزِّيادة والنُّقصان والحذف والتَّغيير، ولإيضاح الفرق يمكن أن نشبِّه النَّوعين بما يمكن أن يتَّفق في القرآن من

بيان ذلك: أنَّ كلّاً من التَّوراة والإنجيل مرَّ بمراحل:

مراحل مرَّت بها التَّوراة

أمَّا التَّوراة: فقد مرَّت بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: مرحلة إيجاد النَّصِّ، بمعنى نطق النَّبيّ موسى عليه السلام وأنبياء بني إسرائيل عليهم السلام من بعده بالنَّصِّ المنزَل.

المرحلة الثَّانية: مرحلة تدوين النَّصِّ، ويبدو أنَّ بعض هذا النَّصّ التَّوراتيّ كان مدوَّناً في زمان موسى عليه السلام كالوصايا العشر ـ الَّتي يُذكَر أنَّ موسى عليه السلام تلقَّاها منقوشةً على لوحين حجريَّين في جبل حوريب ـ إلَّا أنَّ من النُّصوص ما لم يكن مدوَّناً منذ البداية. على أنَّ التَّوراة في جملة أجزاء منها تشتمل على سيرة الأنبياء وأحوالهم، وليس خصوص الوحي الَّذي نقلوه عن الله سبحانه، ولا أقوالهم الملهمة الَّتي نطقوا بها، كما أنَّ هناك من المؤرِّخين مَن يتوقَّع أنَّ النَّصَّ المدوَّن في أصله قد افتُقد في أثر بعض الكوارث الَّتي حلَّت باليهود في (القرن ٦ ـ ٧ ق.م) كالسَّبي البابليّ، ثُمَّ أُعيدت كتابته من الحفظ لاحقاً. وقد ذُكر أنَّ قسماً من اليهود المعبَّر عنهم بـ(السَّامريِّين) اختلفت توراتهم عن توراة الآخرين، وهم كانوا يعتقدون أنَّ توراتهم هي النُّسخة الصَّحيحة.

المرحلة الثَّالثة: مرحلة اعتبار الكتاب والإذعان به بشكلٍ رسميٍّ.

يتألَّف العهد القديم من ٣٩ كتاباً يُطلق عليها اسم (الأسفار)، وتُقسَّم إلى أقسام أربعة: أوَّلها التَّوراة ـ الَّتي تؤلِّف أسفار موسى الخمسة ـ، ثُمَّ الأسفار التَّاريخيَّة، وأسفار

التَّغيير، فقد يكون التَّغيير من قبيل حذف أو زيادة سورةٍ أو مجموعة آياتٍ تتعلَّق بموضوعٍ واحدٍ، فهذا من قبيل النَّوع الأوَّل، وقد يكون التَّغيير من قبيل التَّصرُّف في آيةٍ واحدةٍ ـ مثلاً ـ بالزِّيادة والنَّقيصة والحذف.

الأنبياء، وأسفار الحكمة.

وهناك اختلافٌ في اعتبار بعض هذه الأسفار، حيث ذُكر أنَّ طائفةَ الصَّدوقيِّين اليهوديَّة المنقرضة والسَّامريِّين كانوا يرفضون الاعتراف بغير أسفار موسى الخمسة، وهناك عدَّة أسفار من المجموعة تُسمَّى بالأسفار القانونيَّة الثَّانية تعترف بها خصوص الكنائس الكاثوليكيَّة والأرثوذكسيَّة، ولكن ترفضها مجمل الطَّوائف اليهوديَّة والكنائس البروتستانتيَّة الإنجيليَّة، ومن جملتها عدد من الأسفار التَّاريخيَّة، وسفر الحكمة، وبعض أسفار الأنبياء، مثل سفر باروخ، ويطلق هؤلاء عليها (الأسفار المنحولة) أو غير القانونيَّة، فهي عندهم مضافة وليست مقدَّسة؛ لأنَّ زمن كتابة هذه الأسفار جاء بعد قيام الكاهن عزرا بجمع التَّوراة.

ويستند المُقِرُّون بها على اشتمال ترجمة اليهود السَّبعين من اللُّغة العبريَّة إلى اللُّغة اليونانيَّة سنة (٢٨٠ق.م) على تلك الأسفار، وتُسمَّى هذه التَّرجمة بـ(التَّرجمة السَّبعينيَّة).

مراحل مرَّ بها الإنجيل

وأمَّا الإنجيل: فهو أيضاً قد مرَّ بمراحلٍ ثلاث مماثلة:

المرحلة الأولى: مرحلة إيجاد النَّصِّ، بمعنى نطق المسيح ﵇ بهذا النَّصّ للنَّاس، وفيما يتعلَّق بهذه المرحلة نلاحظ أنَّ الإنجيل لم يكن فيما يبدو كتاباً منزَّلاً بنصِّه على حدِّ القرآن الكريم، بل كان يتضمَّن سيرة النَّبيِّ عيسى بن مريم ﵇ وأقواله وحكاياته عن الله سبحانه وتعالى، فكان الـمُنزَّل منه تلك الحكايات فحسب، وهذا أمر واضح بملاحظة الأناجيل الأربعة المعتمدة عند عامَّة المسيحيِّين في هذه الأزمنة، فهي تتضمَّن ذكر سيرة المسيح ﵇ على النَّحو الَّذي ذكرناه أشبه بكتب السِّيرة النَّبويَّة عند المسلمين.

المرحلة الثَّانية: هي مرحلة تدوين النَّصِّ، ولم يقع ذلك في زمان إلقاء النَّصّ، فلم

يذكر التَّاريخ المسيحيِّ أنَّ هناك كَتَبَة كانوا يرافقون المسيح عليه السلام ويكتبون أقواله وإخباره عن الله سبحانه عند إلقائها، كما جاء ذلك في شأن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، حيث كان لديه كَتَبَة للوحي.

وعليه: فإنَّ تلك الحكايات والأقوال الَّتي ذكرها المسيح عليه السلام لم تُدوَّن في حينها، وإنَّما حُرِّرت لاحقاً من قِبَل بعض الحواريِّين المرافقين للمسيح عليه السلام، ثُمَّ تلامذتهم على أساس الحفظ الذِّهنيّ، هذا من جهة.

ومن جهةٍ أخرى أنَّ تحرير سيرة المسيح عليه السلام وأقواله في الأناجيل لم يكن على نحوٍ متطابقٍ، بحيث يكون من قبيل وصف رواة متعدِّدين لمشهدٍ واحدٍ على نحو ما وقع ـ فضلاً عن أن تتطابق ألفاظه كما كان الحال في القرآن الكريم ـ، بل هي تختلف بالزِّيادة والنُّقصان؛ لذلك كانت هناك أناجيل متعدِّدة فعلاً، وليست إنجيلاً واحداً، ومن ثَمَّ اضطرَّ رجال الكنيسة لاحقاً إلى اعتبار عدَّة كتب إنجيلاً، وليس كتاباً واحداً كما كان الحال عليه في كتب السَّابقين، وقد كان هذا الأمر طبيعيَّاً إذا ما علمنا أنَّ هذه الأناجيل لم تُحرَّر كلُّها في زمان المسيح عليه السلام وإن لم تكن تعدو القرن الثَّاني بعد الميلاد، فبعض مؤلِّفيها ليسوا من جيل حواريِّي المسيح والَّذين كانوا معه، بل من جيل تلامذتهم ممَّن سمع الحواريِّين، وقد أُلِّفَت هذه الأناجيل الأربعة لأغراض متفاوتة في مقتضياتها، ومن ثَمَّ أَلَّف بعض علماء المسيحيِّين في اتِّفاق المبشِّرين، ويُراد به[1] جمع الأناجيل القانونيَّة، وترتيبها على نسقٍ يظهر أوجه التَّشابه وأوجه الاختلاف بينها.

نعم، قد تكون هذه الأناجيل معتمدةً في جزء منه على تحريرٍ كتبيٍّ لتلك السِّيرة ولكنَّها اعتمدت في عامَّتها على الحفظ والنَّقل الشَّفويِّ عن بعض الحواريِّين، كما كان هناك

(١) يلاحظ: قاموس الكتاب المقدَّس ص:١٢٢.

انتقاء متوقَّع بحسب الممارسة في ذكر بعض أقوال المسيح عليه السلام والأحداث المتعلِّقة به.

المرحلة الثَّالثة: اعتبار النَّصِّ والإذعان بكونه من قبيل الكتاب المقدَّس بشكلٍ رسميٍّ من قِبَل الرهبان والقسِّيسين.

توضيح ذلك: أنَّه لا شكَّ في أنَّ الكتب الَّتي تضمَّنت حكاية سيرة المسيح عليه السلام وأقواله المسمَّاة بـ(الإنجيل) لم تكن محصورةً منذ العصر الأوَّل بالأناجيل الأربعة؛ إذ من الواضح تاريخيَّاً أنَّ ما كان قد طُرح بعنوان الإنجيل وتحرير سيرة المسيح عليه السلام وأقواله هي كتب عديدة، بل هيئة من رجال الكنيسة اعتبروا في وقتٍ لاحقٍ من القرن الرَّابع هذه الأناجيل فقط هي الأناجيل الرسميَّة المعوَّل عليها دون غيرها، وذلك أمر واضح ومعروف من المنطلق التَّاريخيّ(١).

(١) قال في قاموس الكتاب المقدَّس ص:١٢١ وما بعدها تحت عنوان (الأناجيل الأربعة القانونيَّة): (نسب الكتاب المسيحيُّون في القرن الثَّاني الميلاديِّ، الأربعة الأناجيل إلى متى ومرقس ولوقا ويوحنَّا. وقد تسلَّمت الكنيسة هذه الكتابات كسجلَّات يوثَق بها وذات سلطان؛ إذ تحتوي على شهادة الرُّسل عن حياة المسيح وتعاليمه. وبدأ الكتَّاب المسيحيُّون من القرن الثَّاني الميلاديِّ باقتباس هذه الأناجيل وشرحها وقاموا بعمل ترجمات منها إلى لغات متنوِّعة كالسِّريانيَّة والقبطيَّة واللَّاتينيَّة... ولكلٍّ من الأناجيل الأربعة خاصِّيّاته المميِّزة له الَّتي تفرَّد بها لسبب غرض الكاتب في كتابته والأشخاص الَّذين كتب إليهم كما كانت ماثلةً في ذهنه. فقد كتب (متى) من وجهة النَّظر اليهوديَّة، وهو يقدِّم لنا يسوع كالمسيا الملك الَّذي تمَّت فيه نبوءات العهد القديم. ومرقس يكتب للأمم، وربَّما كان يقصد الرُّومانيِّين منهم بوجهٍ خاصٍّ، وهو يقدِّم لنا فوق كلِّ شيء قوَّة المسيح للخلاص كما تظهر في معجزاته. أمَّا لوقا، وهو يكتب للمثقَّفين من اليونان، يكتب لهم في لغة بأسلوب أكثر روعة ممَّا كتب غيره من كتبة الأناجيل، ويظهر لنا تأثير الرَّسول بولس في إبراز نعمة المسيح عليه السلام الَّتي تشمل السَّاقطين والمنبوذين والفقراء والمساكين بعطفه. أمَّا قصد يوحنَّا الخاصّ فهو في أن يظهر يسوع كالكلمة المتجسِّد الَّذي يعلن الأب للَّذين يقبلونه.

ويوجد بين الأناجيل الثَّلاثة الأولى كثير من التَّشابه ولكنَّها تختلف عن إنجيل يوحنَّا من عدَّة أوجه،

وممَّا يُذكَر في هذا الصَّدد ـ مثلاً ـ أنَّ المخطوطة السِّينائيَّة للإنجيل الَّتي أشرنا إليها ـ وهي مخطوطة مهمَّة اكتُشفَت في (١٨٤٤م) بديرٍ في سيناء المصريَّة، ويُرجَّح رجوعها إلى القرن الثَّالث الميلاديِّ اشتملت على رسالتين ـ وهما رسالة برنابا ورسالة الرَّاعي بهرماس ـ لم تُدرَجا في الكتاب المقدَّس من قِبَل القسِّيسين في عمليَّة انتقاء الأناجيل في القرن الرَّابع الميلاديِّ، ومعنى ذلك أنَّهما كانتا من الرَّسائل الملهمة، ولكن تمَّ حذفهما لاحقاً، رغم أنَّ برنابا من أجلَّة حواريِّي المسيح، ونسب إليه بعضهم ما أُدرج في الإنجيل السَّائد من الرِّسالة إلى العبرانيِّين.

ما طرأ على نصوص العهدين من تغييرات تبدو بسيطة ولكنَّها قد تكون مؤثِّرة

(النَّوع الثَّاني): ما طرأ على النَّصِّ ـ الَّذي بقي محفوظاً في أصله ـ من إضافة كلمةٍ أو جملةٍ أو نقصانها أو تغييرها.

وينشأ ذلك عن عوامل أربعة:

وبما أنَّ متى ومرقس ولوقا يقدِّمون حياة المسيح من وجهات نظر متشابهة على وجه العموم، فقد أُطلق على هذه الأناجيل الثَّلاثة اسم الأناجيل المتشابهة...).

وقال في المصدر نفسه تحت عنوان (الأناجيل غير القانونيَّة): يدخل تحت هذا العنوان كلُّ ما كتبه بعض الكتَّاب في العصر المسيحيّ المبكِّر بعد العصر الرَّسوليّ، بما يختصّ بإخبار سيرة مخلِّصنا ونسبوه إلى غيرهم كإنجيل يعقوب وإنجيل نيقو ديموس وإنجيل الأبيونيِّين وإنجيل المصريِّين وإنجيل العبرانيِّين وإنجيل الياسيِّين وإنجيل بطرس وإنجيل توما وإنجيل الطّفوليَّة وهو إنجيل عربيّ. والمظنون أنَّ إنجيل يعقوب كُتب في القرن الثَّاني).

وذكر في نقد هذه الأناجيل: (وأمَّا موضوع هذه الأناجيل فوصف لحالة يوسف والعذراء مريم، والعجائب الَّتي عملها المسيح عليه السلام في حداثته وما شاهده في الهادية وغير هذه ممَّا يرضي عقول السُّذَّج ومن شابههم من العامَّة الَّتي يرتاحون إلى مثل هذه الأساطير وأخبار القصصيِّين).

١ ـ إنَّ حفظ الإنجيل لم يكن بذات الصِّيغة الأوَّليَّة الَّتي نطق بها الأنبياء، وإنَّما كان في أفضل التَّقادير حتَّى وقتٍ لاحقٍ بضربٍ من النَّقل بالمعنى، الَّذي يعرِّض الجمل والمضامين لبعض الزِّيادة والنَّقيصة والتَّغيير الَّذي يمكن أن يبتني على فهمٍ وتفسيرٍ خاصٍّ، أو يكون لتحوير النَّصِّ إلى معنى معيَّن، وعلى ذلك أمثلةٍ كثيرةٍ.

٢ ـ إنَّ بعض النَّصِّ لم يُحفَظ بلغته الأصليَّة أصلاً وإنَّما كان المنقول هو المترجَم إلى لغةٍ ثانيةٍ، كما وقع في بعض الإنجيل، حيث إنَّه كان في الأصل باللُّغة الآراميَّة، ولكنَّ المحفوظ في أجزاءٍ منها بلغات أخرى كاليونانيَّة.

٣ ـ إنَّ النَّصَّ باللُّغة الأصليَّة حتَّى إذا بقي محفوظاً إلَّا أنَّ اللُّغة لم تعد حيَّة، وهذا يجعل فهم تلك اللُّغة أمراً شبه تخصُّصيٍّ، ويعرِّضه للتَّصرُّفات والتَّحويرات الاستنباطيَّة الَّتي لا يستطيع عامَّة الباحثين من التَّلقِّي المباشر والواضح لها، فيتيح ذلك لأهل العلم تحويرها وتوجيهها بأدنى مؤونة إلى غير جهتها، ولا سيَّما في المراحل الَّتي يعبَّر عنها بـ(عنق الزُّجاجة) في تاريخ النَّصِّ، والمراد بذلك أن يتَّفق حفظ النَّصِّ من خلال نسخةٍ واحدةٍ بحيث تتحكَّم تلك النُّسخة على جميع النُّسخ اللَّاحقة.

٤ ـ تدخُّل النُّسَّاخ وأخطاؤهم واجتهاداتهم، فقد مرَّت النُّصوص القانونيَّة للإنجيل بفوضى تنشأ من أنَّ نصَّ العهد الجديد قد نُسخ خلال قرون عديدة بلغاتٍ مختلفةٍ بيد نسَّاخٍ يتفاوت مقدار إتقانهم للنَّسخ، ممَّا أدَّى إلى أخطاءٍ غير متعمدة في النُّسخ، على أنَّ بعض النُّسَّاخ حاولوا أحياناً تعديلاً لبعض الجمل الَّتي ظنُّوا خطأها أو عدم وفائها، مضافاً إلى زخارف لفظيَّة أُدخلت على جملةٍ من النُّصوص لقراءتها في أثناء إقامة شعائر العبادة، فكانت نسخ الكتاب إلى عصر الطِّباعة مثقلةً بمختلف أنواع التَّبديل والقراءات، ولكنَّه منذ (١٥٠) سنة خلت أخذ علم نقد النُّصوص بتمحيص الوثائق القديمة بدقَّة،

خصوصاً المجلَّد الفاتيكانيّ والسِّينائيّ لوضع ترجمة جديدة للأصول القديمة.

هذا عن العوارض العامَّة لنصوص الرِّسالات السَّابقة قبل الإسلام.

العوارض الخاصَّة الطَّارئة على نصوص البشارات

وأمَّا العوارض الخاصَّة لنصوص البشارات للرِّسالات السَّابقة على الإسلام فهي أيضاً على نوعين ـ على غرار ما سبق في العوارض العامَّة ـ:

(**النَّوع الأوَّل**): ما غاب بسبب العوارض الطَّارئة على أصل الكتاب من حيث انتقاء بعض الكتب الَّتي تروي سيرة المسيح ﵇ ـ مثلاً ـ لتكون أناجيل قانونيَّة ورسميَّة دون بعض، أو انتقاء أصحاب الأناجيل بعض الحوادث والأقوال للمسيح دون بعضٍ آخر.

ومن أمثلة اختلاف الأناجيل المرتبطة بموضوعنا أنَّ هناك نصوص بشاراتٍ وقع البحث في أنَّ الموعود فيها هل هو رسولٌ آخر يأتي بعد المسيح ﵇ أو نزول روح القدس على الحواريِّين بعد المسيح ﵇؟ وفي كلا الحالين فإنَّ مضمونها حادث مهمٌّ جدَّاً، لكن هذه النُّصوص لم ترد إلَّا في إنجيل يوحنّا دون الأناجيل الثَّلاثة الأُخرى.

إنجيل برنابا وزياداته

وقد يُعَدُّ من أمثلة انتقاء بعض الأناجيل دون بعض المؤثِّر على نصوص البشارات هجر إنجيل برنابا، وهو إنجيل يشتمل على البشارة الصَّريحة باسم نبيِّ الإسلام ﷺ، ولكن هنا خلاف في كون هذا الإنجيل فعلاً معهوداً قبل الإسلام[(١)].

---

(١) يلاحَظ أنَّ برنابا شخصيَّة معروفة، فقد كان من جملة حواريِّي المسيح ﵇ وكانت له نشاطاتٌ شديدة في نشر المسيحيَّة. وقد جاء ذكره في ملاحق العهد الجديد من قسم أعمال الرُّسل وفي رسالة بولس الرَّسول إلى أهل غلاطيَّة وإلى أهل كولوسي، وينسب إليه بعضهم الرِّسالة إلى العبرانيِّين من جملة الرَّسائل

الملحقة بالعهد الجديد، وهناك رسالة منسوبة إليه لم تُعتبَر من الرَّسائل الملهمة، وقد جاءت في ضمن العهد الجديد في النُّسخة السِّينائيَّة المعروفة الَّتي تتعلَّق بالقرن (٣م). وهذا قد يدلُّ على ضربٍ من التَّحوُّط في اعتبار بعض آثار برنابا من جملة التُّراث الملهم؛ حذراً من تضمُّنه معانٍ تنافي الأحداث أو التَّعاليم أو المبادئ الَّتي رُجِّحَت لتكون هي الرّواية القانونيَّة والرَّسميَّة عن الإنجيل.

وهناك نقطتان في شأن إنجيل برنابا، وهما ما تضمَّنه من البشارة بنبيِّ الإسلام باسمه. ومدى اعتبار هذا الإنجيل تاريخيَّاً.

أمَّا عن النُّقطة الأولى: فقد تضمَّن هذا الإنجيل بشاراتٍ صريحةً باسم النَّبيِّ محمَّد ﷺ في تسعة مواضع (ط ـ سيف الله أحمد فاضل، الفصل: ٣٩، ص: ٨٨. الفصل: ٤٤، ص: ٩٦. الفصل: ٥٤، ص: ١٠٨. الفصل: ٥٥، ص: ١١١. الفصل: ٩٧، ص: ١٦١. الفصل: ١٠٢، ص: ١٧٨. الفصل: ١٣٨، ص: ٢١٠. الفصل: ١٦٣، ص: ٢٤١. الفصل: ٢٢٠، ص: ٢٩٦)، ففي الموضع الثَّامن ـ مثلاً ـ بعد أن تحدَّث المسيح عن رجلٍ أثنى عليه ثناءً كبيراً (أجاب التَّلاميذ يا معلِّم مَن عسى أن يكون ذلك الرَّجل الَّذي تتكلَّم عنه الَّذي سيأتي إلى العالم، أجاب يسوع بابتهاج قلبٍ: إنَّه محمَّد رسول الله، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعةً للأعمال الصَّالحة بين البشر بالرَّحمة الغزيرة الَّتي يأتي بها..).

هذا، بل تضمَّن هذا الإنجيل معلوماتٍ توافق القرآن الكريم في شأن ولادة المسيح عليه السلام وعدم صلبه وغير ذلك.

وأمَّا عن النُّقطة الثَّانية: ـ حول اعتبار هذا الإنجيل تاريخيَّاً ـ فيلاحَظ أنَّ لهذا الإنجيل فيما قيل نسخةً إيطاليَّة تتعلَّق بالقرن السَّادس عشر عثر عليها راهب يُدعى (فرامرينو) في زمان البابا (سكست كنت الخامس) سنة (١٥٨٥ ـ ١٥٩٥) ميلادي، فقرأ الرَّاهب الكتاب فاعتنق الدِّين الإسلاميّ، وترك ديانته السَّابقة، ونسخةً إسبانيَّة رُجِّح أنَّها كُتبت على أساس النُّسخة الإيطاليَّة وقيل إنَّه قد عُثر في ثمانينات القرن الماضي على إنجيل نُسب إلى برنابا في مغارةٍ في جنوب شرق تركيا، وانتشر قريباً في سنة (٢٠١٠م) العثور على نسخةٍ أخرى منها يُعمَل على ترميمه ليُعرَض لاحقاً، وقد كُتبت باللُّغة الآراميَّة ـ لغة السَّيِّد المسيح عليه السلام ـ، وأكَّدت السَّفارة البابويَّة في تركيا تقدُّمها بطلب دراسة هذه النُّسخة، وقد أذاع نبأ أصل هذا الاكتشاف صحيفة ديلي ميل البريطانيَّة.

ويُذكر عن القسّ البروتستانيّ التُّركيّ، إحسان أوزبك التَّشكيك في صحَّة كون الإنجيل إنجيل برنابا أنّه كُتب في القرن الخامس أو السَّادس الميلاديّ، أمَّا برنابا فقد عاش في القرن الأوَّل الميلاديّ، لكن إذا كانت المخطوطة تتعلَّق فعلاً بالقرن (٥ـ ٦م) فهو يعني أنَّها تتعلَّق بما قبل الإسلام، وهو ينفي تأثُّرها بالإسلام، وتعلُّقها بالقرن (٥ـ ٦م) لا ينفي أن تكون إنجيل برنابا، ولكنَّها تنفي أن تكون دليلاً تاريخيَّاً كافياً على ذلك.

هذا، ولم يتحقَّق لي بعدُ ـ بمقدار ما تيسَّرت المراجعة ـ شيءٌ جزميٌّ بشأن هذا البحث، بل هو مرهون باختبار النُّسخ المذكورة والتَّحقُّق منها بأدوات تحقيق تاريخ المخطوطات المعروفة، لا سيّما تحليل الحبر والمادَّة المكتوب عليها بالكربون المشعّ.

وأيَّاً كان: فقد وقع الخلاف في اعتبار هذا الإنجيل، حيث رجَّح عامَّة الباحثين المسيحيِّين عدم اعتبار هذا الكتاب، بينما يرجِّح جمع من الباحثين المسلمين اعتباره.

وكان لهذا البحث منطلقاتٌ ثلاثة:

(المنطلق الأوَّل): هو المنطلق العقائديّ ـ المفترض مسبقاً ـ من مدى ثبوت حقَّانيَّة الإسلام وروايته عن المسيحيَّة الصَّائبة، أو صواب المسيحيَّة بالرّواية السَّائدة عند المسيحيِّين.

فالمسيحيّون يرون أنَّ المسيحيَّة الصَّائبة هي المسيحيَّة بالرّواية السَّائدة لدى المسيحيِّين دون المسيحيَّة برواية الإسلام والموافقة لما جاء في هذا الإنجيل؛ من جهة ما فيه من البشارة الصَّريحة باسم نبيّ الإسلام ﷺ، ومخالفة المعلومات الَّتي فيه حول ولادة المسيح وصلبه عمَّا جاء في تلك الأناجيل المعروفة.

ويرى الباحثون المسلمون أنَّ المسيحيَّة الصَّائبة هي الَّتي ورد بها الإسلام؛ من جهة قيام الحجج المقنعة على أصل حقَّانيَّة دين الإسلام، فتكون روايته عن حقيقة الأديان السَّابقة بعيداً عن التَّحريفات الَّتي تكون الرِّسالات مظنَّةً لها بمرور الزَّمن من قِبَل الفريق الغالب من رجال الدِّين.

على أنَّ الرّواية الإسلاميَّة عن المسيحيَّة تطابق بعض المذاهب المسيحيَّة الَّتي كانت قبل الإسلام في شأن المسيح كما هو معروف.

يُضاف إلى ذلك مطابقة هذه الرّواية ـ في أهمِّ نقطة وهي التَّوحيد ونفي أُلوهيَّة المسيح وأمّه ﮇ ـ مع العقل الفطريّ والبديهيّ وقواعد الدِّين في الرِّسالات السَّابقة من أنبياء بني إسرائيل وكتبهم المأثورة في

العهد القديم ـ والَّتي هي محلُّ إذعان الإنجيل والمسيحيِّين ـ.

زد على ذلك ما تقدَّم من أنَّ الَّذي يبدو من آيات القرآن الكريم وما تمثِّله من أجواءٍ تاريخيَّة وعقائديَّة في شأن النَّصارى ـ الَّذين كانوا في شبه الجزيرة العربيَّة المخاطبين لها ـ أنَّ ما وصل إليهم كان يشتمل فعلاً على ما جاء في القرآن الكريم في شأن البشارة بظهور نبيِّ الإسلام ﷺ؛ ومن ثَمَّ لم ينكروا ولا استنكروا حكايتها عن الإنجيل صريحاً.

وعليه: فلا تكون مضامين إنجيل برنابا الموافقة لرواية الإسلام عن المسيحيَّة الصَّائبة بالَّتي تبعِّد صدق هذا الإنجيل.

هذا، ولكن البحث من هذا المنطلق لا يكون حجَّةً في تحرٍّ حول الموضوع لا ينطلق من ثبوتٍ مسبق للإسلام أو المسيحيَّة بالرّواية السَّائدة لدى رجال الكنيسة وإن كان يوجِّه لكلِّ قومٍ ما بنوا عليه من قبل.

(المنطلق الثَّاني): هو المنطلق التَّاريخيّ ـ ونعني به تاريخ معهوديَّة هذا الإنجيل ـ، فالمسيحيُّون رأوا أنَّه يوجب الرِّيبة في هذا الإنجيل؛ بالنَّظر إلى أنَّ هذا الإنجيل لم يثبت وجوده قبل الإسلام، وإنَّما عُثر عليه في القرون الوسطى بعد مضيّ عدَّة قرون على ظهور الإسلام، وذلك في القرن السَّادس عشر وما بعده، ولم يرد أيُّ ذكرٍ له فيما قبل ذلك، ومن الجائز أن يكون قد كتبه رجلٌ مسلم تأثُّراً بالإسلام، وترويجاً له في الوسط المسيحيّ واليهوديّ، لا سيَّما مع موافقة ما جاء فيه بشكلٍ صريحٍ مع رواية الإسلام عن حقيقة دين المسيح وما جاء في الإنجيل.

نعم، لو توثَّقت النُّسخة التُّركيّة فعلاً لكان ذلك حديثاً آخر.

ورأى بعض الباحثين المسلمين بأنَّ هذا المنطلق لا يوجب الرِّيبة في الكتاب؛ لأنَّ ما جاء عن المسيح في هذا الإنجيل معهود في قسم من المذاهب المسيحيّة قبل الإسلام كما تقدَّم، وقد علمنا من قبل تعدُّد الأناجيل في القرون الميلاديَّة الأولى، وحكم الكنيسة باعتبار بعض محدَّدٍ منها دون الباقي.

وعليه: من الجائز أن يكون هذا الإنجيل قد هُجر من جهة مخالفته مع العقائد المسيحيَّة الَّتي تبنَّتها عموم الكنائس بشكلٍ رسميٍّ من أُلوهيَّة المسيح وسائر العقائد الرَّائجة بشأنه.

وأمَّا احتمال أن يكون قد كتبه رجلٌ مسلم فيبدو بعيداً؛ لأنَّ بعض ما جاء فيه مثل كون السَّماوات تسعاً لا يطابق ما جاء في القرآن الكريم أيضاً كما صرَّح به بعض المسيحيِّين أنفسهم، على أنَّ هذا الإنجيل إنَّما

وبالالتفات إلى ذلك فربَّما احتمل بعض الباحثين أنَّه قد كان للنَّصارى الَّذين سكنوا في الجزيرة العربيَّة في أطراف مدينة الرَّسول نسخةٌ من الإنجيل تتضمَّن الدّلالة على ظهور نبيّ الإسلام ﷺ على وجه أوضح.

وعلى هذا التَّقدير فلا سبيل إلى الطَّعن في تلك النُّسخة بأنَّها ليست معتمَدةً لدى

ظهر في الغرب، وليس في أوساط المسلمين.

والواقع: فيما يتعلَّق بهذا المنطلق أنَّ السَّبق التَّاريخيّ لهذا الإنجيل على الإسلام أمر محتمل احتمالاً أوَّليّاً، لكن ترجيح ذلك يتوقَّف على قيام قرائنٍ تاريخيَّة واضحة على ذلك، أو ثبوت قِدَم النُّسخة التُّركيَّة من خلال الفحص الكيميائيّ الخاصّ لأوراقها.

(**المنطلق الثَّالث**): هو المنطلق المضمونيّ ـ ونعني به ما يرتبط بدلالات الكتاب ومضامينه فيما عدا النِّقاط الخلافيَّة بين الإسلام وبين ما جاء في العهد الجديد ـ، حيث ذكر بعض الباحثين المسيحيِّين أنَّ في هذا الإنجيل عدَّة أخطاء ومخالفات عديدة لما جاء في الأناجيل الرَّسميَّة والقرآن الكريم، بل سُجِّلت بعض الظَّواهر الحادثة لدى اليهود على أنَّها قديمة وليست كذلك.

وعليه: يبدو أنَّ كاتبه عاش متأخِّراً، ولم يكن ضليعاً في موضوع المعلومات الَّتي اشتمل عليها الكتاب.

ولكن في مقابل ذلك لم يأبه بعض الباحثين المسلمين بذلك؛ ولعلَّه من جهة أنَّ ما يُعَدُّ خطأً لا يخلو عن أحد أمرين: إمَّا لم يثبت كونه خطأً، وإمَّا يمكن أن يكون قد نشأ عن التَّرجمة والتَّفسير عن اللُّغة الأمّ. علماً أنَّه لا ضير في وجود أخطاء فيه يعهد بمستواها في العهد الجديد.

وهذا الموضوع يحتاج إلى مزيد متابعةٍ وبحثٍ. ولم أقف عاجلاً على وجود بحثٍ مهنيٍّ محايدٍ حاسمٍ وواضحٍ حول ذلك إذا كان الموضوع قابلاً للحسم وفق الأدوات المهنيَّة.

ولكن حتَّى يتحقَّق مثل هذا البحث الحاسم ـ إن كان ميسوراً ـ يبقى الأمر محتملاً، وقد يُبنى على أنَّ هذا الإنجيل على كلِّ حالٍ لا يبلغ من الوهن حدّاً يسقطه عن الاعتبار تماماً، على ما يظهر بالتَّأمُّل الجامع في أجواء البحث الدَّائر لدى المؤرِّخين ورجال الكنيسة، بل يصلح للاستئناس به فيما وافق فيه رواية القرآن الكريم عن واقع المسيحيَّة، لكنَّ ذلك ممَّا لا يتوقَّف عليه ترجيح وجود بشارات مفهومة بنبيِّ الإسلام ﷺ في الكتب السَّابقة، والله أعلم.

الكنيسة؛ لأنَّ وجود تلك البشائر المتحقِّقة عينيّاً بظهور نبيّ الإسلام ﷺ تدلُّ على دقَّتها وإصابتها في تسجيل هذه البشائر وإن لم ترد بهذا الوضوح في الأناجيل الرَّسميَّة القانونيَّة.

هذا، إلَّا أنَّني لا أرجِّح هذا الاحتمال بالمقارنة مع احتمالٍ آخر، وهو وضوح البشارات الواردة في (إنجيل يوحنّا) عندهم في النَّبيِّ ﷺ، وستأتي شواهد ذلك.

عوارض خاصَّة على نصوص البشارات في التَّوراة والإنجيل

(**النَّوع الآخر**): ـ ممَّا تتعرَّض لها نصوص البشارات ـ هو تغيُّر النُّصوص المحفوظة في أصلها بتغييرات مؤثِّرة على معانيها، وهي تكون على صنفين:

١ ـ صنف تكون هذه النُّصوص مظنَّةً لها قبل وقوع الموعود فيها.

٢ ـ وصنف آخر تكون هذه النُّصوص مظنَّةً لها بعد وقوع الموعود فيها.

أمَّا الصِّنف الأوَّل: فينشأ عن أنَّ نصوص البشارات والتَّنبُّؤات نصوصٌ ظريفة بطبعها بالمقارنة مع سائر النُّصوص، كالَّتي تتحدَّث عن التَّشريعات أو الحوادث الحاضرة.

فالنُّصوص الأخرى هي أكثرُ خضوعاً للنَّقل بالمعنى، ولو وقع بعض الخلل فيها ربَّما يبقى أصل معنى النَّصّ وصلبه محفوظاً.

ولكنَّ نصوص البشارات قد يتشوَّش أو يتعذَّر انطباقها على المقصود بها ببعض التَّغيير.

على أنَّ بعض البشارات ربَّما تكون مرغوبةً عنها من أصلها عند فريق من رجال الدِّين ممَّا يؤدِّي ذلك إلى إهمالها، فلو فُرض أنَّ هناك أنباءً من التَّوراة عن نبيٍّ مرسل من بني إسماعيل مثلاً ـ وهو أمر واقع كما سيأتي بيانه ـ فهو يمكن أن يثير حسَّاسيَّة بني إسرائيل؛ من جهة التَّعصُّب القوميّ، والعقائد المبنيَّة عليه من تفضيل بني إسرائيل على عامَّة الخلق، واختصاصهم بين الخلق بإرسال الأنبياء منهم وإليهم، ومن المعروف وقوع حسَّاسيَّات بين

بني إسرائيل عند إرسال نبيٍّ من بعض الأسباط دون آخر حتَّى لم يذعن فريق منهم لَمن بُعث من الفريق الآخر، وقتل بعض النَّبيِّين منهم.

وأمَّا الصِّنف الثَّاني: ـ من عوارض نصوص البشارات والَّتي تتَّفق بعد وقوع المبشَّر به ـ فهو ما ينشأ عن عدم تسليم فريق من رجال الدِّين للرَّسول المبشَّر به عند قدومه؛ من جهة الحسَّاسيَّات الاجتماعيَّة بأنواعها من: القوميَّة، والطَّبقيَّة وغيرهما.

وذلك أنَّ كلَّ رسولٍ جديدٍ معرَّض لمعارضته من قِبَل جمع من رؤوس القيادات النَّافذة من أتباع الرَّسول السَّابق؛ لعدم استعدادهم للانقياد له بالإذعان به، بل يبقون على التَّمسُّك بالرَّسول السَّابق حصراً، وهذا أمر معروف ومشهود في تاريخ الأديان والعقائد عامَّةً، وتاريخ بني إسرائيل خاصَّةً.

وهذا الأمر يمكن أن يؤثِّر في تحريف النُّصوص وتحويرها بعد مجيء الرَّسول المبشَّر به، ولكن لا يؤثِّر قبل مجيئ هذا الرَّسول؛ وذلك من جهة عوامل عديدة:

(**منها**): عدم الابتلاء الفعليّ بالمشهد الموعود قبل مجيء الرَّسول المبشَّر به، فلا يثير مجرَّد الوعد حسَّاسيَّة كثيرٍ من أتباع الرَّسول السَّابق؛ لاحتمال عدم تعلُّقه بزمانهم أصلاً، أو بنائهم على الإيمان به إذا جاء، ولكن عند مجيئه تولَّدت لديهم حزازاتٌ منعت من الإيمان به، كما جاء في القرآن الكريم أنَّ أهل الكتاب القاطنين في الجزيرة العربيَّة كانوا يبشِّرون بنبيٍّ يظهر فيها، ويخبرون عنه، ويتحرَّون أخباره، لكنَّهم لم يؤمنوا به بعد مجيئه.

و(**منها**): أنَّ الوعد المستقبلي ما لم ينطبق قد لا يُتلقَّى عند كثيرٍ من أهل العلم بالكتاب بشكلٍ واضحٍ حتَّى يُتصرَّف فيه بما يصرفه عن الانطباق على الرَّسول اللَّاحق، بل تحيط به هالةٌ من الإبهام.

و(**منها**): أنَّه في حال وجود حسَّاسيَّة تجاه الموعود قد لا يجد هذا الفريق المتحسِّس

للوعد من رجال الدِّين الأسلوب المناسب لتحوير النَّصّ.

فهذه عوامل يمكن أن تحول دون التَّصرُّف في نصوص البشارة قبل مجيئ المبشَّر به.

ولكن يختلف الأمر عند تحقُّق الوعد، ومجيئ المبشَّر به؛ لأنَّ ذلك يثير حسَّاسيَّة هؤلاء، فيسعون إلى ضروبٍ من التَّحوير لنصوص البشارة؛ لصرفها عن تعيُّنها وانطباقها على الرَّسول اللَّاحق، واعتباره من الأنبياء الكَذَبة الَّذين تمَّ التَّحذير منهم.

وعلى ضوء ذلك فإنَّ طول المدَّة على ظهور الإسلام في عصرنا الحاضر من شأنه أن يعرِّض النُّصوص المبشِّرة بنبيِّ الإسلام ﷺ تدريجاً لبعض الكتمان والتَّحوير ولو في مقام ترجمتها وتفسيرها إسقاطاً لحجَّة النَّبيّ الجديد، كما قد يشير إلى ذلك بعض آيات القرآن الكريم[(١)]، نظير ما وقع من اليهود تجاه المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ـ وفق اعتقاد المسيحيِّين والمسلمين ـ، ويجد الباحثون عن نصوص البشارات أمثلةً لتحوير بعضها في مقام ترجمتها في العصور الأخيرة حتَّى العصر الحاضر، رغم توفُّر المصادر المترجم عنها والتَّراجم الأخرى غير بعيدة عن متناول يد عامَّة النَّاس[(٢)].

وجوه التَّدقيق اللَّازم في نصوص البشارات

وبناءً على ما تقدَّم فإنَّنا في تأمُّل نصوص البشارات في مثل هذا العصر نحتاج إلى

---

(١) قال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّـهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة آل عمران: ٧٠ ـ ٧١).

(٢) يلاحظ ما يأتي في النُّقطة الثَّالثة من تحوير بعض نصوص البشارات مثل إضافة (من وسطك) في نصٍّ توراتيٍّ يبشِّر بنبيٍّ من بني إسماعيل لأجل صرف النَّصِّ إلى بني إسرائيل.

ومن هذا القبيل أيضاً ما يأتي فيها من خلوّ النُّسخة السِّينائيَّة ـ الرَّاجعة إلى ما قبل الإسلام ـ عن كلمة (القدس) في (روح القدس) في بعض تلك النُّصوص، وهي كلمة تصرف النَّصّ عن كون الموعود فيه نبيّاً مرسلاً إلى الملك المعروف بهذا الاسم.

بذل مزيدٍ من الجهد والتَّدقيق من خلال ما يأتي:

(أوَّلاً): السَّعي إلى الوقوف على النَّصِّ الأصليّ في المصدر قبل التَّرجمة تجنُّباً عن عوارض الاعتماد على النَّقل بالمعنى بشكل متكرِّر.

(ثانياً): في حال تعذُّر ذلك والاضطرار إلى الاعتماد على ترجمة النَّصّ ونقله بالمعنى لا بُدَّ من اعتماد حكاية مباشرة لمضمون النَّصّ أو ما يكون الوسيط فيه بين النَّاقل وبين النَّصّ الأصليّ أقلّ.

(ثالثاً): أنَّه في حال انقراض لغة النَّصّ ـ كالآراميَّة الَّتي كان يتكلَّم بها عيسى عليه السلام ـ فإنَّنا نحتاج إلى جهد تخصُّصيٍّ للوقوف على معاني المفردات المستخدمة في تلك اللُّغة، وفرز مداليل التَّعابير المتشابهة، وأسلوب التعبير عن المعنى فيها.

(رابعاً): لا بدَّ من الحذر من التَّفاسير والتَّراجم الَّتي تقع بعد وقوع المبشَّر به؛ من جهة احتمال تعمُّد التَّحوير اللَّفظيِّ والمعنويِّ فيها.

أهمّيّة الوقوف على انطباع أهل الرِّسالات عن نصوص البشارة قبل تحقّقها

وممَّا يمكن أن يساعدنا على فهم النَّصِّ بشكلٍ أفضل معرفة انطباع أهل الدِّين الَّذي وردت البشائر في كتابه عن هذه النُّصوص في عصر ما قبل تحقُّقها، أو في المجتمع المعاصر لتحقُّق البشارة، حيث لم يكن رجال الدِّين التَّابعون للرَّسول السَّابق قد تهيَّأوا لمواجهة هذه البشائر.

ولا يحضرني الآن كيفيَّة تعامل رجال الدِّين اليهود والنَّصارى في غير المجتمع العربيِّ مع نصوص البشارات قبل الإسلام، وهل لديهم روايات داخليَّة موثوقة تمثِّل اعتقاد الأحبار والرُّهبان قبل الإسلام في شأن تلك النُّصوص؟

ولكنَّ الَّذي يمكن الوثوق به أنَّ اليهود والنَّصارى الَّذين كانوا في الجزيرة العربيَّة

كانوا يرون بشارات واضحة في التَّوراة والإنجيل تنطبق على النَّبيِّ ﷺ؛ وذلك بدلالة الاقتضاءات التَّاريخيَّة للنُّصوص القرآنيَّة الحاكية لهذه البشائر بمحضر اليهود والنَّصارى الَّذين كانوا في المجتمع الَّذي تُليت هذه الآيات فيه، وأخبرت بوضوحٍ على أنَّهم كانوا يتوقَّعون ظهور نبيٍّ في هذه البقعة، ولكن عندما جاءهم هذا النَّبيِّ استنكف قوم منهم من الإيمان به، ولم يكن لهؤلاء دفاعٌ واضحٌ عن ثبوت هذه البشائر، وانطباقها على نبيِّ الإسلام ﷺ.

وتؤكِّد ذلك روايات وردت في التَّاريخ الَّذي دوَّنه المسلمون عن أقوال بعض النَّصارى، كالنَّجاشيّ ملك الحبشة في أوَّل الإسلام.

هذا، وسيجد الباحث أمثلةً لما ذكرناه من الأمور الَّتي يتوقَّف عليها تنقيح مفاد نصوص البشارات في النُّقطة الثَّالثة قريباً.

عرض موجز لبعض بشارات التَّوراة والإنجيل بنبيِّ الإسلام ﷺ

(النُّقطة الثَّالثة): في عرضٍ موجزٍ لبعض بشارات التَّوراة والإنجيل بالنَّبيِّ ﷺ.

هذا، وقد حُكي عن بعض الأئمَّة من آل البيت عليهم السلام[1]، وذكر بعض علماء المسلمين[2] وبعض مَن اعتنق الإسلام من أهل الكتاب أنَّ جملةً من بشارات التَّوراة والإنجيل تشير إلى نبيِّ الإسلام ﷺ.

بشارة توراتيَّة

أمَّا التَّوراة: ففيها في سفر التَّثنية: (أقيم لهم نبيَّاً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل

---

(١) يلاحظ: التَوحيد للصَّدوق ص: ٤٢٧ وما بعدها فيما رواه عن الإمام عليّ بن موسى الرِّضا عليه السلام.

(٢) يلاحظ: الفصل في الملل والأهواء والنِّحل ج:١، ص: ١١١، الملل والنِّحل ج: ١، ص: ٢١٣، شرح المقاصد في علم الكلام ج: ٢، ص: ١٨٩.

كلامي في فمه، فيكلِّمهم بكلِّ ما أوصيه به)[1].

وهذه بشارة بنبيٍّ جديدٍ بلا شكٍّ، إلَّا أنَّ اليهود فسَّروها بـ(يوشع) والنَّصارى فسَّروها بـ(المسيح) ﷺ. ولكنَّ الأقرب تفسيرها بنبيِّ الإسلام ﷺ، وذلك من وجهين:

١ ـ إنَّ المفهوم من هذا النَّصّ هو رجوع الضَّمير في (إخوتهم) إلى بني إسرائيل، ويكون إخوتهم حينئذٍ بنو إسماعيل ﷺ وهم العرب، وقد أُطلق على إسماعيل ﷺ وبنيه في العهد القديم أنَّهم إخوة إسرائيل، كما في سفر التَّكوين في الكلام عن إسماعيل ﷺ: (بحضرة جميع إخوته يسكن)، وعليه فينطبق على نبيِّ الإسلام ﷺ؛ لأنَّه من ذرِّيَّة إسماعيل ﷺ، وأمَّا يوشع فقد كان من بني إسرائيل وكان هو والأسباط الاثني عشر حاضرين مع موسى ﷺ، كما أنَّ المسيح ﷺ أيضاً كان من بني إسرائيل.

٢ ـ إنَّ ما ذُكر في النَّصِّ من مماثلة النَّبيِّ الموعود مع موسى ﷺ يناسب أن يكون المراد به نبيِّ الإسلام ﷺ؛ لأنَّه من الأنبياء المؤسِّسين مثل موسى، حيث جاء بشريعة جديدة، وأمَّا أنبياء بني إسرائيل ﷺ ومنهم المسيح ﷺ فكان كلُّهم على شريعة التَّوراة، وهو أمر معلوم وواضح.

ومن العجيب أنَّ بعض الكنائس تصرَّفت في هذه الجملة، وأضافت عليها كلمة (وسطك) فصارت الجملة هكذا: (سأقيم لهم نبيَّاً من وسطك من إخوتك مثلي) والغاية من هذه الإضافة أن تكون الجملة صريحةً في كون النَّبيّ الموعود من أوساط بني إسرائيل.

هذا، وهناك نصٌّ آخر في التَّوراة يتضمَّن تلألؤ الرَّبّ من جبل فاران وفي نصٍّ ثالث مجيئ القدُّوس من جبل فاران، وقد يُرجَّح أنَّ المنظور بجبل فاران الإشارة إلى جبال

---

(١) الكتاب المقدّس، العهد القديم، الكنيسة ص: ٣٠٨ ـ ٣٠٩، الأصحاح: ١٨، الفقرة: ١٨.

مكَّة[1].

(١) **بيان ذلك**: أنَّه قد جاء في الكتاب المقدَّس (العهد القديم، الكنيسة ص:٣٣٤) في الأصحاح (٣٣) من سفر يشوع: (جاء الرَّبُّ من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران).

وفي كتاب حبقوق النَّبيّ (الكتاب المقدّس، العهد القديم، الكنيسة، ص: ١٣٣١، الأصحاح الثَّالث: ٣، ٤) (الله جاء من تيمان والقدّوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطّى السَّماوات والأرض، امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور. له من يده شعاع وهناك استتار قدرته).

فقال علماء المسلمين: إنَّ فاران هو موضع بعث نبيِّ الإسلام ﷺ، كما أنَّ (سيناء) موضع بعث النَّبيِّ موسى عليه السلام، و(ساعير) موضع بعث النَّبيِّ عيسى عليه السلام، وقد ذكر بعض علماء اللُّغة العربيَّة أنَّ (فاران) ترد اسماً لمكَّة.

ولكن يفسِّر علماء اليهود والمسيحيِّين فاران ببرِّيَّةٍ مسمَّاة بهذا الاسم في جنوب فلسطين على حدود شبه جزيرة سيناء، وهي مذكورة بهذا المعنى في مواضعٍ أخرى من التَّوراة، كما جاء: (فارتحل بنو إسرائيل في رحلاتهم من برِّيَّةٍ بسيناء فحلَّت السَّحابة في برِّيَّة فاران) (الكتاب المقدّس، العهد القديم، الكنيسة، ص: ٢٢٧، الأصحاح العاشر، فقرة: ١٢ من سفر العدد)، إلى مواضعٍ عديدةٍ أخرى (ص:٢٣٢، ٢٣٣، ٢٧٧، ٤٦٩، ٥٥٤).

ويبدو أنَّ هذا التَّفسير لا يخلو عن بُعد؛ بالالتفات إلى وقوع (فاران) في موضعٍ آخر من التَّوراة لا ينسجم سياقه مع هذا التَّفسير، بل يُرجَّح أن يكون المراد به صحارى مكَّة وحولها، لما فيه من الحديث عن سكن إسماعيل وذرِّيَّته وهم إنَّما كانوا بمكَّة، وعليه فيُرجَّح حمل (فاران) في النَّصِّ المتقدِّم أيضاً على المعنى نفسه.

أمَّا الموضع الآخر الَّذي ذُكر فيه (فاران) في التَّوراة ـ على ما أشرنا ـ فهو ما جاء في ذكر أحوال إبراهيم (في سفر التَّكوين) بعد ذكر طلب سارة من إبراهيم طرد هاجر المصريَّة وابنها (إسماعيل)، فجاء الوحي لإبراهيم بالاستجابة لها؛ لأنَّ الله سوف يجعل ابن الجارية أُمَّةً فأبعدهما إبراهيم، ثُمَّ جاء في النَّصِّ: (ونادى ملاك الله هاجر من السَّماء وقال لها ما لك يا هاجر. لا تخافي لأنّ الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدّي يدك به. لأنّي سأجعله أمّةً عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. فذهبت

وملأت القربة ماء وسقت الغلام، وكان الله مع الغلام فكبر. وسكن في البرّيّة وكان ينمو رامي قوس. وسكن في برّيّة فاران) (سفر التّكوين: ٣١، الأصحاح الحادي والعشرون، الفقرة: ١٧ ـ ٢٢).

ففي هذا النَّصّ فُسِّر (فاران) أيضاً ببرّيّة تُسمَّى بهذا الاسم حول سيناء.

ولكنَّ هذا التَّفسير لا يبدو وجيهاً في هذه العبارة الأخيرة؛ لدلالة المؤشِّرات التَّاريخيَّة المعروفة على أنَّ إسماعيل إنَّما توطَّن في مكَّة وكان نسله بها، وليس قريب سيناء، ويدلُّ الكتاب المقدَّس على أنَّه قد وُلد لهذا الغلام اثنا عشر ابناً أصبحوا آباء القبائل العربيَّة، ففي (الكتاب المقدّس: ٣٩، الأصحاح: ٢٥، الفقرة: ١٢ وما بعدها) (وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم الَّذي ولدته هاجر المصريَّة جارية سارة لإبراهيم، وهذه أسماء بني إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم... هؤلاء هم بنو إسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم اثنا عشر رئيساً حسب قبائلهم. وهذه سنوّ حياة إسماعيل. مئة وسبع وثلاثون سنة. وأسلم روحه ومات وانضمّ إلى قومه، وسكنوا من حويلة إلى شور الَّتي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور. أمام جميع إخوته نزل).

ويبدو أنَّ على الانطباع السَّائد ليس هناك أيُّ أثر في التَّاريخ ـ على إسماعيل وأولاده وكونه أباً لأمَّة عظيمة كما وُعد في التوراة ـ في منطقة سيناء وما يحيط بها، وإنَّما كان ذلك في صحراء الجزيرة العربيَّة، فلا يبعد أن يكون المراد بـ(فاران) ـ الَّذي قد يكون في الأصل لفظةً أخرى قريبة من هذا اللَّفظ ـ صحراء الجزيرة العربيّة الَّتي تقع في هذا الجانب من فلسطين وبلاد الشَّام.

هذا ما يتعلَّق بالمراد بـ(فاران) في النَّصِّ الَّذي يحدِّد مسكن إسماعيل عليه السلام.

وعليه لا يبعد أن يكون فاران في النَّصِّ الَّذي هو محلُّ البحث والَّذي يبشِّر بتلألؤ الرَّبّ من فاران يعني هذه الصَّحراء أيضاً بعد أن لم يكن التَّفسير المذكور لها ببرِّيَّة سيناء واضحاً؛ إذ لم يُلحَظ أيُّ حدثٍ في تلك البرِّيَّة يُعبَّر عنه بـ(تلألؤ الرَّبّ) منها. وهناك تشويش متكرِّر في ذكر أسامي الأماكن في التَّوراة (يلاحظ لتوضيح ذلك: الرِّحلة المدرسيَّة، للعلّامة الشَّيخ محمَّد جواد البلاغيّ ج: ٣ ص: ٥٧٨ وما بعدها، الهدى إلى دين المصطفى، له أيضاً ج: ٢ ص: ١٥٦ وما بعدها).

نصوص تبشيريَّة إنجيليَّة

وأمَّا الإنجيل: فقد تضمَّن مكرَّراً بشارة المسيح عليه السلام(١) بمجيء مُرسَلٍ من بعده، وعُبِّر عن هذا المُرسَل بكلمة يونانيَّة وقع البحث في قراءتها وتفسيرها على احتمالين(٢):

(الأوَّل): أن تكون بمعنى المعزِّي، فالمراد أنَّه سوف يأتي الحواريِّين بعد غياب المسيح عليه السلام روح القدس لتعزيتهم، وهذا هو الموافق للقراءة السَّائدة والتَّفسير الشَّائع لدى المسيحيِّين في هذه العصور المتأخِّرة عن الإسلام.

وعليه: فهي تشير إلى نزول روح القدس على الحواريِّين بعد وفاة المسيح بخمسين يوماً، كما جاء في نصٍّ آخر من العهد الجديد (ولمَّا حضر يوم الخمسين كان الجميع معاً بنفس واحدة، وصار بغتة من السَّماء صوت كما من هبوب ريحٍ عاصفة وملأ كلَّ البيت حيث كانوا جالسين. وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنَّها من نار واستقرَّت على كلِّ واحدٍ منهم. وامتلأ الجميع من الرُّوح القدس، وابتدأوا يتكلَّمون بألسنةٍ أخرى كما أعطاهم الرُّوح أن ينطقوا)(٣).

وقيل في الحكمة من وراء نزول روح القدس على الحواريِّين إنَّ المسيح كان معلِّم الحواريِّين مدَّة إقامته بينهم، وكان مرشداً ومعزِّياً لهم ومدافعاً عنهم حتَّى تعلَّقت قلوبهم به، وهو بسابق علمه عرف أنَّ مفارقته ستحزنهم جدَّاً. وتحقَّق أنَّهم في حاجة إلى مساعدة سماويَّة للتَّقوية والإرشاد والتَّعزية بعد فراقه، لذلك سبق فوعدهم بالرُّوح القدس المعزِّي

---

(١) سيأتي نقل هذه النُّصوص في هامشٍ لاحق.

(٢) يلاحظ في الموضوع: كتاب (أحمد في الإنجيل) ـ وهو تجميع لأقوال جماعة من العلماء المسيحيِّين والمسلمين ـ للدُّكتور محمَّد الحسينيّ الرَّيس ـ من مشايخ الأزهر ـ.

(٣) الكتاب المقدَّس (العهد الجديد) ص: ١٩٠، الأصحاح الثَّاني، الفقرة: ١ ـ ٤.

الآخر.

(الثَّاني): أن تكون بمعنى المحمود، وعليه فإنَّ هذه النُّصوص تبشِّر بنبيٍّ لاحقٍ بهذا الاسم على سنَّة الأديان في البشارة بالنَّبيِّ اللَّاحق في ضمن تعاليم الرَّسول السَّابق، ليكون ميثاقاً مأخوذاً على أهل هذا الدِّين بالإذعان بالرَّسول المقبل، وعدم مواجهته وتكذيبه.

منشأ الاختلاف في مفاد هذه النُّصوص

ويبدو أنَّ الأصل في هذا الإبهام هو كيفيَّة قراءة الكلمة الَّتي وردت في هذه البشارات.

توضيح ذلك: أنَّه لا شكَّ في أنَّ المسيح ﷺ وقومه كانوا يستخدمون اللَّغة السَّائدة في قومه وهي الآراميَّة، ولكن لم يصل الإنجيل إلينا إلَّا باللُّغة اليونانيَّة، وقد تُرجم إليها الإنجيل في الأصل، ثُمَّ تُرجم من اليونانيَّة إلى سائر اللُّغات.

والكلمة الَّتي وردت في الأصل اليونانيّ تتردَّد بين لفظين متشابهين، أحدهما: (بركليتوس) وهي بمعنى المحمود، والآخر: (باراكليتس) وهي بمعنى المعزِّي أو المخلِّص أو نحو ذلك، ولو حذفنا حروف المدِّ من الكلمتين تماثلتا، فكانت الكلمة كتباً (بركلتس).

وقد قيل إنَّ هذا الأمر هو العامل المساعد على هذا التَّرديد؛ وذلك لأنَّ حروف المدِّ ـ وهي الألف والياء والواو ـ لم تكن تُكتَب قبل القرن الخامس الميلاديّ. فباراكليتوس في رسم الكلمة مثل بيركليتوس تماماً، ومن ثَمَّ كانت قراءة الكلمة بهذا النَّحو أو ذاك تابعة للقرائن ومعرَّضة للتَّحوير، ويوجد في كتاب العهد الجديد التَّرجمة اليونانيَّة حالات من هذا القبيل مؤكَّدة وكثيرة.

فالَّذي ساد عند عامَّة المسيحيِّين في العصور المتأخِّرة عن الإسلام قراءة الكلمة على النَّحو الثَّاني لتكون الكلمة وفق تفسيرهم بمعنى المعزِّي، وينطبق على روح القدس الَّذي

جاء لتعزية الحواريِّين بعد صلب عيسى عليه السلام أو رفعه.

ولكن يبدو من خلال القرآن الكريم أنَّ الَّذي كان عليه المسيحيُّون في الجزيرة العربيَّة قُبَيل الإسلام أنَّها بالنَّحو الأوَّل.

ترجيح تفسير البشارات بنبيِّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم

هذا، والَّذي يبدو أنَّ النَّحو الثَّاني للكلمة أقرب وأوثق من النَّحو الأوَّل السَّائد لدى المسيحيِّين بالنَّظر إلى مجموع أمور:

١ ـ انطباع المسيحيِّين العرب في الجزيرة العربيَّة قبل الإسلام، فقد تقدَّم أنَّ النُّصوص القرآنيَّة تدلُّ دلالةً واضحةً على ذلك؛ بالنَّظر إلى مخاطبته لهم بوجود البشارة باسم النَّبيِّ (أحمد) صلى الله عليه وآله وسلم في الإنجيل من غير مواجهته من قِبَلهم، باعتباره من قبيل الكذب الواضح والغريب، بل آمن فريق منهم حسب القرآن الكريم بالرَّسول، وقد تقدَّم من قبل بيان أنَّ النُّصوص القرآنيَّة هي نصوص تاريخيَّة أُلقيت من قِبَل النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم للمجتمع العامّ، فهي تمثِّل تلك الظُّروف وأجواءها حتَّى لو لم يتمُّ التَّصديق بكونها مُنزلةً من خلال الوحي.

وقد لاحظ هذا المعنى بعض المستشرقين، كما حُكي عن دائرة المعارف الفرنسيَّة الكبرى[1]: (محمَّد مؤسِّس دين الإسلام، ورسول الله وخاتم النَّبيِّين، كلمة (محمَّد) بمعنى محمود بكثرة، ومصدرها (حمد) الَّتي تعني التَّمجيد والتَّجليل، والعجيب وعلى وجه الصُّدفة أنَّ اسماً آخر يترادف مع لفظ محمَّد ينتمي إلى نفس المصدر (حمد) وهو (أحمد) الَّذي يُحتمل احتمالاً قويَّاً بأنَّه هو المستخدَم من قِبَل العيسويِّين الَّذين كانوا يقطنون شبه الجزيرة العربيَّة والَّذين كانوا يبحثون عنه لتعيين (فارقليط)، فأحمد تعني محموداً جدَّاً وجليلاً جدَّاً وهو ترجمة للفظ (باراكليتوس) والَّتي تُقرأ خطأً (بركليتوس) ولقد طرق

---

(١) دائرة المعارف الفرنسيَّة الكبرى ج:٢٣ ص:٤١٧٤.

سمعنا هذا التَّرتيب للكتاب المسلمون مراراً، حيث قالوا إنَّ المراد من هذا اللَّفظ هي البشارة على ظهور رسول الإسلام، وقد أشار القرآن المجيد أيضاً وبشكلٍ علنيٍّ إلى هذه الآية العجيبة في سورة الصَّفّ الَّتي تهتمُّ بهذا الموضوع).

٢ ـ شهادة غير واحدٍ من المتخصِّصين في الحقول ذات العلاقة من غير المسلمين أو الدَّاخلين في الإسلام بأنَّ الصَّحيح هو أنَّ الكلمة المذكورة هي (بركليتوس) وتعني المحمود حمداً كثيراً، كما مرَّ نصّ دائرة المعارف الفرنسيَّة على ذلك.

ومن ذلك ما حكاه الشَّيخ عبد الوهّاب النَّجّار[١] من شهادة المستشرق الإيطاليّ المعروف (كارلونالينو)[٢] بذلك فقد ذكر في كتابه قصص الأنبياء[٣] أنَّه كان في سنة ١٨٩٤م زميل دراسة اللُّغة العربيَّة المستشرق الإيطاليّ "كارلونالينو"، وقد سأله الشَّيخ النَّجّار في ليلة ٢٧/ ٧/ ١٣١١هـ ما معنى "بيريكلتوس"؟ فأجابه قائلاً: إنَّ القسس يقولون: إنَّ هذه الكلمة معناها "المعزِّي"، فقال النَّجّار: إنِّي أسأل الدُّكتور "كارلونالينو" الحاصل على الدّكتوراه في أدب اليهود باللُّغة اليونانيَّة القديمة ولست أسأل قسِّيساً، فقال:

---

(١) عبد الوهَّاب النَّجّار (١٢٧٨ ـ ١٣٦٠هـ) (١٨٦٢ ـ ١٩٤١م) عالم مصريّ معروف له كتب عديدة. ذُكر أنَّه ألَّف كتاب قصص الأنبياء باقتراح الأزهر، وانتقده بعض مشايخ الأزهر في أمور خالف فيها ما ورد في صحيح البخاريّ، أو عامَّة أقوال المفسِّرين، وطُبع الكتاب مع هذا النَّقد ولكنَّه ناقش هذه الرُّدود وطُبع الكتاب مع المجموع.

(٢) كارلونالينو (١٨٧٢ ـ ١٩٣٨م) مستشرق إيطاليّ معروف، له كتب عديدة، منها تاريخ علم الفلك لدى العرب، وتاريخ الآداب العربيَّة من الجاهليَّة حتَّى عصر بني أميَّة، طُلب منه التَّدريس في القاهرة بالجامعة المصريَّة سنة (١٩٠٩م) وقد تلمَّذ عليه طه حسين وآخرون، تعمَّق في دراسة اللُّغة العربيَّة والعبريَّة والسِّريانيَّة وله مقالات وأبحاث عديدة.

(٣) قصص الأنبياء (للشيخ عبد الوهَّاب النَّجّار) ص:٣٩٧ـ ٣٩٨.

إنَّ معناها "الَّذي له حمد كثير"، فقال النَّجَّار: هل ذلك يوافق أفعل التَّفضيل من "حمد"؟ فقال الدُّكتور: نعم، فقال النَّجَّار: إنَّ رسول لله صلى الله عليه وسلَّم من أسمائه "أحمد".

٣ ـ إنَّ أمر هذه الكلمة يدور بين أن يكون وصفاً أو اسماً، فهو إذا كان بمعنى المعزِّي وشبهه فهو وصف، وإن كان بمعنى كثير الحمد للإشارة إلى اسم نبيِّ الإسلام ﷺ فهو اسم، وقد ذُكر أنَّ وجود حرف السِّين في آخر الكلمة يدلُّ على كونها اسماً؛ لأنَّ اللُّغة اليونانيَّة تزيد حرف السِّين في آخر كلِّ اسم، فليلاحَظ ذلك.

٤ ـ إنَّ سياق أكثر الجمل المتقدِّمة ترجِّح تفسيرها بنبيٍّ لاحقٍ وصفاً أو اسماً دون روح القدس[1].

---

(١) ولنوضح ذلك بعض الشَّيء بعد ذكر النُّصوص المشار إليها ، وهي كما يلي مع ملاحظة أنَّ المذكور في الكتاب المقدَّس هو (المعزي) بدلاً من (بركلتس)، ولكنه على سبيل التَّرجمة له، وإلَّا فالموجود في الأصل هو (بركلتس):

١ ـ (إن كنتم تحبُّونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم (بركلتس) (كتبنا الكلمة بحذف حروف المدّ كما كان في الأصل الَّذي وقع الاختلاف في كيفيَّة قراءته) آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحقّ، الَّذي لا يستطيع العالم أنْ يقبله، لأنَّه لا يراه ولا يعرفه، وأمَّا أنتم فتعرفونه لأنَّه ماكث معكم ويكون فيكم) (الكتاب المقدّس، العهد الجديد، الكنيسة، إنجيل يوحنّا ص: ١٧٥، الفقرة: ١٥ ـ ١٧).

٢ ـ (وأمَّا (بركلتس) الَّذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلِّمكم كلَّ شيء ويذكِّركم بكلِّ ما قلته) (المصدر نفسه ص:١٧٦، الفقرة:٢٦).

٣ ـ (ومتى جاء (بركلتس) الذي سأرسله إليكم من الأب، روح الحقّ الَّذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي) (المصدر نفسه ص:١٧٧، الفقرة:٢٦).

٤ ـ (لكنِّي أقول لكم الحقّ إنَّه خير لكم أن أنطلق لأنَّه إن لم أنطلق لا يأتيكم (بركلتس) ولكن إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيّة وعلى برٍّ وعلى دينونة. أمَّا على خطيَّة فلأنَّهم لا

يؤمنون بي، وأمَّا على برٍّ فلأنّي ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً، وأمَّا على دينونة فلأنَّ رئيس هذا العالم قد دِين، إنَّ لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأمَّا متى جاء ذاك، روح الحقّ، فهو يرشدكم إلى جميع الحقّ، لأنَّه لا يتكلَّم من نفسه، بل كلّ ما يسمع يتكلَّم به، ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجّدني، لأنَّه يأخذ ممَّا لي ويخبركم) (المصدر نفسه ص:١٧٨، الفقرة:٧ ـ ١٤).

وبيان رجحان التَّفسير الثَّاني:

أمَّا (**النَّصُّ الأوَّل**): فلأنَّ المسيح ﷺ عندما أشار إلى موته وأمر بحفظ وصاياه قال إنَّه يسأل الله أن يعطيهم (بركلتس) آخر، وكلمة (آخر) تدلُّ على أنَّ الموعود مثله ﷺ، فهو رسول مُرسَل من الله سبحانه، ولا يصدق (آخر) على روح القدس الَّذي يأتيهم للتَّسلية والتَّثبيت، بل قيل: إنَّ التَّعبير الموجود في أصل الإنجيل باليونانيَّة يدلُّ على الآخر المماثل دون الآخر المغاير.

نعم، هنا سؤال يرد في البين عن أنَّ كون الكلمة عَلَماً بمعنى (أحمد) لا يناسب توصيفه بآخر، لكنَّ هذا لا ينفي أنَّ سياق الجملة إنَّما يناسب أن يكون المقصود هو النَّبيّ المرسل دون روح القدس كما مرَّ القول في هامش قريب.

نعم، لا يناسب هذا النَّصّ أن تكون الكلمة اسماً بمعنى (محمَّد)؛ لأنَّه لا يناسب توصيفه بآخر، لكن هذا لا يعني أنَّه يعني روح القدس، بل من الجائز أن يكون المقصود به نبيَّاً مرسلاً، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فقد احتمل بعض النَّاظرين أن يكون أصل النَّصّ مشتملاً على الكلمتين هكذا (فيعطيكم معزِّياً آخر، محمَّد) إلَّا أنَّ المترجم للإنجيل إلى اليونانيَّة أغفل الكلمة الثَّانية؛ لتشابهها الشَّديد مع الأخرى وقربها المكانيّ منها، وقد ظهرت مثل تلك الأخطاء في كتابة أناجيل العهد الجديد، لعدم وجود مسافات بين الحروف في النَّصّ اليونانيّ، على أنَّه قد قيل إنَّ كلمة (بريكليتوس) ليست بمعنى المعزِّي فعلاً، بل هذه التَّرجمة تبتني على تفسير النَّصّ بأنَّه إشارة إلى روح القدس الَّذي جاء لتعزية الحواريِّين.

وفي مقابل ذلك قيل إنَّ إشارة هذا النَّصّ إلى روح القدس المعزِّي للحواريِّين بالنَّظر إلى أنَّ الموعود به في النَّصّ روح الحقّ، لذلك لا يستطيع العالم أن يقبله لأنَّه لا يراه ولا يعرفه، وأمَّا أنتم ـ أي الحواريُّون ـ فتعرفونه كأنَّه ماكث معكم وفيكم، وهذا الوصف لا يصدق على محمَّد ﷺ ؛ لأنَّه ذو جسم، وليس مرئيَّاً

للحواريِّين بل هو مرأيّ للعالم عند مجيئه وليس ماكثاً مع الحواريِّين ولا باقياً فيهم إلى الأبد.

وهذا الاستدلال يستند إلى عناصرٍ ثلاث:

(**أوَّلاً**): التَّعبير عن الموعود بـ(الرُّوح)، وهو يناسب روح القدس؛ لأنَّه روح محض. وأمَّا النَّبيُّ ﷺ فهو جسم.

ويلاحَظ عليه: أنَّ الرُّوح يُطلق في العهدين على الإنسان، كما جاء في الرِّسالة الأولى ليوحنّا (أيُّها الأحبَّاء لا تركنوا إلى كلِّ روحٍ، بل اختبروا الأرواح لتروا هل هي من عند الله؛ لأنَّ كثيراً من الأنبياء الكذَّابين انتشروا في العالم).

وعليه: فيكون قد أطلق روح الحقّ على الرَّسول؛ لأنَّه صادق، وليس من المدَّعين الكَذَبة الَّذين حذَّر منهم المسيح عليه السلام في الإنجيل.

و(**ثانياً**): أنَّ الموعود به يمكث مع الحواريِّين إلى الأبد، وهذا أيضاً لا يصدق على محمَّد ﷺ؛ لأنَّه لم يأت في زمن الحواريِّين، ولم يمكث في العالم أو معهم إلى الأبد.

ويلاحَظ عليه: أنَّ الحواريِّين أيضاً لم يكونوا ليعيشوا إلى الأبد كي يمكث روح القدس معهم إلى الأبد، كما أنَّ روح القدس الَّذي جاء لاحقاً لتعزيتهم لم يكن ماكثاً وباقياً فيهم حتَّى وفاتهم؛ إذ كان الغرض بنزوله كما ذكروه تثبيتهم بعد هول فراق المسيح وتسليتهم، وليس الغرض ملازمته لهم لأجل تسديدهم، وإن كنّا نحتمل تعسُّف بعض القسِّيسين بدعوى لزومه لخلفاء المسيح من القادة الدِّينيِّين، لكنَّه أمر غير وارد.

وعليه: فالأقرب أن يكون رجوع الضَّمير إلى الحواريِّين بالنَّظر إليهم باعتبارهم يدينون بالدِّين الحقِّ فيشمل الخطاب الأجيال المقبلة.

وحينئذٍ: يكون المراد أنَّ النَّبيَّ اللَّاحق إذا جاء كان مع أهل الدِّين إلى الأبد؛ لأنَّه يكون خاتم الأنبياء.

و(**ثالثاً**): أنَّ الموعود به لا يستطيع العالم أن يقبله؛ لأنَّه لا يراه ولا يعرفه. وأمَّا الحواريّون فيعرفونه؛ لأنَّه ماكث معهم ويكون فيهم.

وهذا أيضاً لا ينطبق على نبيّ الإسلام؛ لأنَّه يُرى حين يأتي، ولا يعرفه الحواريّون ولا يرونه قبل مجيئه كما هو حال غيرهم.

ولكنّ الواقع أنَّ هذه الفقرة من النَّصِّ لا تخلو عن شبه اضطراب؛ لأنَّه إذا كان لا يلائم النَّبيّ المرسل من جهة أنَّه ليس مرئيَّاً للحواريِّين وسوف يكون مرئيَّاً للنَّاس، إلَّا أنَّه من جهةٍ أخرى يناسب أن يكون المنظور به نبيَّاً مرسَلاً لا الرُّوح المعزِّي للحواريِّين؛ إذ لا شأن لعامَّة العالم بالرُّوح المعزِّي كما هو واضح، وإنَّما من شأن العالم أن يعرف الرَّسول الجديد إذا كان قد أُرسل لعامَّة النَّاس ـ كما هو حال نبيّ الإسلام ﷺ ـ.

وعليه: قد يُحمَل ما ورد من أنَّ الحواريِّين يعرفونه على أنَّ المراد بهم هم الأجيال اللَّاحقة ممَّن آمن به، فهم يعرفونه بالنَّظر إلى أنَّ المسيح تنبَّأ لهم بظهوره لهم تنبُّؤاً واضحاً لا يضيع عليهم، فكأنَّهم رأوه، وأمَّا باقي العالم فهم ليسوا بهذه المثابة، فهم مظنَّةٌ لأن يعتذروا عن الإيمان به بأنَّهم لا يعرفونه، وقد جاء في القرآن الكريم عن أهل الكتاب ـ الَّذين كانوا في شبه الجزيرة العربيَّة ـ أنَّهم كانوا يعرفون الرَّسول كما يعرفون أبناءهم.

وعلى أيِّ حالٍ فينبغي مزيد التَّثبُّت في أصل هذه الفقرة وترجمتها لاضطرابها.

وأمَّا (**النَّصّ الثَّاني**): فهو أيضاً يناسب البشارة بنبيٍّ لاحقٍ دون روح القدس؛ لما جاء فيه من أنَّ الموعود به يذكِّر بكلِّ ما قاله المسيح ﵇ ويعلم بكلِّ شيء، وهذا ليس شأن روح القدس الَّذي ينزل للتَّسلية والعزاء، وإنَّما يناسب أن يكون نبيَّاً مرسلاً يكون مُصدِّقاً لمن سبق من الأنبياء مكمِّلاً تعاليمهم كما هو مضمون رسالة نبيّ الإسلام ﷺ.

وأمَّا (**النَّصّ الثَّالث**): فهو أيضاً يناسب النَّبيّ المرسَل دون روح القدس؛ لما فيه من أنَّ الموعود به يشهد للمسيح ﵇، وهذا ليس من شأن روح القدس؛ فإنَّه ينزل للتَّسلية والعزاء، بل من شأن النَّبيِّ اللَّاحق أن يشهد بصدق النَّبيّ السَّابق كما كانت عليه سنَّة الله في الرُّسل من تصديق اللَّاحقين للسَّابقين وشهادتهم لهم بالصِّدق.

نعم، جاء فيه أنَّ الموعود به يرسله المسيح، و(محمَّد) ﷺ عند المسلمين ليس مبعوثاً من المسيح، بل من قِبَل الله تعالى.

ولكن ينبغي الانتباه إلى أنَّ في النَّصِّ الأوَّل والثَّاني أُسند إرسال المعزِّي إلى الأب (أي الله سبحانه) وليس إلى المسيح، فهما ليسا كالمورد الثَّالث والرَّابع اللذين أُسند فيهما إرساله إلى المسيح.

ومن خلال هذا العرض الموجز يتَّضح أنَّ ما جاء في القرآن الكريم من بشارة التَّوراة والإنجيل بنبيِّ الإسلام ﷺ أمر لا استبعاد فيه حتَّى بملاحظة معلوماتنا عن التَّوراة والإنجيل في المرحلة المعاصرة.

على أنَّ صدق دين الإسلام توجد عليه شواهد كافية؛ بالنَّظر إلى تاريخه ومضمونه

هذا، ومن المتوقَّع أن يكون إسناد بعض الأمور الإلهيَّة إلى المسيح في الأناجيل ناشئاً من النَّقل بالمعنى من أصحابها أو مترجميها الَّذين كانوا يعتقدون بألوهيَّة المسيح.

وممَّا يُذكر في المقام أنَّ من نُسخ الإنجيل الشَّائعة ما أورد هذا النَّصّ على أنَّه يتضمَّن (الرُّوح القدس) صريحاً، ولكنَّ النُّسخة السِّينائيَّة الشَّهيرة (الَّتي ترجع إلى ما قبل الإسلام) تخلو عن كلمة (القدس) فهو يتحدَّث عن الرُّوح فقط، وهو يوافق ما ورد في المواضع الأخرى من ذكر (روح الحق) في سياق هذه النُّبوءة.

وأمَّا (**النَّصّ الرَّابع**): فهو أيضاً يناسب أن يكون الموعود به نبيَّاً مرسَلاً دون روح القدس، وإلَّا فلماذا يكون من الخير للمسيح عليه السلام أن ينطلق ويفارق الحواريِّين كي يأتي روح القدس، وإنَّما يأتي روح القدس للتَّسلية والتَّثبيت جرَّاء ما يطرأ عليهم بمفارقة المسيح عليه السلام، فالمناسب أن يكون نظره إلى رسولٍ آخر لا يبعثه الله سبحانه بطبيعة الحال إلَّا بعد مفارقة المسيح.

ويساعد على ذلك ما جاء في هذا النَّصّ من أنَّ الموعود به يتكلَّم ولكن لا عن نفسه؛ وذلك لأنَّ روح القدس ـ فيما يُتوقَّع ـ لم يكن يتكلَّم مع الحواريِّين، بل يوحي إليهم بالتَّطمين والتَّثبيت، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّـهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا**﴾ (سورة فُصّلت: ٣٠).

هذا، ومَن استأنس بأسلوب الكتاب المقدَّس في تصريف المعاني وكيفيَّة التَّعبير يجد أنَّ النَّظر إلى الرَّسول الجديد ليس مستبعداً.

وعلى العموم: فإنَّ هذه الفقرات أكثر ملاءمةً للنَّظر إلى نبيٍّ مرسَلٍ من النَّظر إلى نزول روح القدس على الحواريِّين بعد المسيح للعزاء.

على ما يتَّضح من سياق هذه الأبحاث، ولكنَّنا ـ حيث تطرَّقنا لكون البشارات السَّابقة بالرَّسول المبعوث أحد المرتكزات الَّتي اهتُمَّ بها في الأديان ـ اضطررنا إلى توضيح عدم صحَّة استبعاد تحقُّق البشارة بنبيِّ الإسلام ﷺ في التَّوراة والإنجيل.

الاستدلال في الدِّين بشواهد تاريخيَّة تتعلَّق بالأنبياء السَّابقين وأممهم

(المرتكز العاشر): ـ من مرتكزات إثبات صدق الرُّسل لمجتمعاتهم بحسب القرآن الكريم ـ التَّنبيه على معلومات وشواهد تاريخيَّة ميسَّرة تتعلَّق بالأنبياء والأقوام السَّابقين.

ومن جملتها شاهدان:

(الشَّاهد الأوَّل): ـ الَّذي يجري في شأن الإسلام ـ هو مسبوقيَّة المجتمع العربيّ في مكَّة وسائر العرب من حولها بذكر النَّبيِّ إبراهيم ﷺ ودينه، فقد كان العرب يستحضرون أنَّ العديد من القبائل العربيَّة ـ كقريش ـ هي من نسل إبراهيم ﷺ، ويثقون بمعلوماتٍ متوارثة واضحة لديهم بأنَّه هو الَّذي بنى الكعبة والبيت الحرام، وكانوا يتوارثون جملةً من تعاليم إبراهيم وإسماعيل ﷺ في الحجِّ إلى البيت، وكان هذا مبنى حجِّ العرب إلى مكَّة والمشاعر من حولها.

وعليه: كان بالإمكان أخذ هذا المؤشِّر التَّاريخيّ حجَّةً منبِّهةً على تفنيد الشِّرك؛ إذ كان من الواضح لهم أنَّ إبراهيم ﷺ كان موحِّداً، وأنَّه لم يعبد ربّاً غير ربِّ البيت الحرام، وأنَّ الأصنام حتَّى الَّتي عبدها بعض ذرِّيَّته من قريش إنَّما هي مستحدثة، ولم يدَّعِ أحد أنَّها آلهة إبراهيم ﷺ، بل كان الله سبحانه صاحب البيت هو المعروف بإله إبراهيم ﷺ.

ومن ثَمَّ ذُكر في الآيات الشَّريفة مكرَّراً ما يمثِّل ابتناء تأسيس البيت الحرام من قِبَل إبراهيم ﷺ على أساس التَّوحيد، كما قال سبحانه[1]: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ**

---

(١) سورة البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩.

الْحَكِيمُ﴾، وأضاف تعالى(١): ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وقال سبحانه في تأكيد كون إبراهيم عليه السلام موحِّداً وأنَّ أولى النَّاس به مَن اتَّبعه في هذا التَّوحيد(٢): ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّـهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى(٣): ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّـهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، وقال عزَّ من قائل(٤): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، وقال جلَّت آلاؤه(٥): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّـهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ

---

(١) سورة البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢.

(٢) سورة آل عمران: ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) سورة آل عمران: ٩٥ ـ ٩٧.

(٤) سورة إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٧.

(٥) سورة النَّحل: ١٢٠ ـ ١٢٣.

الْمُشْرِكِينَ﴾.

(**الشَّاهد الآخر**): ـ وقد نُبِّه عليه في الإسلام أيضاً ـ هو آثارٌ تاريخيَّة عن أقوام رُسلٍ سابقين قد أُهلكوا، ولم تزل بقايا من آثارهم موجودةً آنذاك، كما كانت بعض أخبارهم متناقلةً بين العرب، كما قال تعالى بعد ذكر إهلاك مدين قوم شعيب[1]: ﴿**وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ**﴾، وقال سبحانه عن إهلاك قوم عاد[2]: ﴿**فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[3]: ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ**﴾.

وهذه استشهادات تاريخيَّة لم يرد أيُّ ردٍّ من المشركين عليها بتكذيبها وإنكارها، ولو كان ذلك أمراً غير ثابت لم تُعقَل مواجهتهم بهذا الأسلوب من الاستشهاد، ولحُكي ردُّ فعلهم تجاهه في القرآن الكريم والسِّيرة النَّبويَّة ولو في مقام الجواب عنه والدِّفاع عن الدِّين، كما وقع في مواضع كثيرة جدّاً.

اطِّلاع صاحب النَّصِّ الرِّساليِّ على كوامن الحاضر وطوارئ المستقبل

(**المرتكز الحادي عشر**): ـ من مرتكزات إثبات صدق الرُّسل لمجتمعاتهم حسب ما يتمثَّل في القرآن الكريم ـ اطِّلاع صاحب النَّصِّ الرِّساليِّ على كوامن الحاضر وطوارئ المستقبل، فيما يتعلَّق بمستقبل الرِّسالة والمؤمنين بها والجاحدين لها وسائر الأمور المتعلِّقة بها.

---

(١) سورة العنكبوت: ٣٨.

(٢) سورة الأحقاف: ٢٥.

(٣) سورة السَّجدة: ٢٦، ولاحظ أيضاً: طه: ١٢٨.

فقد بيَّنّا أنَّ هذا النَّصّ ببداهة التَّاريخ هو نصٌّ تدريجيٌّ يبدأ ببعثة الرَّسول ﷺ، ويتزامن مع الأحداث، ويمثِّل تفاعلاً معها من خلال التَّوجيه والتَّعليم للرَّسول، والحوار مع المكذِّبين والمتوقِّفين، والتَّعليق على الوقائع والسُّلوكيَّات والإجابة عن الشُّبهات.

وقد لوحظ من خلال ذلك إشراف صانع هذا النَّصّ على ما تؤول إليه الأمور، وتنتهي إليه الأحداث.

ذلك أنَّه لا شكَّ في أنَّ الإنسان لا يستطيع الاطِّلاع على المغيَّبات بقدراته الذَّاتيَّة الأوَّليَّة، وتلك حقيقة مُعاشة للنَّاس جميعاً. وقد يسعى بعض النَّاس من المذاهب المختلفة إلى الاطِّلاع على بعض المغيَّبات من خلال بعض الرِّياضات الرُّوحيَّة والارتباط بالجنِّ، إلَّا أنَّ من الواضح أنَّ ما يتحصَّل من الأخبار من خلال هذه الرِّياضات والارتباطات ـ على تقدير إنتاجها ـ أمرٌ نادرٌ ونزر وبعنايةٍ شديدةٍ، ولا يكون أمراً وافراً وغزيراً ومقنَّناً، كما لم يكن يُعطي وضوحاً عامًّاً لصورة الأحداث، كما يعلم ذلك المطَّلعون على أصحاب هذه المحاولات سواء المعاصرة منها أو المأثورة في التَّاريخ؛ ولذا لا تجد أيَّة حالةٍ موثوقةٍ وواضحةٍ للمجتمع العامّ يُعرَف صاحبها بالاطِّلاع على المغيَّبات بشكلٍ وافرٍ وغزيرٍ من خلال الرِّياضات الشَّخصيَّة، ولو كان ذلك أمراً متاحاً لاعتمدت الدُّول ـ خاصَّةً الَّتي تُعرف باهتمام فئة من شعوبها بذلك كالهند ـ على أشخاص مرتاضين يتوقَّعون لها المستقبل، ويعطون لها المشورة في ذلك، بدلاً عن الدِّراسات الَّتي تهتمُّ بها لقراءة المستقبل، ومعرفة المضاعفات للخطوات المختلفة ، فهذه هي الحالة الإنسانيّة العامّة.

ولكنَّنا نجد اختلاف الأمر فيما ينقله الرُّسل من الوحي من قِبَل الله سبحانه، حيث إنَّه يمثِّل اطِّلاعاً على كوامن الأمور والأحوال، ولا شكَّ في أنَّ ذلك يمثِّل حدثاً خارقاً لم يكن ليحدث إلَّا حال ارتباطهم بجهةٍ عُليا محيطة بالغيب والشَّهادة، ولولاه لم يعلموا

ذلك، كما جاء في القرآن الكريم قوله عزَّ وجلَّ عن نوحٍ ﷺ[١]: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّـهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّـهُ خَيْرًا اللَّـهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وقوله تعالى[٢]: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّـهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، وقوله سبحانه[٣]: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّـهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله عزَّ من قائل[٤]: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّـهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾، وقوله جلَّت آلاؤه[٥]: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله تعالى[٦]: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

أمثلة لإنباء القرآن الكريم بالمستقبل

وهذه الحالة أمثلةٌ كثيرةٌ في النُّصوص القرآنيَّة، نذكر جملةً منها:

(**المثال الأوَّل**): إخبار القرآن الكريم عن غلبة الرُّوم بعد انكسارهم أمام الفرس،

---

(١) سورة هود: ٣١.

(٢) سورة الأنعام: ٥٠.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٨.

(٤) سورة يونس: ٢٠.

(٥) سورة الأحقاف: ٩.

(٦) سورة التَّوبة: ١٠٠.

كما قال تعالى[1]: ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّـهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، وقد تحقَّق ذلك فعلاً، فقد غلب الرُّوم الفرس لاحقاً بعد بضع سنين.

وقد جاء هذا النَّصّ في زمان هزيمة الرُّوم بوضوح، وكان قبل هجرة الرَّسول والمسلمين من مكَّة إلى المدينة، فإنَّ سورة الرُّوم مكِّيَّة، وقد تقدَّم أنَّه لا شكَّ تاريخيَّاً في نزول الآيات القرآنيَّة متدرِّجةً بحسب الحوادث الَّتي عاصرتها.

ويبدو أنَّ المسلمين كانوا قد تشاءموا بعض الشَّيء من غلبة الفرس، بل ربَّما كانت هناك إيحاءاتٌ عقائديَّة لهذه الغلبة؛ لأنَّ الرُّوم كانوا أهل كتاب مُقرّ به عند المسلمين بوضوح، وذلك من خلال ما كان عندهم من التَّوراة والإنجيل، وهذا بخلاف الفرس، وقد جاء في السِّيرة أنَّ مشركي مكَّة قالوا للمسلمين في حينه: إنَّ الفرس قد غلبوا الرُّوم رغم أنَّهم أهل كتاب، وسوف نغلبكم كذلك وإن كنتم تدَّعون كتاباً.

فجاء هذا النَّصّ في هذه الظُّروف لتطمين المؤمنين، ولم يكن يمثِّل في حينه حجَّةً لهم على الكفَّار؛ إذ لم تكن هذه الغلبة للرُّوم حدثاً واقعاً، ولكن تبيَّن لاحقاً أنَّه نبأٌ صادقٌ وصائبٌ فعلاً.

(المثال الثَّاني): ما جاء من الوعود الجازمة المؤكّدة والمتكرِّرة بنُصرة النَّبيِّ ﷺ والمسلمين منذ بدايات البعثة ـ وهم في ظروف حرجة للغاية في كلٍّ من مكَّة المكرَّمة والمدينة المشرَّفة ـ إلى تحقُّق الانتصار المهمّ الموجب للاستقرار بعد (٢١) سنة بفتح مكَّة في السَّنة الثَّامنة للهجرة، ممَّا أدَّى إلى انهيار منظومة الشِّرك في الجزيرة العربيَّة تماماً.

أمَّا في مكَّة: فقد مكث النَّبيُّ ﷺ بعد البعثة هو والمؤمنون به في حالٍ من الاضطهاد

---

(١) سورة الرُّوم: ٢ ـ ٤.

والحصار والاستهزاء والتَّهديد، ولم يؤمن به في المدَّة الَّتي كان بها ـ وهي ثلاث عشرة سنة ـ إلَّا بضعة أشخاص، حتَّى خلعه قومه من القبيلة، وهمَّوا بقتله فخرج في الفرصة الأخيرة سرَّاً خائفاً إلى المدينة، ولم تكن هناك أيَّة مؤشِّرات يمكن الحدس منها بنجاح هذه الرِّسالة الَّتي بُنيت على نقض أصلٍ متجذِّرٍ في مجتمع مكَّة والجزيرة العربيَّة آنذاك وهو الشِّرك، وهذا أمرٌ تاريخيٌّ بديهيٌّ، ومع ذلك تجد أنَّ الآيات القرآنيَّة المكِّيَّة ترد جازمةً بنُصرة الرَّسول ومَن معه، كما عُدَّ من هذا الباب قوله تعالى[١]: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ**﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾.

وإذا كانت هذه الآيات عامَّةً فلا شكَّ في أنَّها إنَّما نزلت على النَّبيِّ ﷺ في مقام التَّعهُّد بنصرته، كما نلاحظ نصرة الرُّسل الَّذين بُعثوا لإيجاد تغييرٍ جذريٍّ في المجتمعات الَّتي بُعثوا إليها.

وكذلك كان الحال في المدينة، فقد ظنَّ المسلمون في المدينة ـ ابتداءً ـ أنَّها تكون موطناً آمناً لهم، فتحالفوا مع سائر مَن كان فيها، ومع الأقوام الَّذين كانوا حولها على أن يراعي بعضهم حرمة بعض. ولكنَّ الجزيرة العربيَّة كانت مطبقةً على الشِّرك بعدُ، وكانت معاديةً لهم، على أنَّ قريش ومَن حالفها من القبائل المشركة لم تتركهم على حالهم، بل كانت تجمع العُدَّة والعدد، وتغزوهم لإبادتهم، حتَّى أصبحوا في خوفٍ أشدُّ من خوفهم بمكَّة.

وقد رُوي في الأثر المصحَّح عن أُبيّ بن كعب[٣]، قال: لمَّا قدم رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الصَّافّات: ١٧١ ـ ١٧٤.

(٢) سورة غافر: ٥١.

(٣) يلاحظ: مجمع البيان في تفسير القرآن ج: ٧، ص: ٢٦٦، تخريج الأحاديث والآثار ج: ٢، ص:

وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوسٍ واحدةٍ، وكانوا لا يبيتون إلَّا بالسِّلاح، ولا يصبحون إلَّا فيه، فقالوا: أترون أنَّا نعيش حتَّى نبيت آمنين مطمئنِّين لا نخاف إلَّا الله؟ فنزلت الآية، وهي قوله تعالى[1]: ﴿**وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾.

هذا، وقد كان الوضع كذلك إلى عدَّة سنين حتَّى استطاعوا من فتح مكَّة في السَّنة الثَّامنة للهجرة، ونشر التَّوحيد فيها، وكُسِّرت الأصنام الَّتي كانت بها، فاختلف الوضع في الجزيرة العربيَّة كلِّها، واهتزَّ الشَّرك فيها حتَّى أصبحت رسل القبائل العربيَّة تفد على النَّبيِّ ﷺ وتسلم بين يديه.

ومن هذا الباب الإخبار عن مغلوبيَّة الكفَّار في نهاية الأمر، كقوله تعالى[2]: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّـهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ**﴾.

ومن هذا الباب أيضاً الإخبار عن عَود النَّبيِّ ﷺ إلى مكَّة الَّتي خرج منها مضطرَّاً بعد (١٣) سنة من البعثة بعد تهديد حياته فيها في ظروف كان المسلمون في موقع الضَّعف والدِّفاع في مقابل المشركين، كقوله تعالى[3]: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ**﴾.

.٤٤٧

(١) سورة النُّور: ٥٥.

(٢) سورة الأنفال: ٣٦.

(٣) سورة القصص: ٨٥.

لقد كان لهذه التَّطمينات الأثر البالغ في تطمين الرُّسل وأتباعهم، وثباتهم في أشدِّ الظُّروف الَّتي لم يكن فيها بصيصُ أملٍ وفق موازين القوى ومقتضيات الأسباب، كما يُعلَم من خلال الدّلالات النَّفسيَّة والاجتماعيَّة للنُّصوص المتقدِّمة وأخواتها.

هذا، علماً أنَّ المجتمع الموعود كان حسَّاساً تجاه هذه الوعود، ويثير الرِّيبة والشَّكَّ فيها في الظُّروف الحرجة جدَّاً، لاسيَّما من قِبَل المنافقين أو المسلمين[1] الَّذين كان إيمانهم على حافَّة الشِّرك، فإذا حدث أيُّ مكروه لهم شكَّكوا في حقَّانيَّة الدِّين، كما هو الحال فيما حُكي عنهم في القرآن الكريم في حال تأخُّر النَّصر للمسلمين، قال تعالى[2]: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّـهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّـهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّـهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّـهِ مَسْئُولًا**﴾.

(المثال الثَّالث): ما تكرَّر من الوعد النَّاجز بالفتح، ورُجِّح أنَّ المراد به فتح مكَّة

---

(١) كما قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّـهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ (سورة الحجّ: ١١)، والحرف هو طرف الشَّيء وحافَّته، والمراد ضعف إيمان هؤلاء، فهم على حافَّته، فينقلبون إلى الكفر بأدنى شيءٍ.

(٢) سورة الأحزاب: ٩ ـ ١٥.

الَّذي انهار به الشِّرك في الجزيرة العربيَّة[١]، كقوله سبحانه[٢]: ﴿**لَّقَدْ رَضِيَ اللَّـهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾، وقوله عزَّ من قائل[٣]: ﴿**لَّقَدْ صَدَقَ اللَّـهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّـهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾، وقوله جلَّت آلاؤه[٤]: ﴿**وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّـهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

وقد عُبِّر عن تحقُّق الفتح بعد وقوعه بقوله تعالى[٥]: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾.

(**المثال الرَّابع**): إخبار القرآن الكريم عند صلح الحديبيَّة عن أنَّ المسلمين سوف يدخلون مكَّة ويؤدُّون المناسك فيها آمنين، كما التزم الكفَّار بذلك، رغم أنَّ ذلك لم يكن ممَّا يمكن الوثوق به، وكان يشتمل على مخاطرةٍ كبيرةٍ في حينها، كما جاء ذلك في قوله تعالى[٦]: ﴿**لَّقَدْ صَدَقَ اللَّـهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّـهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ**﴾.

توضيح ذلك: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان قد رأى رؤيا في أنَّه زار البيت مع المسلمين، وقد حدَّث المسلمين بذلك، وقد قدم مع ألف وأربعمائة من المسلمين إلى جهة مكَّة ـ الَّتي كانت

---

(١) وهناك مَن حمل الفتح على بعض الفتوحات العسكريَّة الأخرى اللَّاحقة، يلاحظ مثلاً: التبيان في تفسير القرآن ج: ٩، ص: ٣٢٨، الكشاف ج: ٣، ص: ٥٤٦.

(٢) سورة الفتح: ١٨.

(٣) سورة الفتح: ٢٧.

(٤) سورة الصَّفّ: ١٣.

(٥) سورة الفتح: ١.

(٦) سورة الفتح: ٢٧.

تحت سلطة المشركين ـ لأجل الحجّ، وساقوا معهم الهدي، إلَّا أنَّ المشركين منعوا المسلمين من دخول مكَّة، وعقدوا مع النَّبيِّ ﷺ مصالحةً تضمَّنت أن لا يكون هناك قتالٌ بين قريش وبين النَّبيِّ ﷺ لمدَّة عشر سنين، وأن يأذنوا للمسلمين أن يدخلوا مكَّة للعمرة في العام اللَّاحق، على أن لا يجلب المسلمون معهم سلاحاً إلَّا السُّيوف في أغمادها، وقد أدَّى ذلك إلى دخول بعض الشَّكِّ في نفوس بعض المسلمين؛ بالنَّظر إلى عدم تحقُّق ما رآه النَّبيّ ﷺ وبلَّغه للمسلمين ظنَّاً منهم أنَّ المفروض أن يتحقَّق ذلك في قدومهم هذا إلى مكَّة، على أنَّهم كانوا يخشون من منعهم في السَّنة اللَّاحقة من دخول مكَّة، وأدائهم للمناسك، وأكثر من ذلك كانوا يخشون أن يغدروا بهم، فيقتلوهم وهم غير جاهزين للقتال إذا دخلوا بالوضع المذكور؛ وذلك لما لوحظ من المشركين مكرَّراً من حنثهم لعهودهم والتزاماتهم إذا شعروا بالقوَّة، ورجوا أن يوقعوا بالمسلمين ـ كما تكرَّر توصيف ذلك في القرآن الكريم ـ.

إلَّا أنَّ ذلك قد تحقَّق في السَّنة اللَّاحقة، وهي السَّابعة للهجرة وفق الاتِّفاق، ولم يتعرَّض المشركون للنَّبيِّ ﷺ ومَن معه من المسلمين المعتمرين حتَّى أكملوا العمرة ورجعوا، لكنَّهم نقضوا بعض بنود الاتِّفاق ـ الَّذي كان يشتمل على عدم القتال حتَّى عشر سنين ـ في السَّنة الثَّامنة، وأدَّى ذلك إلى وقوع القتال الَّذي انتهى إلى انهيار المشركين وفتح مكَّة المكرَّمة.

وإلى هذه الحادثة تشير الآية المتقدِّمة من دخول المسلمين المسجد الحرام آمنين مُنهين العمرة بالحلق أو التَّقصير.

(المثال الخامس): اطِّلاع النَّبيِّ ﷺ على أسرار المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، من قبيل معرفة خططهم، والوقوف على نواياهم من وراء سلوكيَّاتهم وأقوالهم، بل تمييز المنافقين المتستِّرين بإظهار الإيمان حتَّى لا يُعَدَّون فيمَن يُحسب على تعهُّده ومشاركته في

الحرب، وهذا جزء مهمٌّ من إدارة عمليَّة التَّبليغ والمواجهة كان مساعداً على حفظ الرَّسول والتَّوقِّي من خطط الأعداء.

لقد كان النَّبيُّ ﷺ مبتلى بفئاتٍ ثلاث:

١ ـ مشركي مكَّة، وكانوا هم العدوّ الخارجيِّ للمسلمين والإسلام.

٢ ـ فريق من أهل الكتاب الَّذين كانوا في المدينة وحولها، وكانوا متحالفين مع المسلمين، ولكنَّهم كانوا يعملون على وهن المسلمين والإسلام؛ لما كانوا يشعرون به من كونه ديناً منافساً معهم يمكن أن يجذب إليه فريقاً من جمهورهم، فكان النَّصُّ الرِّساليّ يكشف عن نواياهم ومساعيهم بما يؤدِّي إلى أمن المجتمع وصيانته عن تلك المكائد.

ومن أمثلة الإنباء عن أخبارهم في القرآن الكريم قوله تعالى[١]: ﴿**وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّـهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّـهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّـهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.

ومن ذلك مواجهتهم بإخفائهم بعض الكتاب أو الزِّيادة فيه، كما قال تعالى[٢]: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّـهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾، وقال سبحانه[٣]: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾.

(١) سورة آل عمران: ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) سورة المائدة: ١٥.

(٣) سورة المائدة: ٦٨.

٣ ـ المنافقون، وهم الَّذين كانوا يظهرون الإسلام من غير اعتقادٍ به، كما قال تعالى[١]: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّـهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّـهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وكانوا يسعون من خلال ذلك إلى إثارة الشُّبهة والشَّكِّ في نفوس المسلمين، وتفريق كلمتهم والإيقاع بينهم، وكانت لهم اجتماعات سرِّيَّة فيما بينهم، كما قال تعالى[٢]: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾، وإذا كان فيهم مَن يُعرَف من لحن قوله فقد كان فيهم مَن يستطيع من التَّكتُّم على حقيقة اعتقاده بشكلٍ متقَنٍ، كما قال عزَّ من قائل[٣]: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّـهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّـهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّـهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، وقال تعالى[٤]: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّـهِ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّـهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّـهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال سبحانه[٥]: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

فكان الوحي يرد مخبراً عن أحوالهم ومحادثاتهم ومساعيهم في آياتٍ كثيرةٍ تُليت عليهم من قِبَل النَّبيِّ ﷺ فكشفتهم، ولم يستطيعوا إنكار ما يحدِّث به النَّصُّ، حتَّى كانوا

---

(١) سورة البقرة: ٨ ـ ٩.

(٢) سورة البقرة: ١٤.

(٣) سورة البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

(٤) سورة المنافقون: ١ ـ ٢.

(٥) سورة التَّوبة: ١٠١.

يخافون نزول الآيات، كما قال تعالى[1]: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّـهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾، وقال جلَّت آلاؤه[2]: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّـهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾، وقال تعالى[3]: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّـهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّـهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّـهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾، وقال سبحانه[4]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّـهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، ولو أردنا أن نوضح ظروف هذه الآيات وأخواتها لطال القول في ذلك.

(المثال السَّادس): ما ورد من وعد النَّبيِّ ﷺ بصيانته ممَّا كان يحذره من النَّاس، وخاصَّةً المنافقين منهم في مقام تبليغ بعض الأمور الَّتي يصعب عليهم تحمُّلها أو في مقاماتٍ أخرى، كما جاء في قوله تعالى[5]: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّـهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فسياق الآية يدلُّ بوضوح على حذر

---

(١) سورة التَّوبة: ٦٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٧.

(٣) سورة النِّساء: ٦١ ـ ٦٣.

(٤) سورة الحشر: ١١ ـ ١٢.

(٥) سورة المائدة: ٦٧.

النَّبيِّ ﷺ من تبليغ ما أُمر به حتَّى جاءه هذا التَّطمين من قِبَل الله سبحانه فبلَّغ ما أُمر به.

وقد جاء في شأن نزول هذه الآية الكريمة أنَّ الَّذي كان قد أُمر به ﷺ من قِبَل الله سبحانه تبليغ ولاية الإمام عليّ ؏، فأخَّر ﷺ التَّبليغ به في مناسك الحجِّ حتَّى تمَّت، وخرج الحُجَّاج حتَّى بلغوا مفترق الطُّرق عند غدير خُمٍّ فنزلت الآية، وبلَّغ ذلك من خلال الحديث المعروف، وقد جاء في الآثار الصَّحيحة أنَّه ﷺ كان قد خطب في النَّاس خلال الحجِّ في مسجد الخيف وغيره، وعندما ذكر أنَّ الأمر في قريش وأنّه يكون هناك اثنا عشر إماماً حدثت ضوضاء حتَّى لم يكد يُسمَع صوته، فكأنَّه ﷺ أراد أن يذكر ولاية عليّ ؏ فشعر النَّاس بذلك فأثاروا الضَّوضاء حتَّى لم يُسمع بعض كلامه، فدلَّ على مقاومةٍ شديدةٍ لهذا الأمر في أوساط النَّاس لاسيَّما قريش، فلمَّا نزلت الآية في غدير خُمٍّ قام ﷺ فخطب في المسلمين، وذكر ولاية الإمام عليّ ؏ للنَّاس جميعاً.

(المثال السَّابع): ما جاء من التَّحدِّي بالقرآن الكريم بشكلٍ مطلقٍ، بمعنى أنَّه لا يستطيع أحدٌ معارضته لا حالاً ولا مستقبلاً، وهو تحدٍّ بدأ بما نزل في مكَّة المكرَّمة، واستمرَّ فيما نزل بالمدينة المنوَّرة، وذلك أمر متكرِّرٌ في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى[1]: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾.

وهذا أمرٌ تحقَّق بالفعل، فلا نجد منذ نزول القرآن الكريم إلى الآن أيَّ نصٍّ دينيٍّ باللُّغة العربيَّة يرتقي إلى مستوى القرآن الكريم في أسلوبه وبلاغته رغم أنَّ وجود القرآن الكريم يتيح اقتفاء أثره، واتِّباع أسلوبه، مع أنَّ جماعةً من غير المسلمين سعوا إلى معارضة القرآن الكريم، لكن كان من الواضح لجمهور الأدباء من المسلمين وغيرهم أنَّه لا قيمة

---

(١) سورة الإسراء: ٨٨.

أدبيَّة لشيءٍ من ذلك فضلاً عن أن يبلغ مستوى المنافسة مع القرآن الكريم، كما أنَّ بعض مشاهير الأدباء صاغ نصوصاً دينيَّة(١)، وهو متأثِّرٌ بأسلوب القرآن الكريم بلا شكٍّ، لكن ليس هناك مَن يحتمل أنَّه يبلغ مستوى القرآن الكريم في أسلوبه وبلاغته.

لكنَّ ذلك أمر لم يكن ممَّا يستطيع النَّبيُّ ﷺ أن يتأكَّد منه بعلمه، لاسيَّما في المستقبل، فهب أنَّه يعلم أنَّ قريش وفصحاء العرب آنذاك لا يستطيعون من معارضته بمثله؛ لما يعلمه من مستوياتهم في زمانه، فكيف له أن يعلم بانتفاء ذلك في المستقبل؟ إذ يجوز مبدئيَّاً تطوُّر الفصاحة والبلاغة ـ ولو على ضوء اقتضاء أسلوب القرآن الكريم ـ ولو من جهة مساعي المعارضة مع القرآن إلى درجة يُتاح معارضته بنصٍّ لا يقصر عنه.

(**المثال الثَّامن**): ما جاء من إخباره ﷺ عن بعض ما يتعلَّق بزوجاته وقايةً له عن أذاهنَّ، وأُنزل في ذلك قرآنٌ يُتلى ليتَّضح الأمر للجميع، كما قال سبحانه(٢): ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّـهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَـذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّـهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّـهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾.

فالملاحَظ أنَّ البعض المنظور من أزواجه تعجَّبت من اطِّلاعه على واقع ما جرى بينها وبين زوجةٍ أخرى له، وسألته: (مَن أنبأك هذا)، وهذا نصٌّ نزل في حادثٍ خارجيٍّ دار في أسرته، وأعلنت عنها الآية في المجتمع كلِّه، ولا يحتمل أن يكون مشهداً مصطنعاً بحالٍ، كما هو ظاهر.

---

(١) كنز إربا (كتاب الصَّابئة)، للدُّكتور عبد الرَّزَّاق عبد الواحد.

(٢) سورة التَّحريم: ٣ ـ ٤.

فهذا عدد من الأمثلة الَّتي تتمثَّل في النُّصوص القرآنيَّة من غير استقصاءٍ، وهي شواهد تاريخيَّة وافية على هيمنة صاحب النَّصِّ المرسل على كوامن الحاضر وحوادث المستقبل.

وقد ورد أضعاف ذلك في السُّنَّة النَّبويَّة بما يصحُّ القول إنَّ العديد منها حالاتٌ يمكن الوثوق بها من المنظور التَّاريخيِّ، إلَّا أنَّه يكفي في إثبات هذه الظَّاهرة الموارد الَّتي يستبطنها القرآن الكريم، وهو نصٌّ تاريخيٌّ لا يحتاج الوثوق به إلى مقدِّمات إضافيَّة؛ إذ كانت مرافقته للحوادث التَّاريخيَّة على العموم حالةً معلنةً وواضحةً وبديهيَّةً.

دلالة خوارق الأنبياء على صدقهم

(**المرتكز الثَّاني عشر**): ـ الأخير من مرتكزات إثبات صدق الرُّسل لمجتمعاتهم بحسب ما يتمثَّل في القرآن الكريم ـ هو الإتيان بخوارق العادات، ونعني بها الأمور الَّتي يعجز البشر عن القيام بها بالقدرات الأوَّليَّة الَّتي مُتِّع بها، أو القدرات المكتسبة الَّتي يتأتَّى له تحصيلها من خلال الرِّياضات النَّفسيَّة.

وعليه: فإذا جاء الرَّسول بهذه الخوارق دلَّ ذلك على اتِّصاله بالسَّماء الَّتي هي مصدر القدرات الخارقة.

ويلاحظ النَّاظر في نصوص الرِّسالات الإلهيَّة أنَّها معنيَّة بإبراز خوارق للأنبياء أوجبت تصديقهم والإذعان بهم في مجتمعاتهم.

فقد جاء موسى ﵇ بآياتٍ عظيمةٍ مثل انقلاب عصاه حيَّةً، وضربه بعصاه الأرض فانبثقت منها اثنتا عشرة عيناً، وتجاوز البحر ببني إسرائيل، فتبعهم فرعون بجنوده فغرقوا جميعاً.

وجاء عيسى بن مريم ﵇ بآياتٍ عديدةٍ، فقد كان ميلاده بنفسه ـ من غير أبٍ ـ أمراً

خارقاً، وقد أبرأ الأكمه والأبرص، وأحيى الموتى بإذن الله تعالى، وأنبأ النَّاس بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم بإذن الله سبحانه.

وجاء نبيُّ الإسلام ﷺ بآياتٍ أبرزها القرآن الكريم، الَّذي تحدَّى به العرب في فصاحته وبلاغته.

وقد يُتساءل عن وجه الحاجة إلى الخوارق في إثبات صدق الرِّسالة بعد ما تقدَّم من استناد الرُّسل في إثبات صدق مضمون الرِّسالة إنَّما كان أوَّلاً على ملاءمته مع المنطق والعقل والضَّمير الإنسانيّ، كما أنَّ تخطئة العقائد والممارسات السَّائدة في المجتمع الَّذي أُرسلوا إليه على أساس مجافاتها مع هذه المبادئ، وعليه فما هو وجه الحاجة إلى المجيء بخوارق العادات؟

ولنذكر عدَّة إيضاحاتٍ لرفع الإبهام من هذه النَّاحية وسائر النَّواحي في ضمن أمور:

دواعي الإتيان بالخوارق في الرِّسالات الإلهيَّة

(الأمر الأوَّل): إنَّ وقوع الخوارق في ضمن الرِّسالات لم يكن لإثبات صدق الرِّسالة دائماً، بل كان بدواعٍ مختلفة، ومن جملتها ما يلي:

١ ـ ما تمثَّل في أصل إرسال الرِّسالة ومضمونها، حيث إنَّها كانت دائماً فوق قدرات الرَّسول المعروفة عنه لدى قومه ومجتمعه قبل الرِّسالة، كما أوضحنا ذلك في بعض المرتكزات السَّابقة، فهذا الأمر يجعل صدور هذه الرِّسالة من الرَّسول حدثاً خارقاً؛ من جهة أنَّها بمضمونها فوق قدرات الرَّسول.

٢ ـ ما اقتضاه حفظ الرَّسول والجماعة المؤمنة من القتل والاستئصال، نظير فلق

البحر لموسى ﷺ ومَن معه من بني إسرائيل عندما تبعهم فرعون بجنوده، كما قال تعالى[(١)]: ﴿**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ**﴾.

ومن هذا القبيل جعل النَّار برداً وسلاماً على إبراهيم ﷺ عند إلقائه فيها، كما قال سبحانه[(٢)]: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾.

٣ ـ ما اقتضاه تدبير أمر الرَّسول في أداء الرِّسالة، من قبيل إخباره بالمكائد الَّتي يخطِّط لها الأعداء، ووعده بالنَّصر والفتح والغلبة ونحو ذلك ممَّا تقدَّم توصيفه في المرتكز السَّابق. فما تمّ في هذه الحالات لم يكن في الأصل بغرض إثبات صدق الرِّسالة للنَّاس، بل كان بغرض تدبير أمر الرَّسول والمجتمع المؤمن وسوقه سوقاً راشداً.

٤ ـ ما كان تشديداً على المكذِّبين الجاحدين؛ عسى أن يكفُّوا عن الاستكبار والجحود، ويؤمنوا بالرَّسول، كما قال تعالى عن قوم فرعون[(٣)]: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾.

---

(١) سورة طه: ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) سورة الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٦.

وقد ذُكر أنَّ من هذا النَّوع ما وقع في أمَّة الإسلام، وقد أُشير إليه بقوله تعالى[(١)]: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَـذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

فقد قيل: إنَّ أهل مكَّة استعصوا على النَّبيِّ ﷺ فدعا عليهم بسنين كسنين يوسف عليه السلام، فأصابهم القحط حتَّى أكلوا العظام والميتة، وحتَّى جعل الرَّجل ينظر إلى السَّماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجوع[(٢)].

٥ ـ إنزال العذاب الخارق بالمكذِّبين، كما وقع ذلك بالأمم السَّابقة، مثل قوم نوح ولوط وعاد وثمود وغيرهم، وقد كان ذلك بعد طول صبرٍ للأنبياء معهم، كما وصفنا ذلك من قبل، حتَّى استنفدت وسائل الإقناع، وأدوات الإرشاد، وتمَّ تحذيرهم تحذيراً جادّاً، ولكنَّهم هدَّدوا الرُّسل، وجابهوهم بالاستهزاء والسُّخرية، وطلبوا نزول العذاب عليهم، قال سبحانه عن قوم نوح عليه السلام[(٣)]: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وقال تعالى عن قوم هود عليه السلام[(٤)]: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّـهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

---

(١) سورة الدُّخان: ١٠ ـ ١٦.

(٢) يلاحظ: صحيح البخاري ج: ٢، ص: ١٥، أبواب الاستسقاء، باب دعاء النَّبيِّ ﷺ.

(٣) سورة هود: ٣٢.

(٤) سورة الأعراف: ٧٠.

وقال عزَّ من قائل عن قوم صالح ﷺ[١]: ﴿**فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾.

هذا، وكان التَّعامل في الدِّين مع إنزال العذاب الخارق ـ كما قلنا ـ أشبه بالاستجابة للضَّرورة بعد الانتظار الطَّويل، وتعذُّر سائر طرق الحلِّ، ومن ثَمَّ دُفع العذاب عمَّن آمن في اللَّحظات الأخيرة كقوم يونس ﷺ، كما قال تعالى[٢]: ﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾.

وكذلك الحال في الإسلام، فقد وقع تهديد المكذِّبين بالعذاب الخارق مكرَّراً، ولكن لم يُنزل هذا العذاب بعد أن تيسَّر دفع الأذى عن المسلمين من خلال تمكُّنهم من الدِّفاع عن أنفسهم ولو كان مقروناً بتضحيات كبيرة، ومن نصوص التَّهديد في القرآن الكريم قوله تعالى[٣]: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾، وقال سبحانه[٤]: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّـهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾، وقال عزَّ وجلَّ[٥]: ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن**

(١) سورة الأعراف: ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) سورة يونس: ٩٨.

(٣) سورة فُصِّلت: ١٣.

(٤) سورة الأنفال: ٣٤ ـ ٣٥. **هذا**، وذكر الآيتين مبنيٌّ على تفسير العذاب في الآيتين بـ(العذاب الدُّنيويّ).

(٥) سورة الزُّمر: ٥٤ ـ ٥٥.

يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، وقال تعالى[1]: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّـهِ مَفْعُولًا﴾**.

وأيّاً كان: فالملاحَظ من خلال ما تقدَّم أنَّ العذاب الخارق ربَّما كان في الأصل مجازاةً على تعدِّي الحدود يقتضيه الحزم، وصيانة الأنبياء ومَن آمن بهم عن أذى المكذِّبين الَّذين كانوا يهدِّدون الرُّسل وأتباعهم المستضعفين الَّذين لم يكونوا يملكون ما يدافعون به عن أنفسهم ـ كبني إسرائيل مع فرعون ـ، ولكنَّه في عين الحال كان تثبيتاً لإيمان مَن آمن بالرُّسل واتَّبعهم، ودليلاً لهم ولِمَن يقف على آثار الأمم المعذَّبة من قبل على صدقهم، كما قال تعالى[2]: **﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾**، وقال سبحانه[3]: **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾**.

بل في نفس التَّهديد من قِبَل الرَّسول ﷺ دلالة على صدقه؛ لأنَّ مثله في رجاحة عقله لن يقدم على هذا التَّهديد بالخوارق وهو لا يستطيع إيجادها، ولا سيَّما أنَّ من هذا التَّهديد ما جاء في زمان مكثه بمكَّة وكان ﷺ آنذاك مستضعَفاً خائفاً.

٦ ـ ما كان لتطمين الرَّسول نفسه بما أُرسل به، وتأكيد أنَّه حقٌّ لا ريب فيه، وذلك نظير إحياء الموتى لإبراهيم عليه السلام، وكان ذلك ممَّا يُستبعَد في مجتمعه جدَّاً، ويُشنَّع عليه في

---

(١) سورة النِّساء: ٤٧.

(٢) سورة سورة طه: ١٢٨.

(٣) سورة القصص: ٥٨.

ادِّعاء مثله حتَّى كأنَّه محال، فهو ﷺ كان معتقداً بما بُلِّغ به من قِبَل الله سبحانه من إحياء النَّاس بعد مماتهم في نشأةٍ أخرى، ولكن أراد تطمين قلبه، فاستجاب له الله سبحانه، قال تعالى[1]: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّـهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد يكون من هذا الباب جعل العصا حيَّةً لموسى ﷺ ابتداءً قبل لقائه لفرعون، كما قال تعالى[2]: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

٧ ـ ما كان لتطمين المؤمنين بصدق الرِّسالة في مقابل عوارض شكٍّ ووسوسةٍ لم يكونوا يجدون مدفعاً عنها، وإن لم تكن مبنيَّةً على أساس موضوعيٍّ، كما قال تعالى[3]: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّـهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّـهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّـهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٢) سورة طه: ١٧ ـ ٢٤.

(٣) سورة المائدة: ١١٢ ـ ١١٥.

ولعلَّ من هذا القبيل إعادته تعالى الحياة إلى بعض الأموات؛ من جهة شدَّة مواجهة هذا النَّبأ، للاستبعاد في بعض المجتمعات الَّتي بُعث الرُّسل إليها، قال تعالى[١]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّـهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّـهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّـهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّـهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٨ ـ إكرام الرَّسول نفسه، لا ليكون حجَّةً على قومه؛ وذلك استجابةً لدعاء منه، أو إيفاءً بحاجة له تتوقَّف على ذلك، وهو على حدِّ ما يقع لغير الرُّسل من العباد الصَّالحين، كما اتَّفق لمريم عليها السلام، إذ قال تعالى[٣]: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ومن هذا الباب ما وقع من الاستجابة لدعاء زكريّا عليه السلام في أن يرزقه الله تعالى ولداً، فاستجاب له سبحانه، وقال عزَّ من قائل[٤]: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٣.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٩.

(٣) سورة آل عمران: ٣٧.

(٤) سورة مريم: ٧ ـ ١٠.

الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

٩، ١٠ ـ ما كان استجابةً لطلبٍ محقَّقٍ أو متوقَّعٍ من النَّاس المبعوث إليهم؛ ليكون حجَّةً لهم على صدق الرِّسالة، أو كان ردّاً لتحدِّي المكذِّبين بالرِّسالة، حيث كانوا يطلبون الآيات الخارقة لأجل اليقين بصدق الرِّسالة.

قال سبحانه عن عيسى عليه السلام(1): ﴿**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّـهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّـهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾.

وقال تعالى عن قوم صالح عليه السلام(2): ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّـهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّـهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّـهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

وقد تكرَّر طلب الأمم للآيات من الأنبياء، كما قال سبحانه عن فرعون(3): ﴿**قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ**﴾.

وقال سبحانه عن قوم نبيِّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم(4): ﴿**بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ**﴾، وقال عزَّ من قائل(5): ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**

---

(١) سورة آل عمران: ٤٩.

(٢) سورة الأعراف: ٧٣.

(٣) سورة الأعراف: ١٠٦ ـ ١٠٩.

(٤) سورة الأنبياء: ٥.

(٥) سورة البقرة: ١١٨.

لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّـهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وقال جلَّت آلاؤه[1]: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّـهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾.

هذه هي أسباب وبواعث الخوارق الَّتي اتَّفقت للأنبياء ﷺ.

إذن، يتَّضح من هذا العرض: أنَّ ما اتَّفق من الخوارق للأنبياء لم يكن كلُّه للاحتجاج بها على صدقهم، بل منه ما كان باقتضاء تمكينهم من مهمَّتهم ودفع الأذى والقتل عنهم، ومنه ما كان على وجه الإكرام لهم والاستجابة لدعائهم، ومنه ما كان معاقبةً للمكذِّبين، إلى غير ذلك من الوجوه السَّابقة.

وجه اعتماد الدِّين على الخوارق في الدَّعوة إلى تصديقه

(الأمر الثَّاني): إنَّ إثبات حقَّانيَّة الدِّين في بداية إرساله لن يستغني عن خوارق معجزة تؤكِّد انتماءها إلى قدرةٍ وراء الإنسان، حتَّى وإن كان مضمون الرِّسالة موافقاً مع المنطق والضَّمير.

والوجه فيه: أنَّ حقَّانيَّة الدِّين تتوقَّف على إثبات عنصرين:

أحدهما: أن يكون مضمون الرِّسالة نفسه ـ بغضِّ النَّظر عن إرسال الرَّسول به ـ أمراً منطقيّاً موافقاً مع شواهد العقل والمنطق ومقتضيات الضَّمير والوجدان الإنسانيّ.

وثانيهما: أن يكون هناك ما يدلُّ على كون هذا المضمون رسالةً بعث بها الله سبحانه وتعالى إلى عباده.

ولا شكَّ بحسب منطق الدِّين في أنَّ العنصر الأوَّل أمر لازم وضروريٌّ، فلا يمكن قبول دين يجافي المنطق ويضادّ الضَّمير بشكل واضح؛ لأنَّ العقل ـ الَّذي هو المخاطَب

---

(١) سورة الأنعام: ٣٧.

بالقبول أو الرَّفض ـ لن يستطيع الإذعان بما يضادّ ما أُودِع فيه، وكيف يمكن أن يأتي عن الله سبحانه الخالق للإنسان والمزوِّد له بالعقل ما ينفيه العقل، والمفروض في الدِّين أنَّه خلق الإنسان ليخاطبه بعقله.

إذن، لا شكَّ في الحاجة إلى هذا العنصر المضمونيّ في حقَّانيَّة الدِّين، فهو أمر لازم لا محيص عنه.

ولكن ذلك ممَّا لا يكفي في إثبات انتماء الرِّسالة إلى الله سبحانه ما لم ينضمّ إليه ما يؤكِّد كون الرِّسالة بشواهد فوق قدرة الرَّسول، وذلك لوجوه:

١ ـ إنَّ من الجائز أن تكون الرِّسالة من إنشاء مدَّعي الابتعاث بها، وقد تمكَّن من إنشائها لاتِّصافه بالعقل الرَّاجح والضَّمير المستنير، كما هو الحال في شأن بعض العلماء الَّذين ينطقون بالحكمة، ويدعون إلى المعروف، وقد اختار أن ينسب هذه المضامين إلى الله سبحانه لأجل تأثيره في النَّاس.

وهذا هو السِّرُّ في عدم تصديق بعض النَّاس المعاصرين للأديان؛ لأنَّهم لا يجدون معاجز معاصرةً، ولا يثقون بالمعاجز المحكيَّة، ويحتملون أن تكون هذه الرِّسالات من إنشاء مدَّعيها؛ لاتِّصافهم بالعقل، والحكمة، والتَّدبير، والسِّياسة بما يمكِّنهم من إنشاء هذه الرِّسالة. ولو أنَّ النَّاس المشكِّكين في الدِّين في هذا الزَّمان شهدوا معاجز فوق قدرات الإنسان لصدَّقوه واطمأنُّوا به، ولم يعقهم تقدُّم العلم وتطوُّر الحياة عن الإيمان بالدِّين.

٢ ـ إنَّ دعوى الاتِّصال بالله سبحانه ـ بتحمُّل رسالة منه سبحانه إلى الخلق ـ هي دعوى خارقة؛ حيث تقتضي إبلاغ الله سبحانه الإنسان برسالته بالكلام معه مباشرةً أو من خلال وسيط روحانيّ كروح القدس، وهو أمر خارق وغريب، وليس بنفسه معلناً ومشهوداً للنَّاس.

وعليه: كان المناسب أن يقترن بعلامةٍ أخرى تدلُّ على اتِّصال صاحب الرِّسالة بالخالق فعلاً من خلال تحقُّق أمورٍ تكون فوق قدرة الإنسان، فمَن ادَّعى وقوع أمرٍ خارقٍ له من الله سبحانه سرَّاً فالمتوقَّع منه في مقام طلب تصديقه أن يثبت وقوع ما هو من سنخه علناً حتَّى يرفع عنه اللَّبس والشُّبهة.

٣ ـ إنَّ الإنسان بشكلٍ عامٍّ إنَّما يعرف الإله بالأمور الخارقة الَّتي هي فوق قدرته؛ ومن ثَمَّ يتوجَّه إليه عند الضُّرِّ لكي يكشفه عنه، وهذا أمر معروف بملاحظة التَّاريخ الإنسانيِّ والطَّبيعة البشريَّة؛ ومن ثَمَّ كان النَّاس يسألون الرُّسل بأن يقيموا لهم دليلاً على الاتِّصال بالإله من خلال هذه العلامة، كما أنَّ الرَّاغبين عن تصديق الرُّسل على كلِّ حالٍ كانوا يتحدَّونهم بأن يأتوا بمعجزةٍ من عند الله سبحانه لو كانوا رسلاً له حقَّاً، ويؤثِّرون بذلك تأثيراً سلبيَّاً على إيمان النَّاس بالرُّسل من دون ذلك.

٤ ـ إنَّ المعاجز كانت طريقاً عينيَّاً محسوساً لصدق الرَّسول، وعائقاً أمام التَّأويلات والشُّبهات، بخلاف الطُّرق الأخرى للاستدلال على صدق الرَّسول الَّتي تحتاج إلى مزيدٍ من التَّأمُّل والتَّفكير والعقلانيَّة، كما يظهر بالاطِّلاع على تاريخ الأديان وطباع عامَّة النَّاس.

ومن ثَمَّ كان تأسيس أساسٍ وثيقٍ ومتينٍ للدِّين ـ تقوم فيه الحجَّة البالغة، ويتمُّ فيه إشباع الرَّغبة في التَّأكُّد والإثبات، ويتعذَّر معه إلقاء الشُّبهة فيه ـ أمراً مطلوباً ولائقاً؛ لما فيه من تيسير إحرازهم لحقَّانيَّة الدِّين.

٥ ـ إنَّ وقوع المعاجز يفضح الأدعياء الكَذَبة للرِّسالة، ويعوق دون حدوث هذه الدَّعاوي في حالاتٍ، وتقبُّل النَّاس لها في حالاتٍ كثيرةٍ أخرى؛ لأنَّ المدَّعي قد يستطيع أن يجمِّل نفسه بكلامه وسلوكه أمام النَّاس، لكنَّه لا يستطيع أن يفعل أموراً خارقة على حدِّ ما صدر من الرُّسل، ولذلك تجد أنَّ بعض أهل هذه الدَّعاوي يلتمس: الخديعة، والإيهام،

والسِّحر، والشَّعوذة لإثباتها، كما أنَّ منهم مَن يسعى إلى التَّمكُّن من الأمور الخارقة بالرِّياضات النَّفسيَّة الشَّاقَّة؛ عسى أن يتمكَّن من شيءٍ يكون علامةً على علاقةٍ مميَّزةٍ له بالله سبحانه، ولو دون الرِّسالة إذا لم يستطع من ادِّعائها في أوساط النَّاس.

وقد يظنُّ بعض النَّاس أنَّ وقوع المعاجز في الأديان يفتح باب البحث عن الخوارق بين النَّاس، ويفضي إلى الأوهام والخرافات.

وهذا انطباع غير دقيق؛ فإنَّ تطلُّع الإنسان إلى ما وراء الغيب ـ سواء كان أمراً فطريَّاً أو أمراً مكتسباً لجبران الشُّعور بالضَّعف ـ ممَّا لا يتوقَّف على مجيئ الرُّسل بخوارق العادات، على ما يظهر بدراسة تاريخ المجتمع البشريِّ، وأوضاع المجتمعات المختلفة المعاصرة ـ حتَّى غير المؤمنة بالأديان الإلهيَّة ـ، بل قد يكون ما اتَّفق من الخوارق للأنبياء ممَّا يؤدِّي إلى صيانة المجتمع عن دعاوي النُّبوَّة الكاذبة من جهة تعذُّر متطلَّباتها.

فالحاصل ممَّا ذكرنا: أنَّ إرفاق الرِّسالة المبعوثة إلى جمهور النَّاس بالخوارق المؤكِّدة لصدق الرِّسالة أمرٌ راشدٌ وحكيمٌ، على ما يظهر بالتَّأمُّل في التَّاريخ الإنسانيِّ والطَّبيعة البشريَّة.

مبنى اختيار الخوارق ونوعها لدعم الرِّسالات

(الأمر الثَّالث): لا شكَّ ـ وفق المنظور الدِّينيِّ ـ في أنَّ اختيار وقوع الخوارق كدليلٍ على صدقِ الرُّسل إنَّما كان وفق نظامٍ وقواعد مرعيَّة من قِبَل الله سبحانه؛ بالنَّظر إلى ما تقدَّم في الحديث عن حكمة الله سبحانه من أنَّ الحكمة تفرض تناسقاً وانتظاماً للأفعال.

لكن رغم ذلك فإنَّ النِّظام الملحوظ في ما كان يبتني على تقدير المصالح والاقتضاءات الشَّخصيَّة والاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة لن يكون بطبيعة الحال على حدِّ الانتظام الرِّياضيّ في الفواعل الطَّبيعيَّة كالعوامل الفيزيائيَّة والكيميائيَّة والأحيائيَّة، ومن ثَمَّ يصعب

اكتشافه لغير المحيط والمهيمن على تلك المبادئ الدَّخيلة فيه. وهذا أمر نجد مثله فيما نرجِّحه في حياتنا الأسريَّة والاجتماعيَّة، فلدينا شاخصٌ منظورٌ نعمل بموجبه، ولكنَّه ليس على حدِّ نظام المعادلات الرِّياضيَّة والهندسيَّة، ومن ثَمَّ نجد أنَّ مَن لم يحط بالاعتبارات الَّتي نراعيها قد لا يشعر بوحدة النِّظام في تصرُّفاتنا، بل قد يجده متهافتاً وغير منسَّقٍ، وكذلك الحال في قرارات القادة الاجتماعيِّين والسِّياسيِّين فهو قد يبتني على نظامٍ ما ـ سواء كان هذا النِّظام ينطلق من تحرِّي الحكمة أو البحث عن المصالح الشَّخصيَّة ـ، إلَّا أنَّه لا يتيسَّر استيعابه بشكلٍ رياضيٍّ مضبوط.

لكن مع ذلك، فهناك نكاتٌ حكيمةٌ قد تظهر من النُّصوص القرآنيَّة لوحظت في اختيار الآيات كمَّاً وكيفاً:

١ ـ إنَّ الآيات الإلهيَّة تختلف في نوعها ومستواها، وربَّما تُتلقَّى الآيات الَّتي أوتي بها موسى عليه السلام أكبر من سائر الآيات، كما قال الله سبحانه له[1]: ﴿**لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى**﴾، فمن آياته أن تصبح العصا ـ وهي جمادٌ ـ حيَّةً عظيمةً، أو ضرب طريقٍ في البحر فيتيبَّس حتَّى يتأتَّى عبوره من قِبَل موسى عليه السلام وقومه، أو أن يضرب بعصاه الحجر فتنبجس منه اثنتا عشرة عيناً. فهذه آياتٌ كبرى بالقياس إلى بعض آيات عيسى عليه السلام مثل: شفاء المرضى، وإحياء الموتى، والإخبار عمَّا يأكله النَّاس ويدَّخرونه في بيوتهم.

نعم، من آيات عيسى عليه السلام جعل الطِّين طيراً، وهو على حدِّ جعل العصا حيَّةً فيما جاء به موسى عليه السلام.

٢ ـ قد يتراءى بالنَّظر إلى نوع الخوارق الَّتي أُتيحت للأنبياء أن تكون جملةٌ منها مناسبةً لما تقتضيه مجتمعاتهم في زمانهم، ففي زمان موسى عليه السلام كان السِّحرُ منتشراً، وكان

---

(١) سورة طه: ٢٣.

للسَّحرة شأن في المجتمع، فكانت آيات موسى عليه السلام فوق المستوى المعهود من السِّحر بفاصلٍ نوعيٍّ كبير؛ ولذلك جاء في القرآن الكريم أنَّ السَّحرة كانوا من أوَّل المؤمنين به عليه السلام.

وفي عصر عيسى بن مريم عليه السلام كان الطِّبُّ والكهانة محور اهتمام المجتمع، فأتى عليه السلام بآياتٍ من قبيل إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.. فكان ذلك فوق قدرات الأطبَّاء بفاصلٍ نوعيٍّ كبير، ليكون حجَّةً عليهم، كما أخبر عمَّا يأكلونه ويدَّخرونه في بيوتهم، وهو كان أيضاً فوق ما يخبر به الكهنة من الأمور بفاصلٍ كبير، فكان دليلاً على صدقه.

وفي عصر نبيِّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم كان العرب معنيِّين بالبلاغة والفصاحة، وكانوا يتنافسون في الكلام والشِّعر البليغ، وكانوا ينصبون القصائد المفضَّلة على الكعبة، فجاء القرآن الكريم المتميِّز عن كلماتهم وشعرهم بفاصلٍ نوعيٍّ كبير، وتحدَّاهم تحدِّياً صريحاً، فلم يستطع أحدٌ منهم الإتيان بمثله، فكان حجَّةً باقيةً على صدقه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد جاء التَّنبيه على هذا المعنى في بعض الآثار المرويَّة عن أهل البيت عليهم السلام(١).

٣ ـ إنَّ المجيء بآية مرهونٌ بإذن الله سبحانه، وليس منوطاً بتقدير الرُّسل، ومن ثَمَّ ربَّما رغب بعض الرُّسل في مزيدٍ من الآيات عسى أن يؤمن قومهم؛ شفقةً عليهم من الضَّلال وعواقبه، ولكن لم يأذن الله سبحانه بها، كما قال تعالى(٢): ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّـهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**﴾، وقال سبحانه(٣): ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا**

---

(١) يلاحظ: مناقب آل أبي طالب ج: ٣، ص: ٥٠٧.

(٢) سورة الرَّعد: ٣٨.

(٣) سورة الأنعام: ٣٤ ـ ٣٥.

حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّـهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وقال تعالى[١]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّـهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّـهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّـهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

هذا، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الَّتي سنذكرها لاستشهادات أخرى.

٤ ـ إنَّ الاستجابة لطلب الآيات كان في حدود خاصَّة، وليس أمراً مطلقاً حسبما يشاء المقترحون لها، وقد جاء أنَّ بعض المتوقِّفين في تصديق الرَّسول كانوا يقترحون وجوهاً غير معقولة من الخوارق.

فمن ذلك طلبهم نزول الآيات عليهم كما تنزل على الرُّسل، كما قال تعالى[٣]: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّـهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ

---

(١) سورة غافر: ٧٨.

(٢) سورة الإسراء: ٨٩ ـ ٩٣.

(٣) سورة البقرة: ١١٨.

قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وقال سبحانه[١]: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّـهِ اللَّـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّـهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

وممَّا طلبوه أن يبعث الله سبحانه إليهم ملكاً، كما قال سبحانه[٢]: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْـهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّـهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

وأن ينزل على النَّبيِّ ﷺ ملكاً مشهوداً للنَّاس، كما قال تعالى[٣]: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾، وقال عزَّ من قائل[٤]: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، وجاء من فرعون[٥]: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْـمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾.

ويبدو أنَّ بعضهم طلب أن ينزل كلام الله سبحانه في قرطاس ـ وليس من خلال وسيط كالرَّسول ـ فقال[٦]: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٤.

(٢) سورة الإسراء: ٩٤ ـ ٩٥.

(٣) سورة الأنعام: ٨ ـ ٩.

(٤) سورة الفرقان: ٧ ـ ٨.

(٥) سورة الزّخرف: ٥٣.

(٦) سورة الأنعام: ٧.

وكان بعض المقترحين للآيات يقترحون كلَّ آيةٍ لم يُؤتَ بها، قال جلَّت آلاؤه[١]: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ومن اقتراحات الخوارق من أقوام الأنبياء ما كان أشبه باصطناع المعاذير لأجل تبرير عدم إيمانهم، فهم كانوا عازمين على عدم التَّصديق، فيعتذرون بأنَّه لو جيء لهم بهذه الآية أو تلك لآمنوا فعلاً، حتَّى كأنَّهم يقترحون كلَّ آيةٍ لم يؤتوا بها، كما قال تعالى[٢]: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾، وقال سبحانه[٣]: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وقال عزَّ من قائل[٤]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

تقليل التَّعويل على المعاجز في الإسلام

(**الأمر الرَّابع**): إنَّ من الملحوظ في الإسلام تقليل التَّعويل على المعاجز بالمقارنة مع الأديان الإبراهيميَّة السَّابقة، وزيادة التَّعويل على العقلانيَّة والتَّأمُّل والتَّفكير، كما لاحظ ذلك عدد من الباحثين غير المسلمين حتَّى قيل إنَّ الإسلام هو الدِّين الوحيد الَّذي انتشر غير مبنيٍّ على المعاجز الخارقة، بل مبنيَّاً على الخطاب القرآنيّ، بمعنى أنَّ الحجَّة المعلنة العامَّة

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠٣.

(٢) سورة البقرة: ١٤٥.

(٣) سورة الأنعام: ٢٥.

(٤) سورة يونس: ٩٦ ـ ٩٧.

الَّتي كانت تسعى إلى إقناع الآخرين إنَّما كانت تنطلق من القرآن الكريم ذاته والمبادئ المتمثِّلة فيه، والَّذي لا يتضمَّن العناية بثبت خوارق النَّبيِّ ﷺ، وإنَّما يعتمد على الاحتجاج العقلانيِّ والتَّاريخيِّ من خلال المرتكزات السَّابقة الَّتي أوضحناها، وبيَّنّا تمثُّلها تمثُّلاً واضحاً في القرآن الكريم، مضافاً إلى الإعجاز القرآنيّ المتمثِّل في القرآن الكريم نفسه، والَّذي أوجب التَّعبير عن الجمل القرآنيَّة بـ(الآيات)، وتحدَّى المنكرين والمشكِّكين في الإتيان بمثلها، وهو من قبيل الإعجاز المعنويِّ، وليس من قبيل الإعجاز المادِّيّ، بمعنى خرق سنن الطَّبيعة وقوانينها.

وتوضح ذلك أمثلةٌ عديدةٌ، نقتصر على أحدها: وهو مسألة إعادة إحياء الإنسان بعد مماته لنشأةٍ أخرى، فقد كانت فكرة المعاد هذه غير معروفة في الجزيرة العربيَّة، وكانت تواجه استبعاداً كبيراً للغاية من المشركين، كما حُكي ذلك في عشرات الآيات القرآنيَّة الكريمة، كقوله تعالى(١): ﴿**وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا**﴾، وقوله سبحانه(٢): ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَـهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّـهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾.

وهذا الاستبعاد بعينه كان موجوداً في الأمم السَّابقة، وقد استجاب الله سبحانه فيها

---

(١) سورة الإسراء: ٤٩ ـ ٥١.

(٢) سورة الجاثية: ٢٤ ـ ٢٦.

بإعادة بعض الموتى إلى الحياة، كما وقع ذلك لإبراهيم ﵇ عندما سأل ذلك لنفسه للاطمئنان بذلك[١]. وجاء في آيات عيسى ﵇ لبني إسرائيل بأنَّه يحيي الموتى بإذن الله[٢]، وجاء أيضاً أنَّ الله سبحانه أمات قوماً خرجوا من ديارهم وهم ألوف ثُمَّ أحياهم[٣]، وأمات رجلاً مرَّ على قريةٍ وهي خاوية على عروشها، فقال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثُمَّ بعثه[٤]، وجاء عن بني إسرائيل أيضاً[٥]: ﴿**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّـهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّـهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾، فهذا كلُّه في الأمم السَّابقة.

أمَّا في الإسلام فإنَّه لم ترد أيَّة استجابةً لهذه الطَّلبات في القرآن الكريم، بل عولجت الاستبعادات بوجوهٍ منطقيَّة، مثل التَّنبيه على أنَّ مَن استطاع من خلق الإنسان فهو قادرٌ على إعادته، والإعادة أهون من الابتداء، ثُمَّ خَلْقُ الله سبحانه السَّماوات ـ والَّذي هو محلُّ إذعانهم ـ هو أعظم من خلق الإنسان، كما قال سبحانه[٦]: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْـخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْـمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾، وقال تعالى[٧]: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْـخَلْقَ ثُمَّ اللَّـهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ**

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٢) سورة آل عمران: ٤٩.

(٣) سورة البقرة: ٢٤٣.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٩.

(٥) سورة البقرة: ٧٢ ـ ٧٣.

(٦) سورة الرّوم: ٢٧.

(٧) سورة العنكبوت: ٢٠.

الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّـهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال عزَّ من قائل(١): ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾، وقال جلَّت آلاؤه(٢): ﴿**أَفَعَيِينَا بِالْـخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾.

وممَّا نلاحظه في هذا السِّياق ما يلي:

١ ـ إنَّنا ذكرنا عدم العناية بثبت الخوارق والمعاجز للنَّبيِّ ﷺ في القرآن الكريم، ولكن هذا لا ينفي تحقُّقها في حقِّه، كما نجد أنَّ السِّيرة النَّبويَّة المأثورة تحكي آياتٍ للنَّبيِّ ﷺ خاصَّة لقومه، نظير ما جاء في بعض خطب الإمام عليّ عليه السلام المذكورة في نهج البلاغة(٣).

---

(١) سورة غافر: ٥٧.

(٢) سورة ق: ١٥.

(٣) قال عليه السلام في خطبة له تُسمَّى بالقاصعة (نهج البلاغة ص: ٣٠١، الخطبة: ١٩٢): ((وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ ﷺ لَّمَا أَتَاه الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالُوا لَه يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً، لَمْ يَدَّعِه آبَاؤُكَ ولَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، ونَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْه وأَرَيْتَنَاه، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ ورَسُولٌ، وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ.

فَقَالَ لهم ﷺ: ((وَمَا تَسْأَلُونَ؟)).

قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ.

فَقَالَ ﷺ: ((إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فإِنْ فَعَلَ اللهُ ذلِكَ لَكُمْ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟)).

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ ﷺ: ((فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ، وإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ ومَنْ يُحَزِّبُ الأَحْزَابَ)).

ثُمَّ قَالَ ﷺ: ((يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَانْقَلِعِي بعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللهِ)).

وعليه فإنَّ في عدم ثبتها في القرآن ما قد يدلُّ على أنَّ المنظور الإلهيّ هو التَّعويل في دعوة الأجيال اللَّاحقة على التَّعقُّل والتَّفكير والتَّأمُّل أكثر من الخوارق.

٢ ـ إنَّ القرآن الكريم تضمَّن رفض الاستجابة لطلباتٍ عديدةٍ لنزول الآيات ـ بعد حكاياتها ـ رغم إشعار بعضها برغبة النَّبيِّ ﷺ في ذلك، كما قال عزَّ من قائل[1]: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّـهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّـهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**، وقال تعالى[2]: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾**، وقال سبحانه[3]: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّـهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾**، وقال جلَّت

فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ مُرَفْرِفَةً، وَأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الأَعْلَى عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ ﷺ.

فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذلِكَ قَالُوا ـ عُلُوّاً وَاسْتِكْبَاراً ـ: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا.

فَأَمَرَهَا بِذلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ الله ﷺ.

فَقَالُوا ـ كُفْراً وَعُتُوّاً ـ: فَمُرْ هذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ.

فَأَمَرَهُ ﷺ فَرَجَعَ.

فَقُلْتُ أَنَا: لاَ إِلهَ إِلَّا اللهُ، إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ الله، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ الله تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ، وإِجْلاَلاً لِكَلِمَتِكَ.

فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هذَا! يَعْنُونَنِي)).

(١) سورة الأنعام: ١٠٩.

(٢) سورة الرّعد: ٧.

(٣) سورة الرّعد: ٢٧.

آلاؤه[1]: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾.

هذا، إلى عشرات الآيات الأخرى والَّتي نقلنا بعضها للاستشهاد بها على أمورٍ أخرى.

ومن الملفت أنَّ القرآن الكريم لم يقتصر على عدم الاستجابة لهذه الطَّلبات، بل نقلها صريحاً، ولم يحذر في ذلك أن يعتبر إذعانه بعدم تحقيق هذه الطَّلبات تهرُّباً.

٣ ـ إنَّ القرآن الكريم يتضمَّن التَّصريح بالاكتفاء بالنَّصِّ القرآنيّ المعجز عن المجيء بآياتٍ أخرى، كما قال جلَّت آلاؤه[2]: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّـهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقال سبحانه[3]: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

لقد كان التَّعويل في الإسلام على نهوض القرآن الكريم، وأسلوب دعوته، ومضامينها كبيراً، حتَّى اعتُبِرَتْ جُمَلُهُ آياتٍ بيِّناتٍ، كما قال سبحانه[4]: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾، وقال تعالى[5]: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، وقال عزَّ من قائل[6]: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ

---

(١) سورة الأنبياء: ٥.

(٢) سورة العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١.

(٣) سورة الجاثية: ٢٥.

(٤) سورة البقرة: ٩٩.

(٥) سورة يونس: ١٥.

(٦) سورة مريم: ٧٣.

كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، وقال جلَّت آلاؤه[1]: ﴿**وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّـهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾.

٤ ـ يدلُّ القرآن الكريم أنَّه ربَّما اكتُفي في الإسلام عن المجيء بالخوارق بالآيات الَّتي جاءت في الرِّسالات السَّابقة لا سيَّما في شأن أهل الكتاب، كما قال عزَّ من قائل[3]: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى**﴾.

وهذا أمر طبيعيٌّ؛ بالنَّظر إلى أنَّ الإسلام جاء مصدِّقاً للرِّسالات السَّابقة ومتمِّماً لها، ولم يكن ديناً مستأنفاً ومنقطعاً عمَّا سبقه من الرِّسالات الإلهيَّة، والمراد بـ﴿**بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى**﴾ ما اشتملت عليها الكتب السَّابقة من الآيات البيِّنات[4]، أو خصوص ما

---

(١) سورة النُّور: ٣٤.

(٢) سورة الحديد: ٩.

(٣) سورة طه: ١٣٣.

(٤) كما قال تعالى: ﴿**سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّـهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّـهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (سورة البقرة: ٢١١)، وقال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ**﴾ (سورة البقرة: ٩٢)، وقال عزَّ من قائل: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا**﴾ (سورة الإسراء: ١٠١)، وقال جلَّت آلاؤه: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ (سورة البقرة: ٨٧)، وقال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّـهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ (سورة البقرة: ٢٥٣).

جاء فيها من البشارة بنبيِّ الإسلام ﷺ.

٥ ـ تضمَّن القرآن الكريم تقليل الخوارق في الإسلام؛ بالنَّظر إلى تجارب الأمم السَّابقة مع الآيات، كما قال تعالى(١): ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، وقال سبحانه(٢): ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وقال عزَّ من قائل(٣): ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾.

الفرق بين المعاجز وبين الأفعال الغريبة

(الأمر الخامس): في الفرق بين المعاجز وبين الأفعال الغريبة.

إنَّ للإنسان قدرات غامضة تنشأ عنها أفعال غريبة لا تستطيع عامَّة النَّاس منها. وتنشأ هذه القدرات على العموم من أمرين: قابليَّات روحيَّة، وأدوت مادّيّة. وتنمو هذه القابليَّات في أثر ضروب من الرِّياضات الجسديَّة والنَّفسيَّة، وهذه القابليَّات وآثارها ليست منوطةً بأيَّة قِيَم أخلاقيَّة وربَّانيَّة، فهي موجودةٌ ومشهودة في أهل المذاهب الخاطئة ـ الَّتي يحكم بديهة العقل ببطلانها ـ، كبعض المرتاضين في الهند وأفريقيا.

وأشهر الأفعال الغريبة هو السِّحر، وقد اعتبر المكذِّبون للأنبياء دائماً معاجز الأنبياء

(١) سورة الإسراء: ٥٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٣.

(٣) سورة القصص: ٤٨.

من قبيل السِّحر، كما قال تعالى عن آل فرعون [١]: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال سبحانه بعد ذكر آيات موسى عليه السلام وحكاية غلبة معجزة موسى عليه السلام على سحرة فرعون [٢]: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾.

وقال تعالى عن عيسى عليه السلام بعد ذكر آياتٍ جاء بها [٣]: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ومن الملفت أنَّ الَّذين رموا عيسى عليه السلام بالسِّحر، واعتبروا خوارقه من قبيل السِّحر كانوا من بني إسرائيل الَّذين كانوا يؤمنون بخوارق موسى بن عمران عليه السلام والأنبياء من بعده عليهم السلام.

وقال سبحانه عن المكذِّبين لنبيِّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم [٤]: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٢.

(٢) سورة الأعراف: ١٠٩ ـ ١٢٠.

(٣) سورة المائدة: ١١٠.

(٤) سورة الأنعام: ٧.

قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقال تعالى[١]: **﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَـذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾**.

وعليه يقع السُّؤال عن الفرق بين خوارق الأنبياء وبين الأفعال الغريبة الإنسانيَّة.

والجواب عن ذلك على الإجمال: أنَّ المجتمع الَّذي جاءت فيه الرِّسالات كانوا مسبوقين بالسِّحر وبالتَّكهُّن من الأفعال الغريبة، ومع ذلك فقد أذعن المجتمع فيه لحجج الأنبياء والآيات الَّتي جاؤوا بها، ممَّا يدلُّ على أنَّهم كانوا يميِّزون بين السِّحر وبين هذه الآيات، وقد حُكي هذا الاعتراض على الآيات الَّتي جاء بها الأنبياء بأنَّها من قبيل السِّحر في القرآن الكريم مكرَّراً، نافياً ذلك من غير حذرٍ بأن يكون ذلك تلقيناً للقارئ بمخرجٍ لما جاء به الأنبياء من الآيات، ممَّا يشير إلى وجود فارقٍ مشهودٍ ومعهودٍ بين الأمرين ـ وهما السِّحر ومعاجز الأنبياء ـ.

وأمَّا على التَّفصيل فهنا فوارق أربعة:

(الأوَّل): إنَّ السِّحر بالخصوص ليس أمراً خارجياً، وإنَّما هو ضرب من التَّأثير على إحساس الموجودين في المشهد، حيث يجعلهم يرون الأشياء بصورة مغايرة لواقعها إلى حين، كما قال تعالى[٢]: **﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾**، وأمَّا الآيات الَّتي يأتي بها الأنبياء فهي حقيقيَّة وواقعة، لا تبتني على محض التَّأثير النَّفسيِّ.

(الثَّاني): إنَّ مستوى الأفعال الغريبة ـ حتَّى ما كان منها حقيقةً وواقعاً خارجاً وليس خيالاً محضاً ـ هي دون مستوى خوارق الأنبياء بكثير، فلا نعهد فيها مثل خوارق

---

(١) سورة الأنبياء: ٣.

(٢) سورة طه: ٦٦.

موسى ﴿عليه السلام﴾ مثل عبور البحر، وانبثاق العين من ضربةٍ بالعصا، ولا مثل خوارق عيسى ﴿عليه السلام﴾، مثل: إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، والإخبار عمّا في بيوت النَّاس، ونفخ الرُّوح في التِّمثال الطِّينيّ للطَّير، ولا مثل خوارق محمَّد ﷺ من قبيل معجزة القرآن الكريم.

وبإمكان الإنسان ـ لأجل أن يتَّضح له ذلك ـ أن يقارن بين هذه الخوارق وبين ما يوجد في المجتمعات المختلفة، مثل: مرتاضي الهندوس، وبعض الفرق المعدودة من الصُّوفيَّة.

(**الثَّالث**): إنَّ الأفعال الغريبة تختلف في مقدِّماتها وممارستها بالمقارنة مع الخوارق، فهذه الأفعال تحتاج إلى رياضات شاقَّة وطويلة في القدرة عليها، وإلى عنايةٍ خاصَّةٍ حين ممارستها، وأمَّا الخوارق فهي تتحقَّق عند إذن الله سبحانه بمجرَّد أمر الرَّسول بنحوٍ سلسٍ دون الحاجة إلى رياضةٍ وعناء.

وعلى هذا الفرق فإنَّه يتوقَّف اعتبار خوارق الأنبياء آيات دالَّة على صدقهم إلى ضمِّ ما تقدَّم من وضوح شخصيَّتهم قبل البعثة، حيث لم يكونوا من أصحاب العناية بتحصيل القدرات الخارقة، ولا عُرف عنهم شيءٌ من الممارسات الَّتي تمثِّل ذلك.

(**الرَّابع**): إنَّ الخوارق ليست من فعل الرُّسل أنفسهم، بل هي من فعل الله سبحانه، وأمَّا الأفعال الغريبة فهي من أفعال أصحابها من خلال قدرات مكتسبة بالرِّياضة.

وعلى هذا الفرق أيضاً لا بُدَّ من ضميمة قرائن على أنَّ ما اتَّفق للأنبياء لم يكن من أفعالهم، وذلك بملاحظة شخصيَّتهم وسيرتهم على الشَّرح المتقدِّم في بعض المرتكزات السَّابقة.

وهذا الفرق لا شكَّ فيه في قسمٍ من الخوارق الَّتي وقعت للأنبياء بحسب القرآن الكريم، كما في ما اتَّفق لإبراهيم ﴿عليه السلام﴾ من جعل النَّار برداً وسلاماً عليه، وكذا ما اتَّفق له ﴿عليه السلام﴾

أيضاً من تقطيع الطُّيور، ثُمَّ دعاها فعادت أحياء بإذن الله تعالى، قال سبحانه[١]: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّـهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وكذلك ما اتَّفق لموسى عليه السلام وقد أوجس خيفةً منه، قال تعالى[٢]: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾.

وما اتَّفق لعيسى عليه السلام من طلب المائدة من الله سبحانه، قال تعالى[٣]: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّـهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّـهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّـهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

كما تعطي الآيات في شأن العقوبات الخارقة[٤] الَّتي كانت تنزل على الأقوام الَّذين

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٢) سورة طه: ١٧ ـ ٢١.

(٣) سورة المائدة: ١١٢ ـ ١١٥.

(٤) العقوبات الخارقة كانت على ضربين:

الأوَّل: ما كان لأجل تنبيه الأقوام، كما وُصف في قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (سورة الأعراف:

كذَّبوا بالرُّسل أنَّها لم تكن من فعل الرُّسل أبداً، بل كانت من فعل الله سبحانه، كما قال تعالى[1]: ﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّـهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ**﴾.

ولكن هناك بحث في القسم الآخر منها الَّذي أُسند في النَّصِّ القرآنيّ إلى الرُّسل، مثل ما جاء عن المسيح ﷺ من إحيائه للموتى، وإبرائه للأكمه والأبرص، ونفخه الرُّوح في هيئة الطَّير فيكون طيراً بإذن الله.

فقيل إنَّ ذلك أيضاً لم يكن بفعل المسيح ﷺ حقيقةً على حدِّ الأفعال الاعتياديَّة، بل كان بإرادة الله سبحانه عند محاولة المسيح عيسى بن مريم ﷺ، ونسبة تلك الأفعال إلى المسيح ﷺ عرفاً لا تتطلَّب أكثر من ذلك، وقيل بل كان ذلك بقدرة ممنوحة له من الله سبحانه.

هذا ما يتعلَّق بدور الخوارق في إثبات الدِّين.

وبذلك يتمُّ عرض النَّظريَّة العامَّة للمرتكزات الَّتي اعتمد عليها الرُّسل في إثبات حقَّانيَّة الدِّين ـ وفق ما يتمثَّل بوضوح في القرآن الكريم ـ.

---

١٣٣)، وهذا الضَّرب جاء كمعاجز للرُّسل.

الثَّاني: ما كان لأجل الاستئصال، وهو على العموم لم ينزل كمعاجز، لكنَّه في قوَّة المعجزة، فهو كان دليلاً لَمن آمن من قبل، بل جاء أنَّ قوم يونس ﷺ آمنوا عندما شهدوا العقاب قبل أن يحلَّ بهم، كما قال تعالى: ﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**﴾ (سورة يونس: ٩٨).

(١) سورة هود: ٣٢ ـ ٣٣.

استنتاج

وقد ظهر أنَّ النَّاس حيث بُلِّغوا من قِبَل الأنبياء برسالة الدِّين كانت مرتكزات الدَّعوة وأدوات الإقناع فيها مرتكزات معقولة وراشدة، فهي تعتمد أدوات عقلانيَّة وميسَّرة لإقناع عامَّة النَّاس تدعو بهم إلى التَّعقُّل، والتَّفكير، والموازنة، وتنطلق في إقناعها من حقائق عينيَّة ومشهودة لهم، بما توجب ارتفاع الشُّبهة لكلِّ إنسانٍ راشدٍ في المجتمع المخاطَب للرُّسل من دون حاجةٍ إلى تفكيرات معمَّقة ودراسات تخصُّصيَّة، وبذلك لم يكن يبقى معها حواجز عن إدراك صدق الرِّسالة إلَّا الحواجز النَّفسيَّة من العصبيَّات والأهواء ونحوها.

وقد يشكِّك بعض الباحثين في معقوليَّة وقوع الخوارق أو الاطِّلاع على الأمور الغائبة أصلاً؛ من جهة عدم إمكان اختراق الأسباب والأدوات الطَّبيعيَّة.

وليس ذلك صحيحاً، وسيأتي الحديث عن هذا التَّشكيك في البحث الرَّابع.

وإنَّما كان الغرض بما ذكرناه في هذا البحث أن ننظر إلى نصوص الرِّسالات من داخلها، ونتأمَّل الآليَّات الَّتي اعتمدتها بحسب ما جاء فيها في إقناع النَّاس بالرِّسالات، فما هي طبيعة تلك الأدوات؟ وهل هي أدواتٌ راشدة وحكيمة أو لا؟

نعم، يبقى الحديث عن كيفيَّة إقناع المجتمعات الأخرى البعيدة عن المجتمع الَّذي بُعث فيه الرَّسول، أو المجتمعات اللَّاحقة بالدِّين وكيفيَّة إقامة الحجَّة عليهم، وهذا ما سنتناوله في المبحث (الثَّالث) القادم بإذن الله سبحانه وتعالى.

المبحث الثَّالث

كيفيَّة إثبات صدق الرِّسالة

للمجتمعات البعيدة والأجيال اللَّاحقة

(المبحث الثَّالث)

كيفيّة إثبات صدق الرِّسالة

للمجتمعات البعيدة والأجيال اللَّاحقة

لقد أوضحنا في البحث السَّابق أنَّ الرِّسالات الإلهيَّة وفق نصوصها تتضمَّن استخدام أدوات: عقلانيَّة، وراشدة، وحكيمة، وعادلة لإقناع المجتمع المخاطَب بها.

ولكنَّ السُّؤال الأهمّ ـ بالنِّسبة إلى الإنسان المعاصر ـ هو كيفيَّة إثبات حقَّانيَّة تلك الرِّسالات لغير المجتمع المخاطَب بتلك النُّصوص، سواء المجتمعات الَّتي كانت معاصرةً لتلك الرِّسالات ولكن كانت بعيدةً عنها جغرافيَّاً، أو كانت أجيالاً لاحقة في نفس المجتمع المخاطَب بالرِّسالة.

ووجه الأهمِّيَّة أنَّ هذه المجتمعات قد لا تثق أصلاً بصدور تلك النُّصوص وما تتمثَّل فيها من أدلَّةٍ ومرتكزات، وتُجوِّز أن يكون ذلك كلُّه أموراً موضوعة ومجعولة من قِبَل رجالٍ نشأوا حول مدَّعي الرِّسالة، وزيَّنوا له دعاواه، واصطنعوا له خوارق ومعاجز على وفق ما اقتضته مصالحهم، وذلك من أجل تبوِّء مكانةٍ محوريَّةٍ بين النَّاس، بما يضمنه لهم ذلك من: جاهٍ، ومكانةٍ، ومالٍ، وامتيازاتٍ أخرى. وآمن بهم جمع من عامَّة النَّاس من جهة الانبهار بها والاسترسال في تصديقها، فالحوادث السَّابقة حتَّى لو كانت واقعاً مسلَّماً في حينها لكنها لن تتمثَّل لدى الأجيال اللَّاحقة بأدلَّتها وقرائنها وحيويَّتها، ومن ثَمَّ يتطرَّق إليها الإبهام والاحتمال، لا سيَّما مع طول المدَّة، ممَّا يؤدِّي إلى قصور أدوات الإثبات عن الإيفاء بصدق الرِّسالة في الفترات اللَّاحقة والمجتمعات البعيدة، كما هو الحال في عامَّة

حوادث التَّاريخ البعيدة.

ومن المعلوم أنَّ مجرَّدَ قناعةِ قومٍ من المعاصرين للرَّسول المفروض بما جاء به لا يكفي حجَّةً للجيل المعاصر؛ فإنَّ حال هؤلاء حال التَّابعين لسائر العقائد والأديان الخاطئة في إيمانهم بمؤسِّسيها، فمن الجائز أن يكون هؤلاء قد تعجَّلوا في تصديقه، على عادة النَّاس في إيمان فريقٍ منهم بكلِّ فكرةٍ جديدةٍ ذات شعارات جذَّابة من دون التَّثبُّت الكافي، أو يكونوا قد انطلقوا فيه من موجباتٍ غير موضوعيَّة مثل: الخوف، والرَّجاء، والغلبة، والتَّفاؤل، والمصالح، ونحوها من أسباب الاقتناع بالعقائد عند عامَّة النَّاس، فكيف نثق بقيام مبادئ موضوعيَّة وراشدة لهم على صدقه!

على أنَّ من الجائز في حقِّ مَن لم يؤمن بالرَّسول حقيقةً ـ ممَّن جاهر به أو أسرَّ ذلك ـ أن يكون قد انطلق من عدم كفاية الشَّواهد على صدقه، فيكون ذلك معارضاً لدلالة تصديق مَن صدَّقه على وجود دلائل كافية على صدق الرَّسول.

وإذا كان مثل هذه الاحتمالات لا تخطر في أذهان الأجيال اللَّاحقة في المجتمعات المؤمنة بعقيدةٍ ما فهو من جهة اعتمادها على الأجيال السَّابقة، ومن ثَمَّ لو أراد أهلُ أيِّ دينٍ وصف تاريخ حدوث هذا الدِّين ومجرياته لأصحاب الأديان الأخرى فإنَّهم سينظرون إلى هذا الدِّين بعين الرِّيبة والشَّكِّ، وستنقدح في ذهنهم هذه الاحتمالات بوضوح، ولكنَّ أهل الدِّين أنفسهم حيث إنَّهم مسبوقون بهذه العقائد لدى آبائهم لا يخطر في أذهانهم مثل هذه الاحتمالات إلَّا في حال بذل مزيدٍ من التَّأمُّل والتَّحرِّي والمقارنة.

ولو أنَّنا فرضنا أنَّ من الممكن للباحثين المختصِّين في التَّاريخ والتُّراث أو لبعضهم أن يصل إلى حقَّانيَّة هذه النُّصوص التَّاريخيَّة، ووقوع مقتضياتها خارجاً فذلك يجعل حقَّانيَّة الدِّين من قبيل الأمور التَّخصُّصيَّة العلميَّة الَّتي تكون عرضةً للاختلاف من جهة، كما أنَّه

ممَّا لا يستطيع عامَّة النَّاس التَّحقُّق في شأنه من جهةٍ أخرى؛ إذ لا يمكن لهم جميعاً أن يتخصَّصوا في تاريخ الرِّسالات لمعرفة حقَّانيَّتها من عدمها، والخطاب الدِّينيِّ بطبيعته يسعى لأن يكون خطاباً عامَّاً، وليس لفئة متخصِّصة؛ لأنَّه يرى أنَّ الدِّين جزء من المعلومات العامَّة الضَّروريَّة لكلِّ إنسانٍ، فالمفروض وفاء أدوات إقناعه لعامَّة النَّاس بلا حاجةٍ إلى تخصُّص في حقل معيَّن.

ويلاحَظ أنَّ هذا السُّؤال قد لا يشمل المجتمعات القريبة من المجتمع الَّذي يعيش فيه أصحاب الرِّسالات قرباً زمانيَّاً أو مكانيَّاً؛ لإمكان انتقال الدَّلائل إليها بنحوٍ مقبول، فالمجتمعات المجاورة للمجتمع الَّذي يكون فيه الرَّسول يمكن أن يقف على نبأ ظهور (الرَّسول الجديد) وحججه وتعاليمه، من جهة دور الجوار في تسهيل التَّفاعل والتَّواصل بين المتجاورين. كما أنَّ الأجيال القريبة من مجتمع الرَّسول المبعوث يمكن لها أيضاً أن تقف على حدث الرِّسالة، ودلائل حقَّانيَّته بنحوٍ مقبول؛ من جهة تواصل الأجيال وقرب المدَّة.

ولكن لا يكون الحال كذلك بالضَّرورة في المجتمعات والأجيال البعيدة.

توضيح الآليَّة المعتمدة في الدِّين لإيصاله إلى الأجيال اللَّاحقة

والجواب عن هذا السُّؤال: أنَّ هناك طريقين اتُّخذا في الأديان لإيصال حقيقة ما جرى في المشهد الرِّساليّ إلى الغائبين عن هذا المشهد:

١ ـ **الطَّريق التَّاريخيّ**، وهو حفظ الرِّسالة المبعوثة ـ كالقرآن الكريم ـ وصياغتها على وجه تُمثِّل ما جرى في المشهد الرِّساليّ من الأحداث والوقائع والأوضاع الاجتماعيَّة تمثيلاً صادقاً، فيؤدِّي ذلك طبعاً إلى حفظ المرتكزات المعتمدة على صدق كون الرِّسالة مُنْزلةً من قِبَل الله تعالى للغائبين في مستوىً مقبول.

٢ ـ **الطَّريق المباشر**، محفوظ يختصُّ به القرآن الكريم بين الرِّسالات الإلهيَّة، وهو

تمثيله حالةً متميِّزةً لحدِّ الإعجاز تبقى كذلك حتَّى العصور اللَّاحقة، ممَّا يمكن الاعتماد عليه فيها كطريقٍ للوثوق بكون هذا النَّصّ من منشأ فوق بشريٍّ.

ولنوضح كلَّاً من الطَّريقين:

الطَّريق التَّاريخيّ

أمَّا (**الطَّريق الأوَّل**): ـ التَّاريخيّ ـ فهو يقتضي أن نتأمَّل أوَّلاً في أنَّه كيف يمكن للمرء أن يبلِّغ أحداثاً اجتماعيَّة معيَّنة تتَّفق في زمانٍ ما للأجيال المقبلة بطريقٍ موثوقٍ يوجب اطمئنان تلك الأجيال بها؟

ونقتصر هنا على القول: إنَّ أوثق طريق لذلك تحرير تلك الأحداث في نصٍّ يُتلى على المجتمع بتوجُّهاته الموافقة والمخالفة بشكلٍ معلنٍ، بحيث لا يستطيع صاحب النَّصّ أن يضمِّنه أحداثاً مُختلقة، فيهتمُّ المجتمع بحفظ هذا النَّصّ اهتماماً اجتماعيَّاً واضحاً ومتَّصلاً جيلاً بعد جيلٍ.

فإذا جرت مناظرةٌ بين فئتين اجتماعيَّتين ـ مثلاً ـ وحُرِّرَت مجريات المناظرة، فتُليت على الفئتين، وأصبح المتلوُّ نصَّاً مشهوراً جيلاً بعد جيل، سلمت مجريات المناظرة إلى حدٍّ كبير عن التَّحريف، وكان النَّصُّ المحرَّر يضمن صدقه فيما يحكيه من أحداث، حتَّى لو كان هذا النَّصُّ قد حُرِّر من قبل أحد الطَّرفين؛ لأنَّ عرضه بشكلٍ معلنٍ يقيه من الاختلاق والبعد عن الواقع، وإن أمكن أن يغيب عنه بعض ما جرى ممَّا لا يؤثِّر على حكاية المشهد تأثيراً فاحشاً.

وإذا وقع صراع بين طائفتين وحُرِّرت أحداث الصِّراع أو بعضها، وتُليت في مشهدٍ اجتماعيٍّ متزامنٍ مع الصِّراع، واشتهر هذا النَّصُّ منذ تلاوته المعلنة بين أفراد المجتمع دون خلاف كان هذا النَّصُّ دليلاً على وقوع الأحداث الَّتي تضمَّنها، وإن كان قد حُرِّر من قبل

أحد الطَّرفين.

ولتوضيح ذلك لا بأس ببيان قاعدةٍ مهمَّةٍ حول سبل تقييم الأخبار والرّوايات التَّاريخيَّة، يجري عليها عامَّة العقلاء بحسب ارتكازاتهم، ومفادها أنَّ الإخبار ينقسم إلى قسمين:

(الأوَّل): الإخبار عن حادثٍ فرديٍّ، كأن ينقل شخص قولاً سمعه من شخص آخر.

وفي هذا القسم تندرج روايات الرّواة عن أقوالٍ سمعوها من نبيِّ الإسلام ﷺ ـ مثلاً ـ في مجلسٍ ثنائيٍّ معه، وهذا القسم عرضة للوضع والتَّحريف إلى حدٍّ كبير، لا سيَّما إذا كان الإخبار غير معاصرٍ للحدث؛ لأنَّ الإخبار الكاذب في مثله ليس عرضةً للانكشاف لَمن يخبرون به نوعاً.

ومن ثَمَّ يتوقَّف الوثوق بمثل هذا الإخبار على أحد عاملين: إمَّا الثِّقة بشخص المخبر من جهة معروفيَّته بالصِّدق. وإمَّا أن يكون الخبر معتضداً بالقرائن وملائماً مع ظروف وطبيعة ما يتَّفق في مثله.

(الآخر): الإخبار عن حادثٍ اجتماعيٍّ وقع في المشهد العامّ، كأن ينقل شخصٌ عن وقوع صراعٍ بين جماعتين مثلاً.

وهذا القسم بطبيعته أقلُّ عرضةً للوضع والتَّحوير؛ لأنَّ من شأن الحدث الاجتماعيّ أن تكون هناك مصادر أخرى للاطِّلاع عليه، فيتأتَّى تقويم الخبر الفرديِّ عنه، ومن ثَمَّ يكون النَّاقل لوقوعه حذراً من انكشاف كذبه، وكلّما كان الحدث الاجتماعيّ أوسع كان أبعد عن الوضع.

ثُمَّ الإخبار عن الحدث الاجتماعيّ يكون على ضربين:

١ ـ الإخبار الفرديّ عن الحدث الاجتماعيّ، كأن يجلس المؤرِّخ في بيته، ويدوِّن أخبار حوادث اجتماعيَّةٍ عامَّة. وهذا الوجه عرضة لتحريف الواقع وفق ميول المخبر واتِّجاهاته، لا سيَّما إذا كان الفاصل بين زمان الإخبار وزمان الحدث كبيراً، ولم توجد مصادر أخرى للإخبار عنه في تقدير المخبر.

٢ ـ الإخبار الاجتماعيّ عن الحدث الاجتماعيّ، بمعنى أن يحكي المخبر في المشهد العامّ الواقف على الحدث إخبار ذلك الحدث. وهذا النَّحو من الإخبار يصون الخبر عن الوضع والتَّحوير، لا سيَّما إذا كان المجتمع المخاطب متعدِّد الميول والأهواء، فيحصل الوثوق حينئذٍ بعدم تضمُّن الخبر أحداثاً كاذبة؛ لأنَّه عرضةٌ للانكشاف والافتضاح، فيؤدِّي إلى ردِّ فعلٍ اجتماعيٍّ من الطَّرف المتضرِّر بالإخبار الكاذب، ويكون له صدىً اجتماعيٌّ بطبيعة الحال، فيكون ذلك ناقضاً لغرض المخبر من وراء إخباره.

ومن ثَمَّ قلنا إنَّ أوثق طريق لتحرير الأحداث الاجتماعيَّة أن يُدوَّن نصٌّ متضمِّنٌ لها يُلقى في المشهد الاجتماعيِّ العامّ المؤلَّف من ميولٍ واتِّجاهاتٍ مختلفة، فيكون ذلك موجباً للوثوق بصدق النَّصِّ وصحَّة ما جاء فيه.

اختيار الطَّريق التَّاريخيِّ لإيصال رسالة الخالق إلى الغائبين

وهذا الطَّريق هو الَّذي اختير في الدِّين لأجل حفظ الوقائع والأحداث في فترة تبليغ الرُّسل، على وجهٍ يوجب وثوق الآخرين الَّذين لم يشهدوا هذه الأحداث.

فالنَّصُّ الرِّساليُّ نصٌّ يتضمَّن الرِّسالة الَّتي بلَّغها الرَّسول ﷺ، وجملةً من ردود الأفعال عليها في مجتمعٍ مختلط من المؤمنين والمخالفين (من المكذِّبين للدِّين ومن المنافقين الَّذين دخلوا الدِّين ظاهراً من غير اقتناعٍ به، وهم يثيرون دائماً أسئلةً تشكِّك في حقَّانيَّته).

وقد تُلي هذا النَّصُّ على هذا المجتمع بشكلٍ معلَنٍ، ولم يكن من السَّهل أن يُضمَّنَ

ادِّعاء وقوع أيِّ حادثٍ بشكلٍ كاذبٍ، فأصبح ما جاء فيه يمثِّل مجرياتٍ حقيقيَّة لأداء الرِّسالة بعيداً عن التَّزوير.

فإذا اشتهر هذا النَّصُّ منذ نشأته اشتهاراً متَّصلاً في الأزمان المتتالية يصونه عن التَّحريف والتَّغيير تيسَّر وثوق المجتمعات المتأخِّرة بصدق النَّصِّ، وتحقُّق ما جاء فيه من أحداث.

وعلى هذا الأساس: فإنَّ الآليَّة المتَّخَذة في الدِّين ـ لغاية إيصال الدِّين بشكلٍ موثوقٍ وميسَّرٍ إلى المجتمعات البعيدة واللَّاحقة ـ مؤلَّفة من ركنين:

(الأوَّل): إيجاد النَّصِّ بشكلٍ معاصرٍ مع الأحداث الاجتماعيَّة، وتضمينها السِّيرة المعلنة لأداء الرِّسالة؛ ليشتمل على صورةٍ حيَّةٍ ـ ممثِّلة للحوادث، والاحتجاجات، والأجواء الَّتي عاشها الرَّسول في مقام أداء الرِّسالة إلى النَّاس ـ على مستوىً مقبول.

(الآخر): الاهتمام بوصول نصِّ الرِّسالة وصولاً واضحاً إلى المجتمعات البعيدة من خلال جعله ـ منذ إلقاء الرَّسول له ـ نصَّاً مكتوباً مشهوداً، وإيجاب حفظه وتعليمه للنَّاس جيلاً فجيلاً.

وهذا الاهتمام ملحوظ في الأديان الإبراهيميَّة الثَّلاثة (اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام) ورسلها؛ حيث إنَّها تشتمل على كتبٍ ثلاثة تحكي الرِّسالة الَّتي جاءت بها عن الله سبحانه.

وقد تيسَّر للإسلام بالخصوص حفظ رسالته ـ وهي القرآن الكريم ـ وفق معلومات تاريخيَّة واضحة لا حاجة معها إلى الحدس والتَّظنِّي.

وإذا تمَّ هذان الأمران فإنَّ صدق النَّصِّ القرآنيّ فيما ذكره وحكاه كلّه يؤدِّي إلى قيام الحجَّة على صدق كون هذا النَّصِّ فعلاً رسالة من الله سبحانه إلى الإنسان من خلال

المرتكزات السَّابقة ـ الَّتي سلكها النَّصّ لإقناع المجتمع الرِّساليّ بصدق هذه الرسالة ـ؛ لأنَّ تلك المرتكزات متمثِّلةٌ في هذه الرِّسالة، إذ هي المنبع المعتمد في توصيفها وإثباتها.

ولتوضيح هذا المعنى نحتاج إلى بسط البيان في نقاطٍ ثلاث:

١ ـ كيفيَّة الاستدلال من خلال خصائص النَّصِّ وحفظه على صدق الرِّسالة للأجيال اللَّاحقة، كالجيل المعاصر.

٢ ـ بيان ثبوت الخصائص المتقدِّمة للنَّصِّ الرِّساليّ الَّتي يصلح النَّصُّ المتَّصف بها لأن يكون دليلاً راشداً على صدق الرِّسالة، وهذا هو الرُّكن الأوَّل المتقدِّم.

٣ ـ بيان اهتمام الدِّين بحفظ النَّصِّ الرِّساليّ كوثيقةٍ موثوقةٍ تصل إلى الغائبين عن المشهد الرِّساليّ، وإنتاج هذا الاهتمام لحفظ هذا النَّصِّ (القرآن) في الإسلام، وهذا هو الرُّكن الثَّاني المتقدِّم.

الاستدلال بخصائص النَّصّ وحفظه على صدق الرِّسالة للأجيال اللَّاحقة

أمَّا (**النُّقطة الأولى**): ـ في شرح كيفيَّة هذا الاستدلال ـ فتقتضي التَّذكير بالمرتكزات الَّتي اعتُمدت في الدِّين لإقناع المجتمع الرِّساليّ بصدق الرِّسالة وفق نصوص هذه الرِّسالة؛ لأجل توضيح قيام هذه المرتكزات في شأن الأجيال اللَّاحقة.

وهي على سبيل الإيجاز كما يلي:

١ ـ إنَّ القرآن الكريم يتضمَّن بحسب نصوصه المشهودة الاحتكام إلى العقل في منهج الإقناع والاقتناع، ويستخدم الأدوات العقليَّة والعقلائيَّة الَّتي هي موضع الإذعان الإنسانيِّ العامّ في تمحيص العقائد ونقدها.

٢ ـ إنَّ القرآن الكريم يستند في صواب أصول تعاليمه ـ عقيدةً وشريعة ـ إلى العقل والضَّمير الإنسانيّ، فالعقائد الَّتي يتضمَّنها من: وجود الله سبحانه، وتوحيده، وصفاته،

وأفعاله كلُّها تنتظم وفق نظامٍ عقليٍّ فطريٍّ ـ على ما أوضحناه تفصيلاً في الكلام على الحقيقة الأولى ـ، وكذلك الرِّسالة المبلَّغة فيه عن الله تعالى تستند إلى دلائل راشدة وبيِّنة لعامَّة المجتمع، كما أنَّ الشَّريعة الَّتي يشتمل عليها تتحرّى مقتضيات الضَّمير الإنسانيِّ من: العدالة، والوفاء، والصِّدق، والعفاف وغيرها ـ كما بيَّنّاه في كتاب (حقيقة الدين) ـ.

وهذان المرتكزان قائمان بالنَّصِّ بوضعه الحاضر، ولا يحتاجان إلى إثباتٍ تاريخيٍّ؛ لأنَّ النَّصَّ الموجود يشتمل على المضامين المتقدِّمة.

نعم، من الضَّروريّ الثُّبوت التَّاريخيِّ لأصل النَّصِّ؛ حتَّى يثبت تعلُّق مضمونه بزمان الرِّسالة، وليس اصطناعه من قبل قومٍ من العقلاء بعدها.

ولكن لا حاجة بعد ثبوت النَّصِّ إلى إثبات معلوماتٍ تاريخيَّةٍ إضافيَّةٍ محيطة بالنَّصِّ في زمانه، كما نحتاج إليه في المرتكزات الباقية التي سنذكرها.

٣ ـ إنَّ القرآن الكريم يبيِّن وجود صفاتٍ ومؤهِّلاتٍ في الرَّسول ﷺ كواقعٍ اجتماعيٍّ تاريخيٍّ مشهود في وقته يوجب الثِّقة والاطمئنان بقوله.

٤ ـ إنَّ القرآن الكريم يبيِّن أنَّ قدرات الرَّسول ﷺ قبل البعثة لا تفي بمضمون الرِّسالة الَّتي جاء بها، ويعكس ذلك كواقعٍ اجتماعيٍّ مشهود في وقته للجميع.

٥ ـ إنَّ القرآن الكريم يبيِّن كيفيَّة تلقِّي الرَّسول ﷺ بعد البعثة للرِّسالة على نحوٍ مُعاشٍ يقتضي تلقِّيها من مصدرٍ آخر.

٦ ـ إنَّ القرآن الكريم يبيِّن أنَّ تعامل النَّصّ الرِّساليّ مع الرَّسول ﷺ في شأن الحوادث الاجتماعيَّة الَّتي رافقت سيرته كان بمباينةٍ واستعلاء واضح.

٧ ـ إنَّ القرآن الكريم يوضِّح تحكُّم النَّصّ الرِّساليّ في أحوال الرَّسول ﷺ بشكلٍ مشهودٍ.

٨ ـ إنَّ القرآن الكريم يتضمَّن نقل بشائر الأنبياء السَّابقين بنبيِّ الإسلام ﷺ عن الكتب السَّابقة ـ التَّوراة والإنجيل ـ كأمرٍ مشهودٍ لأهلها في حينه.

٩ ـ إنَّ القرآن الكريم يتضمَّن التَّنبيه على معلوماتٍ وشواهد تاريخيَّة ميسَّرة تتعلَّق بالأنبياء والأقوام السَّابقين كانت كحقائق مشهودة في حينه للمجتمع العامّ.

١٠ ـ إنَّ القرآن الكريم يبيِّن اطِّلاع صاحب النَّصّ الرِّساليّ على كوامن الحاضر وطوارئ المستقبل بشكلٍ لم يكن متاحاً للرَّسول ﷺ الاطِّلاع عليه بأيَّة قدرة ذاتيَّة، وقد أُلقي النَّصُّ في المشهد العامّ قبل انكشاف الحاضر ووقوع الأحداث المستقبليَّة.

١١ ـ إنَّ القرآن الكريم يمثِّل خوارق أهمّها كون النَّصِّ القرآنيّ بنفسه نصَّاً معجزاً لم يكن باستطاعة النَّبيِّ ﷺ ـ وفق مؤهِّلاته المعروفة قبل البعثة ولا بعدها ـ الإتيان بمثله، ولا الَّذين تحدَّاهم من العرب.

فهذه المرتكزات التِّسعة الأخيرة هي مرتكزات تاريخيَّة، بمعنى أنَّها معلوماتٌ تاريخيَّة تتعلَّق بزمان أداء الرِّسالة مستنبطة من النَّصّ الرِّساليّ نفسه.

فإذا صدق النَّصّ القرآنيّ وكان متعلِّقاً بزمان أداء الرِّسالة، وقد أُوجد تدريجيَّاً متفاعلاً مع الأحداث، وأُعلن عنه في المجتمع فإنَّه يثبت تحقُّق تلك المرتكزات حقيقةً وفق دلالاتها الاجتماعيَّة[1] على وجهٍ يوجب ثقة المجتمع المعاصر.

---

(١) المراد بـ(الدّلالة الاجتماعيَّة): هي دلالة النَّصِّ على الواقع الاجتماعيِّ المتعلِّق بموجد النَّصِّ ومخاطبيه والأمور المحيطة به. وهذه الدّلالة منها دلالة صريحة، ومنها دلالة ضمنيَّة، بمعنى أنَّها تتوقَّف على استنطاق النَّصِّ، واستحضاره بشكلٍ حيويٍّ، والانتقال إلى مقتضياته في شأن صاحب النَّصِّ، ومخاطبه، والحقائق الَّتي يرتكز عليها، وهي أمور لم تكن لتصحّ، ويمكن إلقاء النَّصِّ من دون وجودها في هذه الأطراف، فهي تمثِّل في الحقيقة الأرضيَّة الَّتي احتضنت هذا النَّصّ، وارتكز النَّصُّ عليها.

أمثلة تطبيقيَّة للدّلالات التَّاريخيَّة للنُّصوص القرآنيَّة

ولنذكر بعض الأمثلة لتوضيح هذا المعنى:

(المثال الأوَّل): إنَّ القرآن الكريم يمثِّل أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان معتقداً بما يقوله ويبلّغه حسبما يتمثَّل في سمته في خلواته وأحواله وممارساته، فقد كان ﷺ خاشعاً لله سبحانه، يمضي أوقاته بالعبادة له، ويرهق نفسه في الصَّلاة، وتلاوة القرآن، حتَّى ذُكر أنَّه نزل قوله تعالى[(١)]: ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى**﴾ توصية له بالرِّفق بنفسه، وقال سبحانه[(٢)]: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ**﴾، وكان ﷺ كثير التَّأسُّف على عدم إيمان قومه به، ويخاف عليهم من تبعاته في الآخرة، كما قال سبحانه[(٣)]: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾، وقال تعالى[(٤)]: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾، وقال عزَّ من قائل[(٥)]: ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾.

وهذه النُّصوص تلاها النَّبيُّ ﷺ على المجتمع وفيه أسرته وأقرباؤه والمخالطون له وعامَّة المجتمع.

ولا يُعقل أن يقع مثل ذلك إلَّا إذا كان حاله في أسرته وقومه وأصحابه كذلك؛ لأنَّهم كانوا معه في عامَّة أحواله، فلا يصحُّ إلقاء هذه النُّصوص عليهم إذا كانت كاذبةً.

---

(١) سورة طه: ٢ ـ ٣.

(٢) سورة المزّمّل: ٢٠.

(٣) سورة الشُّعراء: ٢ ـ ٣.

(٤) سورة الكهف: ٦.

(٥) سورة فاطر: ٨.

وهذا يبطل احتمال تلفيقه للرِّسالة، وإسنادها إلى الله تعالى ولو كان لغرض الإصلاح، وهذا المثال يندرج في المرتكز الأوَّل.

(المثال الثَّاني): إنَّ القرآن الكريم يصرِّح بأنَّ نبيَّ الإسلام ﷺ لم يكن يعرف القراءة والكتابة ليستطيع التَّعرُّف على الكتب السَّابقة ويقتبس منها، كما قال تعالى[١]: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْـمُبْطِلُونَ**﴾.

وهذا نصٌّ تلاه النَّبيّ ﷺ على المجتمع العامّ ـ من المؤمنين الواقفين على أحواله قبل الرِّسالة، كالإمام عليّ عليه السلام، وغيرهم من المكذِّبين له من أقربائه وعشيرته المطِّلعين على مسيرة حياته ـ، ولم يكن من المعقول أن يقع ذلك لو كان النَّبيُّ ﷺ يقرأ ويكتب قبل البعثة، وهذا المثال يندرج في المرتكز الرَّابع المتقدِّم.

(**المثال الثَّالث**): إنَّ القرآن الكريم يصرِّح في الحروب الَّتي كانت دائرةً في أوائل البعثة بين الرُّوم وفارس أنَّ الرُّوم سيغلبون فارس بعد هزيمتهم منهم، ويفرح المؤمنون بذلك، قال تعالى[٢]: ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّـهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْـمُؤْمِنُونَ**﴾.

وهذا نصٌّ تلاه النَّبيُّ ﷺ على المجتمع العامّ عندما وصل نبأ غلبة الفرس إلى مكَّة المكرَّمة، وفرح به المشركون فيها؛ لما يمثِّله من غلبة قوم مشركين مثلهم على أهل الكتاب، وقالوا للمسلمين إنّهم سوف يغلبونهم وإن كان لديهم كتاب مُنزَّل، كما غلب الفرس الرُّوم.

ولا يمكن أن يكون قد تُلي هذا النَّصُّ على النَّاس إلَّا حين هزيمة الرُّوم من الفرس،

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٨.

(٢) سورة الرُّوم: ٢ ـ ٤.

وليس في زمان لاحقٍ بعد انتصارهم، وعليه فهو يدلُّ على اطِّلاع صاحب النَّصّ على مستقبل هذا الصِّراع، وغلبة الرُّوم لاحقاً، وهو أمرٌ لم يكن ممَّا يمكن توقّعه والمخاطرة بأمر الرِّسالة بالإخبار الجازم عنه بطبيعة الحال، لا سيَّما مع تحديد الغلبة بـ(بضع سنين)، فلا يتَّفق لسنة أو سنتين ولا بعد عشر أو خمس عشرة سنة مثلاً، فيوجب ذلك وثوقاً بصدق الرَّسول في حكاية ذلك عن الله سبحانه، كما كان ذلك علامةً على صدقه ﷺ لدى الَّذين سمعوا هذا النَّصَّ منه ثُمَّ شهدوا غلبة الرُّوم بعد بضع سنين فعلاً، وهذا المثال يندرج في المرتكز العاشر المتقدِّم.

(**المثال الرَّابع**): إنَّ القرآن الكريم تضمَّن تحدِّي العرب بأن يأتوا بسورةٍ في مستوى القرآن الكريم، وهذا تحدٍّ تكرَّر في آياتٍ عديدة، ومن آكدها قوله تعالى[1]: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾، ومن غير المعقول أن يكون النَّبيُّ ﷺ قد تلا هذه النُّصوص في المشهد العامّ في حال استطاعة بعض المكذِّبين إبطال هذا التَّحدِّي، ولو كانوا قد فعلوا لاختلف المشهد تماماً، وتمثَّل بعض تداعياته ولو على وجه الرَّدِّ عليه في القرآن الكريم، كما حُكيت دعوى بعضهم أنَّه سوف يفعل ذلك[2].

فهذه نماذج من الأمثلة الَّتي تُبيِّن كيفيَّة استنطاق النَّصِّ القرآنيّ عن واقع ما جرى في مجتمع الرِّسالة والرَّسول، وهناك مئات الآيات القرآنيَّة الَّتي تتضمَّن دلالات من هذا القبيل، كما ذكرنا عدداً منها في البحث الثَّاني عند تفصيل المرتكزات المتقدِّمة.

---

(١) سورة الإسراء: ٨٨.

(٢) قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّـهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّـهُ**﴾ (سورة الأنعام: ٩٣).

إذن، نلاحظ أنَّنا نستطيع ـ من خلال إثبات كون القرآن إخباراً اجتماعيّاً نزل بشكلٍ متدرِّج في حينه ـ إثبات صدق هذا النَّصِّ في مداليله حول أصول الوقائع والأحداث، ثُمَّ يثبت من خلال صدق النَّصِّ تحقُّق المرتكزات السَّابقة المتمثِّلة في هذه المداليل الَّتي تقوم بدورها على صدق هذه الرِّسالة للأجيال اللَّاحقة، كما ثبت صدقها للجيل المعاصر لها.

المعلومات التَّاريخيَّة المؤيِّدة للدّلالات القرآنيَّة

وتعزِّز المعلومات التَّاريخيَّة الموثوقة على العموم صدق النَّصِّ القرآنيّ في مضامينه ودلالاته الاجتماعيَّة على الوضع والجوّ القائم آنذاك.

ونعني بالمعلومات التَّاريخيَّة ما لا يتوقَّف الوثوق به على نظرٍ تخصُّصيٍّ شخصيٍّ؛ ذلك أنَّ المعطيات التَّاريخيَّة تُقسم ـ وفق منظور علم التَّاريخ ـ إلى قسمين:

(الأوَّل): ما هو من قبيل المعلومات، وهي أمور قريبة المنال والمأخذ، يتَّفق عليها المؤرِّخون نوعاً، ولا يجدون سبباً للشَّكِّ فيها، فهو أشبه بـ(الحقائق) في التَّصنيف الثُّلاثيّ للأطروحات العلميَّة إلى: الحقائق، والنَّظريَّات، والفرضيَّات.

(الآخر): ما هو من قبيل التَّحليل والاستنباط، وهو لا يكون محلّ وفاقٍ نوعاً، ولكن يثق به بعض الباحثين دون بعض.

وتكون المعلومات غالباً في مساحة الحوادث الكبيرة، وطبيعة الأوضاع والأحوال والأنساق العامَّة ونحوها، بينما يتناول التَّحليل والاستنباط بعض التَّفاصيل والجزئيَّات والأحداث الصَّغيرة، ولكن يتَّفق العكس في الموردين.

فالمعلومات التَّاريخيَّة الواردة عن بيئة تبليغ الرِّسالة، ومجتمعها، وتداعيات هذا الحدث، والسَّير التَّاريخيّ للأمور توضح صدق النَّصِّ القرآنيّ فيما يمثِّله من أجواءٍ وحوادث، وتؤكِّد مضامينه ومقتضياته، وتدفع كثيراً من الاحتمالات الَّتي قد تنقدح في

ذهن الباحث بدواً.

نقد الإفراط في التَّشكيك في المعطيات التَّاريخيَّة

وقد يرى بعض الباحثين أنَّه لا ثقة بالتَّاريخ المحكيّ عن سيرة الرِّسالة والرَّسول والمجتمع في حينه؛ وذلك لأنَّ أحد طرفي الصِّراع ـ وهو الرَّسول والمؤمنون به ـ هو الَّذي كتب هذا التَّاريخ على قاعدة: أنَّ (التَّاريخ يكتبه المنتصر)، وليس لدينا رواية أخرى عن مجريات الرِّسالة وأحداثها برواية الطَّرف المنهزم وهم المشركون وأهل الكتاب (اليهود والنَّصارى) في شبه الجزيرة العربيَّة، حتَّى يمكن التَّبيُّن من واقع ما جرى في ضوء المقارنة بين الرّوايتين.

وعليه: فليس هناك معلومات موثوقة فيما يتعلَّق بهذا التَّاريخ.

ولكن هذا الرَّأي مبالغة في التَّشكيك، وخروج عن الاعتدال في تقدير الأمور، ومباين للنَّسق العقلانيّ المتعارف، وهو بذلك أقرب إلى الوسوسة، فكتابة هذا التَّاريخ من قبل المسلمين لا تؤدِّي إلى احتمال زيفه في أصول الحوادث وكبرياتها وسير الأمور فيها.

على أنَّ من المعلوم أنَّ الرّواة للتَّاريخ الإسلاميّ لم ينحصروا بالمقتنعين بالرِّسالة حقَّاً، بل كان فيهم حتَّى وفاة النَّبيّ ﷺ قوم من المنافقين الَّذين أسلموا إسلاماً صوريَّاً، ولم يذعنوا به بقلوبهم أمثال الطُّلقاء في فتح مكَّة الَّذين حاربوا أهل الدِّين حتَّى الهزيمة التَّامَّة، فأسلموا للحفاظ على أنفسهم، والبقاء في مجتمعاتهم، والتَّخلُّص من عواقب أفعالهم، وقد وَلِيَ العديد منهم مناصب عالية في الدَّولة، واعتُبروا من جملة الرّواة للتَّاريخ الإسلاميّ في عهد الرِّسالة، وقد رُويت عنهم أحياناً أقوال تدلُّ على عدم إيمانهم بهذا الدِّين، كما هو الحال في أبي سفيان وبعض ذرّيّته.

على أنَّ الواقع أنَّ النَّصَّ القرآنيّ بنفسه إذا أمعن فيه الباحث واستنطقه يرسم بدلالته

طبيعة الواقع الَّذي نزل فيه رسماً تتحقَّق به الحجَّة ويوجب الوثوق، وهو بنفسه يفصل بين المعلومات الصَّائبة وبين الأخبار الزَّائفة والمريبة.

قرائن أخرى على صدق النَّصّ

ومن الضَّروريّ للباحث في هذا السِّياق الانتباه إلى النُّقاط الآتية:

١ ـ إنَّ النَّصَّ القرآنيّ نصٌّ يبدو عليه رداء الصِّدق، والتزام الحقِّ والتَّمسُّك بالمنطق، بملاحظة نوع الخطاب وأدواته وكيفيَّته ومضامينه، كما أوضحنا ذلك سابقاً.

وكما يميِّز الإنسان بين أطراف البحث والنِّزاع الَّذي يشهده في مدى تحرِّي بعضهم للحقِّ، وتمسُّكه بالمنطق وإنصافه مع الخصم، وجري البعض الآخر على خلاف ذلك، فإنَّ مثل هذا التَّمييز يقع في النَّصِّ أيضاً؛ لأنَّه يمثِّل: شخصيَّة صانعه، وخُلقه، ومقاصده، وغاياته، لا سيَّما إذا كان هذا النَّصُّ طويلاً بحجم القرآن، وهو يوثِّق الأحداث ومجرياتها، ويحاجج عن مبدأ يفترضه حقّاً، ويدافع عنه في خضمّ الصِّراعات والمنازعات والحروب والتَّهجير، نظير ما يجده الإنسان مثلاً في نهج البلاغة ـ الَّذي تضمَّن خطب الإمام عليّ ﵇ في جمهور المسلمين، ورسائله إلى الولاة من قبله ورجال آخرين ـ من ملامح الصِّدق، والإنصاف، والحكمة، والاطِّلاع، ومعالم الرَّغبة الصَّادقة في الحقَّانيَّة، والعدل.

فالنَّاظر في القرآن الكريم أيضاً يجد أنَّ نَفَس النَّصّ القرآنيّ نَفَس توخِّي الحقيقة وتحرِّيها والإرشاد إليها والتَّمسُّك بها.

وهذا أمر يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار في تقييم صدق الرِّسالة.

وقد أشار القرآن الكريم بنفسه إلى هذا المعنى، حيث ذكر أنَّ على الكلام المنزل نوراً وضياءً يجده النَّاظر فيه والمصغي إليه، كما قال جلَّت آلاؤه[1]: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم**

---

(١) سورة النِّساء: ١٧٤.

بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾، وقال سبحانه[1]: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾، وقال تعالى[2]: ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّـهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّـهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾، فهذه الآيات ليست مصادرة في ادِّعاء الحقَّانيَّة أمام المخاطبين بها، بل هي إثارة لروح التَّأمُّل والتَّفكير الصَّادق والمنصف فيهم؛ لأنَّه عنصر ضروريّ في الإيمان بالحقِّ والحقيقة في جميع الأحوال.

٢ ـ إنَّ بين الَّذين آمنوا بالرَّسول في المجتمع الرِّساليّ كثير من النَّابهين الطَّالبين للحقِّ ممَّن يستحيل أن ينطلي عليه الأمر إذا كان ذلك تلفيقاً من النَّبيّ ﷺ كالإمام عليّ عليه السلام، فمَن وقف على خطب الإمام عليه السلام وأحواله علم أنَّه عليه السلام كان متبصِّراً وناصحاً لنفسه في طلب الحقِّ والحقيقة معتقداً بهذه الرِّسالة مذعناً بها، كما أنَّه كان إنساناً نابهاً لا يمكن أن تنطلي عليه حيلة وخديعة في هذا المستوى الكبير، وقد كان مرافقاً للنَّبيّ ﷺ منذ صغره يتبعه اتِّباع الفصيل لأمِّه كما وصفه بنفسه، فإذعانه بهذه الرِّسالة قلباً وقالباً شاهدٌ على أنَّ هذه الرِّسالة إنَّما هي أداء صادق لم يبتنِ على أيِّ تمويه وكتمان وخديعة، حتَّى لو كان ذلك لغاية الإصلاح الاجتماعيّ.

كما أنَّ أهل الكتاب في الجزيرة العربيَّة بالخصوص كانوا ناقدين أشدَّاء لمضمون هذه الرِّسالة الجديدة؛ من حيث اطِّلاعهم على الرِّسالات السَّابقة، ومعرفتهم لأساليب التَّمويه والخديعة، وقد عُلم إيمان فريق منهم من الأحبار والرُّهبان بهذه الرِّسالة ممَّا يؤكِّد صدقها

---

(١) سورة التَّغابن: ٨.

(٢) سورة المائدة: ١٥ ـ ١٦.

وسلامتها.

وهذا المعنى أيضاً نُبِّه عليه في القرآن الكريم، كما قال تعالى(١): ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّـهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، وقال سبحانه(٢): ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْـحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْـحَمِيدِ﴾، وقال عزَّ من قائل(٣): ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْـمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾، وقال جلَّت آلاؤه(٤): ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّـهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وقال تعالى(٥): ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْـحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّـهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْـحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾، وقال سبحانه(٦): ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

٣ ـ إنَّ الأجيال اللَّاحقة للمجتمع الرِّساليّ يمكن أن يتَّصفوا بمزيدٍ من الوضوح

---

(١) سورة الرَّعد: ٤٣.

(٢) سورة سبأ: ٦.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٨ ـ ٤٩.

(٤) سورة الشُّعراء: ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٥) سورة المائدة: ٨٢ ـ ٨٤.

(٦) سورة الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٨.

تجاه الحقائق التَّاريخيَّة الَّتي تمسُّ ماضيهم وتاريخهم المتمثِّل في وجودهم الفعليّ الثَّقافيّ والجغرافيّ بالمقارنة مع سائر الأقوام، فالعرب ـ مثلاً ـ هم امتداد تاريخيّ لجيل الرِّسالة، فيمكن أن يثقوا بالمعلومات التَّاريخيَّة ـ الَّتي تتحدَّث عن الرِّسالة ودورها في عقائدهم وثقافتهم وانتشارهم الجغرافيّ ـ بشكل أسرع من القبائل البرازيليَّة ـ مثلاً ـ إذا أرادت أن تتأمَّل شأن الرِّسالة ومقدار صدقها؛ لأنَّ العربيّ يجد آثار هذا الحديث محيطةً به في حاضره، سواء في الآثار الحسِّيَّة من الأماكن المقدَّسة المتعلِّقة بحادث الرِّسالة، أو في الآثار الاعتقاديَّة والثَّقافيَّة، ولكنَّ البعيدين عن هذه الثَّقافة والرُّقعة يحتاجون للوثوق بالرِّسالة إلى بذل جهدٍ أكبر.

وعليه: فليس من الصَّحيح أن نعتبر قبول الأجيال اللَّاحقة بنبأ الرِّسالة مبنيَّاً بشكلٍ مطلقٍ على محض التَّقليد والتَّلقين، كما جاء في التَّقرير المتقدِّم للسُّؤال.

هذا، وإنَّنا نؤكِّد مرَّةً أخرى على أنَّ النَّصَّ الرِّساليَّ ـ كالقرآن الكريم ـ متى ثبت صدقه وتكوّنه التَّدريجيّ وفقاً لمقتضيات الظُّروف والأحوال كان صورةً صادقةً عن مجريات الاحتجاجات على ثبوت الرِّسالة من عدمها في ذلك المجتمع، حتَّى كأنَّ الإنسان حاضر آنذاك، ومعه يمكن أن يُقوَّم مدى اشتمال هذا الاحتجاج على مبادئ موضوعيَّة ليستكشف صدق الرِّسالة من عدمه. وفي حال تشخيص صحَّة الاحتمال الأوَّل ـ وهو موضوعيَّة المبادئ الَّتي احتُجَّ بها على صدق الرِّسالة ـ يكون ذلك حجَّةً للإنسان المعاصر؛ لأنَّه يكون بمثابة الشَّاهد الحيِّ على مجريات الاحتجاج وأحداثه بعد صدق الصُّورة المقدَّمة عنها في النَّصِّ الرِّساليِّ.

هذا كلُّه عن توصيف كيفيَّة الاستدلال بالنَّصِّ الرِّساليِّ المتَّصف بالخصائص المتقدِّمة على صدق الرِّسالة للجيل المعاصر.

توضيح خصائص النَّصِّ القرآنيّ في كيفيَّة نزوله ومضامينه التَّاريخيَّة

(النُّقطة الثَّانية): في بيان اتِّصاف النَّصِّ بالخصائص المتقدِّمة، وهي اثنتان:

١ ـ إنَّ القرآن الكريم نصٌّ متكوِّن تدريجاً تزامناً مع الحوادث الاجتماعيَّة الَّتي اتَّفقت في مسيرة النَّبيِّ ﷺ في مقام أداء النَّصّ.

٢ ـ إنَّ القرآن الكريم ليس كتاب عقائد وتشريع فحسب، بل هو كتاب يؤرِّخ لسيرة أداء هذه الرِّسالة العقائديَّة والتَّشريعيَّة بشكلٍ معلنٍ متلوٍّ على المجتمع المخاطَب له من المسلمين وغيرهم.

ويتفرَّع على إثبات هاتين الخصيصتين أنَّ النَّصَّ القرآنيَّ نصٌّ تاريخيٌّ صادق في رسم واقع ما جرى في مقام أداء الرِّسالة، ومعارضتها وسير الحوادث والاحتجاجات الَّتي دارت في ضمن ذلك.

وفيما يأتي إيضاح موجز لهاتين الخصيصتين:

أمَّا **(الخصيصة الأولى)** فبيانها: أنَّ القرآن الكريم ليس نصَّاً معدَّاً إعداداً واحداً أخرجه النَّبيُّ ﷺ دفعةً واحدةً على حدِّ الكتاب الَّذي يؤلِّفه صاحبه، حتَّى إذا أتـمَّه أخرجه إلى النَّاس، بل النَّصُّ القرآنيّ أُوجد بشكلٍ تدريجيٍّ خلال ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً من السنة الثالثة عشرة قبل الهجرة النَّبويَّة إلى المدينة حتَّى وفاة النَّبيِّ ﷺ في السَّنة الحادية عشرة بعد تلك الهجرة.

وهذا أمرٌ واضحٌ وبديهيٌّ في التَّاريخ لم يشكّ فيه أحد من الباحثين في تاريخ القرآن الكريم من المسلمين وغيرهم، كما أنَّه يتمثَّل بوضوحٍ في القرآن الكريم نفسه؛ وذلك لأنَّه يتضمَّن الحوادث الخارجيَّة والتَّعليق عليها، منها أقوال المشركين، وأسئلة السَّائلين، والحروب الدَّائرة، والفئات الاجتماعيَّة، إلى غير ذلك من الخصوصيَّات الَّتي تتمثَّل في

النَّصِّ على الإجمال والَّتي يندمج من خلالها النَّصّ في السِّيرة الاجتماعيَّة لمجتمع الرِّسالة والرَّسول ﷺ، ومن ثَمَّ كانت السُّور القرآنيَّة منها مكّيَّة ومنها مدنيَّة، وهي مرتَّبة بحسب النُّزول، وهناك عرض مشهور لهذا التَّرتيب[1] سعى بعض المستشرقين[2] إلى التَّأكُّد منه من خلال ملاحظة الحوادث المذكورة والمناسبات المتمثِّلة فيها، وانتهى إلى نتيجة قريبة من التَّرتيب المشهور.

وأمَّا (**الخصيصة الثَّانية**) فهي تتعلَّق بمضمون النَّصِّ الرِّساليِّ، وهو القرآن الكريم.

وبيانها: أنَّه لا شكَّ في أنَّ القرآن الكريم كتابُ عقيدةٍ وشريعةٍ، لكن لا يقتصر مضمونه على ذلك، بل يمكن القول إنَّ مضمونه العامّ أشبه بتاريخ أداء الرِّسالة، فهو يتضمَّن سيرة الرَّسول ﷺ والمجتمع المعارض له، وبيان الاحتجاجات والحوادث، وتعليق الأطراف عليها، ونظرة صاحب النَّصِّ في كلِّ ذلك، ومن ثَمَّ ترى أنَّ النَّصَّ كثيراً ما يخاطب النَّبيَّ ﷺ بأن يقول شيئاً ويتضمَّن ذكر كلمة (قل)، كما جاء ذلك في عشرات الآيات الكريمة، كما أنَّه يذكر تعليق غير المذعنين بالرِّسالة بـ(قالوا) كذا، وليس ذلك إلَّا لكي يكون النَّصُّ ممثِّلاً للواقع المعاش تمثيلاً صادقاً ووافياً ومناسباً.

وهذا المعنى واضحٌ في شأن القرآن الكريم بملاحظة مضمونه.

وهذا هو الأمر الَّذي نجده في الكتب السَّابقة كالتَّوراة والإنجيل، فهي لا تقتصر على العقيدة والشَّريعة، بل تبيِّن مضمون ما جرى للأنبياء وسيرتهم.

ويتفرَّع على ثبوت هاتين الخصيصتين ثبوت مصداقيَّة النَّصِّ الرِّساليّ في حكاية

---

(١) يلاحظ: تاريخ القرآن (لأبي عبد الله الزِّنجانيّ، عضو المجمع العلميّ العربيّ بدمشق) ص: ٤٩ ـ ٥٧.

(٢) وهو المستشرق الألمانيّ المشهود (نولدكه)، يلاحظ المصدر المتقدّم ص:٩٢ ـ ٩٣.

الواقع الَّذي جرى ضمن عمليَّة أداء الرِّسالة؛ وذلك لأنَّ هذا النَّصَّ ـ كما ذكرنا ـ كان يُتلى بمحضر المؤمنين والمخالفين ـ من المشركين والمنافقين ـ تلاوةً معلنةً، ويخاطب هذه الفئات جميعاً، ويحكي ردود أفعالهم تجاه هذا النَّصّ ومضمونه ويعلِّق عليها، وذلك أمر بديهيٌّ من المنطلق التَّاريخيّ المتمثِّل في النَّصِّ نفسه فضلاً عن السِّيرة.

وفي مثل هذه الحالة لن يُتاح لصاحب النَّصِّ أن يضمِّن النَّصَّ أموراً وحوادث غير واقعيَّة؛ لأنَّ هذه الأمور لا يمكن إلقاؤها إلى هذا المجتمع المختلط من المسلمين وأهل الكتاب وغيرهم.

إذن، وضوح إلقاء النَّصِّ في المجتمع العامّ متزامناً مع الحوادث والمجادلات الجارية في مقام إقناع النَّاس بالرِّسالة يكون تأميناً للنَّصِّ تجاه أيِّ احتمالٍ للتَّصنُّع والتَّلفيق.

فالكتابُ المنزَّل حكايةُ قصَّةٍ حقيقيَّةٍ لسيرةِ رجلٍ ادَّعى كونه رسولاً من قبل الله سبحانه إلى النَّاس، وقد تضمَّنت مضمون هذه الرِّسالة، وحججها، وكيفيَّة أدائها، ومواجهة المجتمع لها، واقتناع كثير منهم في نهاية الأمر بصدقها. وتستطيع الأجيال اللَّاحقة بالاطِّلاع على هذه القصَّة تقييم مدى صدقها وحقَّانيَّتها من خلال الشَّواهد الدَّاخليَّة فيها وفق الشَّرح المتقدِّم.

الاهتمام في الدِّين بحفظ النَّصِّ الرِّساليّ ككتابٍ مُنزَل

(النُّقطة الثَّالثة): في توضيح الاهتمام في الدِّين بحفظ النَّصِّ الرِّساليّ ككتابٍ منزل.

إنَّ للإنسان في حال الاهتمام بحفظ المعلومات وإيصالها إلى الآخرين أداتين: الحفظ الذِّهنيّ، والكتابة.

وقد كانت الكتابة هي السَّبيل الأوثق لنقل المعلومات إلى الأجيال اللَّاحقة على نحو يستوجب وثوقهم؛ لأنَّ الحفظ الذِّهنيَّ عرضةٌ للنسيان والزِّيادة والنُّقصان، وهو على

العموم يصلح لفترة قصيرة، لا طويلة مثل عشرات الأجيال ومئات السِّنين، كما نجد أنَّنا لا نحفظ معلوماتنا غالباً من خلال حفظها الذِّهنيّ، بل من خلال الكتب المؤلَّفة، فهذه الكتب تحفظ لنا الآثار السَّابقة قبل مئات أو ألوف السِّنين، متى كانت ثابتةً ومشهورةً جيلاً بعد جيل.

وقد جرى الدِّين على هذا الأساس في حفظ الرِّسالة الإلهيَّة وصيانتها، فلم يعتبر ما جرى بين الله سبحانه ورسله محادثةً عابرةً، كحديث بعض النَّاس مع بعض، بل تُلقِّي نصَّاً منزلاً ومرسلاً إلى سائر النَّاس، يجب على الرَّسول والمجتمع المرسَل إليه حفظه وصيانته عن التَّغيير والزِّيادة والنُّقصان، حتَّى يصل إلى الأبعدين والمقبلين من الأجيال وصولاً موثوقاً ميسَّراً، ويكون مصدراً للهداية والإشعاع.

ومن ثَمَّ نلاحظ تعبير الرِّسالات الإلهيَّة ـ كالقرآن الكريم ـ عن أنفسها بـ(الكتاب)، فهذا التَّعبير يدلُّ على أنَّ من شأن هذه الرِّسالة أن تُكتَب ويُهتَمَّ بكتابتها اهتماماً عامَّاً.

ويدلُّ القرآن الكريم والشَّواهد التَّاريخيَّة على أنَّ هذه الحالة ليست حالةً خاصَّةً بالنَّصِّ الرِّساليِّ في الإسلام، بل هي حالة قديمة منذ معهوديَّة الكتابة لدى الإنسان.

صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام

وإذا كنَّا لا نجد في القرآن الكريم ما يدلُّ على وجود كتاب لآدم أو لنوح عليهما السلام من بعده فإنَّنا نجد تعبير القرآن الكريم عمَّا أُنزل بعد ذلك على إبراهيم عليه السلام بـ(صحف إبراهيم)، كما قال تعالى[1] ـ بعد ذكر توحيد الله سبحانه وتذكرته للعباد من خلال الرُّسل والدَّار الآخرة وتزكية النَّفس (أو المال) والصَّلاة لله سبحانه ـ: ﴿**إِنَّ هَـذَا لَفِي الصُّحُفِ**

(١) سورة الأعلى: ١٨ ـ ١٩.

الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.

وأمَّا موسى ﵇ فقد هيَّأ الله سبحانه له ألواحاً مكتوبة تتضمَّن الوصايا العشر، وكان الإنسان قد عرف الكتابة قبل ذلك بمدَّةٍ غير قصيرة، كما قال سبحانه[1]: ﴿**قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ**﴾، وقال تعالى[2] يذكر حال موسى ﵇ عندما أخذ الألواح، ورجع إلى قومه، ووجد أنَّهم اتَّخذوا العجل: ﴿**وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ**﴾، وقال عزَّ من قائل[3]: ﴿**وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**﴾.

وأمَّا سائر ما أُوحي به إلى موسى ﵇ وسيرته ومحاجَّاته مع فرعون ومع قومه فهو وإن لم يأته في صورة شيءٍ مكتوب، بل جرى بطبيعة الحال بشكلٍ شفويٍّ حيٍّ، لكنَّه اعتُبر جزءاً من التَّوراة بجنب الوصايا العشر التَّشريعيَّة، وقد تضمَّن أموراً أخرى من قبيل بداية الخلق، وتاريخ الأنبياء من قبل، لا سيَّما إبراهيم وآل إبراهيم ﵈. وسيرة موسى ﵇ نفسه، والبشارة بأنبياء لاحقين كالمسيح عيسى بن مريم ﵇ ونبيّ الإسلام ﷺ ـ كما ذكَرَ تلك البشارة القرآن الكريم ـ.

وينبِّه على شمول التَّوراة في المنظور القرآنيّ لهذه المعاني نقل القرآن الكريم البشارة

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٠.

(٣) سورة الأعراف: ١٥٤.

بالمسيح عليه السلام ونبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم عن التَّوراة، وهي ليست جزءاً من الوصايا التَّشريعيَّة الواردة في الألواح.

على أنَّنا لا ننفي أن يكون بعض ما تتضمَّنه التَّوراة من سيرة موسى عليه السلام زيادةً ملحقةً بها جرياً على نسقها، كما لا نستبعد أنَّه كان من المقبول وفق الإمكانات المتاحة في غير النَّصِّ الَّذي نزل مكتوباً نقلُ النَّصِّ بالمعنى، حسبما يتيسَّر للمؤمنين بالأنبياء من أقوامهم.

وعليه: فإنَّ التَّوراة وإن كان الجزء الأهمُّ منها هو التَّشريعات الإلهيَّة الواردة في الألواح، إلَّا أنَّها اعتُبرت في القرآن الكريم كتاباً منزلاً من عند الله سبحانه، بما يشمل سائر المعاني الَّتي أوحى بها إلى موسى عليه السلام، كما كان هو الإطلاق الشَّائع لدى اليهود، وقد قال تعالى[1]: ﴿**وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّـهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَـئِكَ بِالْـمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّـهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾، ومثلها آياتٌ عديدةٌ أخرى.

هذا، ويبدو أنَّ ألواح موسى عليه السلام كانت محفوظةً لدى أنبياء بني إسرائيل لمدَّةٍ طويلةٍ، وكانت توضَع في (تابوت) خاصٍّ يُسمَّى عند اليهود بـ(تابوت الشَّهادة) و(تابوت الرَّبّ) و(تابوت عهد الرَّبّ)، وقد ذُكر التَّابوت في القرآن الكريم[2]: ﴿**وَقَالَ لَـهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ**

---

(١) سورة المائدة: ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٨.

الْـمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

إذن، نلاحظ أنَّ ما أوحيَ إلى موسى تُلُقِّي كتاباً منزَّلاً يجب الاحتفاظ به كوثيقةٍ إلهيَّةٍ مرسَلةٍ إلى النَّاس.

كتب سائر أنبياء بني إسرائيل كالزَّبور

وكذلك الحال في سائر أنبياء بني إسرائيل قبل المسيح ﷺ، فللعديد منهم كتبٌ ممَّا أوحى الله سبحانه إليهم، كالَّذي تشتمل عليه التَّوراة المعروفة في هذه الأزمنة بين اليهود، وقد ذكر القرآن الكريم منها زبور داوود، قال سبحانه[1]: **﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾**، وقال تعالى[2]: **﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾**، وقال عزَّ من قائل يذكر بعض ما جاء في الزَّبور[3]: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**.

(١) سورة النِّساء: ١٦٣.

(٢) سورة الإسراء: ٥٥.

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٥.

إنجيل المسيح عليه السلام

اعتبار القرآن المنزل كتاباً

مظاهر الاهتمام بكون النَّصِّ المنزل كتاباً

مدى محفوظيَّة النُّصوص الرِّساليَّة في الأديان

محفوظيَّة القرآن الكريم

مظاهر الاهتمام بالقرآن في مجتمع الرِّسالة

مراحل حفظ القرآن الكريم

حفظ القرآن الكريم في حياة النَّبيّ صلى الله عليه وآله

حفظ القرآن الكريم بعد وفاة النَّبيّ صلى الله عليه وآله إلى واقعة جمع المصاحف

حفظ القرآن الكريم من جمع النَّاس على مصحف عثمان إلى الزَّمان الحاضر

كتاب المسيح عليه السلام الإنجيل

وأمَّا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فقد عُدَّ ما أُوحي إليه كتاباً منزَّلاً باسم (الإنجيل)، وقد ذُكر في القرآن الكريم مكرَّراً، كما قال سبحانه(١): ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ**﴾، وقال تعالى(٢): ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ**﴾.

هذا عن الكتب السَّابقة.

اعتبار القرآن للكلام المُنزل كتاباً

وأمَّا القرآن الكريم فكذلك اعتُبر كتاباً منزَّلاً من عند الله سبحانه، من شأنه أن يُحفَظ ليبقى للنَّاس، وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم معنيَّاً بحفظه، وقد تعهَّد الله سبحانه له بحفظ القرآن في نفسه وفي ذهن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى أن لا ينساه، قال تعالى(٣): ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾، وقال سبحانه(٤): ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى**﴾، وقال عزَّ من قائل(٥): ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾.

ومن الملفت أنَّ الكلام المنزَل اعُتبر كتاباً حتَّى قبل أن تتمَّ آياته؛ لتأكيد أنَّ ما يُتلى قد نُزِّل ليُكتَب، فهو آياتٌ من كتاب منزَّل، كما عُبِّر عنه بـ(الكتاب) في كثيرٍ من السُّور المنزَلة

---

(١) سورة آل عمران: ٣ ـ ٤.

(٢) سورة المائدة: ٤٦.

(٣) سورة الحجر: ٩.

(٤) سورة الأعلى: ٦.

(٥) سورة القيامة: ١٦ ـ ١٩.

بمكَّة المكرَّمة[١] فضلاً عن السُّور المدنيَّة الَّتي نزلت بعد ذلك.

ومن خلال ذلك نلاحظ أنَّه قد بدأ التَّعبير عن الكلام المُنزل بعنوان (الكتاب) في أوَّل سورةٍ مفصَّلة نسبيَّاً من السُّور المنزلة بمكَّة، وذلك في سورة ص (وتسلسل نزولها: ٣٧)، قال سبحانه[٢]: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾، ثُمَّ سورة الأعراف فجاء في أوَّلها[٣]: ﴿**المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾، ثُمَّ كثر هذا التَّعبير، وتكرَّر القَسَمُ بالكتاب في بداية السُّور، كما قال تعالى في سورة الزُّخرف[٤]: ﴿**حم * وَالْكِتَابِ الْـمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾، وفي سورة الدُّخان[٥]: ﴿**حم * وَالْكِتَابِ الْـمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**﴾.

وعُبِّر عن هذا الكتاب أيضاً بـ(القرآن) في كثيرٍ من السُّور المكّيَّة ممَّا يدلُّ على النَّظر

---

(١) وهي مع تسلسل نزولها وفق التَّرتيب المعروف كما يلي: سورة الأعراف: ٣٨، والجنّ: ٣٩، ويس: ٤٠، والفرقان: ٤١، وفاطر: ٤٢، ومريم: ٤٣، وطه: ٤٤، والواقعة: ٤٥، وهود: ٤٦، والنَّمل: ٤٧، والقصص: ٤٨، والإسراء: ٤٩، ويونس: ٥٠، وهود: ٥١، ويوسف: ٥٢، والحجر: ٥٣، والأنعام: ٥٤، والصَّافّات: ٥٥، ولقمان: ٥٦، والزُّمر: ٥٨، وغافر: ٥٩، وفصِّلت: ٦٠، والشُّورى: ٦١، والزُّخرف: ٦٢، والدُّخان: ٦٣، والجاثية: ٦٤، والأحقاف: ٦٥، والكهف: ٦٨، والنَّحل: ٦٩، وإبراهيم: ٧١، والأنبياء: ٧٢، والم السَّجدة: ٧٤، وانشقّت: ٨٢، والعنكبوت: ٨٤.

(٢) سورة ص: ٢٩.

(٣) سورة الأعراف: ١ ـ ٢.

(٤) سورة الزُّخرف: ١ ـ ٣.

(٥) سورة الدُّخان: ١ ـ ٣.

إليه ككيانٍ واحدٍ[١].

ومن الملاحظ أنَّ هذا التَّعبير جاء مبكِّراً، حيث نجده منذ نزول السُّورة الثَّالثة، وهي سورة المزَّمِّل، وقد أُمر النَّبيُّ ﷺ والمسلمون فيها بقراءة القرآن كثيراً، قال سبحانه[٢]: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا**﴾، وقال تعالى[٣]: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّـهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّـهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**﴾.

ولعلَّ هذا الاهتمام بكون الكلام المنزل كتاباً هو الباعث على ذكر القلم والتَّعليم الكتبيّ به في أوَّل سورتين نزلتا من القرآن الكريم، فهو إيذانٌ بأنَّ هذا كتابٌ منزلٌ يهتمُّ بالتَّعليم الكتبيّ؛ ليكون العرب (أهل كتاب) كما كان اليهود والنَّصارى من قبل، فالسُّورة الأولى بحسب النُّزول ـ على المشهور ـ هي سورة العلق، وقد جاء في أوَّلها[٤]: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ**

---

(١) وفيما يلي ذكر تلك السُّور مع بيان تسلسل نزولها على التَّرتيب المعروف: سورة المزّمِّل: ٣، البروج: ٢٦، ق: ٣٣، القمر: ٣٦، ص: ٣٧، الأعراف: ٣٨، الجنّ: ٣٩، يس: ٤٠، الفرقان: ٤١، طه: ٤٤، الواقعة: ٤٥، النَّحل: ٤٧، القصص: ٤٨، الإسراء: ٤٩، يونس: ٥٠، يوسف: ٥٢، الحجر: ٥٣، الأنعام: ٥٤، سبأ: ٥٧، الزُّمر: ٥٨، فُصِّلت: ٦٠، الشُّورى: ٦١، الزُّخرف: ٦٢، الأحقاف: ٦٥، الكهف: ٦٨، النَّحل: ٦٩، الانشقاق: ٨٢.

(٢) سورة المزَّمِّل: ١ ـ ٤.

(٣) سورة المزَّمِّل: ٢٠.

(٤) سورة العلق: ١ ـ ٥.

الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، والسُّورة الثَّانية بحسب النُّزول هي سورة القلم، وقد جاء في أوَّلها[1]: **﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾**.

وهكذا نجد اهتمام النَّصّ الرِّساليّ في الأديان بأن يكون نصّاً كتابيّاً ومحفوظاً.

مظاهر الاهتمام بكون النَّصِّ المُنزل كتاباً

ومن جملة مظاهر هذا الاهتمام ما يلي:

١ ـ إنَّنا نجد أنَّ عدم وجود كتابٍ منزَلٍ لقومٍ ـ من المنظور القرآنيّ ـ يعني عدم صحَّة أيَّة معلوماتٍ منقولة تتوقَّف في طبيعتها على الاستناد التَّاريخيّ من دون وجود كتاب يتضمَّنها، ومن ثَمَّ تكرَّر انتقاد المشركين العرب في عقائدهم وأعرافهم بأنَّها غير مبنيَّة على أيِّ كتابٍ، كما قال تعالى[2]: **﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّـهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**، وقال سبحانه[3]: **﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾**، وقال عزَّ من قائل[4]: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَـهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَـذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**.

٢ ـ إنَّنا نجد أنَّ جميع الآثار والغايات الإيجابيَّة المترتِّبة على إرسال الرُّسل أُسندت في نصوصٍ أخرى إلى وجود الكتاب، ما يدلُّ على أنَّ الكتاب ـ في المنظور القرآنيّ ـ هو الَّذي

---

(١) سورة القلم: ١ ـ ٢.

(٢) سورة الصَّافَّات: ١٥١ ـ ١٥٧.

(٣) سورة القلم: ٣٦ ـ ٣٧.

(٤) سورة الأحقاف: ٤.

يؤمِّن ترتُّب تلك الآثار على إرسال الرَّسول. فمثلاً: كان الغرض من إرسال الرُّسل هو هداية النَّاس إلى الحقيقة والعمل بالقسط، وقد جاء إسناد الهداية وتحقيق القسط إلى الكتاب، قال تعالى[١]: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿**وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٣]: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾، وقال سبحانه[٤]: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾.

٣ ـ إنَّنا نجد قَرْنَ إرسال الرُّسل بإنزال الكتاب وتعليمه كثيراً في مقاماتٍ مختلفةٍ، حتَّى كأنَّ الكتاب مكمِّلٌ ضروريٌّ للرِّسالة، ودخيلٌ في تمامها، كما قال سبحانه عن دعاء إبراهيم وإسماعيل[٥]: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾، وقال تعالى[٦]: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا**

---

(١) سورة البقرة: ٢.

(٢) سورة البقرة: ٥٣.

(٣) سورة البقرة: ٢١٣.

(٤) سورة الحديد: ٢٥.

(٥) سورة البقرة: ١٢٩.

(٦) سورة البقرة: ١٥١.

تَعْلَمُونَ﴾، وقال عزَّ من قائل(١): ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا**﴾، وقال جلَّت آلاؤه(٢): ﴿**وَأَنزَلَ اللَّـهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّـهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾، وقال عزَّ وجلَّ(٣): ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّـهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾، وقال جلَّت آلاؤه(٤): ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾.

٤ ـ إنَّ من وظائف الأنبياء تعليم الكتاب والحكمة لمَن بُعثوا إليهم، كما قال سبحانه عن عيسى بن مريم عليه السلام(٥): ﴿**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾، وقال تعالى(٦): ﴿**إِذْ قَالَ اللَّـهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ**﴾.

٥ ـ إنَّ من فرائض أهل الدِّين ـ خاصَّةً أهل العلم فيه ـ تعليم الكتاب المنزَل لعامَّة النَّاس، وعدم كتمانه أو التَّغيير فيه، وقد جاء في ذلك آياتٌ كثيرةٌ تؤاخذ أهل الكتاب على عدم أداء هذه الوظيفة، كقوله سبحانه(٧): ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّـهُ مِنَ الْكِتَابِ**

---

(١) سورة النِّساء: ٥٤.

(٢) سورة النِّساء: ١١٣.

(٣) سورة البقرة: ٢٣١.

(٤) سورة إبراهيم: ١.

(٥) سورة آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩.

(٦) سورة المائدة: ١١٠.

(٧) سورة البقرة: ١٧٤.

وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّـهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَـهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٦ ـ إنَّ من وظيفة المؤمنين في الدِّين الإيمان بالنُّبوَّة والكتاب معاً، قال سبحانه[(١)]: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾، وقال تعالى[(٢)]: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْـمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾، وقال عزَّ من قائل[(٣)]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، وقال جلَّت آلاؤه[(٤)]: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾.

٧ ـ الاهتمام الإلهيّ بإيراث الكتاب للأجيال اللّاحقة، قال سبحانه[(٥)]: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْـهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وقال تعالى[(٦)]: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ

---

(١) سورة البقرة: ١٧٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٣) سورة النِّساء: ١٣٦.

(٤) سورة التَّحريم: ١٢.

(٥) سورة غافر: ٥٣ ـ ٥٤.

(٦) سورة الجمعة: ٢ ـ ٣.

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وقال عزَّ من قائل[1]: ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّـهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**، وقال جلَّت آلاؤه[2]: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّـهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾**.

وهكذا نلاحظ مدى اهتمام صاحب النَّصّ الرِّساليّ بكون هذا النَّصّ كتاباً منزلاً ذا كيانٍ واحدٍ.

مدى محفوظيَّة النُّصوص الرِّساليَّة في الأديان

وبعد الحديث عن كلِّ هذا الاهتمام بكون الكلام المنزَل على الأنبياء كتاباً يقع الكلام عن مدى محفوظيَّة النُّصوص الرِّساليَّة فعلاً.

والواقع: أنَّ إبراز هذا الاهتمام كان مؤثِّراً بطبيعة الحال في حفظ تلك النُّصوص بعض الشَّيء، ولكن مع ذلك فإنَّ محدوديَّة الإمكانات المتوفِّرة للحفظ الكتبيّ للكتاب من جهةٍ، وتدخُّل بعض رجال الأديان في نصِّ الكتاب ـ بزيادةٍ أو كتمانٍ أو تغييرٍ ـ من جهةٍ أخرى أدَّيا إلى عدم محفوظيَّة الكتب السَّابقة قبل القرآن الكريم على وجهٍ تامٍّ، بل تسرَّبت إليها مضامين ومعان غير صحيحة، كألوهيَّة المسيح عليه السلام.

وهذا المعنى قد يعطيه التَّأمُّل التَّاريخيّ في شأن التَّوراة والإنجيل، وهو الَّذي يُستفاد من القرآن الكريم تجاههما، فالقرآن الكريم من جهةٍ يذعن بوجود مضامين التَّوراة

(١) سورة الأعراف: ١٦٩.

(٢) سورة فاطر: ٣٢.

والإنجيل عند القوم، ولكنَّه من جهةٍ أخرى يؤكِّد وقوع التَّصرُّف فيهما، كما قال تعالى[١]: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنِدِ اللَّـهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّـهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّـهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، وقال تعالى[٢]: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وهكذا نجد أنَّ الموقف الإسلاميّ من التُّراث الموجود بعنوان (التَّوراة) و(الإنجيل) موقفٌ معتدلٌ ووسطيٌّ، يساعد عليه تتبُّع المؤشِّرات التَّاريخيَّة، فمن جهةٍ لا شكَّ في أنَّ هذا التُّراث يحتوي على كثيرٍ ممَّا كان قد نزل على موسى وعيسى عليهما السلام، ولكن مع ذلك فإنَّ طبيعة الأمر في الأزمنة السَّابقة ربَّما كانت تسمح بتسرُّب بعض التَّصرُّفات إلى النَّصِّ؛ من جهة اهتمام كلِّ واحدٍ من علماء أهل الكتاب بالنُّسخة الَّتي عنده، وتضمينها بعض الشَّرح والتَّوضيح أو الإضافة من خلال المسموعات، وربَّما كانوا يخفون بعضها أو يزيدون فيها، والنُّصوص الدِّينيَّة بطبيعة الحال عرضةٌ لمثل هذه الأمور، ونتيجة ذلك طروّ شيءٍ من الإبهام بمرور الأزمنة، وهذا هو واقع الحال خارجاً، حيث نجد إذعان المسيحيِّين بأناجيل متعدِّدة، بينما يتحدَّث القرآن الكريم عن إنجيلٍ واحدٍ.

ودعوى أنَّ التَّوراة والإنجيل الواصلين إلينا لا ثقة بوجود شيءٍ من الكتاب المرسل فيهما **هي دعوى** مبالغٌ فيها، وقد لا تخلو عن ضربٍ من الوسوسة في الثِّقة بالتَّاريخ.

نعم، لا يمكن ادِّعاء الثِّقة التَّامَّة بكون كلِّ ما جاء فيهما هو جزء من الكتاب الأصليّ، بل إنَّنا نعلم إجمالاً بوقوع بعض التَّحريف والزِّيادة والنَّقيصة فيه، ومن ثَمَّ لا

---

(١) سورة البقرة: ٧٩.

(٢) سورة آل عمران: ٧٨.

نستطيع الثِّقة بنصٍّ خاصٍّ بخصوصيَّاته، لا سيَّما إذا اشتمل على معانٍ مريبة.

ولما ذكرنا من عوارض التَّوراة والإنجيل لم ينظر القرآن الكريم إلى نفسه على أنَّه متمِّمٌ لما هو الموجود منهما، كما نظر الإنجيل مثلاً إلى التَّوراة بنظرة القبول والتَّتميم، بل القرآن الكريم اعتبر نفسه مشتملاً على ما يلزم من التَّوراة والإنجيل من حديث قصَّة الخلق، وتاريخ الأنبياء، والتَّعاليم الاعتقاديَّة والتَّشريعيَّة، كما قال سبحانه[(١)]: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّـهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾، وعلى ذلك جاء عن النَّبيِّ ﷺ في حديثٍ[(٢)]: ((إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم، وقولوا آمنّا بالله وكتبه ورسله، فإنْ كان حقّاً لم تكذِّبوهم وإنْ كان باطلاً لم تصدِّقوهم)).

محفوظيَّة القرآن الكريم

وأمَّا بالنِّسبة إلى القرآن الكريم فكان الأمر مختلفاً، حيث إنَّه قد تيسَّر حفظه مصوناً من أيِّ تغييرٍ أو زيادةٍ أو نقصانٍ وفق العوامل المتوفِّرة للحفظ الذِّهنيّ، ثُمَّ العوامل الَّتي تهيَّأت مبكِّراً للحفظ الكتبيّ.

وقد بدأ الأمر أوَّلاً بالمحافظة عليه عن طريق الحفظ الذِّهنيّ كحافظٍ للنَّصِّ لفترةٍ قصيرةٍ؛ إذ كان النَّبيُّ ﷺ أمّيَّاً لا يقرأ ولا يكتب، كما كان ذلك حال العرب في الجزيرة العربيَّة عموماً.

وقد كانت هناك عواملُ متعدِّدة تشجِّع على حفظ القرآن الكريم، من جملتها ما يلي:

---

(١) سورة المائدة: ١٥.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ج: ٤، ص: ١٣٦، وفي صحيح البخاريّ ج:٣ ص:١٦٣ جاء حديثٌ آخر عنه ﷺ: ((لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم وقولوا آمنّا بالله وما أنزل.. الآية)).

١ ـ وظيفة النَّبيِّ ﷺ والمسلمين ـ بحسب الدِّين ـ في الحفاظ على هذا النَّصِّ والإبقاء عليه، كما كان الحال كذلك في الأمم السَّابقة، والَّتي كان من المشهود للمسلمين اهتمامهم بكتبهم وجهدهم في الحفاظ عليها.

٢ ـ قوَّة حفظ العرب، أي كثير منهم، فقد كانوا يحفظون الحوادث والأشعار، ويعتمدون في ذلك على أذهانهم، ومن المعروف أنَّ التَّعويل على الحافظة، وتعذُّر الطَّريق البديل ـ كالكتابة ـ يؤدِّي إلى تقوية الحافظة.

٣ ـ حلاوة النَّصِّ وبلاغته وتأثيره في النَّفس الإنسانيَّة، ولا سيَّما في المجتمع العربيّ آنذاك، حيث كانوا يتذوَّقون الكلام البليغ، ويتنافسون فيه، وقد جاء القرآن الكريم موافقاً لهذه الذَّائقة الأدبيَّة حسب الشَّواهد التَّاريخيَّة الواضحة، فكان ذلك مساعداً على تسهيل حفظه، قال تعالى[1] ـ يصف تأثير القرآن الكريم في مخاطبيه ـ: ﴿**إِنَّمَا الْـمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّـهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾، وقال عزَّ من قائل[3]: ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْـمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا**

---

(١) سورة الأنفال: ٢.

(٢) سورة الإسراء: ١٠٦ـ١٠٩.

(٣) سورة السَّجدة: ١٥ ـ ١٦.

رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وقال جلَّت آلاؤه[١]: **﴿اللَّـهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْـحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّـهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّـهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّـهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾**.

٤ ـ اشتمال القرآن الكريم على الأمور الَّتي يحتاج إليها الإنسان المسلم، أو يتشوَّق للاطِّلاع عليها من: وجود الله، وأدلَّته، وصفاته تعالى، وإعادة الإنسان إلى الحياة في القيامة، وقصص الأنبياء السَّابقين، وتعاليم الدِّين الاعتقاديَّة والتَّشريعيَّة، فكلُّ ذلك قد اشتمل عليه القرآن الكريم بلُغةٍ واضحةٍ وسهلةٍ ومفهومةٍ ـ نوعاً ـ لعامَّة النَّاس.

٥ ـ إيجاب قراءة شيءٍ من القرآن الكريم في الصَّلوات المفروضة الخمس، وإذا كان هناك جزءٌ ثابت في القراءة الواجبة ـ وهو سورة الحمد ـ فإنَّ الجزء الآخر الَّذي يُعبَّر عنه بالسُّورة لم يكن مُعيَّناً في جزءٍ بعينه من القرآن الكريم، فكان ذلك حافزاً على تعلُّمه، كما أنَّ قراءة إمام الجماعة في الصَّلوات الجهريَّة يحفِّز داعي تعلُّم السُّورة الَّتي يتلوها الإمام.

٦ ـ اعتبار تلاوة القرآن الكريم عبادةً برأسها، والحثُّ الشَّديد في القرآن الكريم على كثرة تلاوته من قِبَل المؤمنين، قال سبحانه[٢]: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّـهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾**، وهذا بنفسه يعني الحثّ على حفظه؛ لأنَّ تلاوة القرآن الكريم لا تتأتَّى ممَّن لا يعرف الكتابة أو لا يملك الكتاب ـ كما كان حال عامَّة المؤمنين في ذلك الزَّمان ـ إلَّا بالحفظ الذِّهنيِّ له، بل في ذلك حثٌّ على كتابة القرآن ولو توقَّفت على تعلُّمها؛ لأنَّ الحفظ الذِّهنيَّ الدَّقيق لكلِّ هذا القرآن من دون كتابةٍ يستعان بها في أصل الحفظ وفي الإبقاء عليه أمرٌ صعبٌ.

---

(١) سورة الزُّمر: ٢٣.

(٢) سورة فاطر: ٢٩.

وعليه: فإنَّ مَن يريد أن يتلو ما نزل من القرآن الكريم بنفسه فإنَّ ذلك يدفعه إلى تحصيل كتابته وتعلُّمها؛ وذلك لتعذُّر حفظه كلِّه والإبقاء عليه.

وممَّا يلفت النَّظر في هذا السِّياق ما جاء في آية المزَّمِّل المتقدِّمة ـ وهي ثالث سورةٍ في ترتيب النُّزول على المشهور ـ من حثِّ النَّبيِّ ﷺ والصَّحابة على أن يقرؤوا ما تيسَّر لهم في اللَّيل بعد أن ذُكر أنَّ النَّبيَّ ﷺ وطائفةً من الَّذين معه يقومون أدنى من ثلثي اللَّيل ونصفه وثلثه، وهذا بالرغم من أنَّ المعلوم فقهيَّاً بحسب الشَّريعة الإسلاميَّة أنَّه لا تجب على المسلم قراءة القرآن إلَّا بمقدار ما هو جزء من الصَّلوات الفرائض.

فهذه الآية الكريمة تمثِّل وجود حثٍّ شديدٍ منذ أوَّل البعثة بشكلٍ خاصٍّ على الإكثار من قراءة القرآن الكريم.

هذا، ولا يبعد أن يكون الغرض من ذلك المحافظة على نصِّ القرآن الكريم؛ إذ من المعلوم أنَّ عامَّة المسلمين لم يكونوا يعرفون القراءة عن المكتوب، ولا كان هناك مكتوبٌ متوفِّرٌ، فالسَّاعات الطَّويلة الَّتي كان المسلمون يقضونها ـ بحسب آية المزَّمِّل ـ في قراءة القرآن الكريم إنَّما كانوا يقرؤونه فيها عن ظهر قلب، ويستذكرون به ما حفظوه، فيزداد حفظهم له قوَّةً وارتكازاً.

٧ ـ تحذير النَّبيِّ ﷺ المسلمين من نسيانِ ما حفظوه من القرآن الكريم، وحثّهم على معاهدته حتَّى يبقى حفظه، كما جاء عنه ﷺ[(١)]: ((بئسما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسّيَ، استذكروا القرآن، فوالَّذي نفسي بيده لهو أشدُّ تفصِّياً من صدور الرِّجال من النَّعم من عقلها)).

---

(١) يلاحظ: مسند أحمد ج: ١، ص: ٤١٧، ٤٣٨، ٤٦٣، صحيح مسلم ج: ٢، ص: ١٩١، صحيح البخاريّ ج: ٦، ص: ١٠٩.

وفي حديثٍ آخر عنه ﷺ[١]: ((ما من رجل يتعلَّم القرآن ثُمَّ ينساه إلَّا لقي الله يوم القيامة وهو أجذم)).

وقد أُشكل على هذا الحديث الثَّاني عند فريق من علماء المسلمين بناءً على أنَّ قوله (أجذم) يفيد العقاب، كما هو الحال على أكثر تفاسيره وأبرزها أنَّه بمعنى مقطوع اليد[٢].

ووجه الإشكال الَّذي يتراءى في الحديث أنَّه لا شكَّ فقهيَّاً في هذه الأعصار أنَّ نسيان المسلم لما حفظه من القرآن ليس أمراً محظوراً شرعاً يستوجب العقوبة.

والَّذي نتوقَّعه ـ فيما لو تمَّت دلالة الحديث على العقاب[٣] ـ أنَّ التَّحذير من نسيان القرآن الكريم بهذا المستوى مختصٌّ بزمان النَّبيِّ ﷺ إلى زمان ثبات القرآن الكريم، فارتفع بعد ثباته بطبيعة الحال، ومنشأُ الإشكال في مضمون الحديث توقُّع أنَّ مضمون الحديث تشريعٌ ثابتٌ ودائم.

٨ ـ أهمّيَّة القرآن الكريم للمجتمع العربيّ؛ إذ اختار الله سبحانه العرب ليكون الرَّسول منهم، واختار اللُّغة العربيَّة لتكون لغة هذه الرِّسالة، فأصبح العرب بفضل القرآن من (أهل الكتاب) بعد أن لم يكن لهم كتاب منزل، وكان عنوان (أهل الكتاب) يختصُّ

---

(١) سنن الدَّارميّ ج: ٢، ص: ٤٣٧، ويلاحظ: سنن أبي داود ج: ١، ص: ٣٣١، ومن علماء الرجال مَن ضعَّف الحديث (يلاحظ تهذيب التَّهذيب ج: ١٠، ص: ٢٣٢).

(٢) يلاحظ: النِّهاية في غريب الحديث ج: ١، ص: ٢٥١.

(٣) حيث يُحتمل أن يكون المراد به ما ذكره ابن الأعرابيّ ورجَّحه السَّيِّد المرتضى من أنَّ المراد أنَّ مَن نسي القرآن لقي الله خالي اليد من الخير، صفرها من الثَّواب، فكنَّى باليد عمَّا تحويه، وتشتمل عليه من الخير. (يلاحظ: الأمالي للسَّيِّد المرتضى ج: ١، ص: ٥، النِّهاية في غريب الحديث ج: ١، ص: ٢٥١). ويؤيِّده ما في الحديث عن أهل البيت ﷺ ممَّا يفيد أنَّ النَّاسي يُحرم ثواباً كان يناله يوم القيامة (يلاحظ: الكافي ج: ٢، ص: ٦٠٨).

باليهود والنَّصارى، قال تعالى[١]: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّـهُ عَلَى الْـمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿**وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٣]: ﴿**أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ**﴾.

هذا، وكان أهل الكتاب (من الأديان السَّابقة) من قبل يحتقرون عامَّة العرب؛ لأنَّهم كانوا أمّيِّين، كما جاء في القرآن الكريم[٤]: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾.

هذه جملة من العوامل الاجتماعيَّة والدِّينيَّة الَّتي كانت تؤثِّر في حفظ القرآن الكريم وسعة انتشاره.

مظاهر الاهتمام بالقرآن في مجتمع الرِّسالة

وأمَّا مظاهر وجود هذا الاهتمام فعلاً بالقرآن الكريم في مجتمع الرِّسالة فهي أمور متعدِّدة:

١ ـ كثرة تلاوة المسلمين للقرآن الكريم، كما جاء في آية المزَّمِّل ـ الَّتي تقدَّم ذكرها ـ

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٢) سورة الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٣) سورة الزُّخرف: ٢١.

(٤) سورة آل عمران: ٧٥.

أنَّ النَّبيَّ ﷺ وطائفةً من الَّذين معه كانوا يقومون أدنى من ثلثي اللَّيل ونصفه وثلثه وهم يتلون القرآن الكريم.

وقد تكرَّر في القرآن الكريم وصف طول عبادة النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين خاصَّةً في اللَّيل، وصُرِّح في مواضعٍ منه بأنَّهم يتلون آيات الله سبحانه، قال تعالى[١]: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**[٢] **أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّـهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**﴾، وقال سبحانه[٣]: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْـجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا**﴾.

٢ ـ إنَّ تاريخ السِّيرة النَّبويَّة في عصر النَّبيِّ ﷺ يمثِّلُ بشكلٍ واضحٍ حدوث حركةٍ دائبةٍ في أوساط المسلمين لتعلُّم القرآن الكريم وتعليمه، فمَن كان يدخل الإسلام كان يهتمُّ بشكلٍ طبيعيٍّ بالوقوف على القرآن الكريم وتعلُّمه وقراءته بما يشتمل على حفظ ما يتيسَّر له؛ إذ كان عدم حفظه ممَّن لا يعرف الكتابة، ولا يملك الكتاب ـ وهم عامَّة المسلمين ـ يعني افتقاد المرء لما تعلَّمه، وعدم قدرته على الانتفاع به، فربَّما كان المعلِّم ـ كعبد الله بن مسعود مثلاً ـ يعرف الكتابة، ويملك كتاباً، لكن أغلب مَن كان يتعلَّم لديه لم يكن كذلك طبعاً.

٣ ـ لقد أصبح طيف غير قليل من المسلمين منذ عهد النَّبيِّ ﷺ يُعرَفون بالقراءة حتَّى قيل[٤] ـ مثلاً ـ إنَّه قد قُتل في حادثة بئر معونة ـ الَّتي اتَّفقت في صفر من السَّنة الرَّابعة

---

(١) سورة آل عمران: ١١٣.

(٢) المراد المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام، كما أنَّ المراد بـ(آيات الله) هو القرآن الكريم.

(٣) سورة الفرقان: ٦٣ ـ ٦٤.

(٤) يلاحظ: مسند أحمد ج: ٣، ص: ١٠٩، صحيح البخاري ج: ٤، ص: ٣٥، صحيح مسلم ج: ٢، ص: ١٣٦.

للهجرة ـ سبعون رجلاً من القُرَّاء، وقُتل في حرب اليمامة ـ من حروب الرِّدَّة الَّتي حدثت بعد سنةٍ من وفاة النَّبيِّ ﷺ ـ مئاتٌ من القُرَّاء حتَّى جاء أنَّ أبا بكر خشي من افتقاد شيءٍ من القرآن الكريم بمثل هذه الحوادث(١).

والمقصود بالقُرَّاء ليس مَن يحفظ شيئاً من القرآن الكريم، بل مَن يحفظ القرآن الكريم كلّه أو شيئاً كثيراً منه، ويُقرئ النَّاس.

٤ ـ الاهتمام بالتَّوثيق الكتبيّ للقرآن الكريم، حيث اهتمَّ العديد من الصَّحابة بكتابة القرآن عند نزوله، حتَّى كانت لديهم مصاحف تخصّهم يقرؤون فيها، وهذا ما سنوضحه عن قليل.

هذه بعض مظاهر الاهتمام الشَّديد بحفظ القرآن الكريم.

والواقع: أنَّ هذا الاهتمام وجملة من الظَّواهر الَّتي تجسِّده أشبه بأن يُعَدَّ من قبيل المعلومات دون مجرَّد التَّحليل والاستنباط؛ وذلك من جهة وضوحه في التَّاريخ.

مراحل حفظ القرآن الكريم

إنَّ لحفظ القرآن الكريم مراحل ثلاث، تتمثَّل سلامته في كلِّ واحدةٍ منها من المنظور التَّاريخيّ تمثُّلاً واضحاً، ويحقِّق ما جاء الوعد به في القرآن الكريم في قوله تعالى(٢): ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾، فهذا الوعد ليس تعبيراً عن حدث خارق، بل هو تعبيرٌ عن سَوق الأمور إلى اتِّجاهٍ يحفظ القرآن الكريم.

والمراحل الثَّلاث هي كما يلي:

١ ـ مرحلة حياة النَّبيِّ ﷺ طوال (٢٣) عاماً، ثلاث عشرة سنة في مكَّة، وعشر

---

(١) يلاحظ: صحيح البخاري ج: ٦، ص: ١٩٨.

(٢) سورة الحجر: ٩.

سنوات في المدينة إلى وفاته ﷺ في السَّنة الحادية عشرة للهجرة.

٢ ـ مرحلة ما بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ إلى جمع عثمان النَّاس على مصحفٍ واحدٍ في السَّنة الخامسة والعشرين للهجرة النَّبويَّة، وقيل في السَّنة الثَّلاثين.

٣ ـ مرحلة ما بعد جمع عثمان النَّاس على مصحفٍ واحدٍ في سنة (٢٥ أو ٣٠هـ) إلى زماننا هذا، وهو يزيد على أربعة عشر قرناً تقريباً.

حفظ القرآن الكريم في حياة النَّبيِّ ﷺ

(المرحلة الأولى): محفوظيَّة النَّصِّ القرآنيّ من تاريخ إعلان النَّبيِّ ﷺ عنه بشكلٍ تامّ إلى زمان وفاته ﷺ.

قد عرفنا من قبل أنَّ حفظ النَّصّ القرآنيّ كان محلّ اهتمامٍ من الجهات الثَّلاث جميعاً، ونعني بها:

أوَّلاً: من قِبل النَّصّ نفسه، بمعنى أنَّ النَّصَّ يحثُّ على الاهتمام به، حيث يجعله كتاباً مميَّزاً ومعجزاً ومنزلاً ذا آياتٍ وسور، يكون عدلاً للكتب السَّابقة من التَّوراة والإنجيل، فيكون من شأنه أن يُحفظ على وجهه، ويدوَّن بالكتابة. ويدعو المؤمنين إلى الإكثار من تلاوته والإمعان فيه، وهو يشير إليه دائماً بعنوان الكتاب.

وثانياً: من قِبل النَّبيّ ﷺ نفسه، حيث كان يهتمُّ بتلاوته، ويحثُّ المسلمين عليها، ويحذِّر من نسيان المسلم لما حفظه منه.

وثالثاً: من قِبل المسلمين، حيث إنَّهم أيضاً كانوا يهتمُّون بالإكثار من تلاوته ـ الَّتي تقتضي حفظه ـ، حتَّى عُدَّ جماعةٌ كبيرةٌ منهم من القُرَّاء، وكانوا يواظبون على تعلُّمه وتعليمه.

فالمتوقَّع في ضوء ذلك كلِّه: أن يكون النَّصُّ محفوظاً في صدور النَّاس دون أيّ تغييرٍ،

بمعنى أنَّ ذلك هو مقتضى العادة في مثل هذه الحالة؛ لما يستبطنه من عوامل الاهتمام الَّتي تقدَّم منّا بيانُ جملةٍ منها.

والواقع: أنَّ الشَّواهد التَّاريخيَّة تدلُّ دلالةً واضحةً على كون هذا المعنى حقيقةً، وتؤدِّي إلى وضوحه وبداهته، من نواحٍ إضافيَّة عديدة:

١ ـ عناية النَّبيّ ﷺ بكتابة القرآن الكريم، حيث يتضمَّن التَّاريخ بوضوح أنَّه ﷺ اتَّخذ لنفسه عدداً من الصَّحابة، يكتبون له الوحي الَّذي ينزل عليه، ويبدو من مجموع الأخبار أنَّه ﷺ كان يهتمُّ بالتَّوسُّع والتَّنوُّع في كتابة القرآن حتَّى قيل إنَّهم يبلغون نيّفاً وأربعين كاتباً[1]، وكان في كَتَبَتِه مَن هو أخصُّ النَّاس به، مثل الإمام عليّ عليه السلام الَّذي رافقه في كلٍّ من مكَّة والمدينة، إلى آخرين من المهاجرين، مثل أُبيّ بن كعب، وسعد بن أبي وقّاص، وآخرين من الأنصار، مثل زيد بن ثابت، إلى مَن هو من الطُّلقاء والمنافقين، وقد عُدَّ منهم معاوية بن أبي سفيان، وذلك ليكون النَّصُّ واضحاً مشهوداً مبيَّناً غير مشوبٍ بريبةٍ وغموض.

وعندما دخل ﷺ المدينة بعد هجرته من مكَّة كان فيها بعض اليهود ممَّن يعلِّم الصِّبيان الكتابة، وكان فيها أيضاً عددٌ ممَّن يعرفون الكتابة، لكنَّه ﷺ لم يكتف بذلك، بل شجَّع المسلمين على تعلُّم الكتابة اهتماماً منه بتوثيق القرآن الكريم كتباً، وعندما أسر في غزوة بدر ـ الَّتي اتَّفقت في شهر رمضان من العام الثَّاني للهجرة ـ سبعون رجلاً من قريش وغيرهم كان فيهم عددٌ من الكُتَّاب، فقبل ﷺ من الأمّيّين الافتداء بالمال، وجعل فدية

---

(١) علماً أنَّه لا يُراد أنَّ مَن عُدَّ من كتبة الوحي كانوا كتبةً من أوَّل نزوله إلى آخره، ولا أنَّهم عند كتابتهم كانوا يواظبون على الكتابة كلّهم معاً، ولكنَّ المراد أنَّه ﷺ كان يستخدم عدداً متنوِّعاً من الصَّحابة، فكانت كتابته كتابةً معلنةً ومعلومةً، لا تقتصر على واحدٍ خاصٍّ أو فئةٍ مخصوصة.

الكاتبين منهم أن يعلِّم كلُّ واحدٍ منهم عشرة من صبيان المدينة، ففعلوا ذلك وانتشر الخطّ بالتَّدريج في المدينة، ثُمَّ سائر الأمصار الَّتي دخلت في حوزة الإسلام.

٢ ـ دلالة الشَّواهد الكثيرة على وجود نظرةٍ مجموعيَّة إلى القرآن النَّازل منذ نزوله إلى انتهائه، على حدِّ مَن بدأ بتأليف كتابٍ فهو يخرجه جزءاً جزءاً أو ملزمةً ملزمةً إلى تلامذته وقُرَّاءه، وينظر في كلِّ جزءٍ يخرجه إلى كونه متمِّماً لما سبق منه، وبذلك يكون هناك دوماً استحضارٌ في الجزء اللَّاحق للأجزاء السَّابقة.

وهذا المعنى يدلُّ عليه أصل اعتبار هذه المجموعة كتاباً واحداً، كما هو مفاد الآيات القرآنيَّة الَّتي عبَّرت عنه بالكتاب والقرآن، ويؤكِّد ذلك مظاهر أخرى عديدة:

منها: الإشارة إلى ما نزل من قبل، مثل قوله تعالى(١): ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْـمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾، وقد قيل إنَّ المراد بالسَّبع المثاني هي سورة الحمد، وقد ذُكرت بخصوصها اهتماماً بها، كما يدلُّ على هذا الاهتمام جعلها جزءاً من كلِّ صلاةٍ، وقال سبحانه(٢): ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّـهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾.

ومنها: فرز الكلام المنزل إلى وحدات قصيرة مميَّزة في نسقها، وقد عُبِّر عنها بالآيات، ثُمَّ اعتُبرت كلُّ مجموعة من هذه الوحدات بحسب التَّناسب شيئاً واحداً عُبِّر عنه بالسُّور، ثُمَّ من السُّور ما كان قصيراً قد نزل نزولاً واحداً، ومنها ما كان ينزل في شكل مجاميع متعدِّدة، فيُلْحَق المتأخِّر منها بالمجاميع السَّابقة لتكون معاً مجموعةً واحدة، وعندما يقتضي التَّناسب تُختم السُّورة السَّابقة، وتبدأ سورة جديدة من المجموعة المقبلة، وهكذا.

---

(١) سورة الحجر: ٨٧.

(٢) سورة النِّساء: ١٤٠.

وهذا التَّرتيب بنفسه يقتضي شدَّة الاهتمام بترتيب الكلام كتصنيفٍ مرتَّب يكمل بعضه بعضاً، وينظر في بعضه إلى البعض الآخر.

ويبدو أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان بنفسه مشرفاً على هذا التَّرتيب، فهو الَّذي كان يحدِّد كون ما ينزل سورةً كاملةً، أو جزءاً مكمِّلاً لما نزل من قبل، أو ينتظر في إكماله ما سوف ينزل لاحقاً، فهو ﷺ كان يوجِّه كَتَبَة الوحي وسائر المسلمين في ذلك كلّما تجدَّد لديه الوحي في موضع الوحي الجديد.

ومن ثَمَّ لا نجد أيَّ اختلاف على العموم في أوساط الصَّحابة في وضع الآيات، فلكلٍّ وضعه المحدَّد المعلن، فبعضها سورة كاملة، وبعضُها جزءٌ من سُورةٍ في أوَّلها وآخرها ، أو محلٍّ مُحدَّدٍ من وسطها.

ويبدو أيضاً وبوضوح أنَّ السُّور كانت معروفةً بين المسلمين بأسماء طبيعيَّة متَّخذة من أوائل السُّور، أو حوادث وأحكام ومفردات تميَّزت بها السُّورة، مثل سورة البقرة، وآل عمران، وغير ذلك، فكان حالها أشبه بالملازم المدرسيَّة الَّتي يعطيها الأستاذ للتَّلاميذ فيما بينهم.

وعليه: فإنَّ السُّور القرآنيَّة كانت معروفةً بين المسلمين.

نعم، يظهر أنَّه لم يكن هناك عناية عامَّة بترتيب السُّور وفق تاريخ نزولها، تسهيلاً على عامَّة المسلمين؛ إذ كان كثير منهم إنَّما يهتمُّ ويتيسَّر له حفظ قسم من القرآن لا جميعه، فكان اعتبار كلِّ سورةٍ في حدِّ نفسها جزءاً دون تحديد موضع عدديٍّ لها أرفق بهم، على أنَّ في المسلمين مَن كان يحفظ ترتيب السُّور، كما حُكي ذلك عن الإمام عليّ عليه السلام، وذكروا أنَّ مصحفه كان يتضمَّن ترتيب السُّور بتاريخ نزولها.

وما ذكرناه من عناية النَّصّ القرآنيّ بفرز الكلام المنزل إلى آيات يتمثَّل في أسلوب

النَّصِّ نفسه حيث نجد جملاً متعدِّدة لكلٍّ منها نهاية مناسبة يرشد إليها الكلام نفسه، على أنَّه قد ذُكرت الآيات المتلوَّة في القرآن الكريم، والمعروف أنَّها حيث أُسندت إليها التِّلاوة أو الإنزال تعني الجمل القرآنيَّة الكاملة[١]، كما قال تعالى[٢]: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّـهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْـحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْـمُرْسَلِينَ**﴾، وقال سبحانه[٣]: ﴿**وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّـهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٤]: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّـهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**﴾، وقال جلَّت آلاؤه[٥]: ﴿**وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ**﴾.

كما نجد عناية النَّصِّ القرآنيّ بتجميع الآيات على شكل سور مستقلَّة، وهذا المعنى يتمثَّل في تكوين السُّور نفسها في السُّور القصيرة، بل قد ذُكرت (السُّورة) في القرآن الكريم مكرَّراً، والمعروف أنَّ المقصود بها هو معناها المتعارف في تقسيم القرآن الكريم[٦]، قال

---

(١) لكن قد يُحتمل أنَّ إطلاق لفظ (الآية) في القرآن الكريم على الوحي المنزل كان من جهة ما يتضمَّنه مضمونه من آياتٍ وعلاماتٍ على حقَّانيَّة الرُّسل، فلا يُراد بها المعنى الَّذي شاع لاحقاً، وهو فقرة محدَّدة يُقسم إليها الكلام، ومن ثَمَّ جاء ذكر التعبير بـ(تلاوة الآية) فيما يُحكى عن الأنبياء السَّابقين ﷺ، كقوله تعالى عن دعاء إبراهيم وإسماعيل: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (سورة البقرة: ١٢٩).

(٢) سورة البقرة: ٢٥٢.

(٣) سورة آل عمران: ١٠١.

(٤) سورة آل عمران: ١١٣.

(٥) سورة البقرة: ٩٩.

(٦) وقد يُحتمل أن يُراد بـ(السُّورة) الفقرة القرآنيَّة الكاملة، فيمكن أن تشمل جزءاً من السُّورة ذا مضمون مترابط قد نزل معاً، بالنَّظر إلى أنَّه المناسب لمثل قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا**

تعالى[١]: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْـمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْـمَوْتِ فَأَوْلَى لَـهُمْ﴾، وقال عزَّ من قائل[٣]: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وقال جلَّت آلاؤه[٤]: ﴿يَحْذَرُ الْـمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّـئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّـهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾، وقال تعالى[٥]: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وقال سبحانه[٦]: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، والمراد: (هذه سورة..).

٣ ـ دلالة الشَّواهد التَّاريخيَّة على تلقِّي حدود النَّصِّ تلقِّياً واضحاً من قِبَل المسلمين، فلا تجد ـ بالرغم من عظمة التُّراث الرّوائيّ والتَّاريخيّ عن سيرة النَّبيّ ﷺ أو الصَّحابة في زمانه ـ أيَّ أثرٍ من الخلاف في زيادة آية أو نقصانها في حياته ﷺ، نعم حُكي ما يدلُّ على اختلاف قراءاتهم للنَّصِّ بتبديل لفظةٍ بلفظةٍ أخرى في معناها ونحو ذلك ممَّا قد يحتمله النَّصُّ المحفوظ ذهناً بطبيعة الحال، كما سبق بيان ذلك.

الْقِتَالُ﴾ (سورة محمَّد ﷺ: ٢٠) إذ كثيراً ما كان ينزل القتال في جزءٍ من السُّورة، لا تمامها.

(١) سورة البقرة: ٢٣.

(٢) سورة محمّد ﷺ: ٢٠.

(٣) سورة يونس: ٣٨.

(٤) سورة التَّوبة: ٦٤، ولاحظ الآية: ٨٦ و١٢٤.

(٥) سورة هود: ١٣.

(٦) سورة النُّور: ١.

وهذا يدلُّ على عدم اتِّفاق سقوط أيِّ شيءٍ من النَّصِّ عن بعض الصَّحابة ولو كان بمقدار جملةٍ أو آيةٍ، وليس ذلك إلَّا لشهرة النَّصِّ عندهم ومعروفيَّته بحدوده لديهم.

وعلى العموم، فإنَّ النَّاظر في سيرة النَّبيّ ﷺ والصَّحابة في عصره يلامس وضوح النَّصّ القرآنيّ وحدوده لعامَّة المسلمين المعنيِّين بقراءة القرآن وحفظه.

هذا كلُّه عن حال القرآن الكريم في المرحلة الأولى، وهي عصر النَّبيّ ﷺ.

حفظ القرآن الكريم بعد وفاة النَّبيّ ﷺ إلى واقعة جمع المصاحف

وأمَّا في (**المرحلة الوسطى**): ـ من وفاة النَّبيّ ﷺ إلى جمع المصاحف في عهد عثمان ـ وتبلغ خمس عشرة إلى عشرين سنة[1]، فلم يكن هناك اختلافٌ بين المسلمين؛ لأنَّ الفترة كانت قصيرةً لا تزيد على عقدين، وقد كان جيل الصَّحابة الَّذين تعلَّموا القرآن الكريم وكتبوه في زمان النَّبيّ ﷺ بمختلف طبقاتهم ـ من المشايخ والكهول والشَّباب ـ لا يزال موجوداً، وقد تفرَّق بعضهم في الأمصار لتعليم القرآن الكريم لَمن لحقهم ودخل في الإسلام، فلم تمضِ مدَّةً طويلة ليحدث أيُّ التباسٍ ذي بال في شأن القرآن الكريم[2].

---

(١) على الخلاف في أنَّ جمع المصاحف هل كان في سنة (٢٥هـ) أو (٣٠هـ).

(٢) **نعم**، هناك بعض الرّوايات الَّتي صحَّحها بعض أهل العلم ـ من منطلق حسن الظَّنّ العامّ بالصَّحابة والتَّابعين، والاعتماد في تقييم الأخبار على التَّوثيق الظَّنِّيّ للرّواة ـ تتضمَّن هذه الرّوايات انطباعاتٍ فرديَّة لبعض الصَّحابة عن سقوط بعض آيات القرآن الكريم، نظير ما حُكي عن عمر بن الخطّاب من قوله: (لولا أن يقول النَّاس زاد فلان في كتاب الله لأضفت آية الرَّجم في القرآن) ويعني بآية الرَّجم: (أنَّ الشَّيخ والشَّيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة)، ومثله ما رُوي عنه أيضاً من آية الوادي (لو كان لابن آدم واديين من المال لابتغى وادياً ثالثاً..)، ويُحكى عن بعضٍ آخر سقوط بعض سورة الأحزاب، ومن قبيل ذلك ما رُوي عن ابن مسعود ـ فيما انفرد به بين الصَّحابة ـ من اعتبار دعاءين من القرآن الكريم يُعرفان بدعائي الحفد والخلع.

لكن يبقى هنا سؤال: لماذا إذن حدثت الفتنة بين القرّاء في زمان عثمان حتَّى أدَّى إلى جمع عثمان لمصاحف الصَّحابة، وإحراقه لها، وكتابة مصحف موحَّد، بُعث إلى كلِّ مصرٍ من الأمصار نسخة منه، ليكون تعليم المسلمين على وفقه؟

والجواب: إنَّه لم تكن المشكلة الباعثة على جمع المصاحف هو وجود الزِّيادة والنَّقيصة

ولكن لا قيمة لهذه النُّصوص في مقابل الحقيقة التَّاريخيَّة المشهودة في حفظ القرآن الكريم في عصر النَّبيّ ﷺ؛ فإنَّ البديهة التَّاريخيَّة الملحوظة في المشهد الاجتماعيّ العامّ لا يصحّ منهجيّاً مقابلتها ببضعة أخبار وروايات فرديَّة تتكوَّن على الهامش هنا وهناك بمرور الزَّمن أحياناً، ويكون الاعتماد عليها على أساس حسن الظَّنّ والتَّوثيق الظَّنّيّ حتَّى لو نشأ هذا الظَّنُّ عن مبادئ موضوعيَّة بشكلٍ عامّ، وفي مثل ذلك يصدق القول المعروف (إنَّ اليقين لا يُنقَض بالشَّكِّ والاحتمال).

ويكفي منبِّهاً على ذلك أنَّ شيئاً من الجمل المذكورة ليست في أسلوبها ونسقها على نسق الآيات القرآنيَّة، كما هو واضح جدّاً لمَن كان له ذوق وممارسة في قراءة القرآن الكريم وتأمّل آياته.

على أنَّ الملاحظ كون هذه الأقوال فرديَّة شذَّ بها بعض الصَّحابة وفي نفس النَّصِّ الأوَّل دلالة على استقرار سور القرآن الكريم وآياته وجمله بين النَّاس بشكلٍ لم يكن بالممكن الزِّيادة والنَّقيصة فيها بانطباعٍ فرديٍّ حتَّى من الخليفة.

ومع أنَّ الرّواة لم يمتنعوا من ذكر ما يُروى من هذا القبيل، فلن تجد هناك إلَّا بضعة جمل مرويَّة على أنَّها آيات قرآنيَّة بانطباع واحد من الصَّحابة ـ ممَّن لم يكن من وجوه الصَّحابة ومبرَّزيهم في البلاغة والفهم الأدبيّ العالي ـ، وليس شيء منها جارياً على النَّسق القرآنيّ بوضوح.

ولو صحَّت هذه الأخبار كان محملها حدوث تشويش فرديٍّ لدى بعض الصَّحابة ممَّن لم يكن لهم ذوقٌ مميِّزٌ أو ممارسةٌ كافية أو إحاطة بالقرآن الكريم في زمن النَّبيّ ﷺ فأدَّى بهم ذلك إلى بعض الأوهام الَّتي انفردوا بها، فاعتبار جملتي (الرَّجم والوادي) آيتين يدلُّ بوضوح على عدم التَّمييز بين نسق النَّصّ القرآنيّ وغيره؛ لوضوح أنَّهما ليستا في نمطهما في سنخ الآيات القرآنيَّة، كما أنَّ دعائي الحفد والخلع ليسا بالأسلوب القرآنيّ، ولعلَّ ابن مسعود وجد النَّبيّ ﷺ يدعو بهما فظنَّ أنَّهما من القرآن الكريم.

بسورةٍ أو بآيةٍ بين مصحفٍ وآخر، فهذا ما لم يُنقَل بتاتاً، وإنَّما كان ذلك ابتداءً من جهة بعض التَّوسُّع في مقام تحرِّي النَّصّ القرآنيّ[1].

---

(١) وقد يبيَّن ذلك بالبيان التَّالي: وهو أنَّه لا شكَّ في أنَّ المفروض في النَّصِّ القرآنيّ في الأصل أن يتحرّى لفظ النَّصِّ عند نقله؛ لوضوح التَّركيز على لفظه، ودخالة خصوصيّات اللَّفظ في إعجازه، وهذا واضح وبديهيٌّ، ومن ثَمَّ كان الجري العامّ السَّائد لدى الصحابة الاهتمام بنقل لفظه ما تيسَّر.

لكن مع ذلك فإنَّ من المتوقَّع أنَّه كان يُقبَل بعض التَّوسعة في مقام نقله في المرحلة الأولى الَّتي كان تعلُّم القرآن فيها يعتمد بشكلٍ أساسيٍّ على الحفظ والتَّحفيظ؛ لأنَّ الاهتمام بحفظ النَّصّ على وجهه كان بالميسور، إلَّا أنَّ ذلك لم يكن يمنع من تغييرات طفيفة، مثل تبديل كلمة بمرادفها أحياناً وشبه ذلك، وذلك لمجموعة عوامل:

١ ـ إنَّ هذا المقدار لم يكن يُعتبر وفق المنظور العرفيِّ العامّ ممَّا يمسُّ بالنَّصّ ويضرُّ بصدق كونه نصّاً محفوظاً، ويُعَدُّ النَّقل معه من قبيل النَّقل بالمعنى.

فهذا المقدار كان مسموحاً به عرفاً في نقل النَّصّ حتَّى فيما كان يُتحرَّى لفظه، مثل القصائد والخطب، كما يجده الباحث بالتَّتبُّع لكيفيَّة نقل قصائد الشُّعراء والخطب من قبيل خطب الإمام عليّ عليه السلام وغيرها.

٢ ـ صعوبة السَّيطرة على الحيلولة دون هذا المقدار في عشرات، بل مئات وآلاف من الصَّحابة كانوا يحفظون القرآن الكريم أو بعض سوره، ويعوِّلون في ذلك على حافظتهم، ويقرؤون هذا القرآن على هذا الوجه في التِّلاوة الواجبة في الصَّلوات الفرائض وفي التِّلاوة المستحبَّة في النَّوافل أو بشكل مستقلٍّ. فلم يكن من الممكن التَّشديد عليهم جميعاً في أن لا يستبدلوا كلمةً بنحوها بتاتاً.

ويوضح ذلك: أنَّ الإنسان إذا تلى خطبةً على جماعةٍ لأجل حفظها من غير كتابةٍ يعوِّل كلُّ واحدٍ عليها ثُمَّ طلب منهم أن يقرؤوا له الخطبة غداً لوجد أنَّهم يختلفون بعض الشَّيء لا محالة حتَّى وإن تحرَّوا لفظها.

وعلى ذلك: فإنَّ المتوقَّع أن لا يكون الحفظ الميسَّر في تلك المرحلة لعامَّة النَّاس أكثر من ذلك، كما لم يكن ما يتعارف آنذاك في حفظ النَّصّ ـ كالقصائد ـ أكثر من تحرِّي لفظ النَّصّ بالميسور دون تلك الدَّرجة

من المداقَّة.

ولو أنَّ الدِّين قيَّد النَّاس بأن يحافظوا على النَّصِّ بخصائصه تماماً دون أدنى تغيير حتَّى مثل تحريك ساكن، أو تسكين متحرِّك، أو تبديل كلمةٍ بما يقاربها، وما إلى ذلك لكان في ذلك إحراجاً للنَّاس، وتزهيداً لهم في قراءة القرآن الكريم وحفظه.

هذا، مع العلم بأنَّ كتابة بعض الصَّحابة للنَّصِّ لم تكن تكفي لتسهيل مراعاة النَّصِّ المكتوب على جمهور الصَّحابة الَّذين لم يكونوا يعرفون الكتابة، أو لا يملكون الكتاب، أو يملكون كتابة بعض السُّور دون جميع القرآن، على أنَّ الكتابة لم تكن تدفع عن النَّصِّ مثل هذه النُّصوص جميعاً؛ من جهة تشابه الحروف أحياناً، وعدم كتابة بعض حروف العلَّة، وفقدان التَّنقيط والحركات والسَّكنات.

٣ ـ الإذن في هذا المقدار من قِبَل النَّبيِّ ﷺ ـ ولو مرحليَّاً ـ أو في مقام القراءة من الحفظ، وقد يُستفاد هذا الإذن ممَّا ورد في الرّوايات عن النَّبيِّ ﷺ من نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف، فهذه الرّوايات لو صحَّت فإنَّما هي ناظرة إلى تسهيل الأمر على الصَّحابة على النَّحو المتقدِّم، حتَّى لا يشعر بعض الصَّحابة بالإحباط من جرَّاء ما يمكن أن يتَّفق له من مثل هذه التَّغييرات البسيطة، ويتميَّز آخر بأنَّه هو الحافظ للنَّصِّ على وجهه، فأراد ﷺ تسهيل الأمر عليهم، وقال إنَّ كلَّ هذه الوجوه مقبولة، وعبَّر عن المقبوليَّة بالإنزال ـ توسُّعاً ـ حتَّى يدفع الشُّبهة والخلاف بينهم.

٤ ـ إنَّه قد كانت للعرب لهجات مختلفة تختلف في كيفيَّة النُّطق بالكلمة، فيبدِّل بعضهم بعض الحروف في الكلمة إلى حروف أخرى، وهذا أمر معروف، ولا يزال موجوداً في اللَّهجات المعاصرة للغة العربيَّة.

وعليه: فإنَّ بعض الصَّحابة كان يقرأ الكلمات وفق لهجة قومه، والَّتي قد لا يطاوعه لسانه على غيرها.

بل قد يتراءى من بعض القرائن أنَّ بعض الصَّحابة كان يستبدل اللَّفظة بما يجده أوضح وأوفى وأنسب في لغة قومه أو مجتمعه، ولا يجد حرجاً في ذلك.

كما أنَّ بعض الصَّحابة كان يضيف في مصحفه أحياناً كلمةً للشَّرح والتَّوضيح الَّذي يعتبره ضروريَّاً، نظير ما يُحكى عن مصحف سعد بن أبي وقَّاص في قوله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ**

امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ (سورة النساء: ١٢) من زيادة (من أُمّ) نظراً إلى أنَّ المنظور بالآية دون شكٍّ هو كلالة الأمِّ خاصَّةً، ولا تعمُّ الآية كلالة الأب؛ فإنَّ ميراثها على نحوٍ يختلف عمَّا جاء في هذه الآية، كما ذُكر في آيةٍ أخرى تقع آخر سورة النِّساء.

ويبدو أنَّه قد بدأ تسرُّب هذه الحالات تدريجاً إلى المصاحف بشكلٍ كتبيٍّ، واتَّضح ذلك في جبهات القتال، حيث يجتمع المسلمون من البلاد المختلفة مثل المدينة والكوفة ومكَّة والشَّام، وفيهم بطبيعة الحال عدد من قرَّاء القرآن الكريم، فيقع الخلاف الشَّديد بينهم في هذا الشَّأن.

ومن ثَمَّ أشار بعض الصَّحابة على عثمان بجمع النَّاس على مصحفٍ واحدٍ، فجمع مصاحف الصَّحابة من البلاد وأحرقها، وكوَّن مصحفاً واحداً، كُتبت منه نسخ متعدِّدة أرسلها إلى البلاد لكي يتَّفق عليه النَّاس.

ولم يكن الاختلاف الَّذي قد وقع بين القرَّاء حين ذاك بحجم يُعتدُّ به، ولكن لو استمرَّ النَّهج السَّابق لكان من المحتمل أن يؤدِّي إلى تعارف نسخٍ متعدِّدةٍ من القرآن الكريم، تختلف بعض الشَّيء في خصائص الألفاظ، وفي بعض ما أُضيف للإيضاح، ليشتبه بمرور الزَّمن مع أصل النَّصِّ ويندمج فيه، ويقع الخلاف في تحديد النَّصِّ الأوثق بين هذه النُّسخ المختلفة.

وهكذا نلاحظ أنَّ الباعث على جمع المصاحف على مصحفٍ واحدٍ برسمٍ واحدٍ لم يكن وجود خلاف في شأن القرآن الكريم بزيادةٍ، أو نقيصةٍ، أو تصرُّفٍ معنويٍّ آخر، وإنَّما كان نحواً من التَّوسُّع اليسير في قراءة القرآن الكريم، الَّذي لو استقرَّ لأمكن أن يُحدث بمرور الزَّمن وجود نُسخٍ متعدِّدة للقرآن الكريم؛ من جهة تنامي تلك الفوارق وزيادتها، ووقوع الاختلاف في اللَّفظ الأصليّ.

وبذلك استقرَّ المسلمون على رسمٍ واحدٍ تتعيَّن قراءة القرآن الكريم على وفقه على الجميع، ومن ثَمَّ عُبِّر عن امتيازات القُرَّاء بأنَّها قراءات متعدِّدة لما جاء في المصحف العثمانيّ، وتمَّ الإعراض عمَّا لا ينسجم مع رسم المصحف.

فالحاصل: أنَّ اختلاف المصاحف الَّتي جمعها عثمان من عددٍ من الصَّحابة لم يكن على العموم من جهة اختلافٍ في زيادة آيةٍ أو سورةٍ أو نقصانٍ أو تغيير جوهريٍّ، بل كان الاختلاف الَّذي يحتمله النَّصّ المحفوظ في مقام تحرِّيه من استبدال لفظةٍ بما يرادفها مثلاً، وهذا أمرٌ ظاهر بملاحظة الآثار التَّاريخيَّة

وهكذا يتَّضح أنَّه لم يحدث أيُّ خللٍ في حفظ القرآن الكريم في مرحلة ما بين وفاة النَّبيِّ ﷺ وجمع عثمان النَّاس على مصحفٍ واحدٍ.

حفظ القرآن الكريم من جمع النَّاس على مصحف عثمان إلى الزَّمان الحاضر

وأمَّا بالنِّسبة إلى (**المرحلة الثَّالثة**): ـ من جمع عثمان النَّاس على مصحفٍ واحدٍ ـ فالأمر واضحٌ وبديهيٌّ من المنطلق التَّاريخيِّ؛ لأنَّ مصحف عثمان محفوظ حتَّى الزَّمان الحاضر بشكلٍ واضحٍ ومحسوسٍ؛ من جهة اهتمام المسلمين منذ ذاك العصر بكتابة المصاحف على وفق رسمه، ولا يزالون يطبعون القرآن وفق هذا الرَّسم وإن كان قد يُطبع وفق الرَّسم السَّائد الحاليّ أيضاً، وبذلك أصبح رسمه مخلَّداً.

ومن مظاهر اهتمامهم برسم مصحف عثمان الحالات التَّالية:

١ ـ فقد تجد أنَّ رسم المصحف يجري في الموارد المماثلة على رسم الكلمة على وجهٍ في بعضها، وعلى وجهٍ آخر في بعضها الآخر، وهو يعني جواز الوجهين في الكلمة، ولكنَّك تجد التزام كتبة المصحف برسم المصحف في كلِّ موضعٍ على ما كان عليه في المصحف العثمانيّ.

٢ ـ وقد تجد أنَّ رسم بعض الحروف والكلمات يختلف عن كيفيَّة التَّلفُّظ بها؛ من جهة أنَّ الكتابة تتأخَّر عن مواكبة اللَّفظ كثيراً، فمثلاً يتمُّ إسقاط حروفٍ من الكلمة لفظاً، ولكن يبقى إثباتها كتباً إلى زمنٍ متأخِّرٍ، ثُمَّ تُحذَف كتباً أيضاً، وعليه قد نجد أنَّ رسم مصحف عثمان كان غيرَ مطابقٍ مع اللَّفظ في حينه؛ لتأخُّر تغيير الكتابة، ولكن تغيَّرَ الرَّسم

الكثيرة الواردة في شأن مصحف عثمان، وهو يطابق طبيعة الأمور.

وهذا البيان قريب ـ على الإجمال ـ بالمنظور التَّاريخي الدَّقيق وإن كانت بعض التَّفاصيل المذكورة فيه محلّ بحثٍ وتحقيقٍ.

الكتبيّ إلى ما يوافق اللَّفظ في العصور المتأخِّرة، إلَّا أنَّ كتبة المصحف لا زالوا يكتبون تلك الحروف والكلمات وفق رسمها من غير أخذ بالرَّسم المتجدِّد الموافق مع اللَّفظ.

٣ ـ بل قد خطَّأ بعضُ العلماء رسم المصحف في موارد لم تطابق قاعدة رسم الخطِّ حتَّى في زمان جمع المصاحف وتوحيدها، والَّذي جرى عليه رسم المصحف نفسه في سائر الموارد، ومع ذلك التزم كَتَبة القرآن برسم الخطِّ على ما جاء في مصحف عثمان مع التَّنبيه في العلائم الملحقة على كيفيَّة النُّطق، ولهذه الحالات أمثلةٌ كثيرة[1].

---

(١) فيما يلي جملة منها:

١ ـ كيفيَّة كتابة الكلمتين في مثل: (عن ما) و(عن من) و(أن لن) و(أن لم) فقد كُتبتا في المصحف: تارةً مفصولتين وفق الأصل الأوَّليِّ، وهو الموافق للرَّسم الحاليّ، وأخرى موصولتين مدغمتين هكذا: (عمّا، عمّن، ألّن، ألّم)، وقد أبقى كتبة المصحف كلَّ موضعٍ وفق ما جاء في المصحف العثمانيّ.

٢ ـ كيفيَّة رسم الحرف المشدَّد بدخول الألف واللَّام على الكلمة، فقد جاء رسمه العثمانيّ عموماً بحرفين كما هو الرَّسم الحاليّ، مثل (اللعنة، واللغو، واللهو، واللوَّامة، واللؤلؤ) وغيرها وهو الرَّسم الحاليّ، ولكنَّا نجد في بعض الموارد كتابته بحرف واحد، كما في (الليل) حيث كُتب أحياناً (الّيل)، وربَّما عُدَّ ذلك خطأً، فالتزم كتبة المصحف بكلٍّ في موضعه.

٣ ـ كيفيَّة رسم تاء التَّأنيث في الأسماء، فقد رُسمت في المصحف العثمانيّ: طوراً هاءً ـ كما هو عُرف الرَّسم الحاليّ ـ، وطوراً تاءً (ت)، وبذلك اختلف رسم المصحف في (رحمة، سنَّة، نعمة، امرأة، كلمة، لعنة، معصية، شجرة، قرَّة، ثمرة، بقيَّة، آية، بيِّنة، فطرة، وغيرها)، فـ(رحمة) مثلاً وردت (٧٩) مرَّة في المصحف، وقد رُسمت بالهاء في كلِّها إلَّا سبعة مواضع حيث رُسمت فيها (رحمت) بالتاء.

٤ ـ كيفيَّة رسم الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور، فقد جاء في المصحف العثمانيّ: طوراً بالوصل التَّامّ كما في (الم، المر، الر، المص، كهيعص)، وطوراً بالفصل كما في (حم عسق). وقد يكون الأصل الفصل؛ لأنَّها تُنطَق من خلال أسماء الحروف، فيُقال في (الم): (الف. لام. ميم)، ولا تُنطق موصولةً مثل كلمة (الم) بمعنى الوجع. وجرى كتبة المصحف على مثل ذلك بعينه في كلِّ موضع بحسب رسم المصحف العثمانيّ.

٥ ـ رسم الكسرة الطويلة ـ الَّتي هي علامة الجمع المذكَّر السَّالم وما أُلحق به ـ أو حذفها، فقد حُذفت في رسم المصحف على العموم كما في (النَّبيِّن) إلَّا في موضعٍ واحدٍ وهو (لفي علِّيِّين) (المطفِّفين: ١٨)، والرَّسم الحاليّ جارٍ على إثباتها في ذلك كلِّه.

٦ ـ رسم الكسرة الطَّويلة عند التقائها بساكن في درج الكلام أو حذفها، فقد أُثبتت خطًّا عموماً رغم حذفها لفظاً كما في (يؤتي الحكمة) (سورة البقرة: ٢٦٩) و(فسوف يأتي الله) (سورة المائدة: ٥٤)، إلَّا في خمسة عشر موضعاً كما في (وسوف يؤتِ الله المؤمنين) (سورة النِّساء: ١٤٦)، و(ننجِ المؤمنين) (سورة يونس: ١٠٣)، والرَّسم الحاليّ جارٍ على إثباتها مطلقاً.

٧ ـ كتابة رمز الكسرة الطَّويلة أو حذفه في الاسم المنادى المضاف إلى المتكلّم، فقد أُثبت عموماً نحو (يٰقومِ، يٰربِّ، يٰعبادِ)، إلَّا في موضعين (يٰعبادي الَّذين آمنوا) (العنكبوت)، و(يٰعبادي الَّذين أسرفوا) (سورة الزُّمر: ٥٣)، والرَّسم الحاليّ على إثباتها متى كان يُتلفَّظ بها.

٨ ـ رسم رمز الضَّمَّة الطَّويلة أو حذفه خطًّا آخر الكلمة، فقد أُثبت عموماً رغم حذفها لفظاً كما في (يمحو الله ما يشاء) (سورة الأحزاب: ٢١)، إلَّا في أربعة مواضع بُني فيها الخطُّ على اللَّفظ كما في (ويدعُ الإنسان بالشَّرِّ) (سورة الإسراء: ١١)، والرَّسم الحاليّ على إثباتها.

٩ ـ كتابة رمز الألف كتباً بعد الواو الواقعة آخر الكلمة وعدمها، فقد زيدت في عامَّة الكلمات كما هو الرَّسم الحاليّ، إلَّا في (جاءوا) و(باءوا) فقد رُسما كما ذُكرا هكذا (جاو، باو) بدون ألف بعد الواو، وكذلك جاء (عتوا) و(سعوا) وهما لم يتكرَّرا، وفي (تبوَّءوا) و(فاءوا) جيء برمز الألف تارةً وتُرك أخرى، وزِيد رمز الألف بعد الواو في مثل (يدعو، ويربو، وترجو، وأشكو، وأدعو، ولن ندعو) وذلك على خلاف الرسم الحاليّ، إلَّا في (عسى الله أن يعفو عنهم) (سورة النِّساء: ٩٩) فلم يُذكر رمز الألف فيه، كما زِيد رمز الألف بعد رمز الواو في (امرؤ) (سورة النِّساء: ١٧٦)، و(الربوا) حيث وقع مرسوماً بالواو، وهو على خلاف الرَّسم الحاليّ.

١٠ ـ حذف أحد الحرفين المتماثلين ـ من غير إدغام في رسم المصحف ـ فيُكتب على الكلمة استدراكاً، مثل (وكذلك نـۨـجي المؤمنين) (سورة الأنبياء: ٨٨)، وقد يُعَدُّ مثله خطأً كتابيًّاً من كُتَّاب المصحف.

١١ ـ إضافة الألف على آخر الكلمة المنصوبة رعايةً لتماثل آخر الآيات في مثل (الظنون، والرسول،

والسبيل) ولكن تنفرد آية واحدة بعدم كتابة الألف، وهي قوله تعالى: (وهو يهدي السبيل) (سورة الأحزاب: ٤).

١٢ ـ كتابة بعض الحروف بصورة حرف آخر، مثل كتابة نون التَّوكيد الخفيفة أحياناً ألفاً ـ كما يفعل بالتَّنوين ـ مثل (وليكونا من الصَّاغرين) (سورة يوسف: ٣٢)، (لنسفعا بالنَّاصية) (سورة العلق: ١٥)، وقد يُعَدُّ مثله خطأً كتابيًّا.

١٣ ـ حذف رمز الألف (الَّتي تُعَدُّ فتحةً طويلة) في أثناء الكلمة كثيراً كما في (مالك) (سورة الحمد:٤) و(يسارعون) (سورة آل عمران: ١١٤)، و(أتحاجُّون في) (سورة الأعراف: ٨٠)، و(فلا تصاحبني) (١٨: ٧٦)، بينما أُثبت في مواضع أخرى مثل (سارعوا) (٣: ١٣٣)، و(صاحبهما) (٣١: ١٥)، و(يحاجّوكم) (٣: ٧٣)، وكذلك حُذف في (الصَّالحات) و(الحافظات) ونحوهما، بينما ذُكر في (سبع سمٰوات) (سورة السَّجدة: ١٢).

وقد هُجر ذلك فيما بعد إلَّا في ألفاظ معدودة مثل لفظ الجلالة ومثله: (اللٰهم، وإلٰه، وهٰذا، وهٰذه، وهٰؤلاء، وأولٰئك، ولٰكن)، وما أشبه ذلك.

١٤ ـ رسم الفتحة الطَّويلة واواً في (الصَّلٰوة، والزَّكٰوة، والحيٰوة، والرِّبوا) مطَّردة ما لم يتَّصل بالضَّمير مثل (صلاتي)، وفي غيرها متفرِّقةً كما في (الغدٰوة، ومشكٰوة) و(النَّجٰوة) وغيرها، وقد هُجر ذلك بعد عدم وجود الواو لفظاً.

١٥ ـ كيفيَّة كتابة رمز الهمزة، فقد جاء مختلفاً في رسم المصحف، فكلمة (يستأخرون) جاءت بإثبات الألف مرَّةً كما في (سورة الأعراف: ٣٤) وبحذفها في المواضع الأخرى، وكذلك نجد كلمة (مستأنسين) مرسومةً بغير الألف في (سورة الأحزاب: ٥٣)، وبالألف أخرى في (تستأنسوا) (سورة النُّور: ٢٧).

١٦ ـ حذف الهمزة المتوسِّطة الَّتي قبلها ساكن خطًّا، كما في (فسل، يسئل، تجئرون) إلَّا في (النَّشأة) وفي (موئلاً).

١٧ ـ كتابة رمز الألف بعد اللَّام في (لا أوضعوا) (سورة التوبة: ٤٧)، و(أو لا أذبحنّه) (سورة النحل: ٢١)، و(لا إلى الله) (سورة آل عمران: ١٥٨)، وكتابة رمز الياء بعد الهمزة في (بأييد) (سورة الذَّاريات: ٤٧)، وقد يُعَدُّ مثله خطأً.

ونتيجة ذلك: أنَّه أصبح مصحف عثمان كما كان عليه في (سنة ٢٥هـ أو ٣٠هـ) أمراً بديهيّ الثُّبوت للغاية دون شائبة شكٍّ وشبهةٍ أو خلافٍ حتَّى من الباحثين غير المسلمين كالمستشرقين[1].

على أنَّ هناك مخطوطات من هذا المصحف تعود إلى وقتٍ مبكِّرٍ من القرن الأوَّل الهجريّ.

إذن، لا شكَّ في سلامة القرآن الكريم ومطابقته مع ما جاء في مصحف عثمان، وتلك بديهة تاريخيَّة جرت عليها من النَّاحية العمليَّة سيرة الصَّحابة، والتَّابعين، وتابعي التَّابعين جيلاً بعد جيل، حيث كان القرآن الكريم في حياة النَّبيِّ ﷺ نصَّاً عامَّاً تعلَّمه مئات الصَّحابة بشكلٍ منفصلٍ، ولم يكن نصَّاً خاصَّاً يرويه واحدٌ عن واحدٍ حتَّى يكون عرضةً للزِّيادة، والنَّقيصة، والإبهام، والتَّرديد. فهو أشبه بقصيدة أو قصائد أُلقيت في محضرٍ عامٍّ، واهتمَّ بتعلُّمها، وحفظها، وكتابتها عشرات ومئات من النَّاس، وخرج عن سيطرة شخصٍ أو جماعةٍ خاصَّة عليه، حتَّى يتأتَّى التَّغيير فيه، ويكون عرضةً للإبهام والشُّبهة.

وبهذا العرض يتَّضح أنَّ القرآن الكريم نصٌّ محفوظ بشكلٍ تاريخيٍّ واضح، وقد توفَّرت له أدوات الحفظ من خلال طبيعته الخلَّابة المشوِّقة للحفظ واهتمام النَّبيِّ ﷺ بتحفيظه، وكتابته، وانتشاره بين عامَّة النَّاس، فلم يكن كتاباً يتعلَّمه خصوص النُّخبة والخاصَّة من الصَّحابة ثُمَّ يتوارثه الخواصّ، بل كان كتاباً بيِّناً يخاطب جمهور النَّاس ببيان

(يلاحظ في ذلك وغيره: رسم المصحف، لغانم قدوري الحمد).

(١) ما خلا البعض من المستشرقين الَّذين حاولوا التَّشكيك بوجوه هي أشبه بالشُّبهة في مقابل البديهة بعد ما تقدَّم من الدَّلائل الواضحة على حفظ النَّصِّ القرآنيّ.

واضح، ممَّا يؤدِّي إلى أن يكون التَّديُّن والتَّعليم متطابقين في الحثِّ على الاهتمام به في المجتمع العربيّ العامّ.

بهذا اتَّضح سلامة هذا الرُّكن: لبقاء الحجَّة على الإسلام للأجيال اللَّاحقة، وهو محفوظيَّة النَّصِّ القرآنيّ.

وهكذا يتَّضح تماميَّة الطَّريق التَّاريخيّ في حفظ النَّصِّ القرآنيّ فعلاً إلى الزَّمان الحاضر على وجه واضح ومشهود.

وعليه: فإنَّ القرآن الكريم ـ بالنَّظر إلى خصائصه الَّتي تجعل منه نصَّاً صادقاً في رواية ما جرى في مقام أداء الرِّسالة ـ يكون دليلاً للأجيال اللَّاحقة لجيل الرِّسالة ـ كالجيل المعاصر لها ـ على صدق هذه الرِّسالة فعلاً بما يمثِّله من المرتكزات المتعدِّدة الَّتي تقدَّم توضيحها.

الطَّريق المباشر
لإثبات صدق الرِّسالة
(إعجاز القرآن)

الطَّريق المباشر

لإثبات صدق الرِّسالة

(إعجاز القرآن الكريم)

الطَّريق المباشر لإثبات صدق الرِّسالة: إعجاز القرآن

(**الطَّريق الثَّاني**): ـ لإثبات صدق الرِّسالة ـ هو الطَّريق المعاصر الَّذي يجري في شأن القرآن الكريم، وذلك بالنَّظر إلى أنَّ القرآن لا يزال يمثِّل حالةً مميَّزةً وخارقةً مشهودة في هذا العصر كنصٍّ دينيٍّ يرسم الوجود كلّه كمشهدٍ إلهيٍّ رائعٍ وحكيمٍ بخطابٍ عقلانيٍّ ومعقول، وكما أنَّه كان كذلك بالنِّسبة إلى الجيل المعاصر لإيجاد هذه الرِّسالة، فهو كذلك بالنِّسبة إلى الأجيال المتأخِّرة عنها، فيكون حجَّةً معاصرةً لها بلا حاجة إلى مقدِّمات إضافيَّة[1].

وجوه إعجاز القرآن

ويقرَّر هذا الطَّريق على وجوه ثلاثة:

الأوَّل: الاستناد إلى الإعجاز البلاغيّ للنَّصِّ القرآنيّ.

الثَّاني: الاستناد إلى إعجازه العلميّ.

---

(١) ولا يشمل هذا الطَّريق طبعاً سائر وجوه دلالة القرآن على حقَّانيَّة الرِّسالة، من قبيل كونه فوق قدرات الرَّسول، واشتماله على الإخبار بالمغيَّبات، وغير ذلك ممَّا تقدَّم عرضه في الطَّريق السَّابق؛ لأنَّ تلك الوجوه تتوقَّف على مقدِّمات تاريخيَّة إضافيَّة، كما بيَّنّاه هناك.

الثَّالث: الاستناد إلى إعجازه العدديّ.

عدم الوثوق بالإعجاز العدديّ المقترح

والوجه الأخير قد اقتُرح في العصر الأخير، حيث سعى جماعةٌ إلى تبيين إعجاز القرآن الكريم من خلال المقارنة بين الأعداد المستنبطة منه على وجوه، كما قيل ـ مثلاً ـ إنَّ كلّاً من (الدُّنيا والآخرة) ذُكرا في القرآن (١١٥) مرَّة. وذُكرت كلمة الأبرار (٦) مرَّات، وكلمة الفجَّار (٣) مرَّات. ووردت كلمة الشَّهر مفردة (الشَّهر، شهراً) (١٢) مرَّة. ووردت كلمة اليوم مفردةً وغير مضافة (اليوم، يوماً) (٣٦٥) مرَّة. وذُكر كلٌّ من كلمة (هدى) و(رحمة) (٧٩) مرَّة.

والواقع: أنَّه لا وثوق من المنظور العلميّ بهذا النَّحو من الاستنباط في شيء؛ وذلك لوجهين:

(الوجه الأوَّل): إنَّ مثل هذا الوجه بعيدٌ عن نَفَس القرآن والمنهج القرآنيّ في الإقناع والاحتجاج؛ فإنَّ نَفَس القرآن الكريم ـ كما يظهر لَمن تابعه وتأمَّل فيه ـ اعتماد الإقناع على أساس العقل والمنطق بأسلوبٍ واضحٍ وبيِّنٍ لعامَّة النَّاس، وليس على أساس ذكر الرُّموز والألغاز، كما قال تعالى[1]: ﴿**هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[3]: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾، وقال جلَّت

(١) سورة آل عمران: ١٣٨.

(٢) سورة البقرة: ٩٩.

(٣) سورة آل عمران: ١٠٥.

آلاؤه[١]: ﴿فَاتَّقُوا اللَّـهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّـهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّـهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾.

وتلك سنَّة الله سبحانه في رسالاته إلى العباد كلِّها، قال تعالى[٣]: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، وقال عزَّ وجلَّ[٤]: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾، وقال جلَّ ذكره[٥]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالمنهج الإلهيّ في النُّصوص الرِّساليَّة ـ كما يمثِّله القرآن الكريم ـ منهجٌ فطريٌّ يعوِّل على الرُّشد العقلانيِّ العامّ، ويخاطب عامَّة النَّاس بلُغة ميسَّرة وواضحة ومضمون راشدٍ وسهلٍ، ولا يعوِّل على الهداية بالرُّموز والألغاز والغوامض والمبهمات. وهو منهجٌ حكيم ومناسب لرؤية الدِّين في كونه ضرورةً إنسانيَّة عامَّة، كما أنَّ الغرض بالنَّصِّ الرِّساليّ فيه إرشاد عامَّة النَّاس وهدايتهم إلى الحقيقة.

وقد تقدَّم أنَّ هذه سياسة إلهيَّة عامَّة في هداية الخلق بالرِّسالات، حتَّى إنَّه سبحانه اختار الأنبياء ممَّن تتَّصف نشأته وشخصيَّته وسيرته بالوضوح والجلاء.

إنَّ استعمال الرُّموز والألغاز في مقام الهداية يفتح الباب للظُّنون والتَّكهُّنات في سبل

(١) سورة الطَّلاق: ١٠ ـ ١١.

(٢) سورة النِّساء: ١٧٤.

(٣) سورة الحديد: ٢٥.

(٤) سورة الجاثية: ١٦ ـ ١٧.

(٥) سورة الرُّوم: ٤٧.

الهداية، فتجد به المزاعمُ الباطلة طريقاً للتَّمويه على النَّاس وإقناعهم، فتشتبه الأمور، وتكثر المدَّعيات، وتختلط بذلك الموازين، ويتشابه الحقُّ والباطل(١).

(الوجه الآخر): الخطأ الواضح في المدَّعى المذكور ـ من وجود عنايةٍ عدديَّةٍ في استعمال المفردات في القرآن الكريم ـ؛ وذلك لأنَّه إذا كانت هناك عنايةٌ في استخدام المفردات بعدد يكون دليلاً على إعجاز القرآن وهادياً للخلق اقتضى ذلك وجود تخطيطٍ عدديٍّ للمفردات في القرآن، ووجود مثل هذا التَّخطيط يقتضي أن يجري وفق سياق مطَّرد، كأن تكون كلُّ واحدةٍ من الكلمات المتقابلة مستعملة بعددٍ متماثلٍ بشكلٍ مطلقٍ من دون اختصاص بمثالٍ دون مثال، ومن الواضح أنَّ أيَّ سياقٍ مطَّردٍ يُفرض فإنَّ ما يجري فيه التَّماثل ـ دون تكلُّف ـ حالةٌ نادرة فعلاً.

وما تحقَّق التَّماثل فيه حالة اتِّفاقيّة لا دلالة فيه على أيَّة عنايةٍ بالتَّخطيط العدديّ لاستعمالات الكلمات في القرآن، حيث نجد في مقابله أضعاف هذه الحالات ممَّا لم يُلحظ فيه أيُّ تخطيطٍ عدديٍّ.

يُضاف إلى ذلك: أنَّ أغلب الموارد الَّتي ادُّعي التَّماثل فيها يُقرَّب فيه التَّماثل على وجه متكلَّف.

ومن وجوه التَّكلُّف:

١ ـ أن يُسعى إلى تنظيم طرفي المقارنة أو أحدهما بقيود متكلَّفة حتَّى يتطابقا في العدد، نظير تقييد عدد اليوم والشَّهر بعدم الإضافة ليتطابقا مع عدد أيَّام السَّنة وعدد الشُّهور.

---

(١) وقد يُنقَض على هذا المعنى بموارد لا حجَّة في شيءٍ منها عند التَّأمُّل التَّامّ فيها؛ لعدم ثبوتها، أو لعدم غموضها، أو لعدم تعلُّقها بدلائل الهداية وحججها.

٢ ـ أن تكون العلاقة بين الطَّرفين متكلَّفة أصلاً، مثل تكرار كلٍّ من كلمة (هدى) و(رحمة) (٧٩) مرَّة، فإنَّهما ليسا متقابلين ولا مترادفين، بل الأوَّل مصداق للثَّاني، فأيُّ معنى لعدِّ تماثل العدد بينهما من التَّخطيط العدديّ.

٣ ـ أن يكون أصل التَّماثل المدَّعى متكلَّفاً، حيث لا تطابق عدديّ بين طرفي المقارنة، ولكن يُستنبط وجود نسبة أخرى بين العددين المختلفين، كما يُقال ـ مثلاً ـ إنَّ هذا ورد ضعف ذاك كما في الأبرار والفجَّار، ولا قيمة لمثل ذلك بتاتاً.

وعليه: فالمهمُّ من وجوه الإعجاز هما الوجهان الأوَّلان ولا سيَّما الوجه الأوَّل.

الإعجاز

البلاغيّ للقرآن الكريم

الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم ـ التَّقرير الإجماليّ

فـ(**الوجه الأوَّل**): هو الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم.

إنَّ للإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم تقريرين: تقرير تاريخيّ، وتقرير معاصر.

أمَّا (التَّقرير التَّاريخيّ): فهو يتعلَّق بإعجاز القرآن الكريم في زمان تلاوته من قِبَل النَّبيِّ ﷺ، حيث نلاحظ أنَّه قد تكرَّر تحدِّيه للعرب على أن يأتوا بمثله ـ كما في العديد من الآيات القرآنيَّة ـ بينما لم يستطع العرب من قبيلة قريش ولا غيرها أن يأتوا بمثله، بل لم يزعموا أنَّ في تراثهم الَّذي يفتخرون بمستواه البلاغيّ ـ كالقصائد المعلَّقات ـ ما يجاري القرآن وينافسه في البلاغة والفصاحة. وهذه حقيقة تاريخيَّة واضحة يمكن استنطاق القرآن الكريم نفسه في شأنها، كما يدلُّ عليها سيرُ الأحداث بعد الرِّسالة على ما يتَّضح ممَّا تقدَّم.

وأمَّا (التَّقرير المعاصر): فهو أنَّ القرآن لم يزل يمثِّل نصَّاً دينيَّاً أدبيَّاً رفيعاً في العصر الحاضر، كما كان في العصور السَّابقة.

وهذا التَّقرير هو المنظور في هذا الطَّريق.

ونذكر له بيانين: إجماليّ، وتفصيليّ.

البيان الإجمالي

أمّا (البيان الإجماليّ): فهو أنَّ كون القرآن الكريم نصّاً متميِّزاً وفريداً أمر مشهود للأدباء الَّذين يتَّصفون بالذَّوق الأدبيّ الرَّاقي، ويتحسَّسون مواضع اللُّطف والإبداع في النَّصِّ الأدبيّ، فهم يجدون أنَّ القرآن نصٌّ أدبيٌّ مميَّز وراقٍ في مستواه البلاغيّ، بلا فرق فيهم بين انتماءاتهم الدِّينيَّة من مسلمين ومسيحيِّين وصابئة وغيرهم.

ولا نقصد بالأدباء في هذا السِّياق العالمين بالأدب الوصفيّ، كعلماء اللُّغة وعلومها من: النَّحو، والصَّرف، وعلوم البلاغة، بل المراد بالأدباء مَن يكون له مستوى من الذَّوق الأدبيّ الَّذي يلتفت من خلاله إلى المستوى الأدبيّ للنَّصِّ بتلاوته، والتَّأمُّل فيه، من غير أن يحتاج بالضَّرورة إلى أيِّ تحليلٍ وتوصيفٍ.

والذَّوق الأدبيّ في الأصل موهبة فطريَّة يمكن للإنسان صقلها من خلال الاطِّلاع على النُّصوص الأدبيَّة، وممارسة إنشاء النَّصِّ الأدبيّ. ويتألَّف هذا الذَّوق من مجسَّات دقيقة يمكنها الشُّعور بالمزايا الظَّريفة للكلام.

وبذلك يظهر أنَّ من الطَّبيعيّ أن لا يدرك جميع النَّاس العارفين باللُّغة العربيَّة رُقيّ المستوى الأدبيّ للنَّصِّ القرآنيّ ـ بالمقارنة مع النُّصوص الأخرى ـ، فذلك ما لا يحصل ولم يحصل من قبل أيضاً، ولكنَّ المراد أنَّ أهل الذَّوق الأدبيّ الرَّاقي يميِّزون ذلك.

ويمكن لنا هنا أن نستخدم منبِّهات أربعة، مضافاً إلى المنبِّه التَّاريخيّ المتمثِّل في نجاح تحدِّي القرآن الكريم في حينه للعرب ببعده البلاغيّ، على ما سبق توصيفه من قبل.

والمنبِّهات الأربعة هي:

١ ـ النَّظر إلى نماذج مميَّزة من النُّصوص القرآنيَّة.

٢ ـ جمال النَّصِّ القرآنيّ في حال ترتيله بالألحان الَّتي تناسبه.

٣ ـ الأثر المشهود لتلاوة القرآن على قارئيه منذ عصر النُّزول.

٤ ـ مقارنة النَّصِّ القرآنيّ بنصوصٍ أخرى.

نماذج من روائع النَّصّ القرآنيّ في المقاصد المختلفة

(**المنبِّه الأوَّل**): النَّظر إلى نماذج من النُّصوص القرآنيَّة.

وبيانه: أنَّ النَّاظر في القرآن الكريم يجد أنَّه إذا قصد مقصداً معيَّناً بلغ الغاية في حسن تمثيله وتجسيده وتقريبه إلى النَّفس، حتَّى يكون مثلاً شاخصاً له بكلامٍ مستجمعٍ لصفات الحسن والتَّأثير، من حيث العناصر اللَّفظيَّة الصَّوتيَّة والمعنويَّة بأنواعها.

فإذا قصد بيان عظمة الله سبحانه رسم كائناً عظيماً مهيمناً جليلاً للغاية، كما قال تعالى[1]: ﴿**هُوَ اللَّـهُ الَّذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَـنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّـهُ الَّذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْـمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْـمُؤْمِنُ الْـمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْـجَبَّارُ الْـمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّـهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّـهُ الْـخَالِقُ الْبَارِئُ الْـمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْـحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْـحَكِيمُ**﴾.

وإذا أراد وصف دلالة بدائع الكون وروائعه على الله سبحانه جسَّد المشاهد الرَّائعة تجسيداً محسوساً بليغاً، كما قال سبحانه[2]: ﴿**اللَّـهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ**

---

(١) سورة الحشر: ٢٢ ـ ٢٤.

(٢) سورة الرَّعد: ٢ ـ ٤.

يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وإذا أراد وصف خضوع الأشياء لله تعالى رسم مشهد الوجود والكون كلّه على وجهٍ خاضعٍ بشكلٍ بديعٍ، قال سبحانه[1]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّـهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، وقال تعالى[2]: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وإذا أراد وصف إقبال الآخرة وحوادثها وصف مشهداً مهيباً، كما قال تعالى[3]: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا * وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْـمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْـمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْـمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْـمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، وقال سبحانه[4]: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

وإذا أراد توصيف تمايز الصَّالحين والفاسدين يوم القيامة رسم مشهداً رائعاً ومروِّعاً[5]: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّـهُ ثُمَّ

---

(١) سورة الحجّ: ١٨.

(٢) سورة الإسراء: ٤٤.

(٣) سورة الواقعة: ١ ـ ١٠.

(٤) سورة الانفطار: ١ ـ ٥.

(٥) سورة الزُّمر: ٦٨ ـ ٧٥.

نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا بَلَى وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّـهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وإذا وصف تأثير القرآن في النُّفوس وصف شيئاً هائلاً وبلغ الغاية، كما قال تعالى[2]: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّـهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّـهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، وقال سبحانه[3]: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّـهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

---

(١) ومن طرائف هذا المقطع القرآنيّ ذكر كلمة (فُتحت) في الآية (٧٠) عند الحديث عن الكفَّار من دون الواو لتقع جواباً عن الشَّرط. ولكن ذُكرت هذه الكلمة مع الواو في الآية (٧٢) عند الحديث عن المؤمنين ليكون جواب الشَّرط محذوفاً، ويذهب ذهن المخاطب كلَّ مذهبٍ في وجوه النِّعم الَّتي يجدونها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَـهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (سورة السَّجدة: ١٧).

(٢) سورة الرَّعد: ٣١.

(٣) سورة الحشر: ٢١.

وإذا وصف صراع الحقِّ والباطل وضرب مثلاً لانتصار الحقِّ وزوال الباطل جاء بمثلٍ بديع، كما قال تعالى[١]: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّـهُ الْـحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّـهُ الْأَمْثَالَ**﴾.

لقد أبدع القرآن الكريم أيّما إبداع في أسلوب الإيفاء بمقاصده المختلفة، بما جعل النَّصَّ القرآنيّ في كلِّ مجالٍ نصّاً دينيّاً متميِّزاً. وطوَّع مختلف المعاني الرُّوحانيَّة والمعنويَّة والتَّشريعيَّة والأخلاقيَّة وغيرها لهذا الأسلوب تطويعاً رائعاً ومذهلاً.

وهذا أمرٌ مشهودٌ بدرجةٍ أو أخرى لِمَن امتلك الذَّوق اللّازم، ووقف عند النَّصِّ القرآنيّ، وتأمَّله مليّاً.

دور ترتيل القرآن في إبراز محاسن النصّ القرآنيّ

(**المنبِّه الثَّاني**): ـ على مكانة النَّصِّ القرآنيِّ ـ جمال هذا النَّصِّ في حال ترتيله بالألحان الَّتي تناسبه.

إنَّ من الأمور المشهودة في شأن القرآن الكريم ما يلاحَظ عليه من الجمال والرَّوعة عند قراءته بأسلوب التَّرتيل الَّذي أوصى به، حيث قال[٢]: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا**﴾.

والتَّرتيل في القراءة: ـ كما في كتب اللُّغة[٣] ـ التَّرسُّل فيها والتَّبيين، ويبدو أنَّه مأخوذ

---

(١) سورة الرَّعد: ١٧.

(٢) سورة المزَّمّل: ٤.

(٣) الصَّحاح تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة ج: ٤، ص: ١٧٠٤. المخصّص لابن سيده ج: ١، ق: ١ (السّفر الأوّل)، ص: ١٤٩. لسان العرب ج: ١١، ص: ٢٦٥.

في الأصل من (رتلت أسنان الرَّجل) بمعنى تباعدت، ومنه يُقال: (ثغر رَتْل)، أي مفلّج. فالمراد بترتيل القرآن التَّأنِّي في قراءته والتَّرسُّل فيه، وعدم الاستعجال حتَّى تتبيَّن الحروف والحركات، تشبيهاً بالثَّغر المرتَّل، وهو المشبَّه بنور الأقحوان.

وجاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ[1]: ((زيِّنوا القرآن بأصواتكم))، والمراد إظهار زينة القرآن بجمال الصَّوت والأداء.

وفي حديث آخر[2]: ((لكلِّ شيءٍ حلية، وحلية القرآن الصَّوت الحسن)).

وفي حديث ثالث[3]: ((ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن))، والمراد بالغناء ـ في وجه[4] ـ تحسين الصَّوت فيه، ولكن لا على ما يناسب مجالس اللَّهو والطَّرب والمجون.

وعن الإمام عليّ عليه السلام[5] ـ في أدب قراءة القرآن ـ: ((بيِّنه تبياناً، ولا تَهُذَّه[6] هذَّ الشِّعر، ولا تنثره نثر الرَّمل، ولكن أفزعوا قلوبكم القاسية، ولا يكن همُّ أحدكم آخر

(١) مسند أحمد ج: ٤، ص: ٢٨٣، ٢٨٥، ٣٠٤. المستدرك على الصَّحيحين ج: ١، ص: ٥٧١ ـ ٥٧٣.

(٢) الكافي ج: ٢، ص: ٦١٥، ح: ٩. مجمع الزَّوائد ج: ٧، ص: ١٧١.

(٣) مسند أحمد ج: ١، ص: ١٧٢، ١٧٥، ١٧٩. صحيح البخاريّ ج: ٨، ص: ٢٠٩.

(٤) يلاحظ في معنى الحديث: غريب الحديث ج:٢ ص:١٦٩. النِّهاية في غريب الحديث والأثر ج: ٢، ص: ٣٢٥. معاني الأخبار ص: ٢٧٩. المجازات النَّبويَّة ص: ٢٣٤. الأمالي للسَّيِّد المرتضى ج: ١، ص: ٢٤ ـ ٢٨.

(٥) الكافي ج: ٢، ص: ٦١٤، ح: ١.

(٦) يلاحظ: أساس البلاغة ص: ١٠٥٥، حيث قال: (هذَّه هذّاً أسرع قطعه. وسكين هذوذ، ومن المجاز (هذَّ القرآن) وهو يهذّه هذّاً إذا أسرع فيه وتابعه). لسان العرب(ج: ٣، ص: ٥١٧)، حيث قال: (هذذ: الهَذّ والهَذَذُ: سرعة القطع وسرعة القراءة، هَذَّ القرآن يَهُذُّه هَذّاً، يقال: هو يَهُذُّ القرآنَ هَذّاً، ويهذُّ الحديث هذّاً أي يَسْرُده .. وفي حديث ابن عباس: وقال له رجل: قرأْت المُفَصَّل الليلة، فقال: أَهَذّاً كَهذِّ الشِّعر؟ أَراد أَتَهُذُّ القرآن هَذّاً فتسرع فيه كما تسرع في قراءة الشِّعر).

السُّورة)).

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث[1]: ((رجِّع[2] بالقرآن صوتك، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ الصَّوت الحسن يُرجَّع فيه ترجيعاً)).

وجاء عن عليّ بن الحسين زين العابدين عليهما السلام أنَّه[3]: (كان يقرأ القرآن فربَّما مرَّ به المارُّ فصُعق من حسن صوته)، وجاء أيضاً[4]: (كان السَّقَّاؤون يمرُّون فيقفون ببابه يسمعون قراءته).

فالتَّرتيل يبلور مواضع الحُسن والجمال في المفردات المنتقاة والجمل الموزونة، ويفجِّر الامتيازات الصَّوتيَّة الكامنة في النَّصِّ القرآنيّ.

إنَّ جمال النَّصِّ القرآنيّ عند ترتيله وتحسين الصَّوت فيه أمرٌ مشهودٌ للمجتمع العربيّ، وهو أمر بدأ مع إنزال القرآن في عهد النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وجرى عليه صلى الله عليه وآله وسلم نفسه وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه والتَّابعون من بعدهم.

وليس هذا الحسن حسناً مستعاراً من الصَّوت محضاً، بدليل إنَّنا نجد عدم ملاءمة سائر النُّصوص لكثير من أنساق الألحان القرآنيّة، فلو اختبرنا قراءة النُّصوص الأخرى البليغة من: الخطب، والأشعار بالألحان القرآنيّة لم نجد لها روعةً على حدِّ روعة النَّصِّ القرآنيّ، بل لعلَّ أكثرها لا يلائم تلك النُّصوص، فما نجده من جمال القرآن وحسنه من

---

(١) الكافي ج: ٢، ص: ٦١٥، ح: ١٣.

(٢) يلاحظ: الصَّحاح ج: ٣، ص: ١٢١٨ حيث قال: (ترجيع الصَّوت: ترديده في الحلق). النِّهاية في غريب الحديث والأثر ج: ٢، ص: ٢٠٢ حيث قال: (التَّرجيع ترديد القراءة، ومنه ترجيع الأذان. وقيل: هو تقارب ضروب الحركات في الصَّوت).

(٣) الكافي ج: ٢، ص: ٦١٥، ح: ٤.

(٤) الكافي ج: ٢، ص: ٦١٦، ح: ١١.

خلال أدائه بالألحان الحسنة يرجع إلى القابليَّات المميَّزة للنَّصِّ القرآنيِّ في مكوِّناته الصَّوتيَّة وأوزان مقاطعه وآياته ـ مضافاً إلى بلاغة مضامينه ومحتواه من النَّواحي المعنويَّة ـ.

الأثر المشهود لتلاوة القرآن على قارئيه منذ عصر النُّزول

(المنبِّه الثَّالث): ـ على مكانة النَّصِّ القرآنيِّ ـ التَّأثير العجيب لتلاوته في نفوس قارئيه وسامعيه منذ عصر النُّزول، كما نلاحظه في الآثار المرويَّة عن أحوال الصَّحابة ومَن بعدهم.

وقد حكى القرآن الكريم تأثير نفسه على مجتمع الرَّسول ﷺ، حيث أدَّى فيهم إلى مشاعر: الإخبات، والخشوع، والقشعريرة، والوجل، والاستبشار، على أنَّ آخرين قست قلوبهم عن أن تتأثَّر به، قال عزَّ من قائل[1]: ﴿**اللَّـهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّـهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّـهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّـهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّـهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾، وقال تعالى[3]: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾.

لقد استطاع القرآن الكريم بمنطقه أن يقيم الحجَّة الرَّاشدة على مجتمعٍ موغلٍ في الشِّرك، والخرافة، والعادات الخاطئة من خلال إثارة العقول والضَّمائر، واستنطاق الحوادث بلغة بليغة وواضحة وسهلة وميسَّرة، كما استطاع بوقعه البلاغيِّ أن يرسِّخ

---

(١) سورة الزُّمر: ٢٣.

(٢) سورة الأنفال: ٢.

(٣) سورة التَّوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥.

الإيمان إلى حدٍّ كبير خلال بضعة سنوات في مجتمعٍ نما على الشِّرك مئات السِّنين، ويدفع وساوس العقائد الخاطئة المتجذِّرة في نفوس المجتمع، على ما يجده الباحث بملاحظة تاريخ الرِّسالة ودور القرآن في التَّصديق بها، ولم يزل هذا القرآن ـ وفق الدِّراسات الاجتماعيَّة للمجتمعات المسلمة ـ من أهمِّ العوامل المساعدة على تمسُّك المسلمين بالإسلام في مقابل الأمواج العاتية الَّتي تثير الشَّكَّ والتَّفرقة من خلال ما يتميَّز به من اللُّغة الرَّاشدة والأسلوب البليغ.

مقارنات النَّصِّ القرآنيّ ودلالتها على تميُّز هذا النَّصّ وكونه نصَّاً فائقاً ومؤسِّساً

(**المنبِّه الرَّابع**): ـ على مكانة النَّصِّ القرآنيِّ ـ هو المقارنة بين هذا النَّصّ وسائر النُّصوص الدِّينيَّة قبل القرآن الكريم وبعده ـ والَّتي كانت هي أيضاً بصدد صياغة معالم الدِّين من: وجود الله، وصفاته، وأمر الرِّسالة، والمعاد، ومن الوصايا الدِّينيَّة التَّشريعيَّة والأخلاقيَّة ـ فإنَّها تبيِّن بشكلٍ واضحٍ أنَّ النَّصَّ القرآنيِّ هو فائقٌ ومؤسِّسٌ ومبدعٌ في الإيفاء بتلك المعاني ـ سواء من حيث المضمون أو الأداء ـ:

ابتداءً بمنطق اختيار الدِّين والتَّحقُّق منه من التَّعقُّل والتَّفكير وأدواته من: التَّصفُّح للكون، واستقراء الكائنات، والمقارنة بينها، والوقوف على التَّاريخ، والاطِّلاع على السُّنن الاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة، وحواجز الإدراك ومعوِّقاته النَّفسيَّة من: التَّقليد، والوسوسة، والتَّثاقل، والعصبيَّة.

ومروراً بتوصيف الله سبحانه وتوحيده، ونفي الشُّركاء له، وهيمنته على الكون، وتمثُّله في روائع الكون والكائنات، وخضوع الكائنات له تعالى، وتوصيف عمليَّة الرِّسالة والمؤهِّلات اللَّازمة لها وطرق إثبات حقَّانيَّتها، وتوصيف نشأة الإنسان وغايته، وخصائص الإنسان الرَّائعة، ونقاط قوَّته وضعفه، وتوصيف الدَّار الآخرة وبداياتها

وحوادثها وتمايز النَّاس فيها، وتوصيف قيمة هذه الحياة الدُّنيا وأبعادها، والتَّحذير من الاغترار بها من غير إعراض عنها، وتقسيم النَّاس تجاه الرِّسالة إلى المؤمنين والكافرين والمنافقين، وبيان خصائص كلٍّ منهم وعلائمهم وعواقبهم، وبيان قصص الأنبياء على وجه يثير العبرة والاتِّعاظ.

وانتهاءً بتوصيف القيم الأخلاقيَّة السَّلبيَّة والإيجابيَّة، وبناء التَّشريع عليها، هذا مع ربط بعض هذه المعاني ببعض، ودمجها جميعاً في نصٍّ وحدانيٍّ متناغم.

ويمكن لنا أن نتبيَّن ذلك من خلال مقارنات ثلاث:

المقارنة بين القرآن والنُّصوص الدِّينيَّة الَّتي سبقته

(المقارنة الأولى): هي المقارنة بين النَّصِّ القرآنيِّ والنُّصوص الدِّينيَّة السَّابقة على القرآن من قبيل مقاطع التَّوراة، وأصحاحات الإنجيل، أو سائر الكتب المقدَّسة لأهل العقائد الأخرى.

فالجامع بين هذه النُّصوص أنَّ جميعها أو كثيراً منها تشترك في كونها نصوصاً دينيَّة تريد وصف الله سبحانه، ووصف الكون من منظور ارتباطه بالله تعالى، ووصف نشأة الإنسان وأحوال الرُّسل، ووصف الذُّنوب والقيم الأخلاقيَّة وآثارها، وذكر معانٍ من الحكمة والنَّصيحة والموعظة والاعتبار.

إنَّ هذه المقارنة[1] توضح بجلاءٍ أنَّ الفاصل بين أسلوب النَّصِّ الدِّينيِّ في القرآن

---

(١) علماً أنَّه ينبغي الانتباه إلى أنَّ النُّصوص المتقدِّمة على القرآن في الغالب ليست بألفاظها المنزلة، بل ثبتها منذ البداية كان أشبه من التَّبت بالمعنى دون اللَّفظ المنزل بعينه، على أنَّ منها ما يكون المحفوظ منه هو التَّرجمة دون الأصل، ومع ذلك فإنَّ التَّوراة والإنجيل موصوفتان في القرآن الكريم بكونها هدىً ونوراً، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**﴾ (سورة المائدة: ٤٤)، وقال سبحانه: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ**﴾ (سورة المائدة: ٤٦).

الكريم وبين النُّصوص السَّابقة فاصلٌ هائلٌ جدَّاً بما يكاد يمثِّل هذا الفاصل في نفسه أمراً خارقاً ومعجزاً؛ لأنَّه وُجد على نحوٍ دفعيٍّ، وليس على سبيل التَّطوُّر التَّدريجيِّ.

إنَّ كثيراً من الباحثين في هذه الأزمنة حيث اعتاد على النَّصِّ القرآنيّ لا يدرك مستوى الجدَّة والإبداع الفنِّيّ والبلاغيِّ في هذا النَّصِّ، ولا سيَّما إذا كان قد اعتاد على النُّصوص الَّتي اقتفت أثر القرآن الكريم، مثل خطب الإمام عليّ عليه السلام.

ولكنَّ المقارنة بين القرآن الكريم والنُّصوص الدِّينيَّة الأخرى الَّتي كانت موجودةً وسائدةً من قبل نزول القرآن تُشعر الباحث بحجم الإبداع المضمونيِّ والأدبيِّ في النَّصِّ القرآنيِّ الكريم، وهذا محلُّ إذعانِ كثير من الأدباء العرب في تلك الأديان كالدِّين المسيحيّ.

على أنَّ هذا الأمر واضح يمكن أن يتبيَّن منه الباحث بنفسه مباشرةً؛ من جهة توفُّر تلك الكتب، وسهولة الوصول إليها في العصر الحاضر.

المقارنة بين القرآن والآثار الإسلاميَّة

(المقارنة الثَّانية): هي المقارنة بين الآيات القرآنيَّة والآثار الإسلاميَّة من بعده من قبيل خطب النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وسائر الوعَّاظ والخطباء، وخطبة العلماء في مقدِّمة كتبهم.

إنَّ أدباء المسلمين وإن لم يكونوا في صدد معارضة النَّصِّ القرآنيِّ كنصٍّ دينيٍّ وبلاغيٍّ، إلَّا أنَّهم سعوا إلى تكوين ما في مقدرتهم من نصوص أدبيَّة دينيَّة في مقام إلقاء الخطب أو كتابتها في مقدِّمة الكتب، فتكوَّنت في أثر ذلك مجموعةٌ ضخمةٌ تبدأ بخطب النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وتستمرُّ خلال العصور حتَّى العصر الحاضر.

كما إنَّ الأدباء العرب من غير المسلمين أيضاً صاغوا نصوصاً دينيَّة بدواعٍ مختلفة من قبيل ترجمة النُّصوص الدِّينيَّة السَّابقة.

إنَّ الفاصل بين القرآن الكريم وبين هذه الآثار كلِّها أقلُّ من الفاصل بينه وبين الكتب الدِّينيَّة السَّابقة على الإسلام بشكل محسوس.

إلَّا أنَّ السِّرَّ في ذلك هو أنَّ هذه الآثار تأثَّرت بالقرآن الكريم، واقتبست مضامينه، واتَّبعت أثره، واقتفت أسلوبه بمقدار استطاعة المتكلِّم من ذلك.

فالمسلمون منذ الصَّدر الأوَّل دأبوا على تلاوة القرآن الكريم، وحفظه، وتكراره بشغفٍ وتدبُّرٍ كنصٍّ دينيٍّ أدبيٍّ راقٍ يرسم معالم الدِّين وتاريخه ومنهجه، ويمكِّن الإنسان من اللُّغة الفصيحة، ويعطي له القدرة على إنشاء الكلام الفصيح، ومنهم مَن كان يهتمُّ مضافاً إلى ذلك بحفظ بعض النُّصوص المقتفية له مثل خطب الإمام عليّ عليه السلام لنفس الغاية.

على أنَّه بالرَّغم من ذلك فإنَّ الواقع أنَّ الفاصل في المستوى محفوظ بين القرآن الكريم وبين هذه النُّصوص الَّتي اقتفت أثره، وهو فاصل غير قليل ومشهود.

المقارنة بين القرآن وبين نهج البلاغة

تُعتبر خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ـ نوعاً ـ أرقى النُّصوص الأدبيَّة والدِّينيَّة المحفوظة الَّتي اقتفت أثر القرآن الكريم في مقاصده، مثل توصيف الله سبحانه وتعالى، وذمّ الدُّنيا، والدَّعوة إلى الفضائل ونحو ذلك.

ولا شكَّ أنَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إنَّما استطاع إبداع هذه النُّصوص بحفظ القرآن، وتلاوته، والإمعان فيه، والإعجاب بمعانيه، والاقتفاء لأثره، فالإمام عليه السلام ـ كما تهدي إليه المقارنة بين القرآن وبين نهج البلاغة ـ صاغ المضامين القرآنيّة نفسها صياغةً ثانيةً بتعابيره الَّتي تأثَّر في كثيرٍ من أصولها بالقرآن.

ولكن رغم ذلك نلاحظ أنَّ كلام الإمام عليه السلام مع علوِّ مكانته بالمقارنة مع كلمات مَن

بعده لا يبلغ مستوى القرآن[١].

وقد وصف عليه السلام القرآن في خطبه توصيفاً يعطي درجة الإعجاب به.

فمن كلامه[٢]: ((وَإِنَّ الْقُرآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلاَتَنْقَضِي غَرَائِبُهُ، وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ)).

وقال عليه السلام[٣]: ((وَتَعَلَّمُوا الْقرْآن فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ)).

وقال عليه السلام[٤]: ((وَاعْلَمُوا أَنَّ هذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لاَ يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لاَ يُضِلُّ، وَالْـمُحَدِّثُ الَّذِي لاَ يَكْذِبُ، وَمَا جَالَسَ هذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدىً، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمىً. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، وَلاَ لأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنىً، فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ،

---

(١) ذكر الشَّيخ محمَّد جواد مغنية في كتابه (في ظلال نهج البلاغة ج: ١، ص: ٨ ـ ٩) ـ في كلام يشير فيه إلى المقارنة بين القرآن الكريم ونهج البلاغة ـ: (وما من كلمةٍ في نهج البلاغة إلَّا ودلَّ عليها القرآن بالتَّفصيل أو الإجمال، مع العلم بأنَّ كلام الله قد تفرَّد بخصائصٍ كثيرةٍ لا يشاركه فيها كلام البشر أيّاً كان قائله، وهذه الحقيقة يدركها كلُّ مَن ﴿**كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾. وأعترف بأنِّي أدركت هذه الحقيقة بعد أن فسَّرت القرآن الكريم. وباشرت بشرح نهج البلاغة، وكنت من قبل أشبه بالمقلِّد.. بل كان قد عرضت لي شبهةٌ فيها شائبة من الغلوّ.. ثُمَّ زالت إلى غير رجعة بحمد الله وفضل النَّهج وشرحه؛ فقد لمست وأيقنت ـ وأنا أشرح النَّهج ـ أنَّ الفرق بين كتاب الله ونهج البلاغة تماماً كالفرق بين الخالق والمخلوق، والرَّبّ والمربوب).

(٢) نهج البلاغة ص: ٦١، الخطبة: ١٨.

(٣) المصدر السَّابق ص: ١٦٤، الخطبة: ١١٠.

(٤) المصدر السَّابق ص: ٢٥٢، الخطبة: ١٧٦.

فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلاَلُ)).

وقال ﷺ[١]: ((وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَسَبَبُهُ الأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جلاَءٌ غَيْرُهُ)).

وقال ﷺ في وصف المتَّقين[٢]: ((أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ)).

وقال ﷺ[٣]: ((ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لاَ تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجاً لاَ يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْراً لاَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجاً لاَ يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعاً لاَ يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَاناً لاَ يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَتِبْيَاناً لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لاَ تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزّاً لاَ تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقّاً لاَ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ.

فَهُوَ مَعْدِنُ الإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِيُّ الإِسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ. وَبَحْرٌ لاَ يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لاَ يُنضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلُ لاَ يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلُ لاَ يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلاَمٌ لاَ يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ لاَ يَجُوزُ عنْهَا الْقَاصِدُونَ.

جَعَلَهُ اللهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً

---

(١) المصدر السَّابق ص: ٢٥٤، الخطبة: ١٧٦.

(٢) المصدر السَّابق ص: ٣٠٤، الخطبة: ١٩٣.

(٣) المصدر السَّابق ص: ٣١٥ـ٣١٦، الخطبة: ١٩٨.

لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلاَّهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدىً لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ، وَعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلأَمَ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى)).

وهذه الكلمات تدلُّ على مبلغ إعجاب الإمام بكلٍّ من البعد الموضوعيّ للقرآن الَّذي يتضمَّن تأصيل العقيدة والتَّشريع وفق أصول عقليَّة وفطريَّة، والبعد الفنِّيّ له الَّذي يمثِّل بياناً معجزاً حقّاً في استجماع عناصر التَّأثير في النُّفوس وأسر القلوب بما لا يماثله أيُّ نصٍّ آخر.

ومن المعلوم لَمن وقف على آثار الإمام عليّ عليه السلام أنَّه استجمع صفتين:

(إحداهما): أنَّه عليه السلام كان طالباً للحقِّ ناصحاً لنفسه في ذلك، يشهد على ذلك نَفَسه، وسلوكيَّاته، ومواعظه، وخلواته العباديَّة في اللَّيل والنَّهار، وفق المعلومات التَّاريخيَّة الواضحة.

و**(الأخرى)**: أنَّه عليه السلام كان إنساناً بصيراً للغاية، لا يكاد تخفى عليه خديعةٌ، وتمويه، وإيهام، وقد نشأ في أحضان الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم منذ صغره قبل بعثته، وكان يعلم خُلقه، وسلوكيَّاته، وتوجُّهاته، وطاقاته، وأخلاقه، وهذه أيضاً بديهة تاريخيَّة.

وعلى ضوء ذلك تكون شهادته عليه السلام في شأن القرآن الكريم شهادةً لن تحتمل المبالغة ولا الخطأ ولا التَّمويه ـ بغضِّ النَّظر عن مقاماته في المنظور الإسلاميّ والإماميّ ـ.

المقارنة بين النَّصِّ القرآنيّ وبين شروحه وتفاسيره

(المقارنة الثَّالثة): هي المقارنة بين الآيات القرآنيَّة والشَّرح الَّذي يذكره مفسِّرو القرآن في مقام توضيحها وبيانها.

فإنَّ هذا الشَّرح والتَّوضيح يتضمَّن مضمون الآيات القرآنيَّة نفسه، ولكنَّه بصياغة أخرى بديلة، فلك أن تقارن بين الآيات، وبين الجمل الَّتي تُستخلص من هذه الشُّروحات البديلة الَّتي سعت إلى الإيفاء بنفس المعاني مع ألفاظٍ مختلفة، وبهذه المقارنة يتَّضح تميُّز النَّصِّ القرآنيِّ في: وقاره، ومتانته، وصياغته، ووزنه، رغم اقتفاء هذه الشُّروح أثر القرآن الكريم تماماً في المعاني، وللباحث أن يقارن ـ كنموذجٍ ـ بين سورة الحمد وبين شرحها في كتب التَّفسير.

وعلى وجه أعمّ يمكن للباحث الأديب أن يسعى إلى أن يوفِّر تعبيراً بديلاً عن الآية مع أداء مقصده ومعناه بعينه، فهل يجد مقارنةً ومقاربةً بين النَّصِّ القرآنيِّ والنَّصّ المنتَج في أثر ذلك؟

وفي ضوء ما تقدَّم يتَّضح أنَّ تحدِّي القرآن الكريم بإعجازه البلاغيِّ لا يزال قائماً حتَّى اليوم، فيكون معجزةً حيَّةً لا يتوقَّف الإذعان بها على معلومات تاريخيَّة.

ولقد سعى فريق من أهل العلم إلى معارضة القرآن، وهو أمرٌ يتكرَّر كلَّ فترةٍ، إلَّا أنَّ أيَّ نصٍّ من هذه النُّصوص ـ رغم اقتفائها للنَّسق القرآنيِّ واقتباسها منه وسعيها في التَّماثل معه ـ لا يبلغ المستوى الأدبيّ المعتاد فضلاً عن أن يكون مضاهياً للقرآن الكريم، ومن ثَمَّ لا يُطرح على وجهٍ واسعٍ، ولا يكون محلَّ التفاتِ الأدباء المسلمين وغيرهم بحالٍ[1].

امتيازان للقرآن بحسب معطيات المقارنة: امتياز مطلق وامتياز تأسيسيّ

وفي ضوء ما تقدَّم ـ من المقارنات بين القرآن الكريم وسائر النُّصوص ـ يتَّضح

---

(١) وقد تعرَّض السَّيِّد المحقِّق الخوئيّ ﵀ في تفسير البيان لنموذجٍ من ذلك (يلاحظ: البيان في تفسير القرآن ص: ٩٤ وما بعدها).

امتياز القرآن الكريم وإعجازه من وجهين:

١ ـ الامتياز المطلق، ومعناه أنَّ هذا النَّصَّ قد بلغ في رقيِّه الأدبيّ والبلاغيّ إلى مستوى لا يستطيع الإنسان إيجاده، حتَّى لو استعان بهذا النَّصّ نفسه، وسعى إلى أن يخلق نصَّاً آخر يشبهه من خلال اقتفائه.

٢ ـ الامتياز التَّأسيسيّ، والمراد به أنَّ النَّصَّ القرآنيّ نمطٌ مؤسِّسٌ للنَّصِّ الأدبيِّ الدِّينيِّ، يختلف عمَّا سبقه من النُّصوص اختلافاً كبيراً، وبذلك يكون نصَّاً معجزاً.

وعلى هذا الوجه الثَّاني: لو قُدِّر أنَّ باستطاعةِ أحدٍ الإتيان بما يقاربه تعلُّماً منه، واقتفاءً طريقته، أو اقتباساً لجمله ومضامينه لم يكن في ذلك ما ينفي الإعجاز في النَّصِّ القرآنيّ.

وفي مقابل ذلك قد تُثار مقارنة القرآن الكريم بنصوصٍ أدبيَّةٍ رائعةٍ أخذت مأخذاً كبيراً في المجتمع الدِّينيّ، وتُلُقِّيت نصوصاً مميَّزةً في مضامينها وأدائها.

وهو ما سنتناوله في الكلام على البيان التَّفصيليّ.

هذا تمام الكلام حول البيان الإجماليّ لتميُّز النَّصِّ القرآنيّ في الأداء البلاغيّ.

البيان التفصيليّ
لبلاغة القرآن الكريم

حديث توضيحيّ عن بلاغة القرآن الكريم

وصف عامّ لحقيقة البلاغة ومقوِّماتها

وجه الحاجة إلى صياغةٍ أخّاذةٍ للكلام إذا كان مضمونه منطقيّاً

البلاغة ظاهرةٌ ميسَّرةٌ يمارسها كلُّ إنسانٍ حسب قدراته

ما تعنيه البلاغة من العناصر الكلاميَّة

العناصر البلاغيَّة منها عناصر معنويَّةٌ وأخرى لفظيَّة

انقسام الخصائص المعنويَّة للكلام إلى أسلوبيَّة ومضمونيَّة وفكريَّة

وصف العناصر اللَّفظيَّة والصَّوتيَّة المؤثِّرة في بلاغة الكلام

العناصر الصَّوتيَّة المؤثِّرة في بلاغة الكلمة بأنواعها

العناصر الصَّوتيَّة المؤثِّرة في بلاغة الجملة بأنواعها

العناصر الصَّوتيَّة المؤثِّرة في بلاغة الكلام بأنواعها

البيان التفصيليّ
لبلاغة القرآن الكريم

حديث توضيحيّ عن بلاغة القرآن الكريم

وأمَّا البيان التَّفصيليِّ الَّذي يتضمَّن شرح عناصر بلاغة القرآن: فينبغي التَّمهيد للقول فيه إلى نكتةٍ مهمَّةٍ، وهي أنَّ الحديث الفنِّيّ التَّوصيفيّ عن بلاغة الكلام ذو محدوديَّات عدَّة بالمقارنة مع الإدراك بالذَّوق الأدبيّ.

وذلك:

(**أوَّلاً**): أنَّ بعض العناصر البلاغيَّة ليس له ضابط محدَّد؛ لأنَّ العوامل الدَّخيلة فيه عناصر مركَّبة لا يمكن الضَّبط الفنِّيّ لها، ومن هذا الباب فصاحة الكلمة وجمالها، حيث صرَّح علماء البلاغة ـ بعد بيان انتقاض بعض المعايير الَّتي كان قد ذكرها بعضهم من قبل ـ بأنَّ المعيار الوحيد في فصاحة الكلمة هو الذَّوق الأدبيّ.

وكذلك الحال في المستوى البلاغيّ للكلام؛ فإنَّه قد لا يمكن تبيينه بمجرَّد التَّحليل والتَّوصيف، من جهة ظرافة بعض العوامل ودقَّتها، حتَّى أنَّ بعض الباحثين يصف بلاغة بعض الكلام بأنَّها ممَّا يدرَك ولا يوصَف.

و(**ثانياً**): أنَّ عمليَّة التَّوصيف الفنِّيّ للعناصر الدَّخيلة في بلاغة الكلام واكتشافها تكون أبطأ بكثير من الذَّوق الأدبيِّ الَّذي يوظِّف تلك العناصر توظيفاً عمليّاً، وينتج النُّصوص الأدبيَّة الرَّائعة.

ومن ثَمَّ نلاحظ أنَّ التَّوصيف الفنِّيّ الرَّاصد للعناصر المؤثِّرة في بلاغة الكلام ـ منذ

ابتدائه بشكلٍ واضحٍ على يد عبد القاهر الجرجانيّ في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ـ لا يزال في طور التَّكامُل والتَّحرِّي، فعلوم اللُّغة والأدب لا تزال تسعى في رصد مزيدٍ من الخصائص الفنِّيَّة للكلام، ممَّا يشعر بها الإنسان بذوقه على وجه الإجمال.

هذا، وتأخُّر حركة التَّوصيف عن الممارسة الوجدانيَّة ظاهرةٌ معروفةٌ في العلوم الَّتي هي من هذا القبيل.

و(**ثالثاً**): أنَّ المقاربات التَّوصيفيَّة التَّجريديَّة للعناصر الدَّخيلة في بلاغة الكلام لا قيمة لها ما لم يصدِّقها الذَّوق الأدبيّ الواضح، فهذه المقاربات دائماً تأتي في الرُّتبة اللَّاحقة للشُّعور الذَّوقيّ، وذلك في مقام تحليل هذا الشُّعور، واستبانة العوامل المثيرة له.

ومثل ذلك يجري في المقاربات التَّوصيفيَّة لعدم بلاغة الكلام؛ فإنَّه لا قيمة لها إذا لم تكن في الاتِّجاه الَّذي يشعر به الذَّوق الأدبيّ.

ومن ثَمَّ لوحظ في النَّقد الأدبيّ تعسُّف بعض النَّاقدين لبعض النُّصوص الأدبيَّة مثل بعض قصائد المتنبِّي.

وبعد اتِّضاح ذلك نوقع الكلام في جانبين:

الجانب الأوَّل: عامّ، حول حقيقة البلاغة ومقوِّماتها.

الجانب الثَّاني: خاصّ، في توضيح بلاغة القرآن الكريم.

وصف عامّ لحقيقة البلاغة ومقوِّماتها

إنَّ حقيقة بلاغة الكلام هو أن يكون الكلام بحسب صياغته نافذاً في الإيفاء بمقصد المتكلِّم من إنشائه، فالمتكلِّم حيث يخاطب آخر[1] فإنَّما يقصد بكلامه إقناع الآخر

(١) ذكر (المخاطب) في الحديث عن بلاغة الكلام إنَّما هو على سبيل التَّغليب؛ لأنَّ الكلام يؤدِّي دوراً في داخل الإنسان، حيث يعبِّر عن أحاسيسه، ويثير عواطفه كما في مقام حديث النَّفس، كما أنَّه يمكن أن

بما يذكره، وهذا الإقناع يعتمد على أمرين:

أوّلهما: جانب موضوعيّ، وهو اعتماده مبادئ فكريّة موضوعيّة وسليمة، وذلك لإقناع المخاطب بكون الكلام منطقيّاً ومقبولاً.

والآخر: جانب فنّيّ، وهو أداء تلك المبادئ على وجهٍ مثيرٍ لانتباه المخاطب، ومؤثّرٍ في نفسه ومشاعره، ومزيلٍ للعوائق النّفسيّة الّتي تحول دون الإذعان بها ـ حسب ما يقتضيه المقام ـ بالنّظر إلى حال المخاطب وذهنيّاته، والمجتمع المحيط به وسائر الأجواء والظّروف المحيطة بالكلام.

وهذا الأمر هو الّذي يوصَف الكلام بالنّظر إليه بالبلاغة أو خلافها.

إذن، بلاغة الكلام هي أن يكون هذا الأداء على وجهٍ مناسب.

ومن الجائز أن يستغني المتكلّم عن الأمر الأوّل فيما إذا لم يكن محقّاً في دعواه، فلا يتقيّد بكون مضمون الكلام موضوعيّاً ومنطقيّاً، ويعوّض عن ذلك باستعمال أدوات جدليّة وخطابيّة، ويسعى إلى أن يُوجِد من خلال صياغة الكلام جوّاً نفسيّاً يوجب قناعة المخاطب بالكلام، وأمّا إذا كان المتكلّم محقّاً وراشداً فإنّ صواب مضمون الكلام ورشده ركنٌ لا يُستغنى عنه في الإقناع.

كما قد لا يكون محلٌّ للأمر الثّاني إذا كانت إفادة المعنى على أيِّ وجهٍ كان كافيةً في إقناع المخاطب به.

يخاطب به الله سبحانه الّذي لا يكون صياغة الكلام سبيلاً للتّأثير عليه، ومن المعلوم أنّ الكلام في مقام حديث النّفس، أو مخاطبة الله سبحانه يتّصف بالبلاغة أيضاً، ولكنّنا ذكرنا المخاطب على وجه التّغليب.

وجه الحاجة إلى صياغةٍ أخَّاذةٍ للكلام إذا كان مضمونه منطقيّاً

وقد يسأل سائل: عن وجه الحاجة في الإقناع إلى الأمر الثَّاني ـ وهو صياغة الكلام على وجهٍ أخَّاذٍ ـ إذا كان المدَّعى صواباً وراشداً.

والجواب على الإجمال: أنَّ دخالة أسلوب الكلام وصياغته في الإقناع والقبول أمرٌ مشهود، كما نجد ذلك من أنفسنا في مقام تعليم التَّلاميذ والأولاد، وإقناع المختلفين في القضايا الأُسريَّة والاجتماعيَّة، فنحن نسعى لذكر مضامين راشدة وصحيحة، ونسعى أيضاً لأن نبيِّن ذلك بأسلوبٍ أخَّاذٍ كمّاً وكيفاً، وننتقي لذلك ما نجده مناسباً من أسلوب الإيجاز والإطناب، كما نختار ما يلائم الموقف من مستوى الصَّوت والظَّواهر الَّتي تعرضه من: الرِّقَّة، والغلظة، والارتفاع، والفصل والوصل بين الجمل، وغير ذلك، كما ننتفع بأدوات التَّأكيد، والتَّشبيه، والتَّعجُّب، والاستثناء، والاستدراك، والاستفهام، والتَّنبيه، والإنشاء، وغير ذلك، ونزيد على ذلك في مقام الحديث الحيّ بجعل الملامح، والحركات، ونبرة الصَّوت على وجهٍ مساعدٍ على الإقناع، فهذا الأمر واضح ومعروف على سبيل الإجمال.

وأمَّا توضيح الوجه في ذلك على سبيل التَّفصيل والتَّحليل فهو أنَّ الحاجة إلى ترتيب الصِّياغة المناسبة للفكرة هي من جهتين: هما التَّوضيح وجلب الانتباه الذِّهنيّ، ثُمَّ التَّأثير على المشاعر بما يساعد المرء على الإقناع.

أمَّا الحاجة إلى التَّوضيح وعناصر جلب الانتباه: فهو من جهة أنَّ عدم قناعة المخاطب بالمعنى الصَّائب كثيراً ما ينشأ عن الغموض والإبهام، وقلَّة التَّركيز، والرَّغبة عن الاستماع. وقد ينشأ عن حاجة الانتقال إلى صواب الموقف إلى شيءٍ من التَّأمُّل والتَّفكير واستنطاق الواقع، فإذا استطاع المتكلِّم إلقاء الفكرة بنحوٍ أخَّاذٍ أثار ذلك انتباه المخاطب ليركِّز على الكلام، أو يقف موقف المتأمِّل ولو في لحظةٍ، وينتقل بذلك إلى ما هو الصَّواب.

وأمَّا الحاجة إلى التَّأثير: فهي من وجهين:

(الأوَّل): أن تكون الحقيقة الَّتي يتضمَّنها الكلام محلَّ إذعانِ المخاطب مسبقاً، إلَّا أنَّها لا تملك في قلبه المكانة الَّتي ينبغي أن تكون لها فيه، ولا تُرتَّب عليها الآثار اللَّائقة، فيقصد المتكلِّم بكلامه التَّذكير بها، لأجل ترتيب الآثار اللَّائقة به، فيصوغ الكلام على وجهٍ يوجب وقع المعنى في نفس المخاطب، والتَّأثير على مشاعره، من قبيل إيجاد حالة الخوف والرَّجاء أو الانتظار، وغير ذلك حسب ما يناسب الحقيقة المفترضة.

(الآخر): أن يكون لدى المخاطب حواجز نفسيَّة عن الاطمئنان بالفكرة، فيسعى المتكلِّم إلى إزالتها، وهذه الحواجز على ضربين:

١ ـ وساوس تعرض في النَّفس الإنسانيَّة رغم الاقتناع المنطقيّ بالفكرة، من جهة غرابة الموضوع لديه، أو تهويل الآخرين ضدَّه، وقد وصف الله سبحانه سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفيَّة إحياء الموتى رغم إيمانه بذلك، قال تعالى[1]: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْـمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّـهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

٢ ـ مشاعر نفسيَّة تحول دون الاقتناع المنطقيِّ بالفكرة، كما في حال مصادمة الفكرة مع مقتضيات الأنانيَّة والأهواء والرَّغبات المسبقة، فيؤدِّي ذلك إلى ممانعة النَّفس من التَّصديق بها، والتَّشبُّث بالشُّبهات في مقابلها، كما قال تعالى[2]: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا**

(١) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٢) سورة النَّمل: ١٤.

أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْـمُفْسِدِينَ﴾، وقال سبحانه[١]: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّـهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

فالكلام البليغ والأخَّاذ الَّذي يقع على الوتر الحسَّاس لدى المخاطب قد يستطيع أن يثير هذا الوتر، فيعالج الوسوسة ويرسِّخ الإيمان، أو يكسر بقوَّته واندفاعه سَوْرَة الأنانيَّة وفورة الهوى، ويؤدِّي إلى خضوع المخاطب للحقِّ.

نعم، إنَّ من الوساوس في القلوب الضَّعيفة، والأنانيَّة في القلوب القاسية ما لا يتعالج ببلاغة الكلام، وقد قال تعالى[٢]: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْـحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّـهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، وقال سبحانه[٣]: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْـحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

البلاغة ظاهرةٌ ميسَّرةٌ يمارسها كلُّ إنسانٍ حسب قدراته

ويلاحَظ أنَّ البلاغة هي ظاهرةٌ ميسَّرةٌ، وهي أنَّ كلَّ إنسانٍ في الحقيقة كائنٌ بليغٌ

(١) سورة الجاثية: ٣١ ـ ٣٢.

(٢) سورة الحجّ: ٥٣ ـ ٥٥.

(٣) سورة المائدة: ٨٢ ـ ٨٣.

بالذَّات، بمعنى أنَّه بفطرته يسعى إلى سَوق مواقفه وكلامه على وجهٍ مؤثِّرٍ في الآخرين، فإذا تأمَّلت كلام أحدنا في عامَّة مخاطباته جيِّداً تجد أنَّ اختيار مستوى الصَّوت، ومقدار الكلام كمّاً ـ من حيث الإيجاز والإطناب ـ والأدوات المستخدمة في كيفيَّة صياغته ـ من استفهامٍ، وتعجُّبٍ، وإنكارٍ، وترديدٍ، وغير ذلك ـ قد رُوعي فيه كلِّه أن يكون على نحوٍ يتوقَّع الإنسان بارتكازه أنَّه يكون مناسباً وأكثر تأثيراً في المخاطب.

نعم، قد يخطأ الإنسان في تشخيص حال المخاطب وأجواء الكلام فلا يكون ما يورده مناسباً، وقد لا يكون متمكِّناً من أدوات التَّعبير بشكلٍ تطاوعه كما يريد، وقد يُصاب بالانفعال فيخرج عن مقتضيات البلاغة في الأداء.

لكنَّ أصل إدراك بلاغة الكلام والسَّعي إلى ممارستها والاستجابة لها حالةٌ فطريَّةٌ عامَّة.

والسِّرُّ في ذلك: أنَّ تحرِّي الكلام البليغ يعتمد على دعامتين:

١ـ قاعدة (ضرورة تطابق الهدف والوسيلة)، والمراد بها أنَّه ينبغي اختيار الوسيلة المناسبة للهدف المنظور، فلا يصحُّ التَّوسُّل بكلِّ شيءٍ إلى كلِّ شيءٍ، وهذه قاعدةٌ فطريَّةٌ وبديهيَّةٌ.

٢ـ معرفة الوسيلة المناسبة للوصول إلى الهدف، وهو الكلام، حيث إنَّ من الممكن للإنسان التَّكلُّم على وجوهٍ مختلفةٍ في مقام الإقناع بفكرةٍ ما، وهذا أمر يجده الإنسان معرفةً ضروريَّةً من خلال الممارسة والمحادثة، حتَّى أنَّ الطِّفل يشعر مبكِّراً بما يؤثِّر في استجابة والديه لطلبه من: بكاءٍ، وصُراخٍ، وتصرُّفاتٍ، وأقوال على ما هو مشهودٌ خارجاً، ومن ثَمَّ فإنَّ الإنسان يسعى سعياً ارتكازيّاً في كلامه إلى الحديث على الوجه المناسب.

ما تعنيه البلاغة من العناصر الكلاميَّة

يبقى الكلام فيما تعنيه البلاغة من العناصر المتمثِّلة في الكلام، وذلك أنَّنا عندما نقول: (بلاغة الكلام) فإنَّنا نشير إلى تصنيف عناصر الكلام إلى صنفين:

(الأوَّل): عناصر أصليَّة، وهي عناصر ضروريَّةٌ في أصل نقل المعلومة إلى الآخر؛ لأنَّها تمثِّل المعنى الَّذي يسعى إلى إقناع المخاطب به وبمراعاته.

و**(الآخر)**: عناصر إضافيَّة، ليست ضروريَّةً في أصل أداء المعلومة، وإنَّما هي دخيلةٌ في التَّأثير على نفس المخاطب ومشاعره في اتِّجاه التَّأثُّر بالكلام والاستجابة النَّفسيَّة له، وهذا القسم هو ما يقوِّم بلاغة الكلام.

العناصر البلاغيَّة: منها عناصر معنويَّةٌ وأخرى لفظيَّة

وحينئذٍ يقع الكلام في تحديد العناصر البلاغيَّة، فما هي طبيعة هذه العناصر وحدودها؟

وربَّما يُظَنُّ أنَّ العناصر البلاغيَّة هي عناصر لفظيَّة تؤدِّي إلى جمال الكلام وتزويقه فحسب.

ولكنَّ الواقع أنَّ العناصر البلاغيَّة تشمل مطلق العناصر الفنِّيَّة المتمثِّلة في الكلام، فالبلاغة هي من مقولة الفنّ، والكلام البليغ هو الكلام المشتمل على الأدوات الفنِّيَّة القوليَّة الَّتي تؤثِّر في إدراكات الإنسان ومشاعره وأحاسيسه.

وعليه: فإنَّ البلاغة تشمل كلَّ العناصر الَّتي تكون دخيلةً في حسن أداء المقصد والمراد، وهي على نوعين رئيسيِّين: خصائص معنويَّة، وخصائص لفظيَّة وصوتيَّة.

الخصائص المعنويَّة للكلام: أسلوبيَّة ومضمونيَّة وفكريَّة

أمَّا الخصائص المعنويَّة: فهي على أقسام ثلاثة: أسلوبيَّة، ومضمونيَّة، وفكريَّة.

أمَّا العناصر الأسلوبيَّة: فالمراد بها انتقاء المفردة اللُّغويَّة المناسبة من حيث نفسها

وإيحاءاتها؛ فإنَّ للأشياء تداعيات نفسيَّة مختلفة في النَّفس الإنسانيَّة، والألفاظ المعبِّرة عنها تمثُّلها من خلال زاويةٍ من زواياها، وبذلك يكون شأن المتكلِّم البليغ اختيار اللَّفظ المناسب من خلال الزَّاوية الَّتي ينظر إليها.

وكذلك صياغة الجملة على وجهٍ مؤثِّرٍ من خلال الأدوات المتعدِّدة والخيارات المختلفة في مقام التَّعبير، مثل التَّأكيد، والاستدراك، والإعراض، والاستفهام، والتَّشبيه، والإخبار على ما ذُكر في علوم البلاغة.

وأمَّا العناصر المضمونيَّة: فهي ذلك القسم من مضمون الكلام الَّذي يكون في حكم صياغة الكلام من حيث كونه جزءاً غير دخيل في رسم أصل مقصود المتكلِّم، وإنَّما هو إضافاتٌ تُستخدم كعوامل بلاغيَّة لإثارة الانتباه والتَّركيز على النُّقاط الهامَّة، وتحريك مشاعر المخاطَب في اتِّجاه الاقتناع بالكلام، والتَّأثُّر به من قبيل حكاية قصَّةٍ أو ذكر مثالٍ، إلى غير ذلك، فهذا القسم من مضمون الكلام أيضاً يدخل في بلاغة الكلام.

وأمَّا العناصر الفكريَّة: فهي متعدِّدةٌ من قبيل: الارتقاء بطرح المعلومة إلى أُفقٍ أعلى ليشمل المورد، واستنطاق الواقع المعاش عن المعلومة الَّتي يُراد إقناع المخاطب بها حتَّى يتحسَّسها في داخله، والتَّنبيه على العواقب واللَّوازم والملزومات، وتطعيم الكلام بمضامين حِكَميَّة يستبدهها العقل، ووجدانيَّة تلامس الضَّمير الإنسانيِّ، فهذه العناصر وأمثالها تؤدِّي إلى اكتساب الكلام قوَّةً وتأثيراً مضاعفاً.

فإذا اقترحت ـ مثلاً ـ على عدَّة أشخاص أن يكتبوا في دلالة الكون والكائنات على وجود الله سبحانه، فقد حدَّدت لهم المقصد، وبذلك تتحدَّد نوع المعلومات الَّتي يمكن إيرادها، لكن يبقى مدى القدرة الفنِّيَّة لهؤلاء على رسم لوحةٍ جميلةٍ ومناسبةٍ وأخَّاذةٍ بالنُّفوس من خلال المفردات الملائمة، وأدوات الانتقال، والارتقاء بالمشهد.

ومن ثَمَّ نستطيع أن نعتبر المقاطع القرآنيَّة الَّتي تصف الأدلَّة على وجود الله سبحانه غايةً في الجمال والرَّوعة والبلاغة، ولا يرتقي إليها أيُّ نصٍّ توخَّى هذا المقصد بالنَّظر إلى مجموع الجهات، كما في الآيات المتقدِّمة من سورة الرَّعد.

وهكذا نلاحظ: أنَّ البلاغة لا تتمثَّل في الجوانب الأسلوبيَّة المحضة، بل تشمل كلَّ العناصر الَّتي تكون دخيلةً في حسن أداء الفكرة المقصودة لإقناع المخاطَب.

وهذا المعنى من البلاغة هو الَّذي قصده الشَّريف الرَّضيّ عندما عبَّر عن مجموع كلمات الإمام عليّ ﷺ بـ(نهج البلاغة)، فهو لا يريد بالبلاغة الجانب اللَّفظيِّ في أداء المعاني، بل يريد اشتمال الكلام في أداء المقصد المنظور على الحكمة المناسبة، والأفق العالي، وقرن الأشياء بمماثلاتها، واختيار المفردات المنتقاة والمميَّزة الَّتي تحتوي على إيحاءاتٍ نفسيَّةٍ مساعدةٍ تترك ظلالاً على نفسيَّة المخاطب والقارئ.

هذا كلُّه حول العناصر البلاغيَّة المعنويَّة.

وصف العناصر اللَّفظيَّة والصَّوتيَّة المؤثِّرة في بلاغة الكلام

وأمَّا العناصر اللَّفظيَّة والصَّوتيَّة: فهي الأخرى دخيلة في حسن الكلام؛ فإنَّ للإنسان ذوقاً تجاه الأصوات تبعاً لنوع المشاعر الَّتي تثيرها في الإنسان من الإثارة والهيجان، أو الهدوء والطَّمأنينة، أو الميل والرَّغبة وغيرها، وبذلك يتعلَّق اهتمام الإنسان بالألحان والأنغام منذ عمق التَّاريخ البشريّ.

على أنَّ الخصائص الصَّوتيَّة قد تتلاقح مع الخصائص المعنويَّة بما يخلق في الإنسان إيحاءات معيَّنة قد تكون حالاتٍ مؤكَّدة من إيحاءات اللَّفظ أو إيحاءات المعنى، وقد تكون حالاتٍ مختلفة بأن يولِّد تلاقح تلك الإيحاءات جدحات إيحائيَّة مختلفة وجديدة.

والعناصر الصَّوتيَّة الفنِّيَّة الَّتي توجب بلاغة الكلام يمكن أن تكون في أحد مراكز

ثلاثة، وهي: الكلمة، والجملة، والكلام.

العناصر الصَّوتيَّة المؤثِّرة في بلاغة الكلمة بأنواعها

فـ(**المركز الأوَّل**): الكلمة المنتقاة؛ لأنَّ الكلمات المفردة تختلف في مزاياها الصَّوتيَّة.

وتنشأ هذه المزايا عن أحد منشأين:

١ ـ طبيعة الحروف والحركات الَّتي تتألَّف الكلمة منها، وتفاعل هذه الحروف والحركات فيما بينها، وما ينتج منها من وزنٍ للكلمة، فذلك كلُّه يجعل الكلمات مختلفةً في صفاتها من: جمالٍ، وروعةٍ، وسهولةٍ، وفخامةٍ، ولطفٍ، ورقَّةٍ، وغير ذلك. وهذه الصِّفات بدورها تساعد على نوع الاستجابة للكلام من انسجامٍ، أو إثارةٍ بأنواعها.

وهذا أمرٌ يدركه المرء بالذَّوق وليس له عناصر منضبطة يمكن تحديدها.

٢ ـ الأصول الصَّوتيَّة للكلمة؛ وذلك لأنَّ كثيراً من الكلمات اللُّغويَّة في الأصل كانت أصواتاً صادرة من الذَّوات، أو مقترنةً بالأفعال، ثُمَّ استُخدمت كرموزٍ دالَّةٍ على تلك الذَّوات والأفعال، كما تهدي إليه الأبحاث اللُّغويَّة.

وعليه: فإنَّ هذه الكلمات تعبِّر عن تلك المعاني تعبيراً عميقاً، منسجماً معها انسجاماً يوجب جمال التَّعبير.

ثُمَّ إنَّ المزايا اللَّفظيَّة والصَّوتيَّة على ضربين:

١ ـ ما يوجب الجمال اللَّفظيّ للكلمة فحسب.

ولعلَّ من أمثلة ذلك لطف كلمة (سُجَّد)، فهي ـ فيما أشعر به وأجده ـ أجمل من كلمة (سجود) جمعاً لـ(ساجد)، وقد تتبَّعت استعمالهما في القرآن الكريم فوجدت تفضيلها فعلاً، حيث استُعملت في أحد عشر موضعاً كقوله تعالى[1]: ﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَـنِ**

---

(١) سورة مريم: ٥٨.

خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، بينما لم يُستعمل السُّجود إلَّا في موضعين لاعتباراتٍ خاصَّةٍ، من قبيل اقتضاء فواصل الآيات، كقوله تعالى[١]: ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾.

٢ ـ ومن المزايا الصَّوتيَّة ما لا يمثِّل جمالاً صوتيَّاً محضاً، بل يوجب مزيةً في إراءة المعنى، على وجوهٍ مختلفة:

أ ـ فمن هذه المزايا ما تمثِّل قابليَّةً في لفظ الكلمة للنَّفخ في معنى الكلام بالاتِّجاه الَّذي يعطيه الكلام، نظير ما ذكره علماء البلاغة من أنَّ التَّنوين قد يكون للتَّفخيم، مثل تنوين (نبأ) في قوله تعالى[٢]: ﴿**وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾، وقد يكون للتَّحقير مثل: (مررت بلئيمٍ فسبَّني)؛ وذلك أنَّ الواقع أنَّ التَّنوين ينفخ في الكلام في الاتِّجاه الَّذي يتمثَّل فيه من تهويلٍ أو تفخيمٍ، وكلمة (نبأ) بنفسها تفيد كون المخبر به عظيماً، فإنَّه ليس بمعنى مطلق الخبر في اللُّغة، بل الخبر المهمّ، كما أنَّ كلمة (لئيم) تفيد كون السَّابِّ حقيراً، ولكنَّ التَّنوين ينفخ في هذا الاتِّجاه.

وعليه: فإنَّ الإيحاءات الصَّوتيَّة للكلمة يمكن أن تُستخدم كآلةٍ للنَّفخ في المعنى المستفاد من المفردة أو الكلام ولو بأن يُنطَق بها بنبرةٍ مناسبةٍ لذلك.

ب ـ ومن المزايا الصَّوتيَّة ما ينشأ عن الأصل الصَّوتيِّ للكلمات، حيث تقدَّم أنَّ لكثيرٍ من الكلمات أصولاً صوتيَّة، فهذه الكلمات تبقى قابلةً لاستثارة الجانب الصَّوتيِّ فيها بما يؤدِّي إلى مزيدٍ من الدَّعم لمعنى الكلمة، وتقوية إيحاءاتها لتُحقِّقَ إشباعاً في الإحساس بمعناها، وتزيد بذلك من بلاغتها.

---

(١) سورة الحجّ: ٢٦.

(٢) سورة النَّمل: ٢٢.

فكلمة (هيهات) يُرجَّح أن تكون في الأصل صوتاً يخرج عند استبعاد شيءٍ، ثُمَّ تُرجم إلى هذا اللَّفظ. وكلمة التَّشويش تعبيرٌ عن صوتٍ تُرجم إلى (الوشوشة) يصلح أن يعبِّر عن إعاقة سماع صوت آخر، وهكذا.

جـ ـ ومن المزايا الصَّوتيَّة في الكلمة ما يجعلها أكفأ في تمثيل المعنى وتعبيرها عن بعض ملامحه، كما أنَّ اللَّفظ الشَّديد ـ مثلاً ـ أوفى تصويراً للمعنى الشَّديد، وأولى بالاختيار في مقام التَّركيز على شدَّته، وهكذا اللَّفظ السَّهل الرَّقيق أوفى تعبيراً عن المعنى الرَّقيق، واللَّفظ المتنافر الحروف أوفى تعبيراً عن المعنى القبيح؛ ومن ثَمَّ تجد أنَّ كلمة (ضيزى) في قوله تعالى[1]: ﴿**أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى**﴾، مشبعةٌ بإيحاءات الاستقباح والاستنكار من حيث إيحاءاتها الصَّوتيَّة.

العناصر الصَّوتيَّة المؤثِّرة في بلاغة الجملة بأنواعها

(**المركز الثَّاني**): ـ للمزايا الصَّوتيَّة ـ هي الجملة، والمراد بذلك أن يكون التقاء كلمتين أو أكثر محقِّقاً لمزيةٍ إضافيَّة.

وتتحقَّق هذه المزية على وجهين: جليّ وغامض.

والمراد بـ(الجليّ): ما يحقِّق موازنةً أو تماثلاً في آخر كلمتين داخل الجملة ـ على حدِّ ما يقع في السَّجع ـ مثل اختيار (الباقيات) على (البواقي) في قوله سبحانه[2]: ﴿**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا**﴾، واختيار (أشدَّاء) دون (شداد) في قوله تعالى[3]: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾، فـ(الباقيات)

---

(١) سورة النَّجم: ٢١ ـ ٢٢.

(٢) سورة مريم: ٧٦.

(٣) سورة الفتح: ٢٩.

و(الصَّالحات) متماثلتان وزناً؛ لكونهما على وزن (فاعلات)، كما تتماثلان في كون آخرهما ألفاً وتاءً. و(أشدَّاء) و(رحماء) متشابهان في الوزن(١) وفي كون آخرهما ألفاً وهمزة.

والمراد بـ(الغامض): ما لا يمكن تجسيده في ضابطٍ محدَّدٍ، ولكنَّه تناسبٌ صوتيٌّ يدركه الإنسان بذوقه، فالغموض فيه غموضٌ فنِّيٌّ وليس ذوقيَّاً.

نعم، قد يحتاج إدراكه إلى ذوقٍ راقٍ، وهذا على أنواع:

أ ـ فقد يكون ذكر كلمةٍ في أوَّل الجملة موجباً لجمال الجملة من حيث مناسبة الكلمة صوتيَّاً لهذا الموقع، أو من حيث اكتساب الجملة بذلك وزناً مناسباً، ومن ثَمَّ نجد أنَّ استعمال (ذلك) في مستهلِّ قوله تعالى(٢): ﴿**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ ألطف من استعمال كلمة (هذا) أو كلمة (ذاك)، وذلك بغضِّ النَّظر عن الجانب المعنويِّ الَّذي يمكن أن تختلف فيه هذه الكلمات الثَّلاث بعض الشَّيء، وهو جانب غير مهمٍّ ـ فيما أراه ـ في هذا الموضع، وقد أُشير إلى الكتاب مكرَّراً بلفظة (هذا)، فـ(ذلك) صوتيَّاً أنسب بأن يكون متَّكأً للجملة في أوَّلها.

ب ـ وقد يكون ذكر الكلمة في نهاية الجملة موجباً لجمالها من حيث مناسبتها صوتيَّاً لهذا الموقع، أو اكتساب الجملة بذلك وزناً مناسباً، ومن ثَمَّ نجد أنَّ استعمال كلمة (السُّجود) ـ في جمع (ساجد) ـ أجمل من استعمال كلمة (السُّجَّد) في قوله تعالى(٣): ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾. وهذا رغم أنَّ القرآن الكريم رجَّح استعمال كلمة (سُجَّد) في غير فواصل الآيات ـ كما مرَّ ـ وهو ما يشير إلى أنَّها في حدِّ نفسها أجمل من

---

(١) لأنَّهما على التَّرتيب على وزن (أفعلاء) و(فعلاء) فهما يشتركان في (علاء).

(٢) سورة البقرة: ٢.

(٣) سورة الحجّ: ٢٦.

السُّجود بالمنظور الصَّوتيِّ، ورغم أنَّ كلمة (سُجَّد) في الآية كانت تحقِّق تماثلاً مع كلمة (رُكَّع)، ولكن استعمال كلمة السُّجود في هذا الموضع كان أجمل من جهة الضَّمَّة الطويلة فيما قبل آخرها، وهذا بغضِّ النَّظر عن أنَّها تحقِّق تماثلاً بين آخر هذه الآية والآيات الأخرى المرافقة لها.

ومن هذا الباب جمال ختم البسملة بـ(الرَّحيم) دون (الرَّحمن)، حيث قيل: (بسم الله الرَّحمن الرَّحيم)، ولم يقل: (بسم الله الرَّحيم الرَّحمن)، فإنَّ كلمة (الرَّحيم) ـ بما تتضمَّنه من الكسرة الطَّويلة قبل آخرها ـ أنسب من كلمة (الرَّحمن) بما تتضمَّنه من الألف، فـ(الرَّحيم) هنا يحقِّق تسلسلاً صوتيَّاً لا يحقِّقه (الرَّحمن).

جـ ـ وقد يكون من المناسب صوتيَّاً التصاقُ كلمةٍ بأخرى دون فصلٍ بالحرف العاطف، كما هو المحسوس بالذَّوق في الآية المتقدِّمة، حيث قالت: (الرُّكَّع السُّجود)، ولم تقل: (الرُّكَّع والسُّجود)، فالجملة بدون العطف أجمل وأوزن منها مع العطف، وقد يتَّفق العكس كما في عطف (الرُّكَّع) على القائمين بالواو؛ فإنَّه أجمل ممَّا لو قيل: (القائمين الرُّكَّع السُّجود)، فالقيام والرُّكوع والسُّجود أجزاء ثلاثة من الصَّلاة، ويصلح السُّجود منها عبادةً مستقلَّةً، كما يصلح القيام أن يكون عبادةً مع الذِّكر والدُّعاء حاله. ولكن مع ذلك كان الفصل والوصل بينها بالنَّحو المذكور في الآية أجمل.

العناصر الصَّوتيَّة المؤثِّرة في بلاغة الكلام بأنواعها

(المركز الثَّالث): ـ للمزايا الصَّوتيَّة ـ هو الكلام التَّامّ، والمراد بذلك أن يكون التقاء جملتين أو أكثر محقِّقاً لمزيةٍ إضافيَّةٍ.

وهو على نحوين:

(الأوَّل): تطابق الجملتين أو الفقرتين المؤلَّفتين من جملتين أو أزيد في بعض

الحروف، وأشهر أنواعه تطابقهما في الحرف الأخير منهما، وهو ما يُعرف في النَّثر بـ(السَّجع)، وفي الشِّعر بـ(القافية).

(الآخر): تطابق الجملتين أو الفقرتين في الوزن، كما يتحقَّق في الأوزان المعروفة من الشِّعر، حيث إنَّ صدره وذيله يتطابقان في الوزن(١)، كما أنَّ الأبيات التَّالية تطابق البيت الأوَّل في وزنه. وكذلك قد يتحقَّق التَّطابق بين الجملتين في الوزن في الكلام النَّثريّ، وقد يكفي التَّشابه والتَّناسب في الوزن في إعطاء ضربٍ من الجمال للكلام.

ولا شكَّ أنَّ لوزن الكلام دخلاً كبيراً في بلاغته ونفوذه وتأثيره على المخاطب.

هذه نبذةٌ عن البلاغة ومقوِّماتها، والعناصر الدَّخيلة فيها بمقدار ما يسعه هذا البحث.

فهذا هو الجانب العامّ من البحث حول بلاغة القرآن الكريم.

---

(١) وهناك في أوزان المولّدين ما يكون العجز فيه أقصر من الصَّدر كما في الزَّجل، أو العكس كما في بعض أوزان الموشَّحات، وهو أمر مقبول بحسب الذَّوق.

توصيف بلاغة القرآن الكريم

البُعد اللَّفظيّ والصَّوتيّ في بلاغة القرآن

بلاغة المفردة القرآنيَّة

بلاغة الجملة القرآنيَّة

براعة التَّقطيع القرآنيّ إلى آيات

البُعد المعنويّ لبلاغة القرآن الكريم وأساليبه المميِّزة

أسلوب القرآن في إلقاء صبغةٍ ربَّانيَّةٍ على مشهد الوجود

أسلوب القرآن في إلقاء صبغةٍ عقليَّةٍ وحِكَميَّةٍ وأخلاقيَّةٍ على الوجود

أسلوب القرآن الكريم في الابتداء بالسُّورة

أسلوب القرآن الكريم في المدخل الَّذي يدخل من خلاله إلى الموضوع

أسلوب القرآن الكريم في الانتقال من فكرةٍ إلى أخرى

أسلوب القرآن الكريم في إنهاء السُّورة أو الكلام

أسلوب القرآن الكريم في تأكيد المعنى

أسلوب القرآن الكريم في التَّهويل

أسلوب القرآن الكريم في الاستنطاق

أسلوب القرآن الكريم في إثارة التَّأمُّل الـمَثَليّ للأشياء

أسلوب القرآن الكريم في استحضار الماضي والمستقبل

مقارنات معاكسة بين النَّصّ القرآنيّ ونصوص أخرى مميَّزة

كون القرآن هو النَّصّ المؤسِّس المؤثِّر في سائر النُّصوص المعنويَّة

مثال طريف لاتِّباع أسلوب القرآن في عدم مخاطبة الله تعالى بصيغة الجمع

بلاغة القرآن الكريم

توصيف بلاغة القرآن الكريم

(الجانب الثَّاني): ـ وهو الجانب الخاصُّ ـ حول توصيف بلاغة القرآن الكريم.

قد ذكرنا من قبل أنَّ التَّعويل الأوَّل في الحكم ببلاغة الكلام ومستواه هو الذَّوق الرَّفيع الَّذي يعتمد في أصله على موهبةٍ فطريَّةٍ، وفي نموِّه على تفعيل هذه الموهبة من خلال التَّأمُّل والممارسة والمقارنة، ليكوِّنَ في أثر ذلك حسَّاً مرهفاً يتحسَّس المزايا البلاغيَّة للكلام.

ولكنَّ البحث التَّوصيفيّ الفنِّيّ يمكن أن يُحلِّل مجموعةً من النُّكات المؤثِّرة بحكم الذَّوق الأدبيّ.

وإذا لاحظنا القرآن الكريم من هذا المنظور نجد امتياز هذا النَّصِّ في مستواه البلاغيِّ من حيث جميع العناصر الدَّخيلة في بلاغة الكلام، سواء العناصر اللَّفظيَّة بمراكزها الثَّلاثة ـ من الكلمة والجملة والكلام ـ، أم العناصر المعنويَّة بأنواعها الثَّلاثة ـ من الأسلوبيَّة والمضمونيَّة والفكريَّة ـ.

إنَّ المفردات والأساليب الَّتي استعملها القرآن الكريم هي على العموم معهودة في اللُّغة ـ كما هو الحال في سائر النُّصوص البليغة في اللُّغة العربيَّة وغيرها ـ ولكن تتمثَّل براعة النَّصِّ في الاستخدام المتميِّز لها.

وذلك: أنَّ استعمال المفردات والأساليب يمكن أن يكون على مستويين:

١ ـ المستوى الاعتياديّ، والَّذي يمارسه عامَّةُ النَّاس.

٢ ـ المستوى المتميِّز، وهو الَّذي يحتاج إلى مقدرة فنِّيَّة إضافيَّة.

وللمستوى المتميِّز بدوره درجاتٌ بعضها فوق بعض.

ومن المعقول أن يبلغ التَّميُّز إلى درجةٍ لا يمكن للآخرين مجاراته، وهو المستوى الَّذي بلغه القرآن الكريم.

ولا عجب أن يكون القرآن معتمداً على اللُّغة المعهودة وأساليبها ومع ذلك يكون نصَّاً متميِّزاً وفريداً، كما هو الحال في سائر النُّصوص المتميِّزة في اللُّغة كالخُطَب البليغة والقصائد الرَّائعة، فهذه النُّصوص تعتمد على مفردات اللُّغة وأساليبها، ولكن تبلغ في حسن استخدامها مستوىً لا يستطيع عامَّةُ النَّاس من البلوغ إليه.

ولا يبعد أن تكون الحروف المقطَّعة في أوَّل السُّور القرآنيَّة إشارةً إلى أنَّ القرآن الكريم يتألَّف من هذه الحروف نفسها، ولكنَّه مع ذلك بلغ غايةً لا ندركها، فتكون إشارةً إلى التَّحدِّي البلاغيِّ بالقرآن الكريم(١).

---

(١) ووجه قرب هذا الوجه في تفسيرها أنَّه يمتاز بجعل استخدام هذه الحروف استخداماً مفهوماً لعامَّة النَّاس؛ إذ سائر الوجوه تفترض أنَّها من قبيل الرُّموز المحضة غير المفهومة للنَّاس، وليس من طريقة القرآن الكريم استعمال الرُّموز والألغاز، وأنَّ القرآن الكريم قد نزل للنَّاس عامَّةً، وخاطبهم مباشرةً، ووصف نفسه بأنَّه هدىً وبيانٌ للنَّاس، فالنَّاس مخاطبون بهذه الحروف كسائر خطابات القرآن الكريم، ولا يوجد معنىً يمكن تفهيمهم إيَّاه عدا هذا المعنى، يُضاف إلى ذلك أنَّه لو لم يكن لهذه الحروف معنىً مفهوم لاعترض المشركون وأهل الكتاب بأنَّهم لا يفهمون معنى هذه الحروف وجدواها، كما جاء في القرآن الكريم أنَّهم كانوا يثيرون الشُّبهة حول بعض الأمثال القرآنيَّة، ويسألون عن جدواها، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّـهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾** (سورة البقرة: ٢٦).

وأيضاً جاء أنَّ بعضهم تساءل عمَّا يُراد بـ(الرَّحمن)، كما قال تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَـهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَـٰنِ**

ولا عجب أيضاً في أن يدرك الإنسان التَّميُّز في مستوىً لا يستطيع هو إيجاده؛ لأنَّ إيجادَ النَّصِّ المتميِّز فنٌّ وليس علماً محضاً، وكم من شيءٍ نشعر بتميُّزه ولكنّا لا نستطيع إيجاد مثله، فكثير منّا يدرك حسن الخط رغم أنَّه لا يستطيع أن يكتب مثله، بل جُلُّ ما نجد له روعةً وجمالاً وتميُّزاً لا نستطيع ممارسة إيجاده كما هو واضح.

وأيّاً كان: فما نذكره في توصيف بلاغة القرآن الكريم من الجوانب المعنويَّة إنَّما هو منبِّهٌ لَمن يمتلك الذَّوق الأدبيّ فحسب، وليس حجَّةً برهانيَّةً على حدِّ البراهين الرِّياضيَّة والهندسيَّة؛ لأنَّ طبيعة الأمور الأدبيَّة أن لا تقبل البرهنة على هذا النَّحو، وإنَّما تُرصَد بالذَّوق الفنِّيِّ والأدبيِّ، فمَن تعامل معها كبرهانٍ عاد البحث معه إلى جدالٍ عقيم.

البُعد اللَّفظيّ والصَّوتيّ في بلاغة القرآن

أمّا عن البُعد اللَّفظيّ والصَّوتيّ: فهو بعد مهمٌّ جدّاً في بلاغة القرآن الكريم.

ويتَّضح ذلك جيِّداً فيما إذا قارنّا بين الآية وبين ترجمتها أو شرحها أو ما يقاربها معنىً، فلو قارنّا ـ مثلاً ـ بين قوله تعالى[1]: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، وبين قولنا: (الثَّناء لله الَّذي ربَّى الخلق جميعاً)، أو قارنّا بين قوله تعالى[2]: ﴿**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾، وبين قولنا: (هذا الكتاب ممَّا لا شكَّ فيه، إرشادٌ لأهل التَّقوى).

إنَّ مثل هذه المقارنات يوضح أنَّ حجماً كبيراً من روعة الكلام القرآنيّ يرتبط بصياغته، فالصِّياغة القرآنيّة هي صياغةٌ بارعةٌ وجميلةٌ وجذّابة، وهذه الصِّياغة تتمثَّل في كلِّ

قَالُوا وَمَا الرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٠).

وهذا الاعتراض لم يحصل في الحروف المقطَّعة؛ إذ لو حصل لحُكي في التَّاريخ، وذُكر دحضه في القرآن على الأغلب، كما تطرَّق لسائر الشُّبهات الَّتي كان يثيرها المشركون في مكَّة والمنافقون في المدينة.

(١) سورة الفاتحة: ٢.

(٢) سورة البقرة: ٢.

من الكلمة المفردة والجملة ومجموع الكلام.

بلاغة المفردة القرآنيَّة

فالمفردات: اختيرت في النَّصِّ القرآنيِّ بدقَّة بالمقارنة مع البدائل المحتملة والخيارات الواردة، ولا شكَّ في أنَّ جانباً كبيراً من هذا الانتقاء ينظر إلى ترجيحات معنويَّة للمفردة المختارة، إلَّا أنَّ جانباً غير قليلٍ منه أيضاً ينظر إلى ترجيحات لفظيَّة وصوتيَّة، والملحوظ من خلال الاستقراء التقاء المرجِّحات اللَّفظيَّة والمعنويَّة ـ نوعاً ـ في المفردات المختارة في القرآن الكريم، ولكن مع ذلك نستطيع رصد موارد يكون النَّظر فيها إلى المرجِّحات اللَّفظيَّة ظاهراً، كما هو الحال في ترجيح بعض جموع الكلمة الواحدة على بعضٍ، نظير ما تقدَّم من ترجيح استعمال (سُجَّد) في جمع (ساجد) على (سجود).

لقد كان المذاق القرآنيّ اختيار المفردات السَّهلة ذات الإيقاع الجميل، حتَّى أصبح النَّصُّ القرآنيّ من قبيل السَّهل الممتنع، وهو بذلك يخالف منهج بعض الأدباء المنشئين للنُّصوص الأدبيَّة في اختيار ألفاظ وحشيَّة وغريبة وغير مأنوسة ذات خصائص صوتيَّة ملفتة، باعتقاد أنَّ الإلفات ـ ولو من خلال هذا الأسلوب ـ يمثِّل امتيازاً بلاغيَّاً.

بلاغة الجملة القرآنيَّة

وأمَّا الجمل: ـ ونعني بها ما يشمل الآية الواحدة كاملة ـ فقد لوحظ فيها أيضاً أن تكون الانتقالات الصَّوتيَّة من كلمةٍ إلى أخرى ـ خلالها ـ انتقالاتٍ سلسة، لا يشعر المخاطب فيها والقارئ بتوقُّفٍ أو ثقلٍ، بل تجري على اللِّسان جرياً سهلاً ولطيفاً، ورغم أنَّ ترتيب الكلمات في الجملة جاء وفق الاعتبارات البلاغيَّة المعنويَّة، إلَّا أنَّ الجانب اللَّفظيّ والصَّوتيّ أيضاً رُوعي في نفس الحال.

براعة التَّقطيع القرآنيّ إلى آيات

وأمَّا الكلام: فالمراد به هنا السُّورة الكاملة ـ ذات الموضوع الواحد ـ أو الفقرة الواحدة المتعلِّقة بموضوعٍ واحدٍ في السُّور الطَّويلة الَّتي نزلت على مراحل متعدِّدة، وتتشكَّل بذلك من عدَّة فقرات لا تخلو عن مستوى من الارتباط.

وقد لُوحظ في صياغة الكلام في القرآن تقطيع الكلام تقطيعاً خاصَّاً إلى فقرات تُسمَّى كلُّ واحدةٍ منها بـ(الآية)، وتنقسم الآيات من حيث حجمها إلى قسمين:

(الأوَّل): الآيات القصيرة، وهي تشتمل غالباً على جملةٍ واحدةٍ تامَّة، وقد تكون جملةً ناقصةً، بل قد يتَّفق أن تكون كلمةً واحدةً.

ومن هذا القسم آيات أغلب السُّور المكِّيَّة، كالتَّوحيد، والزَّلزلة، والفاتحة إلى غيرها.

(الآخر): الآيات الطَّويلة، من قبيل آيات السُّور الطُّوال كالبقرة، وآل عمران، والإسراء، والرَّعد.

فتأمَّل قوله تعالى في سورة الإسراء[1]: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا**﴾.

وإن شئت فتأمَّل قوله سبحانه في سورة الرَّعد[2]: ﴿**اللَّـهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**

(١) سورة الإسراء: ٢٣ ـ ٢٦.

(٢) سورة الرَّعد: ٨ ـ ١١.

﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّـهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾.

والتَّقطيع النَّثريّ على هذا النَّحو ممَّا يختصُّ به القرآن الكريم، ولا نعهده ـ فيما أعلم ـ في أيِّ نصٍّ دينيٍّ أدبيٍّ آخر، حتَّى خطب الإمام عليّ ﷺ، ويبدو أنَّ إتقانه وإخراجه مخرجاً حسناً في جمع الكلام ليس أمراً سهلاً، فهو بذلك من مميِّزات القرآن الكريم.

إنَّ تقطيع الكلام القرآنيّ إلى (آيات) ليس أمراً أوجده المسلمون في الكتابة أو اللَّفظ، بل هو في أصله كان منظوراً بصياغة الكلام، بمعنى أنَّ الكلام صِيغَ على نحو ينبغي تقطيعه إلى آيات، مع اهتمامٍ صوتيٍّ بآخر الآية، وقد جاء التَّعبير عن تلك الفقرات المقطَّعة بـ(الآيات) في القرآن الكريم نفسه، وهو في حقيقته إلفات للنَّظر إلى اتِّجاه المتكلِّم في صياغة النَّصِّ إلى هذا التَّقطيع.

ولا يبعد أن تكون هذه التَّقطيعات هي المرادة بوصف القرآن الكريم بـ(المثاني)، فالمراد بالمثاني هي الآيات؛ حيث إنَّ كلَّ اثنين ـ أو ما يزيد على الاثنين ـ مقرونتان كصنوين ممَّا يزيد من جمال الكلام، كما قال تعالى[1]: **﴿اللَّـهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّـهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّـهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾**، وقال سبحانه[2]: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾**. وقد قيل إنَّ المراد بـ(المثاني) السَّبع سورةُ الفاتحة؛ حيث إنَّها تتألَّف من سبع آيات.

---

(١) سورة الزُّمر: ٢٣.

(٢) سورة الحجر: ٨٧.

وقد لوحظ في هذه التَّقطيعات ـ عموماً ـ أنَّها جرت على ضربٍ من النَّثر الموزون يتَّصف بالخصائص التَّالية:

(أوَّلاً): سلاسة الانتقالات الصَّوتيَّة في داخل الآية من بدايتها إلى نهايتها على نحو ما وصفناه في الجملة.

و**(ثانياً)**: تسلسل الآية ـ غالباً ـ على نحوٍ يُتراءى أنَّها تنهض ببدايتها وتستقرُّ بنهايتها، فلو تأمَّلت ـ مثلاً ـ آية البسملة لوجدت أنَّها تبتدئ بـ(الباء) و(الاسم)، وتتدرَّج لتنهض بكلمة (الله الرَّحمن)، وتستقرُّ في النِّهاية على كلمة (الرَّحيم)، ولو بدَّلت شيئاً في هذه الجملة لم تجد لها التَّسلسل المناسب، كما لو قلت ـ مثلاًـ: (بسم الله الرَّحيم الرَّحمن)، أو (بأسماء الله الرَّحمن الرَّحيم)، أو (بسم الرَّحمن الرَّحيم الله)، مع أنَّ ذلك كلَّه مفيدٌ لنفس المعنى.

و**(ثالثاً)**: تكوين الآية بمجموعها وزناً مناسباً بحيث لو نقصت منها كلمةٌ أو جملةٌ لم تكن بتلك الحال، كما نجده في كثيرٍ من الآيات، فالبسملة نفسها ذات وزنٍ جذَّابٍ بالكلمات الأربع، فلو نقصت منها كلمةٌ كأن قلت: (بسم الله الرَّحيم)، أو (بسم الله الرَّحمن) أو (بسم الرَّحمن الرَّحيم) لانتقص بذلك جمالها. ومثالٌ آخر قوله تعالى[1]: ﴿**هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ**﴾، فهذه الآية جميلةٌ بوزنها من خلال الكلمات الأربع، ولو حُذفت إحدى كلمتي (هيهات) لانتقص وزنها وذهب بعض روعتها.

و**(رابعاً)**: تماثل الآيات أو تقاربها أو تناسبها في الوزن ما أمكن من دون تكلُّف، وهو أمرٌ ملحوظٌ بشكلٍ واسعٍ في آيات السُّور المكِّيَّة، كما هو ملحوظٌ بشكلٍ كبيرٍ في آيات السُّور المدنيَّة، ولكن في مستوى التَّناسب بين وزن الآيات.

---

(١) سورة المؤمنون: ٣٦.

و(**خامساً**): تماثل الآيات أو تقاربها في الكلمة الأخيرة، أو الكلمتين الأخريين منها وزناً، وفي الحرف الأخير فيما أمكن من دون تكلُّفٍ. ويُسمَّى تماثل الحرف الأخير بـ(السَّجع).

وقد تجنَّب القرآن الكريم أيَّ تكلُّفٍ في سبيل توحيد الوزن أو المحافظة على السَّجع، واسترسل في العرض متى حكمت اقتضاءات الكلام، حتَّى في السُّور القصار، وذلك أمر مشهود.

نعم، قد يقدِّم أو يؤخِّر كلمةً رعايةً للوزن والسَّجع، ولكن بما لا يوجب الإحساس بالتَّكلُّف، بل يندرج في المستوى الطَّبيعيِّ لتغيير موقع الكلمات في الكلام.

هذا عن البُعد اللَّفظيّ والصَّوتيّ لامتياز القرآن الكريم.

البُعد المعنويّ لبلاغة القرآن الكريم وأساليبه المميَّزة

وأمَّا البُعد المعنويّ لامتياز القرآن الكريم، فنذكر في توضيحه عدداً من الأمثلة للأساليب القرآنيَّة المميَّزة[1]، كلُّ واحدٍ منها بابٌ كلِّيٌّ، وقاعدة عامَّة تندرج تحتها العديد من الظَّواهر والتَّطبيقات الواسعة:

أسلوب القرآن في إلقاء صبغةٍ ربَّانيَّةٍ على مشهد الوجود

(**المثال الأوَّل**): هو أسلوب القرآن الكريم في إلقاء صبغةٍ ربَّانيَّةٍ وإلهيَّةٍ على مشهد الوجود والحياة بكلِّ شؤونها وتفاصيلها؛ وذلك أنَّ القرآن كتابٌ إلهيٌّ جاء لتوعية الإنسان بالبُعد الإلهيِّ للكون والكائنات، وهذا ما وُفِّق له النَّصُّ القرآنيّ غاية التَّوفيق، فهو يمثِّل بأداءٍ بارعٍ أن لا إله في الوجود غير الله، له الأسماء العُليا والصِّفات الحسنى، وكلُّ شيءٍ من الله سبحانه ولله ويرجع إلى الله، فالحمد له، والاستعاذة به، والسُّؤال إنَّما يكون منه،

---

(١) ونعني بـ(الأسلوب) هنا ما يشمل النُّكات الأسلوبيَّة والمضمونيَّة والفكريَّة بالتَّوصيف المتقدِّم.

والأشياء كلُّها مرآةُ قدرة الله وعلمه وعظمته، والأفاعيل الَّتي تتَّفق في عالم الوجود كلُّها فعله وبإذنٍ منه. وابتلاءات الحياة اختبارات من الله سبحانه، والقيم الأخلاقيَّة هي في الأصل صفاته، والتَّشريعات الشَّرعيَّة هي مظاهر علمه وحكمته وعدله، والنَّاس بين متبصِّرٍ مؤمنٍ به، ومُعرضٍ جاحدٍ له، والآخرة مسرح سلطان الله وملكه، ودار مجازاته، والعذاب مظهر قهره وكبريائه، وهو من وراء ذلك ربٌّ لطيفٌ وودودٌ ورحيم.

فتأمَّل أيَّة سورةٍ من السُّور القرآنيَّة ـ سواء منها ذات الغرض الوحدانيّ ككثير من السُّور القصار، أو ذوات الأغراض المتعدِّدة كالسُّور الطُّوال الَّتي نزلت كفقراتٍ متعدِّدة ـ تجد كيف صِيغ كلُّ شيءٍ مرتبطاً بالله سبحانه بشكلٍ رائعٍ من مداخل معقولةٍ ومناسبة، من غير إنكارٍ لدور العوامل الطَّبيعيَّة في التَّأثير، ولا لدور الإنسان ومسؤوليَّته في الحياة من جهة إرادته الحرَّة، فكلُّ سورةٍ أو فقرةٍ ترسم صورةً ربَّانيَّةً للموضوع الَّذي تعالجه، ويمكن للباحث ملاحظة السُّور القصار مثلاً لأجل التَّركيز على ذلك ـ مثل سورة الفاتحة والتَّوحيد والنَّاس والشَّمس وغيرها ـ.

وعلى الإجمال: فإنَّ القرآن الكريم يرسم الوجود والموجودات كلُّها كلوحةٍ إلهيَّةٍ زاهيةٍ ومذهلةٍ ومشهدٍ ربَّانيٍّ حكيمٍ ورائع، فهو يبرز الصِّبغة الرَّبَّانيَّة للوجود وللأشياء كلِّها، ويستنطقها كلَّها في شأن وجود الخالق.

أسلوب القرآن في إلقاء صبغةٍ عقليَّةٍ وحِكَميَّةٍ وأخلاقيَّةٍ على الوجود

(المثال الثَّاني): أسلوب القرآن الكريم في إلقاء صبغةٍ عقليَّةٍ وحِكَميَّةٍ[1] وأخلاقيَّةٍ للوجود والموجودات والحوادث كلِّها، فالمضمون القرآنيّ صِيغ على نحوٍ يتوقَّد عقلانيَّةً وحكمةً

---

(١) الفرق بين الصِّبغة العقليَّة والصِّبغة الحِكَميَّة أنَّ الصِّبغة العقليَّة تعبِّر عن المعرفة والعلم المحيط، والصِّبغة الحِكَميَّة تعبِّر عن الغاية الملائمة والجادَّة في مقابل الفوضى والعبث واللَّهو ونحو ذلك.

وقيماً.

فمن الصِّبغة العقلانيَّة هو اتِّصاف الله سبحانه بالعقلانيَّة(١) والعلم، وبناء الكون كلِّه من: السَّماوات، والأرض، والكائنات جميعاً على أسسٍ عقلانيَّة تحكمها سنن وأسباب منظِّمة لا يتخلَّف أيُّ سببٍ عن فاعليَّته ولا أيُّ مسبَّبٍ عن سببه، والإنسان مميَّزٌ بين الكائنات بالعقل وأدوات التَّفكير، وهو يستطيع من خلال عقله أن يرى الله سبحانه في الأشياء كلِّها، ويستدلَّ على وجوده من خلالها، كما يستطيع بذلك أن يقيِّم دعاوى الرِّسالات، ويتبيَّن شواهد صدقها، ويستطيع بإدراكه أيضاً أن يميَّز الخير والشَّرُّ، ويتأمَّل عواقب الأمور ونتائجها ليكون على بصيرةٍ تجاهها، وعليه أن يحذر من عوائق التَّعقُّل من قبيل الحواجز النَّفسيَّة، كالتَّقليد، والعصبيَّة، والهوى، والتَّسرُّع، والاعتياد، وغير ذلك.

إذن، كلُّ شيءٍ مربوطٌ في القرآن بالعقل، والتَّبصُّر، والتَّفكير، والاستنطاق، والتَّأمُّل، والاعتبار، ومضمون القرآن قراءةٌ عقلانيَّة للكون والكائنات في منظومةٍ واحدةٍ.

فالخالق سبحانه متَّصفٌ بالعقل، وصفاته تُستمَّد من عقلانيَّته، وأفعاله كلُّها جاريةٌ على موازين عقلانيَّة.

وعليه: فإنَّ الموجودات نُظِّمت على أساسٍ عقلانيٍّ، والإنسان المتصرِّف في هذا الكون المادِّيّ مجهَّز بالعقل، وعليه استخدام عقله من خلال تحليله لما يشهده ببصره وسمعه وإدراكه، وتقييمه للعقائد والدَّعاوى من خلال عقله.

ويتَّضح ذلك كلُّه بتتبُّع موارد استعمال مفردة (العقل) وسائر المفردات الَّتي تتعلَّق بتفعيله أو تجميده، مثل (ألم يروا) و(ألم ينظروا).

وقد ذكرنا في الحديث عن القواعد العامَّة للمعرفة الإنسانيَّة كيفيَّة تنبيه القرآن

---

(١) على توسُّع في هذا التَّعبير في شأن الله سبحانه، كما ذكَّرنا به في موضعٍ آخر.

الكريم على قواعد المعرفة والتَّعقُّل، فراجعها.

ومن الصِّبغة الحِكَميَّة للوجود أنَّ الله سبحانه ـ الَّذي هو قاعدة الوجود والحياة وخالقهما ـ حكيمٌ، وهو ينطلق من موازين حكيمة في أفعاله كلِّها، وقد رتَّب الكائنات لغاياتٍ حكيمةٍ تنتهي إليها، وكانت الغاية من هذا الكون المادِّيّ هو الإنسان الَّذي أمدَّه بروح الحكمة ليكون خليفة الله سبحانه، فسخَّر له الكائنات كلَّها، ووهبه العقل الَّذي يستضيء به، والضَّمير الَّذي يوجِّه مساره، وشرَّع له التَّشريعات الحكيمة الَّتي تلائمه، وتضمن مصالحه، ووهب له الحرِّيَّة ليختبر رشده وإرادته، وينزِّله منزلته في الحياة الأخرى وفق سننٍ حكيمةٍ تجري عليها.

إنَّ الرّواية القرآنيَّة عن الكون والكائنات ملؤها الحكمة والغائيَّة والرُّشد، وهو يبدأ بالله سبحانه المتَّصف بالحكمة، ويتمثَّل في السَّماوات والأرض وما فيها، ويتجلَّى في الإنسان بشكلٍ خاصٍّ، كما قال تعالى[1]: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّـهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾.

ومن مظاهر الصِّبغة الحِكَميَّة للقرآن الكريم: هو اهتمام القرآن بالتَّعليل والرَّبط بين الأشياء، كما يجد النَّاظر ذلك في الظَّواهر التَّكوينيَّة والأحكام التَّشريعيَّة، وللتَّعليل القرآنيّ أنواعٌ لطيفة كلُّها قريبة إلى الوجدان، وقد وصفنا ظاهرة التَّعليل في الأحكام في موضعٍ آخر من هذه الأبحاث[2]، ولا يسع هذا البحث الموجز التَّوسُّع في ذلك.

ومن مظاهر الحكمة في القرآن الحكمة في الأداء بإحلال كلِّ شيءٍ محلّه، وتقدير كلِّ

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) يلاحظ: اتِّجاه الدِّين في مناحي الحياة ص: ٥٠٢ ـ ٥٠٩.

شيءٍ بقدره دون مبالغةٍ في شأن الشَّيء سلباً أو إيجاباً.

ومن وجوه الحكمة في الأداء هو الرِّفق فيه، ومداراة محدوديَّة تحمُّل المخاطبين وإدراكهم، بل مسايرتهم بعض الشَّيء حسب اقتضاء الظَّرف والمقام، نظير أداء حرمة الخمر في أوَّل ترغيبٍ عنها بلُغةٍ لطيفةٍ بقوله في سورة البقرة ـ وهي أوَّل سورةٍ نزلت بالمدينة ـ[(١)]: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾؛ وذلك لأنَّ الخمر بطبيعتها توجب الإدمان، ومن ثَمَّ يعسر على صاحبها أن يتركها فجأةً، فأشار إلى التَّرغيب عنها بأنَّها وإن كان فيها بعض المنفعة من جهة إلهاء الإنسان، ولكنَّ الحزازة الَّتي تورثها في قلب الإنسان وروحه وفطرته أكبر، وقد اقتصرت الآية على هذا المقدار دون مزيد تحذيرٍ وإطالةٍ رغم كونها جواباً عن السُّؤال عنها، وفي ذلك من الرِّفق والحكمة والمداراة شيءٌ كثير. وبعد فترةٍ جاء التَّحريم بلُغةٍ مؤكِّدةٍ استقذارها، وذلك في سورة المائدة، وهي على المعروف آخر سورة نزلت من القرآن، فقال سبحانه[(٢)]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْـخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْـخَمْرِ وَالْـمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّـهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْـمُبِينُ﴾.

ومن الصِّبغة الأخلاقيَّة للوجود أنَّ الله سبحانه يتَّصف بالضَّمير الأخلاقيّ[(٣)] في مستوييه: العدل، والفضل جميعاً، ويتحرَّى العدل في تعامله مع المدركين من خلقه، كما

---

(١) سورة البقرة: ٢١٩.

(٢) سورة المائدة: ٩٠ ـ ٩٢.

(٣) على توسُّعٍ في هذا التَّعبير في شأن الله سبحانه وتعالى، كما سبق التَّذكير به من قبل.

يتحرَّى الحكمة في تعامله مع الخلق جميعاً، وقد زوَّد الإنسان ـ الَّذي سخَّر له ما في السَّماوات والأرض ـ بالضَّمير كالعقل ليرسم له الهدي اللَّائق به في هذه الحياة، فاشتمل هذا الضَّمير على قواعد العدل ومبادئ الفضل والإحسان، فجعل مدار التَّشريع والقانون المنظِّم لسلوك الإنسان على موازين القسط، وبارك في العمل وفقها في هذه الحياة وما بعدها، وجعل النَّشأة الأخرى تمثُّلاً لمضاعفات الخصال الفاضلة وأضدادها، وهو ضربٌ من العدل في نظام الوجود، كما قال تعالى[1]: **﴿وَنَضَعُ الْـمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾**، وقد أوضحنا ذلك في بحث المعاد.

ولولا طول الكلام لذكرنا الآيات القرآنيَّة ذات العلاقة على وجهٍ تتَّضح كيفيَّة تعميم الصِّبغة العقلانيَّة والحِكَميَّة والقِيَميَّة لكلِّ شيءٍ في هذه الحياة.

إنَّ هذا المثال وسابقه يكمِّلان بعضهما بعضاً، فهما يتضمَّنان الصِّبغات المضمونيَّة والفكريَّة الأربع الَّتي اعتنى القرآن الكريم بصياغة الكلام القرآنيّ فيها.

ويُلاحَظ بشأن هذه الصِّبغات الأربع:

(**أوَّلاً**): أنَّها كلَّها صبغات وجدانيَّة، بمعنى أنَّها تعطي للكلام روحاً وجدانيَّاً بحيث يلامس أعماق المخاطب والقارئ، ويحفِّز فيه المشاعر الوجدانيَّة:

أمَّا الصِّبغات الثَّلاث الأخيرة ـ العقلانيَّة، والحِكَميَّة، والقيميَّة ـ فواضح؛ لأنَّ هذه الصِّبغات في أصولها جزءٌ من الفطرة الإنسانيَّة العامَّة.

وأمَّا الصِّبغة الأولى ـ الصِّبغة الإلهيَّة والرَّبَّانيَّة ـ فلقوَّة استنطاق القرآن الكريم للكون والكائنات عن وجود الله سبحانه ـ كما يأتي توصيفها في المثال الثَّامن ـ حتَّى يشعر

---

(١) سورة الأنبياء: ٤٧.

الإنسان بتمثُّل الله سبحانه في كلِّ شيءٍ شعوراً وجدانيَّاً.

و(**ثانياً**): أنَّ هذه الصِّبغات الأربع كلَّها أمورٌ فكريَّة راشدة، فالعقلانيَّة والحكمة والقيم هي المباني الثَّلاثة الأساسيَّة للرُّشد الإنسانيّ، كما أنَّ وجود الخالق لهذا المشهد أهمُّ معطيات العقلانيَّة العامَّة.

أسلوب القرآن الكريم في الابتداء بالسُّورة

(**المثال الثَّالث**): أسلوب القرآن الكريم في الابتداء بالسُّورة.

إنَّ ابتداء الكلام يكون مهمَّاً في المنظور البلاغيّ بالقياس إلى وسطه ونهايته، لشدَّة التَّركيز عليه وابتناء سائر الكلام عليه، فلا بُدَّ في أيِّ كلامٍ بليغٍ من اختيار عنصرٍ مناسبٍ للابتداء به، كما أنَّ الشُّعراء أيضاً يهتمُّون بإنشاء مطلعٍ لطيفٍ وجيِّدٍ لقصائدهم.

لقد أولى القرآن الكريم اهتماماً خاصَّاً ببدايات السُّور وأبدع في ذلك عدَّة أساليب:

فكانت هناك بداية ممهِّدة لكلِّ سورة بـ(البسملة)[1]، وهذه البسملة جزء من إضفاء صبغة إلهيَّة على عمليَّة قراءة القرآن، وجاء توصيفه تعالى فيها بـ(الرَّحمن الرَّحيم) وهو بمثابة التَّرحيب بقارئ القرآن في تلاوته للقرآن، وهي بداية جميلة، وقد اقتدت النُّصوص الإسلاميَّة بهذا الأدب القرآنيّ.

ووقع في أوَّل عددٍ من السُّور حروف مقطَّعة تُقرأ بأسمائها، ابتداءً بسورة القلم ـ الَّتي عُدَّت السُّورة الثَّانية في ترتيب النُّزول ـ وهذا أسلوب أبدعه القرآن الكريم، ويُرجَّح ـ كما ذكرنا من قبل ـ أنَّ المنظور به الإشارة إلى أنَّ القرآن الكريم مؤلَّف من هذه الحروف نفسها، ومع ذلك ارتقى إلى مرتقى يتعذَّر بلوغه للإنسان، ولم يُثِر هذا الابتداء فيما نعلم أيَّ

---

(١) بناءً على كون البسملة المذكورة في بدايات السُّور جزءاً من القرآن الكريم، ولا شكَّ في كونها جزءاً من سورة الفاتحة.

استغرابٍ من المشركين.

وابتدأ القرآن الكريم جملةً من سوره بالثَّناء على الله تعالى من خلال صيغة (الحمد) ـ كما في سورة الفاتحة وعددٍ من السُّور الأخرى ـ وتسلسلت من بعده إلى صفات الله سبحانه ثمّ إلى المعاني الأخرى، وتلك بداية أبدعها ـ فيما يُتوقَّع ـ القرآن الكريم، وتبعه في ذلك الخطباء والعلماء في النُّصوص الإسلاميَّة، حتَّى صار من قبيل العرف الغالب؛ من جهة تناسب هذه البداية للكلام، وسُمِّيت الخطبة الَّتي تخلو في بدايتها عن حمد الله سبحانه والثَّناء عليه بـ(البتراء).

ونحى هذا المنحى الإمام عليّ عليه السلام في خطبه، وأضاف عليه في العديد منها الثَّناء على النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقد انتشر ذلك بعده حتَّى أصبح عرفاً لازماً، وسُمِّيت الخطبة الَّتي تخلو عن الصَّلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم بـ(الشَّوهاء)، كما أنَّه عليه السلام اهتمَّ بذكر أهل البيت عليهم السلام والثَّناء عليهم ـ مشيراً إلى تميُّزهم عن الأمَّة واصطفائهم منها ـ في كثيرٍ من خطبه أيضاً ولو في آخرها.

وفي سور أخرى بدأ القرآن الكريم السُّورة بالثَّناء على الله سبحانه بذكر تسبيح الكائنات له، كما في سورة الجمعة[1]: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّـهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾، أو بأمر النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم بتسبيحه، كما في سورة الأعلى[2]: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾.

وفي سور أخرى: بدأ القرآن الكريم السُّورة باليمين على أمور جديرة بالتَّأكيد عليها، مثل قوله تعالى[3]: ﴿**يس * وَالْقُرْآنِ الْـحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْـمُرْسَلِينَ**﴾، وقوله

(١) سورة الجمعة: ١.

(٢) سورة الأعلى: ١.

(٣) سورة يس: ١ ـ ٣.

سبحانه[١]: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾.

وفي سورٍ أخرى بدأ القرآن الكريم بتمجيد القرآن نفسه كما في سورة إبراهيم[٢]: **﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾**، وفي سورة فُصِّلت[٣]: **﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**، وفي سورة غافر[٤]: **﴿حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾**، وفي سورة الشُّعراء[٥]: **﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾**.

إلى غير ذلك.

وقد يظنُّ بعض النَّاس أنَّ ابتداء السُّورة وإن كان في السُّور القصار محدَّداً بمقتضى النَّصِّ القرآنيّ نفسه، ولكنَّ الحال ليس كذلك في السُّور الطُّوال؛ لأنَّها فقرات متعدِّدة نزلت كلُّ واحدةٍ منهنَّ مستقلَّةً عن الأخرى، وإنَّما النَّبيُّ ﷺ هو الَّذي جعلها سوراً ذات بداية ونهاية.

وهذا ليس صحيحاً؛ فإنَّ من الواضح من خلال القرآن الكريم أنَّ ما جاء في أوائل معظم السُّور صِيغَ بنحوٍ أُعِدَّ ليكون بدايةً لا تتمَّةً لكلامٍ سبق، ومن ثَمَّ ترى أنَّ ما جاء في أوَّل السُّور ـ غالباً ـ لا يناسب أن يورَد في أواسط السُّورة، مثل قوله تعالى في أوَّل الفاتحة[٦]: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**، فإنَّه لا يناسب إيراده بهذا الشِّكل في وسط

---

(١) سورة الذَّاريات: ١.

(٢) سورة إبراهيم: ١.

(٣) سورة فُصِّلت: ١ ـ ٣.

(٤) سورة غافر: ١ ـ ٢.

(٥) سورة الشُّعراء: ١ ـ ٢.

(٦) سورة الفاتحة: ٢.

الكلام، وقد جاء أحياناً مسبوقاً بالواو ومرتبطاً بآياتٍ سابقةٍ عليه، وكذا الحال في أوَّل البقرة[١]: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾، وكذلك الحال في أوائل سور كثيرة أخرى، فهذه الجمل مناسبة لأوَّل الكلام حصراً، ولو أُوردت في وسط الكلام كذلك لم يكن مناسباً، بل ينبغي إضافة (الواو) عليها، وتغيير بعض مفرداتها، ومع ذلك فإنَّ منها ما لا يناسب أواسط السُّورة.

أسلوب القرآن الكريم في المدخل الَّذي يدخل من خلاله إلى الموضوع

ويمكن أن نطرح هذا المثال بصيغةٍ أعمّ[٢]، وهي أسلوب القرآن الكريم في المدخل الَّذي يدخل من خلاله إلى الموضوع الَّذي يريد الحديث عنه، فأيُّ أديبٍ يريد أن ينشئ نصَّاً أدبيَّاً حول موضوعٍ فإنَّه يفكِّر في المدخل المناسب للتَّعرُّض له، بل نحن عندما نريد أن نطرح موضوعاً لأولادنا أو آبائنا أو غيرهم كثيراً ما نبحث عن مدخلٍ ملائم وجذَّابٍ يتلقَّاه المخاطب تلقِّياً حسناً.

فتأمَّل ـ على سبيل المثال ـ قوله تعالى في سورة النَّبأ في مقام تفنيد شكِّ الكفَّار في معقوليَّة إعادة الإنسان إلى الحياة[٣]: ﴿**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا**﴾.

---

(١) سورة البقرة: ٢.

(٢) وجه كون هذه الصِّيغة أعمّ أنَّها تشمل التَّعرُّض لأيِّ موضوعٍ ولو في وسط الكلام.

(٣) سورة النبأ: ١ ـ ١٦.

لقد كان المقصود في سورة النَّبأ التَّأكيد على حقَّانيَّة يوم القيامة، لكن لم تدخل السُّورة إلى الموضوع مباشرةً بأن تقول مثلاً: (إنَّ يوم القيامة حقٌّ وواقعٌ لا محالة)، بل بدأت بالاستفهام عمَّا يتساءل بشأنه النَّاس، فجلبت بذلك نظر المخاطب إلى ما عسى أن يكون موضوعاً للكلام، ولكنَّها اكتفت بالإشارة إلى أنَّ التَّساؤل يتعلَّق بيوم القيامة من غير تصريحٍ به، فذكرت: ﴿**عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ**﴾، ثُمَّ فنَّدت منشأ هذا التَّساؤل الاستنكاريّ منهم، واحتجَّت على هذا الإنكار بما هو مشهود من قدرة الله سبحانه المتمثِّل في كلِّ عناصر هذا المشهد الكونيّ، فكان هذا المدخل أبلغ تأثيراً في النَّفس ممَّا لو دخلت السُّورة مباشرةً في ذكر حقَّانيَّة هذا اليوم.

أسلوب القرآن الكريم في الانتقال من فكرةٍ إلى أخرى

(**المثال الرَّابع**): أسلوب القرآن الكريم في الانتقال من فكرةٍ إلى أخرى في داخل الكلام والسُّورة، بحيث يتبع المعاني بعضها بعضاً دون قطيعة، ومن ثَمَّ لا تجد في أغلب الموارد ميزاً فاصلاً بين فقرات السُّور الطُّوال، رغم أنَّ هذه السُّور إنَّما نزلت على شكل مقاطع متفرِّقة، وليس ذلك إلَّا من جهة الانتقال السَّهل والسَّلس والمناسب فيها.

فإذا نظرت في سورة الفاتحة ـ مثلاً ـ تجد أنَّه بدأ بالحمد لله سبحانه، ثُمّ انتقل من حيث وقوع اسم الجلالة مفعولاً للحمد إلى ذكر بعض الصِّفات الإلهيَّة الَّتي تناسب الحمد والغرض من السُّورة ﴿**الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ**﴾، ثُمَّ انتقلت إلى ذكر يوم القيامة من خلال وصفٍ لله، وهو أنَّه مالك هذا اليوم ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، ثُمَّ انتقلت بمناسبة ما دلَّت عليه ـ بجعل الحمد كلِّه لله ووصفه بكونه ربَّ العالمين ومالكاً ليوم الدِّين ـ من توحيد الله سبحانه إلى دعاء يتضمَّن حصر العبادة والاستعانة بالله الواحد ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، ثُمَّ تلاه المطلوب الأوَّل للإنسان المؤمن، وهو الاهتداء إلى صراط الله ـ الَّذي

سنَّ عليه الحياة ـ، ونُبِّه على أنَّ الاهتداء عطاءٌ وتوفيقٌ منه، كما فعل ذلك بعباده الصَّالحين معرِّضاً بالآخرين ممَّن ضلَّ عن هذا الصِّراط، أو تركه عمداً فاستوجب غضب الله تعالى.

وإذا نظرت إلى سورة البقرة وجدت أنَّها بدأت بالتَّأكيد على أنَّ القرآنَ كتابٌ نازلٌ من الله سبحانه دون ريب، ثُمَّ انتقلت إلى ذكر المتَّقين من خلال وصف القرآن بكونه هدىً للمتَّقين تأكيداً على أنَّ عدم الرَّيب فيه لا يقتضي اهتداء النَّاس به جميعاً؛ لأنَّ الاهتداء يتوقَّف على التَّقوى وهي الصِّيانة النَّفسيَّة عن الأهواء، ثُمَّ انتقلت إلى وصف المتَّقين، وذكرت مقوِّمات الإيمان بالله سبحانه، ثُمَّ انتقلت إلى ذكر الكفَّار كونهم الفريق المقابل للمؤمنين، ثُمَّ انتقلت إلى ذكر الفئة الثَّالثة ،وهم المنافقون، وتسلسلت في ذكر أوصافهم، وهلمَّ جرَّاً.

ومن أساليب القرآن الكريم للانتقال إلى ذكر القصص بعد سائر المعاني استعمال (إذ)، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ...**﴾، وربَّما توالى استعمالها في عدَّة آياتٍ متعاقبة في مقام الانتقال من جزءٍ من الحكاية إلى جزءٍ آخر، ومنه قوله تعالى[2]: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا...وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا...وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ...**﴾.

وذكر النُّحاة أنَّ المراد بذلك (واذكر) أو (واذكروا)، كما صرَّح بذلك في آياتٍ عدَّة، مثل قوله تعالى[3]: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ**﴾، وقوله سبحانه[4]: ﴿**وَاذْكُرْ فِي**

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) سورة البقرة: ١٢٤ ـ ١٢٧.

(٣) سورة الأعراف: ٨٦.

(٤) سورة مريم: ١٦.

الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

أسلوب القرآن الكريم في إنهاء السُّورة أو الكلام

(المثال الخامس): أسلوب القرآن الكريم في إنهاء السُّورة أو الكلام[١].

إنَّ نهاية مجموع الكلام كبدايته أمرٌ مهمٌّ، ويقع التَّركيز عليه أكثر، على أنَّ المتكلِّم البليغ لا ينهي الكلام إلَّا بما يناسب نهايته، ولا يصحُّ أن يقطع كلامه أين ما شاء ليكون خاتمةً للكلام كما هو معلوم، ومَن تأمَّل نهايات السُّور القرآنيَّة وجد أنَّ الكلام قد اكتمل عندها، وعبَّرت الآية الأخيرة في السُّورة عن معنى يناسب ختم الكلام به، كقوله سبحانه بعد ذكر مصير الفريقين المؤمنين والكافرين، واستقرار المؤمنين في الجنَّة[٢]: ﴿**وَتَرَى الْـمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْـحَقِّ وَقِيلَ الْـحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، فكان هذا الحمد الَّذي يلهج به الملائكة والمؤمنون خاتمة المشهد الموصوف في القيامة، فكان آخر الكلام.

وقال تعالى في آخر سورة غافر بعد ذكر مصير أمم نزل عليهم بأس الله وعذابه[٣]: ﴿**فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّـهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾، وعليه كانت نهاية هؤلاء الكفَّار في الحياة الدُّنيا هلاكهم ببأس الله سبحانه وتعالى، فكان ذلك آخر الكلام أيضاً.

وقال عزَّ من قائل في سورة القصص[٤] ـ بعد عدَّة حكايات ونصائح وعظات ـ:

---

(١) المراد بـ(الكلام) هنا أيُّ كلامٍ مكتمل ولو كان آيةً واحدةً طويلةً كما سيتَّضح من الشَّرح الآتي.

(٢) سورة الزُّمر: ٧٥.

(٣) سورة غافر: ٨٥.

(٤) سورة القصص: ٨٨.

﴿**وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّـهِ إِلَـهًا آخَرَ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾، فكانت هذه الموعظة أشبه بالمحصِّلة لكلِّ ما تقدَّم، ومضمونها انتهاء كلِّ شيءٍ في هذه النَّشأة بالفناء والهلاك، ورجوع الأشياء إلى الله سبحانه، فكان ذلك أيضاً نهاية الكلام، ومَن تأمَّل خواتيم السُّور وجد أمثلةً رائعةً فيها.

ولعلَّ هذا النَّحو من ختم الكلام بمضمونٍ مناسبٍ قلَّما تجده في النُّصوص الأدبيَّة المماثلة. هذا عن ختم السُّورة.

وأمَّا ختم الكلام ـ كالآية ـ فإنَّ للقرآن أساليب لطيفة جدَّاً في إنهاء الآيات الطَّويلة في السُّور المكِّيَّة من جملتها: إنهاؤها بصفات مناسبة لله تعالى مثل قوله سبحانه[1]: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾، وقوله تعالى[2]: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾، وقوله عزَّ من قائل[3]: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا**﴾، وقوله جلَّت آلاؤه[4]: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْـمُحْسِنِينَ**﴾، وقوله سبحانه[5]: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْـمُتَطَهِّرِينَ**﴾، وقوله تعالى[6]: ﴿**فَإِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْـمُتَّقِينَ**﴾.

لقد أدَّت هذه الجمل أدواراً لفظيَّةً ومعنويَّةً متناسقةً ورائعةً في النَّصِّ القرآنيّ، فهي من جهة اللَّفظ كانت نهايات جميلة للآيات القرآنيَّة تستقرُّ الآية عليها، كما حقَّقت وزناً متناسقاً لمجموع تلك الآيات بالنَّظر إلى نفسها وبالمقارنة مع وزن الآيات من حولها،

---

(١) سورة النِّساء: ١.

(٢) سورة النِّساء: ١١.

(٣) سورة النِّساء: ١٦.

(٤) سورة البقرة: ١٩٥.

(٥) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٦) سورة آل عمران: ٧٦.

وحقَّقت أيضاً تناسقاً مع أواخر الآيات الأخرى قبلها وبعدها، ومن جهةٍ وفَّرت صبغةً إلهيَّةً لموضوع الآية، ومن جهة المعنى فإنَّ بعضها يشير إلى وعيد أو وعد يشجِّع على مراعاة الحدود الإلهيَّة.

هذا، ولم يكن ذكر الصِّفات الإلهيَّة في نهاية الآية اعتباطاً، بل رُوعي فيها تناسبها مع مضمون الكلام، وهي واضحة أحياناً، مثل قوله تعالى[1]: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّـهُ يُحِبُّ الْـمُحْسِنِينَ**﴾، وقد تكون ظريفةً ودقيقةً أحياناً أخرى، ولكن ليست دقَّةً متكلَّفة، بل دقَّة يستذوقها البلغاء، ويجدون فيها روعةً وإبداعاً، وقد تجد أنَّ تناسب الآية يحتمل صفات عديدة لله تعالى، لكن أُريد بذكر صفةٍ خاصَّةٍ سوق الكلام إلى الاتِّجاه الَّذي يناسبها.

إنَّ هذا المثال يكمِّل المثالين السَّابقين، فهذه الأمثلة الثَّلاثة تمثِّل بلاغة الكلام القرآنيّ: في أوَّله، وفي أواسطه، وفي آخره ونهايته جميعاً.

أسلوب القرآن الكريم في تأكيد المعنى

(**المثال السَّادس**): أسلوب القرآن الكريم في تأكيد المعنى.

إنَّ من الضَّروريّ في بلاغة الكلام تأكيدَ المعاني الَّتي تواجَه بالشَّكِّ والوسوسة من غير حجَّةٍ موضوعيَّةٍ توجب ذلك، وكذلك المعاني الَّتي لم تكتسب الوقع المناسب لها رغم أهمّيّتها وخطورتها لتكون مؤثِّرةً ونافذةً في نفوس المخاطبين.

والقرآن الكريم أبدع أساليب عديدة للتَّأكيد أعطت النَّصّ القرآنيّ روعةً ووقعاً عجيباً ونفوذاً مذهلاً.

(**منها**): التَّكرار المنظَّم، والمراد به تكرار جملة واحدة في كلامٍ واحدٍ وفق ترتيب

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٤.

معيَّن، نظير تكرار قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرَّحمن (٣١) مرَّة، وتكرار قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ في سورة القمر، وتكرار قوله عزَّ من قائل: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في سورة المرسلات، وهذا أسلوب رائع للغاية لا نشهد مثله في أيِّ أثرٍ بعد القرآن الكريم حتَّى خطب الإمام عليّ عليه السلام؛ وليس ذلك إلَّا لأنَّ إتقانه ـ بحيث لا يوجب مللاً واستثقالاً في النَّفس ـ ليس بالأمر السَّهل.

و(**منها**): الأقسام المؤكَّدة في القرآن، فهي صيغ بديعة للغاية، وخاصَّةً ما جاء في التَّأكيد على وجود الدَّار الآخرة.

فتأمَّل قوله تعالى[1] في التَّأكيد على فلاح مَن تزكَّى، وخيبة من تلوَّث بالخطايا ـ وهو إشارةٌ إلى الدَّار الآخرة طبعاً ـ: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾.

فترى أنَّه سبحانه حلف على ذلك بجميع الكائنات الكبرى ومظاهرها في مشهد الحياة من: الشَّمس، والقمر، والنَّهار، واللَّيل، والسَّماء، والأرض، ثُمَّ ختم ذلك بالحلف بالنَّفس الإنسانيَّة الَّتي كانت زكاتها هي محلّ التَّأكيد وبالَّذي سوَّاها، وركَّز في جملة ما اشتملت عليه تسوية النَّفس وتكوينها على إلهامها وفجورها وتقواها ـ والَّتي بها تتعلَّق التَّزكية أيضاً ـ.

ثُمَّ ضرب مثلاً على خيبة مَن لوَّث نفسه بالخصال الرَّذيلة والطُّغيان في ألفاظٍ فخمةٍ ترسم مشهداً مهيباً وكان المثل هو قوم ثمود، حيث عقروا النَّاقة الَّتي جعلها الله سبحانه

---

(١) سورة الشَّمس: ١ ـ ١٠.

آيةً لهم، فأخذهم الله سبحانه أخذاً عزيزاً فقال[١]: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَـهُمْ رَسُولُ اللَّـهِ نَاقَةَ اللَّـهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا**﴾، فانظر إلى فخامة لفظ (الطُّغيان) الَّذي يعبِّر بوقعه الصَّوتيّ عن تجاوزهم لكلِّ الحدود، ثُمَّ دلالة (أشقاها) على مدى تعاسة المتعرِّض للنَّاقة في عين طغيانه!، ثُمَّ انظر إلى فخامة لفظ (دمدم) الَّذي يستمدُّ إيحاءه الفخم من أصله الصَّوتيّ المأخوذ من أصوات حوادث عظيمة، مثل وقع الصَّواعق والزَّلازل والانهيارات الكُبرى.

ومن الأيمان اللَّطيفة الرَّائعة في القرآن أوَّل سورة اللَّيل، وهو قوله تعالى[٢]: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**﴾، إلى آخر السُّورة، والَّذي تضمَّن وصف نتائج المساعي الزَّاكية والمساعي الخاطئة فيما بعد هذه الحياة، فقد حلف بما يحيط بالإنسان في مشهد الحياة من اللَّيل والنَّهار، وهو يشير بذلك إلى مهابة اللَّيل المظلم وسكونه، وجمال النَّهار المضيء وتحرُّك الحياة فيه، ثُمَّ بخالق الإنسان ذكراً وأنثى، وهو يشير إلى روعة نظام حياة الإنسان المبنيّ على انضمام ذكرٍ وأنثى، فتستلهم السُّورة من هذه الرَّوعة في نظام الخلق أنَّ حياة الإنسان هادفة، ومساعي الإنسان تنتج غداً إمَّا خيراً أو شرّاً.

وفي سورة الضُّحى حلف الله سبحانه بأنَّه ما ترك رسوله ﷺ في خضمِّ الشَّدائد ولكنَّها اختبارات الحياة الَّتي سوف تتعقَّبها السَّلامة والسَّعادة غداً، ويذكِّره بنعمه تعالى

---

(١) سورة الشَّمس: ١١ ـ ١٥.

(٢) سورة اللَّيل: ١ ـ ٤.

منذ صغره، فقال[1]: ﴿**وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾، فهنا يحلف الله تعالى بـ(الضُّحى) وهي ارتفاع الشَّمس في النَّهار، حيث تمتلئ الأرض بالنُّور، وتتلألأ الكائنات، ثُمَّ بما يتعقَّبها من ظلمة اللَّيل وما تثيره في النَّفس الإنسانيَّة من: هموم، وهواجس، وتوجُّسات، ثُمَّ تعهَّد سبحانه لرسوله ـ الَّذي كان مسكوناً بهواجس: الغربة، والاضطهاد، والاستضعاف في عهد مكَّة، وتمرُّ عليه السِّنين دون تقدُّمٍ يُذكر ـ تعهَّد له بأن لا يتركه، كما لم يتركه من قبل وهو يقاسي مضاعفات اليتم والفقر، ولا يجد ما أوتيه من خلال البعثة من العلم والهدى، فما ألطف هذا الأسلوب في الأداء.

إنَّ هذا النَّوع من القسم أسلوبٌ مذهلٌ حقَّاً يمتاز به القرآن الكريم، ولا نشهد مثله ـ فيما أعلم ـ في أيِّ أثرٍ بعد القرآن الكريم، رغم اقتفاء الآثار للقرآن الكريم، ولكن ليس من السَّهل استخدام الأدوات البلاغيَّة استخداماً مناسباً للكلام، كما يعلمه الأدباء الَّذين يسعون إلى إنشاء كلامٍ بليغ.

أسلوب القرآن الكريم في التَّهويل

(**المثال السَّابع**): أسلوب القرآن الكريم في التَّهويل وأخواته.

والمراد بـ(التَّهويل) ليس تهويل شيءٍ غير مهولٍ في نفسه ـ وهو التَّهويل الكاذب ـ، بل تمثيل هول ما هو فعلاً مهول وهائل، فيكون من التَّهويل الصَّادق، كما أنَّ المراد بـ(أخواته) ما يقابل التَّهويل من قبيل الاستهانة واللِّين.

وأكثر ما جاء التَّهويل في القرآن الكريم في شأن يوم القيامة، فقد تفنَّن النَّصُّ القرآنيّ في بيان هول هذا اليوم بألفاظٍ فخمةٍ للغاية، وأسلوب مؤثِّر جدَّاً.

---

(١) سورة الضُّحى: ١ ـ ٦.

فبعضها بدأت بذكر القيامة بعنوان مخيف، ثُمَّ ساقت الكلام كقوله تعالى في سورة القارعة[1]: ﴿**الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ * فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾.

فترى فخامة لفظ القارعة بوقعه الصَّوتيّ النَّاشئ عن كونه في الأصل مأخوذاً من أصوات كونيَّة عظيمة، ولم تقل الآية إنَّ في يوم القارعة يكون كذا وكذا، بل ذكرت ابتداءً هذا العنوان، وتساءلت ماذا يكون هذا الحدث الجلل في سؤالٍ مملوءٍ بإيحاءات التَّهويل، ثُمَّ زادت قوَّة هذا الإيحاء بنفي علم المخاطب بحجم هذا الحدث، ولكن لا بصيغةٍ خبريَّة، بل بصيغة الاستفهام (وما أدراك) والَّتي تدلُّ على أنَّ عظمة هذا الحدث تبلغ مدىً لا يمكن للإنسان أن يعلمه ويخطر في ذهنه، ثُمَّ أجابت السُّورة نفسها عن السُّؤال بعد أن ملكت قلب القارئ وملأته من الهول ليذهب وهمه في عظمة هذا الحدث كلّ مذهب، فذكرت أنَّه يومٌ يشهده النَّاس جميعاً، وهم كالجراد المنتشر على الأرض، لا يتمايز بعضٌ عن بعضٍ، في أرضٍ مستويةٍ لا يرتفع بعضها عن بعضٍ بجبل، حيث أُزيلت الجبال بفعل ما يتَّفق من الحوادث الكبرى، فتوزَن في هذا اليوم أعمال النَّاس كما هي، فمَن ثقلت موازينه بالأعمال الصَّالحة فقد نال عيشةً ملؤها الرِّضا، وأمَّا مَن خفَّت موازينه فقد لُجِئ والتجأ إلى النَّار، ثُمَّ ذكرت النَّار لا باسمها، بل بعنوانٍ مريع، فهو مكانٌ يهوى فيه أصحاب الخطايا والمتكبِّرون، ثُمَّ استعظمت هذا المكان بما يتَّفق فيه من الفظاعة بحيث لا يخطر على بال المخاطب إنَّها النَّار، ولكن ليس النَّار القليل الَّتي توقد للدِّفء، بل نارٌ حامية.

فانظر كيف استخدمت الآية مفردات فخمة تساعد بإيحاءاتها الصَّوتيَّة في تحديد

---

(١) سورة القارعة: ١ ـ ١١.

اتِّجاه الكلام مثل لفظ (القارعة، والهاوية)، وكيف رسمت مشهداً هائلاً بإبهام الحادث، ثُمَّ الاستفهام عنه، ثُمَّ جعلته فوق إدراك المخاطب بلغة الاستفهام الإنكاريّ، ثُمَّ الإفصاح عن هذا الحادث الجلل بوصفين يبيِّنان حجم الإنسان في أرضٍ مستوية، حيث دُكَّت فيها الجبال حتَّى استوت بالأرض فتُنصب الموازين، فيسعد الخيِّرون بالنِّعمة، ويشقى الآخرون بالنِّقمة والعذاب.

وتشبه سورة القارعة في ذلك سور أخرى كسورة الواقعة والحاقَّة.

ومن السُّور ما رسمت مشهداً مهولاً ليوم القيامة بوصفٍ بليغٍ ابتداءً للحوادث الكونيَّة الكبرى المتوقَّعة، ثُمَّ بيان ما يتَّفق للنَّاس حينئذٍ، فتأمَّل قوله تعالى في سورة التَّكوير(١): ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ**﴾، ومثلها سور أخرى كالانفطار والانشقاق والزَّلزلة.

لقد استخدمت هذه السُّور المفردات والأدوات البلاغيَّة للتَّهويل استخداماً فنِّيَّاً راقياً جدَّاً، ورسمت مشاهد كونيَّة مهولة بذلك، لا نشهد ما يماثله في أيِّ كلامٍ بعد القرآن الكريم.

ولك أن تقارن الفاصل بينها وبين قول الإمام عليّ عليه السلام في اقتفائها(٢): ((حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ

---

(١) سورة التَّكوير: ١ ـ ١٤.

(٢) نهج البلاغة ص: ١٦١، الخطبة: ١٠٩.

تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّماءَ وَفَطَرَهَا، وَأَرَجَّ الأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلاَقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مَنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الأَعْمَالِ وَخَبَايَا الأَفْعَالِ))، فما أكثر الفاصل بين المقطعين حقّاً!

وممَّا يقابل التَّهويل الاستهانة بالشَّيء، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم في شأن عدَّة أمور أبرزها الدُّنيا، فقد جاء تهوينها، وبيان زوالها في صور بليغةٍ جدَّاً، كما قال تعالى[1]: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾، وقال سبحانه أيضاً[2]: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْـحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾.

ولك أن تقارن الفاصل بين مثل هذه المقاطع في بهائها ونفوذها وبين قول الإمام عليّ عليه السلام في اقتفائها[3]: ((فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا، رَدِغٌ مَشْرَعُهَا، يُونِقُ مَنْظَرُهَا، وَيُوبِقُ مَخْبَرُهَا، غُرُورٌ حَائِلٌ، وَضَوْءٌ آفِلٌ، وَظِلٌّ زائِلٌ، وَسِنَادٌ مَائِلٌ، حَتَّى إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا، وَاطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا، وَقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا)).

(١) سورة يونس: ٢٤.

(٢) سورة الحديد: ٢٠.

(٣) نهج البلاغة ص: ١٠٨، الخطبة: ٨٣.

أسلوب القرآن الكريم في الاستنطاق

(**المثال الثَّامن**): أسلوب القرآن الكريم في الاستنطاق.

إنَّ استنطاق المشهد الحاضر عمَّا وراءه فنٌّ جليلٌ من فنون البلاغة يشتمل على أبعاد أدبيَّة وفكريَّة عديدة، فكثير من الأمور إذا استنطقتها تستخرج من باطنها دلالات ومعانٍ كبيرة جدَّاً.

فلنفرض أنَّ ولداً أساء إلى أمِّه ـ لا سمح الله ـ، فتستطيع الأمُّ أن تستنطق مجمل حياة الولد ـ منذ كونه جنيناً إلى حين الوقت الحاضر ـ عن معاناتها لأجله، وخدمتها إيَّاه للاحتجاج عليه في نصٍّ أدبيٍّ فكريٍّ يستحضر الحوادث، ويصيغها بصيغةٍ مثيرةٍ ورائعة.

أو فلنفرض أنَّ الإنسان يريد أن يصف جمال الطَّبيعة الخلَّابة في مكان، فيستطيع أن يستنطق المشهد عن مكامن حسنه وجماله في نصٍّ أدبيٍّ رائع.

لقد استخدم القرآن الكريم أسلوب الاستنطاق في مواضع أبرزها استنطاق الكون عن: وجود الله سبحانه، وعلمه، وقدرته، وإبداعه، فوصف المشاهد الكونيَّة المهيبة، والظَّواهر الأحيائيَّة والطَّبيعيَّة الرَّائعة بخصائصها وتنوِّعها، ووصف تنوِّع النَّاس والمظاهر الإنسانيَّة من مراحل خلقه وهو جنين إلى تكوين الحياة من ذكرٍ وأنثى وما جعله من المودَّة بينهما، واختلاف ألسنة النَّاس وألوانهم، واختلاف أحوال الإنسان من ليلٍ يسكن فيه، ونهارٍ يعمل فيه، وتسخير الكائنات الأخرى لمنفعته من: الشَّمس، والنُّجوم، والكواكب، والحيوانات، والنَّباتات، وقد بلغ ذلك مبلغاً عظيماً يلامس عمق وجدان الإنسان، حتَّى يشعر بأنَّه يعيش مع الله سبحانه، ويجد الله في كلِّ شيءٍ حوله.

وقد ذُكرت بعض هذه النُّصوص في هذه الأبحاث في مواضع سابقة، مثل آيات أوَّل سورة الرَّعد، وآيات أوَّل سورة النَّبأ.

فتأمَّل هنا هذا المقطع من سورة الرُّوم، قال عزَّ من قائل[١]: ﴿**فَسُبْحَانَ اللَّـهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْـمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْـمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾.

فأيُّ نصٍّ تُرى يماثل هذا النَّصّ في قوَّة الاستنطاق وسعته وصبغته الوجدانيَّة!

أسلوب القرآن الكريم في إثارة التَّأمُّل الـمَثَليّ للأشياء

(**المثال التَّاسع**): أسلوب القرآن الكريم في إثارة التَّأمُّل الـمَثَليّ للأشياء والنَّظر إليها بعين الأمثال.

تُطلَق الأمثال على وقائع خاصَّة اعتُبرت نموذجاً لما شابهها، فصارت تُذكَر كلَّما اتَّفق موقفٌ مشابهٌ لها، فيُقال ـ مثلاً ـ لقوم يعملون عملاً قد يُتراءى لاغياً، ولكن سوف تظهر نتائجه الإيجابيَّة لاحقاً: (عند الصَّباح يحمد القوم السُّرى)[٢]، ويُقال لَمن يُخفي حدثاً مشهوراً: (ما يوم حليمة بسرٍّ)[٣]، ويُقال لَمن بنى نفسه بنفسه: (نفس عصام سوَّدت

(١) سورة الرُّوم: ١٧ ـ ٢٤.

(٢) جمهرة الأمثال ج: ٢، ص: ٤٢.

(٣) المصدر السَّابق ج: ٢، ص: ٢٣٣.

عصاماً)[١]، ويُقال لَمن ظنَّ شيئاً من قبيل شيءٍ آخر خطأً: (ما كلُّ سوداء تمرة)[٢] إلى غير ذلك.

وللقرآن الكريم تصرُّفان في هذا الشَّأن ذوا أبعاد أدبيَّة وفكريَّة:

(الأوَّل): إبداع أمثال حسِّيَّة رائعة لظواهر معنويَّة، كقوله تعالى[٣] عن المنافقين ـ وهو يصف مكائدهم بالمسلمين وإبطال الله سبحانه لها ـ: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّـهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ**﴾، فالآية تشبِّه هؤلاء المنافقين ـ بالنَّظر إلى غايتهم الَّتي يتحرَّكون إليها في القضاء على المسلمين ـ بالَّذي يسير في مسيرةٍ مظلمةٍ، كما تشبِّه مكائدهم بالمسلمين بنارٍ يوقدها المرء بعناء ـ كما كان عليه الحال في تلك الأزمنة ـ فلمَّا علقت النَّار بالعود الَّذي هُيِّئ لإيقادها، وأضاء نوراً ليمشي به في ظلمات اللَّيل، ويصل إلى مقصده، فإذا بالنَّار تنطفئ، وتترك المرء في ظلماتٍ لا يبصر فيها شيئاً، فمكائد المنافقين تجاه المسلمين هي بهذه المثابة، فهي خطواتٌ غير متينةٍ ولا موثوقة، كما قال تعالى عن قوم[٤]: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّـهُ**﴾.

وأروع منه قوله تعالى[٥]: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّـهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

---

(١) المصدر السَّابق ج: ٢، ص: ٣١٢.

(٢) المصدر السَّابق ج: ٢، ص: ٢٨٧.

(٣) سورة البقرة: ١٧.

(٤) سورة المائدة: ٦٤.

(٥) سورة البقرة: ١٩ ـ ٢٠.

والمراد به تشبيه حال المنافقين في مسيرتهم تلك بالَّذي يسير في الظُّلمات، ويشبِّه خطواتهم في الكيد بالمسلمين ـ والَّتي يجدون فيها بصيص ضوءٍ ـ بالإنارة الَّتي تصاحب نزول الصَّاعقة من السَّماء؛ فإنَّ هذه الصَّاعقة وإن كانت تنير المكان بعض الشَّيء، إلَّا أنَّه سرعان ما تفنى وترجع الظُّلمة، على أنَّها مقرونةٌ بأصوات شديدة يمكن أن يموت الشَّخص بسماعها، فهو يضع يديه في أذنيه خشية الممات من مهابة تلك الأصوات، وهكذا حال المنافق فيما ينتظره من فرص الإيقاع بالمسلمين، فهو لا يبصر مقدار ما ينفعه، على أنَّه يخشى أن تعود المكيدة إليه، فيكون كالَّذي حفر حفرةً لغيره فوقع فيها، كما قال تعالى عن قوم[1]: ﴿**فَأَتَاهُمُ اللَّـهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾.

ومن الأمثال القرآنيَّة قوله تعالى[2]: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّـهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**﴾، وما أروع هذا المثل في تجسيد آثار الأقوال الطَّيِّبة والخبيثة في باطن هذه الحياة ثُمَّ فيما بعدها من النَّشأة الأُخرى وفق منظور الدِّين، فالأقوال الطَّيِّبة ـ وهي الَّتي توجِّه إلى الحقيقة، وتنير العقول، وتثبِّت القلوب على الحقِّ ـ هي بمثابة شجرةٍ طيِّبةٍ مباركةٍ تضرب جذورها في تخوم الأرض، وتعلو أغصانها المثمرة إلى آفاق السَّماء، وأمَّا الأقوال الخبيثة الَّتي تموِّه الحقائق، وتثير البغضاء، وتسيء إلى الآخرين فهي كشجرةٍ خبيثةٍ لا ثبات لها، ولا جدوى منها، إلَّا أنَّها تشغل حيِّزاً، وتوجب أذىً، ويكون الجهد المبذول

---

(١) سورة الحشر: ٢.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦.

حولها سُدىً.

(الآخر): ـ وهو محلُّ الشَّاهد هنا ـ النَّظر الـمَثَليّ إلى كلِّ شيءٍ في الحياة، بمعنى تلقِّيه نموذجاً لحالةٍ عامَّةٍ يكون الإنسان عرضةً له، وهو يؤدِّي إلى إيقاظ روح التَّأمُّل والتَّفكير والاتِّعاظ في الإنسان.

فإذا تأمَّل الإنسان أحوال السَّابقين استحضر أنَّهم مَثَلٌ له، فهو سوف يكون غداً مثلهم، كما كانوا هم بالأمس أحياء ثُمَّ ماتوا، وإذا تأمَّل أحوال الصَّالحين استحضر أنَّهم استثمروا ما أُعطوه حتَّى بلغوا مراتب الصَّلاح والفضيلة، فينبغي أن يكونوا مَثَلاً له وأسوةً في ذلك، وإذا تأمَّل أحوال الخاطئين استحضر أنَّهم بشرٌ مثله، ولم يكونوا بهذه الصِّفة من الأوَّل، وهو عرضةٌ لأن يكون كما كانوا، فعليه أن يحذر الوقوع فيما وقعوا، وإذا رأى مشهداً رائعاً آيلاً إلى الزَّوال استحضر زوال هذه الدُّنيا وانقضاءها، وحذر من الاغترار بها، وإذا لُدغ من جحرٍ مرَّةً اعتبر به، وتجنَّب مثله في المقبل من أيّامه وهكذا.

ونلاحظ أنَّ القرآن الكريم يشجِّع على هذه الرُّؤية إلى الأشياء، وهي رؤية ملؤها التَّفكير، والتَّعقُّل، والاعتبار، والعظة، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ**

---

(١) سورة إبراهيم: ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧.

الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾، وقال عزَّ من قائل[1]: ﴿وَضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّـهِ فَأَذَاقَهَا اللَّـهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، وقال جلَّت آلاؤه[2]: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقال تعالى[3]: ﴿ضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّـهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، وقال سبحانه[4]: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾.

هذا، إلى سائر النُّصوص الَّتي تشجِّع على النَّظر المـَثَليّ إلى كلِّ شيءٍ في الحياة ليكون كلُّ شيءٍ ممثِّلاً لسنخه ومذكِّراً به، فتكون رؤية الإنسان إلى هذه الحياة رؤيةً ثاقبةً ونافذةً ومتبصِّرةً، مثل ما جاء فيه من حكاية قصص السَّابقين والتَّوصية بالاعتبار بها، وما جاء في ذكر سنن الله سبحانه وتعالى في الخلق والتَّذكير باطِّرادها.

---

(١) سورة النَّحل: ١١٢.

(٢) سورة النُّور: ٣٤.

(٣) سورة التَّحريم: ١٠ ـ ١٢.

(٤) سورة يس: ١٣ ـ ١٤.

وبهذه الرُّؤية القرآنيَّة يكون القرآن كتاباً حيَّاً؛ لأنَّه وإن حكى قصصاً تاريخيَّةً عن الأزمنة السَّابقة، أو نظر إلى حالةٍ معاصرةٍ لنزوله، ولكنَّه يركِّز دائماً على ما تمثِّله مضامين تلك النُّصوص من سننٍ كونيَّةٍ تاريخيَّةٍ واجتماعيَّةٍ وإلهيَّةٍ، ومن معانٍ وقيمٍ أخلاقيَّةٍ وتربويَّةٍ، كي يرتقي الإنسان بالمشهد إلى فكرةٍ عليا، فيستنبط بذلك رسالة النَّصّ القرآنيّ في حقِّه. وبذلك يعود النَّصّ القرآنيّ برمّته إلى نصٍّ مَثَليٍّ تكون لكلِّ آيةٍ فيه رسالة إلى أيِّ إنسانٍ بما يناسب مضمون الآية وحال القارئ له، لينتقل إلى المعنى المـَثَليّ، كما في بعض الحديث عن أبي جعفرٍ الباقر عليه السلام[1]: ((ولو أنَّ الآية إذا نزلت في قومٍ ثُمَّ مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكنَّ القرآن يجري أوَّله على آخره ما دامت السَّماوات والأرض، ولكلِّ قومٍ آيةٌ يتلونها وهم منها من خيرٍ أو شرٍّ)).

وفي حديث آخر عنه عليه السلام[2]: ((إنَّ القرآن حيٌّ لا يموت، والآية حيَّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام ماتوا فمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين)).

وفي حديثٍ عن أبي عبد الله الصَّادق عليه السلام[3]: ((إنَّ القرآن حيٌّ لم يمت، وإنَّه يجري ما يجري اللَّيل والنَّهار، وكما تجري الشَّمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أوَّلنا)).

وقد كان المسلمون يتلون القرآن بهذا النَّفَس الَّذي يشعرون من خلاله أنَّه يعنيهم في كلِّ مضامينه، كما قال الإمام عليّ عليه السلام في خطبةٍ له في نهج البلاغة تُعرف بخطبة المتَّقين[4]:

---

(١) تفسير العيّاشيّ ج: ١، ص: ١٠.

(٢) المصدر السَّابق ج: ٢، ص: ٢٠٣، ح: ٦.

(٣) المصدر السَّابق ج: ٢، ص: ٢٠٣ ـ ٢٠٤، ذيل ح: ٦.

(٤) نهج البلاغة ص: ٣٠٤، الخطبة: ١٩٣.

((أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ)).

ما أجمل وأعمق هذه الرُّؤية للكون والكائنات، وما أوسع وأروع الأبعاد المنظورة بالنَّصِّ القرآنيّ.

أسلوب القرآن الكريم في استحضار الماضي والمستقبل

(**المثال العاشر**): أسلوب القرآن الكريم في استحضار الماضي والمستقبل حتَّى يكاد الإنسان يشعر بأنَّه يعيش فيه.

إنَّ استحضار الماضي والمستقبل هو جزءٌ مهمٌّ من رسالة القرآن الكريم.

أمَّا استحضار الماضي: فلأنَّه يمثِّل خلفيَّات هذه الرِّسالة بما يشتمل عليه من نشأة الإنسان، والغاية من خلقه، وقصص الأنبياء السَّابقين، ومصير المؤمنين والمكذِّبين لهم، مع ما في ذلك كلِّه من الأثر على وضوح مشهد الحياة بشكلٍ عامٍّ، والانتباه إلى مواطن العظة والاعتبار، والاستغناء عن تجربة ما اتَّفق لمرَّة أخرى.

وأمَّا استحضار المستقبل: فلأنَّه يمثِّل غلبة الحقِّ في صراع الحقِّ والباطل في هذه الحياة؛ إذ لا يصحُّ في النِّهاية إلَّا الصَّحيح، كما أنَّه يمثِّل النَّشأة الأخرى بما يقتضيه من التَّغيير الهائل في الوضع الكونيّ، وعود النَّاس كلِّهم إلى الحياة في مشهدٍ واحدٍ، ينتظرون حساب أعمالهم ليُجازى الَّذين أساؤوا بما عملوا، ويُجازى الَّذين أحسنوا بالحسنى، وفي ذلك تحفيزٌ لروح الحكمة وتقويةٌ لها؛ إذ من أصول الحكمة أن لا يفرِّط الإنسان بقليلٍ في الحاضر، ويفوِّت على نفسه كثيراً في المستقبل، فلا بُدَّ من النَّظر إلى المستقبل كأنَّه حالٌ

وحاضر.

وعليه: فمن المهمّ استحضار الماضي حتَّى كأنَّه قد تمَّ استرجاعه بالسَّير إلى الوراء، واستحضار المستقبل حتَّى كأنَّه قد طُوي الزَّمان فاتَّفق ما ينتظره الإنسان، فينقل النَّصُّ الإنسان إلى أجواء سابقة أو مستقبليَّة حتَّى كأنَّه يشعر بأنَّه يعيش فيها.

ولاستحضار الأمور الغائبة أدوات لغويَّة وأدبيَّة معروفة، إلَّا أنَّ القرآن الكريم يبدع في استعمالها بشكلٍ رائع:

١ ـ فمن الأدوات اللُّغويَّة قوله: (وإذ)[١]، ويُستعمل كثيراً في القرآن في مقام حكاية القصص لاستحضار زمانها، كقوله تعالى[٢]: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..**﴾ إلى آخر قصَّة الخلق، وقوله سبحانه[٣]: ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ..**﴾.

ولو قيل في الآيتين: (وقال ربُّك..) و(وقد نجَّيناكم..) لم يفد هذا الاستحضار.

٢ ـ ومن هذا القبيل استخدام (يوم) في بداية الجملة من غير أن يكون ظرفاً لفعلٍ سابق، فهو كأنَّه يحضر ذلك اليوم أمام الإنسان، وذلك كقوله تعالى[٤]: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا**﴾، وقوله سبحانه[٥]: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ**﴾.

٣ ـ ومن الأدوات الأدبيَّة استخدام الفعل الماضي الدَّالّ على التَّحقُّق في حكاية

---

(١) ولا يحضرني استعمالها كذلك في غير القرآن الكريم.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

(٣) سورة البقرة: ٤٩.

(٤) سورة آل عمران: ٣٠.

(٥) سورة الأنعام: ٢٢.

الأحداث المستقبليَّة ـ وهو ما يُعبَّر عنه بالتَّجوُّز بعلاقة (ما يكون) ـ، كقوله تعالى[1]: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّـهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّـهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، وجاء بعده أن سيق كلٌّ من الَّذين كفروا واتَّقوا إلى محالِّهم، وقد تقدَّم ذكر هذا المقطع قريباً.

٤ ـ ومن الأدوات اللَّطيفة حذف القول، وهي ظاهرةٌ متكرِّرةٌ في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى[2]: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وقوله سبحانه[3]: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وقوله عزَّ من قائل[4]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله جلَّت آلاؤه[5]: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

ومن أروع موارد حذف القول على سبيل استحضار المشهد قوله تعالى[6]: ﴿يَوْمَ

---

(١) سورة الزُّمر: ٦٧ ـ ٧٠.

(٢) سورة الأنفال: ٣٥.

(٣) سورة البقرة: ١٢٧.

(٤) سورة هود: ٢٥.

(٥) سورة الرَّعد: ٢٣ ـ ٢٤.

(٦) سورة آل عمران: ١٠٦ ـ ١٠٧.

تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، فالأصل في قوله (أكفرتم) (فيقال لهم أكفرتم)، كما قال النُّحاة؛ ولكنَّ الكلام من خلال هذا الحذف ينتقل إلى المشهد الخارجيّ مباشرةً حتَّى كأنَّه حاضر، فيذكر ما يُقال لهم[1].

هذه بعض الأمثلة لمواطن التَّميُّز والإبداع في القرآن الكريم.

وهناك أمثلة كثيرة أخرى مثل أسلوب الرِّفق في الإقناع أو التَّشديد، وأسلوب الإعراض أو الاهتمام بالأشياء، وأسلوب التَّصريح أو الكناية والتَّعريض في موارد الأمور الَّتي لا يحسن التَّصريح بها، وأسلوب التَّعليل بأنواعه أو ترك التَّعليل والإلزام بالتَّسليم، وذلك في كلِّ موضعٍ بحسبه، إلى غير ذلك ممَّا لا يسعني بيانه في هذا العرض الموجز.

إنَّ الصُّورة الَّتي أشعر بها وأجدها في نفسي من بلاغة النَّصِّ القرآنيّ وجوانب حسنه وجماله بالمقارنة مع سائر النُّصوص الأدبيَّة الدِّينيَّة وغيرها أجمل ممَّا وصفته بكثير، ولكنَّي

---

(١) ذلك أنَّ الحذف ينقسم إلى قسمين:

١ ـ الحذف النَّحويّ المحض، وهو حذف جزء من الكلام من غير غاية تخييليَّة مثل مَن سُئل (من جاء)، فقال (زيد)، فهو يريد (جاء زيد) فحذف (جاء) لدلالة السُّؤال عليه.

٢ ـ الحذف البلاغيّ، وهو حذف جزءٍ ممَّا يُقصد بالكلام لكي يكون معونةً على تخييل المعنى على وجهٍ آخر، من قبيل قول القائل (زيد أسد) فحذف كاف التَّشبيه لتخييل أنَّ زيداً هو الأسد بعينه. وما ذهب إليه بعض علماء البلاغة في مثل ذلك بأنَّه من قبيل التَّشبيه بحذف الأداة، ولا تخييل فيه ليس صحيحاً. وحذف القول في الآية وفق ما ذكرنا من هذا القسم، فهو لتخييل إحضار المشهد، وقد يخلط بعض علماء البلاغة والنُّحاة بين نوعي الحذف، فما هو شأن علم النَّحو رصد القسم الأوَّل، وما هو شأن علم البلاغة رصد القسم الثَّاني، فلاحظ.

حاولت أن أقرِّب الصُّورة بعض الشَّيء إلى أذهان الباحثين[1].

مقارنات معاكسة بين النَّصِّ القرآنيّ ونصوص أخرى مميَّزة

ولأجل مزيدٍ من جلاء هذه الصُّورة ينبغي الحديث عن مقارنة القرآن الكريم بنصوصٍ أخرى أدبيَّة ومميَّزة تتضمَّن حِكَماً رائعة في الحياة، أو أدعية بليغة، أو مضامين راقية تتحدَّث عن محبَّة الله سبحانه على وجه بليغ مؤثِّر في النُّفوس.

وهذه النُّصوص هي بلغات مختلفة من العربيَّة والفارسيَّة والتُّركيَّة وغيرها، بعضها صِيغَ بأسلوب الشِّعر، وبعضها جاء على سبيل النَّثر مثل حكم الإمام عليّ عليه السلام في رسالته إلى ابنه الحسن عليه السلام، ورسالته إلى مالك الأشتر، وأدعية الصَّحيفة السَّجَّاديَّة الَّتي تؤثَر عن الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام، إلى نصوصٍ أخرى معروفة عن أعلام وُصفوا بالحكمة أو بالأدب ـ كالحريريّ صاحب المقامات ومَن جرى مجراه من بعده ـ، أو بالتَّصوُّف والعرفان ـ مثل ابن الفارض والمولويّ صاحب المثنويّ وغيرهما ـ، وقد عُلم شدَّة تأثير أشعار الفريق

(١) ولعلّي أُوفَّق في المستقبل إلى بسط الأمثلة المذكورة، وضمِّ أخواتها في بحثٍ أوسع، أو إلى تفسيرٍ للقرآن الكريم أو جزءٍ منه أخصُّ فيه ـ بعد بيان مضمون السُّورة أو الفقرة من السُّور الطُّوال ـ عناوين ثلاثة:

أحدها: بيان الصِّبغات الموضوعيَّة الثَّلاث الَّتي عُني بها في القرآن (وهي الصِّبغة العقلانيَّة والحِكَميَّة والقيميَّة) في الفقرة المعروضة منه.

والعنوان الثَّاني: بيان بلاغة الفقرة بشرح النُّكات البلاغيَّة الَّتي رُوعيت في صياغة النَّصِّ القرآنيّ لإشباع المعنى وإثارة الذَّائقة البلاغيَّة لدى المخاطبين ـ على مثال ما أشرنا إليه في شأن بعض الآيات ـ.

والعنوان الثَّالث: بيان ما يقتضيه النَّظر الـمَثَليّ إلى تلك الآيات.

فإنَّني أجد فراغاً وحاجةً في الموضوع رغم جهودٍ مشكورةٍ للعلماء من قبل. وذلك مرهونٌ بتوفيق الله سبحانه.

الأخير في النُّفوس ـ كما يعلمه مَن يطَّلع على مشاعر المتصوِّفة عند إنشادهم لأشعار ابن الفارض ونحوها ـ.

كون القرآن هو النَّصُّ المؤسِّس المؤثِّر في سائر النُّصوص المعنويَّة

وينبغي الالتفات أنَّ التَّميُّز القرآنيّ باعتباره النَّصّ المؤسِّس محفوظ مع جلِّ هذه النُّصوص، فهي نصوصٌ وليدةٌ عن القرآن الكريم ـ إمَّا بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر ـ في كثيرٍ من مضامينها ومفرداتها واتِّجاهاتها، فالقرآن الكريم هو الصَّانع الأساس والأوَّل للنُّصوص الأدبيَّة الإسلاميَّة بمختلف أنواعها من الإلهيَّة والحِكَميَّة والأخلاقيَّة والدُّعائيَّة.

مثال طريف لاتِّباع أسلوب القرآن في عدم مخاطبة الله تعالى بصيغة الجمع

وممَّا يحضرني من أمثلة اتِّباع النُّصوص الأدبيَّة للقرآن الكريم هو عدم التَّخاطب مع الله سبحانه بصيغة الجمع.

بيان ذلك: أنَّ من النُّكات الأدبيَّة الظَّريفة الملحوظة في القرآن الكريم اختلاف الموقف في استعمال الجمع في شأن الله سبحانه وتعالى بين حالتين:

(الحالة الأولى): تعبير الله سبحانه وتعالى في شأن نفسه، فهنا يقع التَّعبير بالجمع كثيراً على سبيل التَّعظيم، كما قال سبحانه[1]: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾، وقال تعالى[2]: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[3]: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ**﴾، إلى مئات أو ألوف الموارد الَّتي استُعملت فيها صيغة الجمع وضمائره المتَّصلة مثل (نا)، والمنفصلة مثل (نحن) في شأن الله تعالى، وقد

---

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) سورة مريم: ٤٠.

(٣) سورة ق: ٤٣.

يُستعمل المفرد في شأنه سبحانه كما وقع في عشرات الموارد الأخرى، قال تعالى[١]: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّـهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾، وقال عزَّ من قائل[٣]: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..**﴾.

(الحالة الثَّانية): تعبير الخلق عن الخالق تعالى، سواء الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم، فهنا لم يقع التَّعبير بالجمع بتاتاً، بل التزم باستعمال المفرد في التَّعبير عنه تعالى، كما قال سبحانه[٤]: ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْـحَكِيمُ**﴾، وقال تعالى[٥]: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾، إلى مئات الموارد الأخرى.

وهذا أدب متَّبع من قبل المسلمين ـ وربَّما غيرهم أيضاً ـ، فهم لا يخاطبون الله سبحانه أبداً بصيغة الجمع، بل بصيغة المفرد ـ وإن كانوا يفعلون ذلك في شأن غيره كما قال الثَّعالبيّ[٦]: (سنَّة العرب أن يقولوا للرَّجل العظيم والملك الكبير: انظروا من أمري) ـ.

ويبدو أنَّ السِّرَّ في تجنُّب التَّعبير بالجمع عنه سبحانه في تعبير الخلق تأكيداً على توحيده وتفرُّده في الألوهيَّة حذراً عن أن يكون في تعبير الخلق بالجمع إيحاء سلبيّ خلاف ذلك.

وهناك مورد واحد وقع فيه مخاطبة الله سبحانه بالجمع في القرآن الكريم وهو قوله

---

(١) سورة طه: ١٤.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

(٣) سورة البقرة: ٣٣.

(٤) سورة البقرة: ٣٢.

(٥) سورة البقرة: ١٢٧.

(٦) فقه اللُّغة وسرُّ العربيَّة ص: ٣٠٠.

تعالى[١]: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْـمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾، ومحلُّ الشَّاهد ما جاء عن قول الكافر قبيل مماته خطاباً لله تعالى: ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ**﴾.

ولكن لا ينبغي الشَّكُّ إجمالاً في نظر هذه الآية إلى اعتبارٍ خاصٍّ برَّر استعمال الجمع فيها.

ومن الجائز أن يكون هذا الاعتبار هو نظر الخطاب في (ارجعونِ) إلى الله سبحانه والملائكة أو إلى الملائكة خاصَّةً ـ كما رجَّحه جمع[٢] ـ فيكون من قبيل الانتقال في الخطاب إلى الغير وإلى ما يشمل الغير، نظير قوله تعالى[٣]: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ..**﴾، وقد يُنزَّل عليه أيضاً قوله تعالى عن زوجة فرعون في شأن موسى عليه السلام[٤]: ﴿**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ**﴾، والوجه في هذا الانتقال أنَّ مَن يباشر قبض الأرواح إنَّما هم الملائكة بإذن الله سبحانه وتعالى ـ كما جاء في آياتٍ عديدة ـ والكافر يشهد نزول الملائكة عليه لقبض روحه، كما قال تعالى[٥]: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْـمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ**﴾، وقال سبحانه أيضاً[٦]: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْـمَوْتِ وَالْـمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ**﴾[٧].

---

(١) سورة المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) يلاحظ: التِّبيان في تفسير القرآن ج: ٧، ص: ٣٩٣، البرهان في علوم القرآن ج: ٢، ص: ٢٣٥.

(٣) سورة الطَّلاق: ١.

(٤) سورة القصص: ٩.

(٥) سورة الأنفال: ٥٠.

(٦) سورة الأنعام: ٩٣.

(٧) **هذا**، وقد أخطأ جمعٌ من الأدباء وغيرهم في شأن الآية فنزَّلوها على التَّعظيم على حدِّ التَّعبير عنه

وأيّاً كان: فرغم اقتفاء النُّصوص المعنويَّة الإسلاميَّة أثر القرآن الكريم فالواقع أنَّ النَّصَّ القرآنيّ يبقى نصَّاً مميَّزاً بالمقارنة مع هذه النُّصوص إذا تأمَّل الإنسان العناصر الدَّخيلة في البلاغة بمجموعها.

تعالى بالجمع في سائر الموارد، مثل ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**﴾ (يلاحظ: أصول السرخسيّ ج: ١، ص: ١٣٤، فقه اللُّغة وسرّ العربيَّة ص: ٣٠٠، الكشَّاف ج: ٣، ص: ٤٢، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ص: ٧٠، وتفسير الآلوسيّ ج: ١٨، ص: ٦٢).

ووجه الخطأ: أنَّهم لم ينتبهوا إلى أنَّ ما وقع في سائر الموارد كان في كلام الله سبحانه عن نفسه، واستخدام الجمع فيه للتَّعظيم سائغ، ولكن هذه الآية ليست من هذا القبيل؛ لأنَّه من قبيل استخدام الجمع من قبل الخلق في مخاطبة الخالق، وهو أمر غير مستساغ، ولم يقع في القرآن الكريم أبداً فيما عدا هذه الآية.

وعليه: فلا بُدَّ أن يكون التَّعبير بالجمع في هذه الآية باعتبارٍ خاصٍّ بها.

نعم، نقل الزَّمخشريّ ومَن بعده كأبي حيّان والآلوسيّ بيتاً ورد فيه ذلك، وهو:

ألا فارحموني يا إله محمَّد فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

ولكنَّ ذلك شاذٌّ، ومخالف للذَّوق الأدبيِّ العامّ، لا سيَّما أنَّه أفرد لاحقاً بقوله (فأنت).

على أنِّي لا أثق بصحَّة النَّقل؛ إذ من الجائز أن يكون الصَّواب (فارحمني) لاستقامة وزن البيت عليه، وهو أجمل وأبلغ على كلِّ حال، ولو صحَّ النَّقل فربَّما كان أشبه بالاضطرار لأجل الوزن؛ لعدم استحضار الشَّاعر البديل، على أن لا ندَّعي أنَّ ذلك خطأ لغويّ، ولكنَّه أمر غير مستحسن ولا فصيح، ولا حجَّة في وروده في الشِّعر، بل ولا النَّثر على خلاف ذلك.

وخرَّج بعض آخر من النُّحاة الآية ـ كالرَّضيّ في شرحه على الكافية ج: ١، ص: ٤٩، ج: ٣، ص: ٣٦٢، ج: ٤، ص: ٤٨٠ ـ على وجهٍ ثالث، وهو أن يكون الإتيان بواو الجماعة في (ارجعونِ) للدَّلالة على تكرار الفعل تأكيداً فيكون المراد (ارجعني ارجعني ارجعني)، وذلك بدعوى أنَّ ذلك أمر معهود في اللُّغة، ونزَّلوا عليه قوله تعالى: ﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ**﴾ (سورة ق: ٢٤)، فالمراد: ألقِ ألقِ. وقول الشَّاعر: (قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ) فالمراد: (قف قف)، وهو ضعيف.

وسوف نذكر في هذا السِّياق عدَّة نكات عامَّة، ثمّ نبيِّن الفرق العمليّ بين الأسلوب القرآنيّ وغيره من خلال عددٍ من الأمثلة، ونبيِّن أيضاً محدِّدات المنهج القرآنيّ الحكيمة في مقام إثارة المشاعر.

نكات عامَّة حول اختلاف الأساليب الأدبيَّة بين القرآن وسائر النُّصوص

١ ـ ضرورة الانتباه إلى مقاصد النُّصوص الأدبيَّة عند مقارنة مستواها البلاغيّ

٢ ـ حقيقة البلاغة بموافقة الكلام لمقتضى الحال واختلاف ذلك باختلاف ملابسات الكلام

خصائص للنَّصِّ القرآنيّ تحدِّد لياقات هذا النَّصّ

٣ ـ اختلاف الأساليب الأدبيَّة المناسبة باختلاف المتكلِّم والمخاطب ومضمون الكلام

تقسيمات متعدِّدة للأدب بوجهٍ عامٍّ

٤ ـ انقسام توظيف الأساليب الأدبيَّة إلى راشد وخاطئ

نكات عامَّة حول اختلاف الأساليب الأدبيَّة بين القرآن وسائر النُّصوص

أمَّا النُّكات العامَّة فهي أربع:

ضرورة الانتباه إلى مقاصد النُّصوص الأدبيَّة عند مقارنة مستواها البلاغيّ

(النُّكتة الأولى): إنَّ تقييم مستوى بلاغة النَّصِّ في مقام المقارنة بينه وبين النُّصوص الأخرى يختلف باختلاف العلاقة بين أغراض هذه النُّصوص ومقاصدها.

فإذا كانت جميعاً مشتركة في الغرض المنظور بالنَّصِّ كانت المقارنة أسهل، كما لو فُرض أنَّ جماعةً من الأدباء سعوا في وصف صورة واحدة رائعة وجميلة، فيقارَن بين نصوصهم ويقدَّر الأفضل منها. وقد جاء في نهج البلاغة أنَّ الإمام عليّ عليه السلام سُئل مَن أشعر الشُّعراء؟ فقال عليه السلام[1]: ((إِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَجْرُوا فِي حَلبة تُعْرَفُ الْغَايَةُ عِنْدَ قَصَبَتِهَا، فَإِنْ كَانَ وَلاَ بُدَّ فَالْـمَلِكُ الضِّلِّيلُ ـ يريد امرأ القيس ـ)).

وأمَّا إذا كانت النُّصوص مختلفة في المقاصد فحينئذٍ لا بُدَّ من المقارنة النِّسبيَّة؛ بمعنى أن يلاحَظ مستوى بلاغة هذا الكلام وروعته بالقياس إلى مقصده والوقع النَّفسيّ له تجاه هذا المقصد، بالقياس إلى مستوى بلاغة الكلام الآخر بالنِّسبة إلى المقصد الآخر المنظور به.

ومثل هذه المقارنة تحتاج إلى مزيد من الدِّقَّة والتَّحرِّي؛ لأنَّ الغاية الَّتي يُقاس مستوى إيفاء النَّصِّ بها وبلوغه إليها مختلفة في أطراف المقارنة.

وقد تتجلَّى النُّصوص المتعدِّدة من بعيد ذات مقصدٍ واحدٍ، ولكن إذا اقترب المرء منها وتأمَّلها جيِّداً يجد أنَّها في الحقيقة ذات مقاصد مختلفة، لكنَّها متناسبة أو متشابهة بعض الشَّيء أو متفرِّعة عن مقصدٍ نوعيٍّ واحد.

ومن الضَّروريّ في هذا السِّياق الانتباه إلى أنَّ مقصد القرآن الكريم هو الإرشاد إلى

(١) نهج البلاغة ص: ٥٥٦، القول: ٤٥٥.

الحقائق الكبرى، والغايات العليا لهذا الوجود، واستنطاق الكون والكائنات كلِّها من هذه الزَّاوية استنطاقاً يوجب إذعان العقل، وإقناع القلب، وإزالة الخرافات والأساطير والعوائق الَّتي تحول دون الاقتناع بذلك، بما يرسم الاتِّجاه الحكيم في الحياة.

فالنَّصُّ القرآنيّ نصٌّ دينيٌّ وليس نصَّاً حِكَميَّاً أو دعائيَّاً محضاً، فهو يتطرَّق إلى الحكمة بما أنَّها جزء من الرُّشد الإنسانيّ والدِّينيّ وإلى الدُّعاء والسُّؤال من الله تعالى، باعتبار استيجاب الفطرة الإنسانيَّة وحاجة الإنسان إلى الله، ولطف الله سبحانه بالإنسان، على أنَّه البديل الصَّائب للسُّؤال من الأصنام ونحوها، مضافاً إلى ما جاء من الدُّعاء في ذكر أحوال المؤمنين والصَّالحين ليبيِّن التَّجربة الَّتي عاشوها والغايات الَّتي قصدوها.

وقد اقتفى بعض النُّصوص الدِّينيَّة هذا المقصد، كجملةٍ من خطب الإمام عليّ ﵇، ولكن لا يرتقي كثير من تلك النُّصوص إلى هذا المقصد في غاياتها، ولكنَّها تسعى إلى توصيف بعض الحِكَم الجزئيَّة والتَّجارب الحياتيَّة وإظهار الحبِّ والحنين إلى الله تعالى.

حقيقة البلاغة بموافقة الكلام لمقتضى الحال واختلاف ذلك باختلاف ملابسات الكلام

(**النُّكتة الثَّانية**): إنَّ بلاغة النَّصِّ هي أن تكون صياغة النَّصِّ مناسبةً لمقتضى الحال، وفق التَّعبير السَّائد بين علماء البلاغة، والمراد بـ(مقتضى الحال) أن تكون هذه الصِّياغة هي الأنسب والأكثر وقعاً في الموضوع الَّذي يتناوله النَّصُّ، وفي الموقع الَّذي أُلقي فيه الكلام بحسب الزَّمان والمكان والمتكلِّم، وبحسب خصوصيَّات المخاطب والمجتمع، مع تقدير الأفق المنظور بالكلام زماناً ومكاناً، لتصل رسالته الَّتي تُقصَد من ورائه على أنجح وجه إلى المخاطبين والمنظورين بالخطاب.

وعليه: لا بُدَّ من الالتفات إلى أنَّ النَّصَّ القرآنيّ وإن كان ينظر إلى أمد مفتوح؛ بالنَّظر إلى أنَّه رسالة من الله سبحانه إلى العباد من المخاطبين واللَّاحقين، وهي رسالة خاتمة

حسب ما نصَّ عليه فيها، لكنَّه كان ـ باقتضاء البلاغة نفسها ـ منسجماً ومناسباً مع ظروف نشأته ووجوده.

وهذا عامل يختلف به عن النُّصوص اللَّاحقة بطبيعة الحال الَّتي جاءت في ظلِّ أجواء مختلفة من حيث: المتكلِّم، والمخاطب، والمنظومة الفكريَّة الَّتي تتحدَّث في ضمنها، والأجواء الَّتي أُلقي النَّصُّ فيها.

خصائص للنَّصِّ القرآنيّ تحدِّد لياقات هذا النَّصّ

ويمكن توضيح خصائص النَّصِّ القرآنيّ من خلال عدَّة اعتبارات كما يلي:

(الأوَّل): من حيث ذات النَّصِّ، فهذا النَّصُّ يتميَّز بكونه نصَّاً حسَّاساً للغاية؛ لأنَّه النَّصُّ الأساس المقوِّم للدِّين، حيث يقوم بوظيفة رسم معالمه وتعاليمه، ويتبوَّأ مركز الصَّدارة في هذا الدِّين، ممَّا يجعله معرَّضاً للتَّركيز على نقده من قِبَل خصومه من أصحاب الأديان السَّابقة وغيرها، وأمَّا سائر النُّصوص الدِّينيَّة الأدبيَّة فهي ليست في الواجهة في هذا المستوى، بل إنَّما تعمل تحت ظلِّ النَّصِّ القرآنيّ.

(الثَّاني): من حيث موضوع النَّصّ، وقد تقدَّم أنَّ موضوع هذا النَّصّ أيضاً موضوعٌ حسَّاسٌ للغاية، وهو الإيفاء بالحقائق الكُبرى في الوجود، ورسم الاتِّجاه الصَّحيح في الحياة بذكر خطوطه العريضة.

(الثَّالث): من حيث المتكلِّم بالنَّصِّ، فإنَّ شخصيَّة المتكلِّم تؤثِّر بطبيعة الحال في لياقات الكلام ومناسباته، فرُبَّ كلام يليق بمتكلِّمٍ دون آخر، والمتكلِّم بالنَّصِّ القرآنيّ هو الله سبحانه الخالق للكون والكائنات، والمهيمن عليها المحيط بها المدبِّر لها، وهو سبحانه شخصيَّة جادَّة لا يناسبها هزل ولا مزاح رغم كونه تعالى لطيفاً ودوداً.

(الرَّابع): من حيث المخاطبين به، فهذا النَّصّ موجَّه لعموم النَّاس، وهم بالدَّرجة

الأولى المخاطبون المشافهون بالنَّصّ، وفي الدَّرجة الثَّانية الأجيال اللَّاحقة لهم، وليس نصَّاً معَدَّاً ولا موجَّهاً لطبقة من الخواصِّ مثل المعنيِّين بالعبادة والزُّهد والذِّكر.

وعليه: لا بُدَّ من أن يشتمل على الأبعاد المختلفة بمقادير مناسبة، وبذلك يتَّصف بمزيد من الحسَّاسيّة والخطورة والجدّ.

فهذه اعتبارات أربعة تحدِّد لياقات النَّصِّ من حيث الأساليب اللَّفظيَّة والمعنويَّة.

اختلاف الأساليب الأدبيَّة المناسبة باختلاف المتكلِّم والمخاطب ومضمون الكلام

(النكتة الثَّالثة)[١]: إنَّ الأساليب الأدبيَّة المناسبة تختلف باختلاف المتكلِّم والمخاطب وموضوع الكلام وخصوصيَّات المقام، فليس كلُّ أسلوبٍ رائع يكون كذلك في كلِّ مقام، بل قد يكون رائعاً في مقام دون آخر، فهناك أساليب وأدوات تكون مقبولةً ـ مثلاً ـ في مقامات مثل الغزل والتَّسلية والعزاء والمزاح، ولكنَّها لا تناسب مقامات تبليغ الحقائق الكبرى للحياة أو إلقاء الحِكَم والآداب.

تقسيمات متعدِّدة للأدب بوجهٍ عامّ

ومن هذه الزَّاوية يمكن تقسيم الآداب إلى تقسيمات متعدِّدة[٢]:

(الأوَّل): انقسام الأدب إلى أدب الكبار وأدب الطُّفولة. وهذا تقسيم للأدب بالنَّظر إلى مخاطبيه؛ حيث إنَّ هناك تفاوتاً في لياقات الكلام من حيث كون مخاطبه كبيراً أو طفلاً،

---

(١) الفرق بين هذه النُّكتة وسابقتها أنَّ النُّكتة السَّابقة كانت مسوقةً لبيان أنَّ بلاغة الكلام قد تقتضي أساليب مختلفة في الإيفاء بالمقصد بحسب اختلاف مقتضي الحال. وهذه النُّكتة مسوقة لبيان أنَّ الأساليب الأدبيَّة تختلف بحسب نوع الأدب المناسب مع المورد، فليس كلُّ أسلوب يكون بليغاً في كلِّ مقام، والموضوعان مترابطان.

(٢) تعرَّضت لجملة من هذه التَّقسيمات ببيان أكثر في مباحث المجاز من علم الأصول (يلاحظ: مباني الأصول ج: ٢، ص: ١٥٢ ـ ١٥٨).

ويتميَّز أدب الطُّفولة بمراعاة قابليَّات الطِّفل الذِّهنيَّة والنَّفسيَّة والكلاميَّة، والَّتي تختلف عن قابليَّات الإنسان الرَّاشد، بل قد تختلف الأساليب اللَّائقة بحسب اختلاف بعض المراحل العمريَّة الأخرى كالمراهقة وما بعدها.

(الثَّاني): انقسام الأدب إلى أدب الجِدِّ وأدب الهَزل، فهناك لياقات لأدب الجدِّ هي أضيق بكثيرٍ من أدب الهزل، فبعض الأساليب المقبولة في أدب الهزل لا تليق بالكلام الملقى على سبيل الجدِّ.

على أنَّ للجدِّ والهزل مراتب بعضها فوق بعض، وتختلف لياقات الكلام بحسبها، فهناك كلام جادٌّ بعض الشَّيء ولكنَّه مشوب بالخفَّة والمرح، فتكون لياقاته أوسع ممَّا يفوقه في الجدِّ وأضيق من المتمحض في الهزل.

(الثَّالث): انقسام الأدب إلى أدب التَّفهيم والأداء وأدب التَّعمية، فقد يكون المتكلِّم في مقام تفهيم مقصوده، فيناسب استعمال أساليب أدبيَّة مفهِّمة وواضحة، بينما لا يجب ذلك إذا كان في مقام يقتضي التَّرميز، والتَّعمية، والتَّورية.

(الرَّابع): انقسام الأدب إلى أدب الطَّبيعة وأدب ما وراء الطَّبيعة.

والمراد بـ(أدب الطَّبيعة) الحديث عن هذا العالم المادِّيّ، وتوصيف كائناته وظواهره، وبـ(أدب ما وراء الطَّبيعة) الأسلوب الأدبيّ في شرح العوالم الغامضة مثل الكائنات الرُّوحانيَّة، وعالم وجود الإنسان بعد الممات ـ المعبَّر عنه بـ(عالم البرزخ) ـ وعالم نشأة الخلق وعالم القيامة.

(الخامس): انقسام الأدب إلى أدب الأداء العاديّ والأداء المتميِّز. والمراد بـ(الأداء العاديّ) هو الأداء المتعارف بين النَّاس عند المحادثة فيما بينهم، وبـ(الأداء المتميِّز) ما يليق بالخطب والقصائد الشِّعريَّة، وذلك أنَّ من المعلوم أنَّه لا يحسن من المرء أن يتكلَّم في

المحادثات العاديَّة في البيت والسُّوق والمدرسة بكلامٍ مزوَّق أشبه بالخطبة، ومن هذا الباب ما يأتي عن النَّبيِّ ﷺ والإمام عليّ عليه السلام في مقام بيان الأحكام لآحاد النَّاس.

(السَّادس): ـ وهو محلُّ الشَّاهد هنا ـ انقسام الأدب المعنويِّ إلى الأدب الإلهيِّ القرآنيِّ والأدب المعنويِّ الإنسانيِّ. ونعني بالأوَّل الأدب المتمثِّل في كلام الله سبحانه، كما جاء في القرآن الكريم، حيث رُوعيت فيه لياقات خاصَّة، لا سيَّما في مقام الحديث عن الذَّات الإلهيَّة، وعن نسبة الخلق وعلاقتهم به، وقد اتَّبع النَّصَّ القرآنيَّ في هذا المقام الآثارُ الموثوقةُ والمشهودةُ عن أهل البيت عليهم السلام مثل خطب الإمام عليّ عليه السلام وأدعية الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام في الصَّحيفة السَّجَّاديَّة.

كما أنَّ المراد بالثَّاني ما يتمثَّل في النُّصوص الَّتي صاغها الأدباء والمتصوِّفة وغيرهم.

انقسام توظيف الأساليب الأدبيَّة إلى راشد وخاطئ

(النُّكتة الرَّابعة): إنَّ الأساليب الأدبيَّة هي أدوات توظَّف للتَّأثير في مشاعر المخاطبين بالكلام: إمَّا بتهدئتها، أو بتأجيجها.

وهذا التَّوصيف طوراً يكون راشداً، وطوراً آخر يكون خاطئاً وغير راشد.

فالتَّوظيف الرَّاشد أن تكون إثارة المشاعر في حدود ما تكون وسيلةً لنفوذ المعاني الصَّائبة والرَّاشدة في النَّفس الإنسانيَّة لكي تؤدِّي بالإنسان إلى الموقف الصَّائب والسُّلوك السَّليم.

والتَّوظيف غير الرَّاشد هو أن يهتمَّ المتكلِّم بتأجيج المشاعر في اتِّجاه غايته المنظورة دون النَّظر إلى مضاعفاته وآثاره في المخاطبين في المدى المنظور.

والَّذي يتَّضح بمقارنة النَّصِّ القرآنيِّ بالنُّصوص الأخرى أنَّ القرآن الكريم لاحظ حدوداً معيَّنة لإثارة المشاعر، لتكون هذه الإثارة على وجهٍ تربويٍّ راشد.

ومن جملة مظاهر ذلك تجنُّب القرآن الكريم الاعتماد على الأساليب الأدبيَّة في مقام الإقناع.

توضيح هذا المعنى: أنَّ للمتكلِّم هدفين بالكلام تجاه المخاطب:

١ ـ إقناعه الفكريّ بصواب مضمونه.

٢ ـ وتأثيره في مشاعره.

والأسلوب الرَّاشد والمنطقيّ في مقام الإقناع لَمن يريد الإقناع بالحقِّ هو الاستناد إلى مبادئ واضحة وحجج موضوعيَّة، ولا يصحُّ الاستناد إلى نكاتٍ خطابيَّة وأدبيَّة؛ فإنَّ ذلك يمثِّل ثغرةً في الخطاب يمكن نقده من خلالها، ثُمَّ هو يروِّج الأسلوب الخطابيّ في الإقناع والاقتناع، والَّذي يمكن أن تستخدمه الاتِّجاهات الأخرى الخاطئة.

وعليه: فإنَّ المكان الصَّحيح للأدوات الأدبيَّة أن تُستخدَم في مقام جعل الكلام الصَّائب أخَّاذاً ونافذاً في القلوب، حتَّى يخاطب الكلام بمنطقه العقل وبأسلوبه القلب، فيوجب إذعان المخاطب، ويقيه الخطأ من المنفذين (العقل والقلب) جميعاً.

ومن ثَمَّ اعتنى القرآن الكريم بأن يستند الإقناع في مضمونه إلى العقل والتَّفكُّر والرُّشد والهدى في مقابل الجهل والانفعال والغيّ والضَّلال، ومن ثَمَّ أكَّد على الاعتماد على الحجَّة والبرهان والتَّفكير والوعي ـ كما جاء في نصوصٍ قرآنيَّةٍ كثيرة ـ ولكنَّه استخدم الأساليب الأدبيَّة في صياغة الكلام للتَّأثير في القلوب والمشاعر[1].

ولأجل ذلك تجنَّب القرآن الكريم ـ وهو النَّصُّ المحور والأساس في الدِّين ـ أيَّ أسلوبٍ أدبيٍّ يمكن أن يندرج في إقناع المخاطبين بالحقائق بطريقة خطابيَّة، تعتمد على تهييج مشاعرهم، وليس على استبانتهم للحقِّ والهدى.

---

(١) يلاحظ: القواعد الفطرية العامَّة للمعرفة الإنسانيَّة والدِّينيَّة، القاعدة: ١٢، ص: ٣٥٨ وما بعدها.

فهذه نكات أربع عامَّة تبيِّن المعايير الَّتي ينبغي الانتباه إليها عند المقارنة بين كلامين في مستواهما البلاغيّ، وتتضمَّن بيان العناصر المؤثِّرة في اختيار أسلوبٍ أدبيٍّ دون آخر، مع إلفات النَّظر إلى أنَّ مقتضى ذلك امتياز القرآن الكريم بلياقاتٍ أدبيَّةٍ خاصَّةٍ به بالقياس إلى النُّصوص المعنويَّة الإنسانيَّة.

ولأجل توضيح ما تنطوي عليه هذه النُّكات من جهات الفرق بين الأدب الإلهيّ والقرآنيّ وبين الأدب المعنويّ الإنسانيّ نتعرَّض لموضوعين:

١ ـ بيان الفرق العمليّ بين الأسلوب الأدبيِّ القرآنيّ وجملةٍ من الأساليب الأخرى.

٢ ـ بيان المنظور القرآنيّ في سياسة (تحريك المشاعر) من خلال الآداب القوليَّة والعمليَّة العباديَّة.

(١) الفرق العمليّ بين أسلوب القرآن وغيره في تجنُّبه لعددٍ من الأساليب المعروفة

تجنُّب القرآن الكريم للقصص الجعليَّة

تجنُّب القرآن الكريم المبالغة في الخيال

تجنُّب القرآن الكريم للأسلوب الشِّعريّ

تجنُّب القرآن الكريم للتَّكلُّف في الأداء ولو كان تحرِّياً لبعض المحسِّنات الكلاميَّة

تجنُّب القرآن الكريم لبعض المحسِّنات المعنويَّة البديعيَّة

تجنُّب القرآن الكريم للتَّعميَّة والتَّوريَّة والتَّرميز

تجنُّب القرآن الكريم لتشبيهات ذات إيحاءات غير مناسبةٍ للنَّصِّ القرآنيّ

تجنُّب القرآن الكريم تشبيه المحبوب الإلهيّ بالفتاة الحسناء

خلوّ نصوص المحبَّة في القرآن والسُّنَّة عن التَّشبيه بالفتاة

تجنُّب القرآن الكريم تشبيه المحبوب الإلهيّ بالغلام

تجنُّب القرآن الكريم تشبيه مشاعر الحبّ ومبادئه بالسُّكر والخمر

تجنُّب القرآن الكريم للتَّشبيهات الّتي تعبِّر بالاتِّحاد مع الله سبحانه

(٢) المنظور القرآنيّ في حدود تحريك المشاعر من خلال الأساليب الأدبيَّة

نتيجة ما تقدَّم

الفرق العمليّ

بين الأسلوب القرآنيّ والأساليب الأخرى

الفرق العمليّ بين أسلوب القرآن وغيره في تجنُّبه لعددٍ من الأساليب المعروفة

(الموضوع الأوَّل): حول الفرق العمليِّ بين الأسلوب القرآنيِّ والأساليب الأخرى.

ويتَّضح ذلك من خلال ذكر ضوابط عدَّة يراعيها النَّصُّ القرآنيّ ـ من دون حصرٍ واستيعابٍ ـ:

١ ـ تجنُّب القصص الجعليَّة.

٢ ـ تجنُّب المبالغة في الخيال.

٣ ـ تجنُّب الأسلوب الشِّعريِّ.

٤ ـ تجنُّب التَّكلُّف في الأداء.

٥ ـ تجنُّب بعض المحسِّنات البديعيَّة المعنويَّة.

٦ ـ تجنُّب التَّعمية والتَّورية والتَّرميز.

٧ ـ تجنُّب التَّشبيهات غير المناسبة من جهة إيحاءاتها السَّلبيَّة.

وفيما يلي توضيح هذه الضَّوابط تباعاً:

تجنُّب القرآن الكريم للقصص الجعليَّة

(الضَّابط الأوَّل): تجنُّب القرآن الكريم للقصص الجعليَّة الَّتي يبيِّن من خلالها الحِكَم، وهي قصص افتراضيَّة ومفتعلة لا أساس لها، ولكنَّها تُجعل لترويج الحكمة الَّتي تُبيَّن من خلالها.

وقد استخدم الكثير من الحكماء والأدباء هذه القصص لأجل أداء أروع؛ لبيان الحكمة ـ كما في نصوص (سعدي الشِّيرازي) و(مولوي صاحب المثنوي) ـ.

إلَّا أنَّ ذلك لم يكن مناسباً مع القرآن الكريم[1]، لما في ذلك من شوائب الكذب والتَّلفيق، فلا يلائم الكلام الصَّادر من الله سبحانه وتعالى بما ينبغي أن يكون عليه من الوقار والابتعاد من الشَّوائب والشُّبهات.

وعليه: فإنَّ تضمُّن الكلام لهذه القصص يؤدِّي إلى بلاغة الكلام وحسنه في كلمات الحكماء والأدباء، ولكنَّها لا تؤدِّي إلى بلاغة النَّصِّ القرآنيِّ. رغم أنَّ هذا النَّصَّ لو استخدم مثلها لأدَّى ذلك إلى ضربٍ من الحسن في الكلام، لكنَّه يخرج عن اللِّياقات البلاغيَّة للنَّصِّ.

فالقصص الجعليَّة هي ضرب من الخيال الأدبيِّ، ولكنَّها أساطير وليست وقائع مجرَّبة فعلاً، فهي تصلح أن تكون أداةً أدبيَّة في نصوص آخرين، ولكنَّها ليست مناسبةً للقرآن ومكانته ووقاره. وفي تجنُّب القرآن الكريم للقصص الجعليَّة ما يساعد على نفي ما جاء فيه بأنَّه من قبيل الأساطير المحضة، كما قيل عليه أوَّلاً منذ أوائل نزول القرآن، كما جاء في سورة القلم ـ وهي السُّورة الثَّانية في ترتيب النُّزول المعروف بين السُّور المكِّيَّة ـ[2]: ﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾، وقال تعالى[3]: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ**

(١) وربَّما حمل بعض الباحثين بعض حكايات القرآن الكريم على أنَّها قصص جعليَّة لغايات حِكَميَّة، وهو أمر غير موثوق، لا حجَّة عليه بعد التَّأمُّل في الأمثلة المطروحة.

(٢) سورة القلم: ١٥.

(٣) سورة الأنعام: ٢٥.

يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وقال سبحانه[١]: **﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾**، وقال عزَّ من قائل[٢]: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾**، إلى آيات أخرى[٣].

تجنُّب القرآن الكريم المبالغة في الخيال

(**الضَّابط الثَّاني**): تجنُّب القرآن الكريم المبالغة في الخيال، فالأدب يتقوَّم في جزءٍ كبيرٍ من أساليبه المعنويَّة بالخيال، فالمجازات بأنواعها كلِّها ضروب من الخيال، إلَّا أنَّ الخيال ينقسم إلى قسمين:

١ ـ الخيال القريب من الواقع.

٢ ـ والخيال المبالغ فيه الَّذي يكاد يهيمن على عنصر الصِّدق ووصف الحقيقة في الكلام، وقد يُسمَّى بالكذب الشِّعريّ.

مثال ذلك: أسلوب حسن التَّعليل، والمراد به تعليل الأمور بغير أسبابها الحقيقيَّة لغاية أدبيَّة[٤]، كقول القائل في الرِّثاء:

---

(١) سورة الأنفال: ٣١.

(٢) سورة النَّحل: ٢٤.

(٣) لاحظ: سورة المؤمنون: ٨٣، الفرقان: ٥، النَّمل: ٦٨، الأحقاف: ١٧، المطفِّفين: ١٣.

(٤) وليس من هذا القبيل قوله تعالى عن موسى ﷺ: **﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾** (سورة القصص: ٨)؛ فإنَّ لام التَّعليل في قوله: **﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾** لم يقصد به إثبات هذا التَّعليل في نفسه، بل للدَّلالة على جهل فرعون وآله، رغم ادِّعائه للألوهيَّة، واستكباره عن الإذعان بالله سبحانه، فإذا به يلتقط طفلاً ليتَّخذه ولداً، وهو لا يعلم أنَّه سوف يكون عدوَّاً له وحزناً. ومن النُّحاة من جعل اللَّام في الآية لام العاقبة، وعدَّها في مقابل لام التَّعليل. وهو خلط بين المؤدَّى اللُّغويّ للكلمة والمؤدَّى البلاغيّ للكلام؛ فإنَّ المؤدَّى اللُّغويّ للَّام هو التَّعليل، ولكنَّ مؤدَّاه

ومـا كُلفـة البـدر المنـير قديمـة ولكنَّها في وجهـه أثـر اللَّطـم

فالشَّاعر هنا يعلِّل الكلفة الَّتي يراها تكدِّر بعض الشَّيء البياض الصَّافي للبدر بأنَّها حدثت للطمٍ على المرثيِّ.

ومن هذا القبيل المغالطة اللَّفظيَّة، وعليه خرَّج بعض علماء الأصول والأدب[1]، قول القائل في ممدوحه:

يـا بـدر أهلـك جـاروا وعلَّمـوك التَّجـرِّي

وحرَّمـوا لـك وصـلي وحلَّلـوا لـك هجـري

فليفعلـوا مـا يشـاؤوا فإنَّهـم أهـل بـدرِ

ويستعمل الأدباء ـ عادةً ـ الخيال بنوعيه لاستمتاعهم ومخاطبيهم بذلك، وقد قيل في الشِّعر: إنَّ (أكذبه أعذبه).

لكن من المفهوم أن يتعالى النَّصُّ القرآنيُّ عن القسم الثَّاني؛ لأنَّه قد يشوِّه صفة الصِّدق والجدِّ والحقَّانيَّة في الكلام، ويقترب بذلك من الشِّعر في طبيعته المعروفة من الإغراق في التَّخيُّل والأوهام.

لا سيَّما أنَّ القرآن الكريم قد وصف مشاهد من القيامة قد تبدو أقرب إلى الخيال في تلقِّي المجتمع العربيِّ آنذاك، الَّذي كان يواجه هذه التَّوصيفات بالاستنكار والاستغراب، ويعتبرها أقرب إلى الشِّعر والأساطير، ولكنَّ القرآن الكريم كان يؤكِّد بالأيمان المؤكَّدة

البلاغيّ هو العاقبة. وقد ذكر ابن هشام في (مغني اللَّبيب ج: ١، ص: ٢١٤) القول في ذلك.

(١) مثل هذا البيت خرَّجه علماء البديع من قبل على التَّلميح (يلاحظ: خزانة الأدب وغاية الأرب ص: ١٨٥)، ولكن خرَّجه العلَّامة الشَّيخ محمَّد رضا النَّجفيّ في (وقاية الأذهان ص:١١٧) على المغالطة الأدبيَّة، وقال إنَّه: (استعار البدر لمحبوبه أوَّلاً، وجعل أهله أهل بدر، ثُمَّ بالمغالطة اللَّفظيَّة نزَّل عليهم المنقول من قوله ﷺ: ((يا أهل بدر افعلوا ما شئتم فقد غُفر لكم)).

والمغلطة أنَّها توصيفات صادقة وحقيقيَّة، كما قال سبحانه[١] ـ بعد وصف رجوع الإنسان إلى الحياة في يومٍ تُبلى فيه السَّرائر ـ: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْـهَزْلِ**﴾، وقال تعالى[٢]: ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْـحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْـمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٣]: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّـهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ**﴾.

تجنُّب القرآن الكريم للأسلوب الشِّعريِّ

(**الضَّابط الثَّالث**): تجنُّب القرآن الكريم للأسلوب الشِّعريِّ. فالشِّعر وزن للكلام مؤثِّر في جمال الكلام جدّاً، حتَّى أنَّ كثيراً من القصائد لو احتفظت بمعانيها ومفرداتها، وعرضتها بالأسلوب النَّثريّ للاحظت أنَّه قد ذهب بهاؤها إلى حدٍّ بعيد.

ولكنَّ القرآن الكريم قد أعرض عن أسلوب الشِّعر الَّذي كان سائداً لدى العرب.

وقد يكون السَّبب الأساس في ذلك أنَّ الكلام النَّثريَّ أوقر من الكلام الشِّعريّ، فالشِّعر وإن كان يعطي للكلام وقعاً وتأثيراً مميَّزاً إلَّا أنَّه ليس الصِّياغة المناسبة لكلِّ مقام، ولذلك ترى أنَّ العلماء والرُّؤساء والخطباء يتجنَّبون ـ عموماً ـ إلقاء الكلام والخطب بنحو الشِّعر وإن تمكَّنوا منه، فالنَّثر البليغ يحمل من الرَّزانة والوقار في مثل هذا الموضوع ـ وهو صياغة الرِّسالة الإلهيَّة ـ ما لا يحمله الشِّعر، وله إيحاءاتٌ بالجدِّ والصِّدق لا يبلغها الشِّعر، لا سيَّما في عرف المجتمع العربيّ، فالشِّعر بحسب طبعه وتلقِّي العرف عنه مقرون بالتَّخييل

---

(١) سورة الطَّارق: ١١ ـ ١٤.

(٢) سورة الذَّاريات: ١ ـ ٦.

(٣) سورة الزُّمر: ٣٢.

والمبالغة، وتهييج الأحاسيس والمشاعر، ممَّا يقلِّل من إيحاءات الجدِّ والصِّدق للكلام، ويوحي بالارتكاز على أدوات غير موضوعيَّة في التَّأثير والإقناع، فلم يكن من الصَّحيح أن يصدر الكلام بصيغة (الشِّعر) من الله سبحانه، حتَّى يُعَدَّ من أوصافه كونه شاعراً.

وكأنَّ إلى ذلك يشير القرآن الكريم في معرض نقد قول المشركين إنَّه ضرب من الشِّعر، وإنَّ النَّبيَّ ﷺ شاعر، قال سبحانه[١]: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ**﴾، وقال تعالى[٢]: ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَـتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْـحَقِّ وَصَدَّقَ الْـمُرْسَلِينَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٣]: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

تجنُّب القرآن للتَّكلُّف في الأداء ولو كان تحرِّياً لبعض المحسِّنات الكلاميَّة

(**المثال الرَّابع**): تجنُّب القرآن الكريم لاستخدام المحسِّنات المعنويَّة واللَّفظيَّة إذا استلزمت بعض التَّكلُّف في الكلام، وهذا على خلاف ما يجده الإنسان بتأمُّل كثير من النُّصوص الشِّعريَّة كأشعار ابن الفارض بالعربيَّة[٤] وأشعار المثنويّ بالفارسيَّة؛ فإنَّ الحفاظ

(١) سورة يس: ٦٩.

(٢) سورة الصَّافَّات: ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) سورة الحاقَّة: ٤٠ ـ ٤٣.

(٤) جاء في مقدِّمة (ديوان ابن الفارض ص: ٧ ـ ١٠، بتقديم وشرح مهدي محمَّد ناصر الدِّين): (شغل ابن الفارض بالشِّعر نحو أربعين سنة. وذلك أمد طويل، ولكن شعره بقيمة معانيه وليس بقيمة ألفاظه، فهو من حيث الدِّيباجة والسَّبك شاعر ضعيف؛ ولكنَّه من حيث المعاني فحل من الفحول .. شعر ابن الفارض مزيج من الفطرة والتَّكلُّف، فهو شاعر بالأصل، ولكنَّه حاول أن يجاري شعراء العصر في نماذج شعرهم فوقع في بعض التَّكلُّف أحياناً، والصِّناعة أحياناً أخرى، وخصوصاً في استعماله لفنون البديع من

على الوزن والقافية كان عاملاً ضاغطاً فيها، ومثل هذا قد يُغتفر في غير النَّصِّ القرآنيِّ، من جهة عدِّ الكلام الشِّعريّ ـ ولو مع بعض التَّكلُّف ـ أجمل في المنظور العامّ من الكلام النَّثريِّ المتاح بدلاً عنه وإن خلا من هذا التكلّف؛ ولكنّ الكلام المتكلّف على كلّ حالٍ لا يخلو عن حزازةٍ بحسب الذَّوق الرَّفيع، مع ما فيه من دلالةٍ على عجز المتكلِّم فهو ضعف ونقيصة في الكلام، ومن ثَمَّ لم يكن لائقاً بالنَّصِّ القرآنيِّ كما يتجنَّبه الخطباء المقتدرون على الكلام كالإمام عليّ ﵇.

وقد يكون هذا المعنى من عوامل تجنُّب القرآن الكريم للصِّياغة الشِّعريَّة، فهذه الصِّياغة لا تفي بالمضامين القرآنيَّة بنحوٍ سلسٍ وبعيدٍ عن التَّكلُّف؛ لأنَّ الوزن الشِّعريَّ يؤدِّي إلى تكلُّفات لفظيَّة ومعنويَّة بمستوى أو آخر، لا سيَّما إذا كان المراد توصيف حادث واحد كما في قصص الأنبياء.

تجنُّب القرآن الكريم لبعض المحسِّنات المعنويَّة البديعيَّة

(الضَّابط الخامس): تجنُّب القرآن الكريم لبعض المحسِّنات المعنويَّة البديعيَّة؛ لأنَّها وإن كانت ذات قيمة فنِّيَّة، لكنَّها أشبه بـ(النُّكتة الملفتة) الَّتي لا تليق بكلِّ كلام.

وقد يُعَدُّ من جملتها:

١ ـ استعمال المشترك في أكثر من معنى، كقول القائل في مدح النَّبيِّ ﷺ:

المرتمـي في دجـى والمبـتلى بعمـى	والمشتكي ظمـأً والمبتغـي دينـا
يـأتون سدّتــه مــن كـلِّ ناحــيةٍ	ويستــفيدون مـن نعمائـه عينـا

جناسٍ وطباقٍ وتورية .. اعتماده طريقة الألغاز مجاراةً لأبناء عصره. لذلك وقع أيضاً بالتَّكلُّف وجاءت أشعاره في الألغاز بعيدةً عن مضامين شعره، في الوجد والتَّصوُّف).

٢ ـ التَّورية البديعيَّة[١]، وهي أن يُراد باللَّفظ أحد معنييه ولكن يُلوَّح إلى المعنى الآخر، كقول القائل:

وربّ الشِّعر عندهم بغيض ... ولو وافى له بهم حبيب

فأراد بـ(حبيب) ما يقابل (بغيض) وأومأ إلى الشَّاعر أبي تمَّام.

٣ ـ الاستخدام، وهو أن يُطلق اللَّفظ بمعنى ثُمَّ يرجع الضَّمير إليه بمعنىً آخر، من قبيل قول القائل وهو يمدح شخصاً:

وللغزالة شيء من تلفّته ... ونورها من ضيا خدَّيه مكتسب

فأراد بـ(الغزالة) الحيوان المعروف، وبضمير (نورها) الغزالة بمعنى الشَّمس[٢].

فهذه أساليب لا تخلو عن لطفٍ، ولكن لا تلائم كلَّ نصٍّ بليغ، وكأنَّه من جهة شائبة تكلُّف فيها. نعم، لا مانع من استعمالها في بعض النُّصوص الأدبيَّة.

تجنُّب القرآن الكريم للتَّعمية والتَّورية والتَّرميز

(الضَّابط السَّادس): تجنُّب القرآن الكريم للتَّعمية والتَّورية والتَّرميز.

إنَّ بعض النُّصوص المعنويَّة الإنسانيَّة تستخدم أسلوب التَّعمية والتَّورية والتَّرميز لأداء مقاصدها بدواعٍ مختلفة:

(منها): الرَّغبة في إخفاء المقصود الحقيقيّ إلَّا عمَّن يكون في أجواء تلك المقاصد

---

(١) ووجه تقييدها بـ(البديعيَّة) الاحتراز عن التَّورية العرفيَّة المعبَّر عنها بـ(المعاريض) والتَّي تُستخدم عند إرادة إخفاء شيءٍ تجنُّباً من الكذب.

(٢) وربَّما عُدَّ من الاستخدام قوله تعالى: ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ (سورة البقرة: ١٨٥)، وذلك بناءً على أنَّ المراد بـ(الشَّهر) أوَّلاً الهلال، ثُمَّ أُريد به في مقام إرجاع الضَّمير إليه شهر رمضان. وفيه نظر، بل الأقرب أنَّ المراد بـ(شهد) في الآية الحضور، والمقصود أنَّ مَن حضر شهر رمضان فليصمه، ومَن سافر لم يجب عليه الصِّيام.

متذوِّقاً لها.

و(**منها**): الرَّغبة عن التَّصريح بالمقصود وإن كان مفهوماً من الكلام ـ بشكلٍ غير صريح ـ حتَّى لا يعطي مستمسكاً لَمن يضلِّل المعنى المنظور بالكلام.

و(**منها**): الرَّغبة في كون المعنى هلاميَّاً وغائماً حتَّى يحمله كلُّ قارئٍ له على ما يستطيع أن يبلغه.

ولكنَّ النَّصَّ القرآنيّ لم يكن معنيَّاً بالتَّعمية والإبهام، بل عُني بالوضوح والأداء الوافي حتَّى تتمَّ به الحجَّة على النَّاس، ولا يكون قابلاً للتَّأويل، فيذهب كلُّ فريقٍ في تفسيره إلى ما يشاؤون.

وهذا المعنى ممَّا تقتضيه الحكمة؛ بالنَّظر إلى توجُّه الخطاب القرآنيّ إلى عامَّة النَّاس ـ كما في عشرات الآيات القرآنيَّة صريحاً ـ وليس إلى نخبة معيَّنة مثل أهل العلم والفقه، مضافاً إلى دلالة النُّصوص القرآنيَّة على هذا المعنى، قال تعالى(١): ﴿**هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾، وقال سبحانه(٢): ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَـؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾، وقال عزَّ من قائل(٣): ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾، وقال جلّت آلاؤه(٤): ﴿**هَـذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾، وقال تعالى(٥): ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّـهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى**

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٨.

(٢) سورة النَّحل: ٨٩.

(٣) سورة البقرة: ٢.

(٤) سورة الجاثية: ٢٠.

(٥) سورة البقرة: ٩٧.

لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال سبحانه[١]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّـهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، وقال عزَّ من قائل[٢]: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾، وقال جلَّت آلاؤه[٣]: ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، وقال تعالى[٤]: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقال سبحانه[٥]: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقال عزَّ من قائل[٦]: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

ولا يختصُّ ذلك بالقرآن الكريم، بل ذلك من سنَّة الله سبحانه في الأديان الإلهيَّة، فالخطاب فيها موجَّه إلى عامَّة النَّاس، قال تعالى[٧]: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْـحَقِّ مُصَدِّقًا لِّـمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾، وقال

---

(١) سورة البقرة: ١٥٩.

(٢) سورة البقرة: ١٨٥.

(٣) سورة الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٤) سورة الأعراف: ٥٢.

(٥) سورة الأعراف: ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٦) سورة يونس: ٥٧.

(٧) سورة آل عمران: ٣ ـ ٤.

سبحانه[١]: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّـمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقال عزَّ من قائل[٢]: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّـهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وعليه: فإنَّ الخطاب القرآنيَّ لا يناسبه أيَّ أسلوبٍ أدبيٍّ للتَّعمية والتَّرميز[٣].

---

(١) سورة المائدة: ٤٦.

(٢) سورة الأنعام: ٩١.

(٣) وقد تُطرح في مقابل ذلك أمورٌ لا وضوح لشيءٍ منها:

(الأوَّل): انتقاض ذلك بالحروف المقطَّعة الواردة في أوائل السُّور.

ويلاحَظ بشأنه ما تقدَّم في موضعٍ سابقٍ من ترجيح أنَّها ذُكرت للدّلالة على أنَّ هذا القرآن هو مؤلَّف من هذه الحروف الميسَّرة للجميع، ولكنَّه رغم ذلك متميِّز ومعجز يتحدَّى الجميع على الإتيان بمثله، فذكر هذه الحروف إنَّما كان أسلوباً بلاغيَّاً للتَّأكيد على تحدِّي المخاطبين بالقرآن الكريم.

(الثَّاني): إنَّ ذلك ينافي ما ورد من الإرجاع إلى النَّبيِّ ﷺ لبيان ما في الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النَّحل: ٤٤).

ويلاحَظ بشأنه: أنَّ الَّذي ذكرناه هو أنَّ القرآن الكريم ليس كلاماً رمزيَّاً، ولا ملقىً على نحو التَّورية والتَّعمية، ولكن من الجائز أن يعرض عليه إبهام فيبيِّنه النَّبيُّ ﷺ على سبيل التَّنبيه، أو يكون الكلام القرآنيّ غير متعرِّض لتفاصيل مثل كيفيَّة الصَّلاة فيرد بيانها من قبل النَّبيّ ﷺ.

وأمَّا الآية المذكورة فمن الوارد فيها أن يكون المراد بها أنَّ النَّبيَّ ﷺ يبيِّن من خلال القرآن ما أُنزل من قبل على الأنبياء السَّابقين بعد أن كتم أهل الكتاب كثيراً ممَّا أُنزل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَـهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة النَّحل: ٦٤)، وقال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ

تجنُّب القرآن الكريم لتشبيهات ذات إيحاءات غير مناسبةٍ للنَّصِّ القرآنيّ

(**الضَّابط السَّابع**): تجنُّب القرآن الكريم لجملة من التَّشبيهات؛ بالنَّظر إلى إيحاءات لها غير مناسبة مع النَّصِّ القرآنيِّ.

إنَّ من شروط بلاغة التَّشبيه أن لا يكون للتَّشبيه إيحاءٌ غير مناسب في حقِّ المشبَّه؛ ومن ثَمَّ لا يصحُّ تشبيه الشَّاعر اندفاع الممدوح إلى الكرم والعُلا بهذيان المحموم في قوله:

قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّـهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّـهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة المائدة: ١٥ ـ ١٦).

(**الثَّالث**): إنَّ ما ذُكر ينافي الحاجة إلى المتخصِّص في استنباط الأحكام الشَّرعيَّة من القرآن الكريم، والَّتي يتفرَّع عليها لزوم رجوع عامَّة النَّاس إلى العلماء فيها.

والجواب: إنَّ هذا المقدار أيضاً لا ينافي أنَّ القرآن الكريم قد نزل ككلامٍ واضحٍ ومبيَّن ـ في مقابل ذكره على سبيل التَّرميز والتَّعمية ـ، فالنُّصوص القانونيَّة هي أيضاً ليست مبنيَّة على التَّعمية والتَّورية، ولكن قد تحتاج في فهم حدود ما أُريدَ بها إلى تفطُّن وممارسة، وذلك ظاهر.

(**الرَّابع**): إنَّ العمومات القرآنيَّة مخصَّصة بأدلَّة من السُّنَّة، فلو كان القرآن واضحاً في نفسه لم يجز الأخذ بما يرد في السُّنَّة من وجوه تخصيصه.

والجواب عن ذلك بعين ما تقدَّم على سابقيه؛ وذلك لأنَّ إلقاء القواعد العامَّة ثُمَّ إناطة بعض تفاصيل حدودها إلى نصوصٍ أخرى أمرٌ عقلانيٌّ معروف، وليس في ذلك ما يعني أنَّ الكلام القرآنيَّ أُلقي على سبيل التَّعمية والتَّرميز.

(**الخامس**): إنَّ ما ذُكر ينافي ما ثبت في الآثار من وجود بطون للقرآن الكريم تتضمَّن أسراراً لا يعلمها إلَّا النَّبيّ ﷺ والعترة ﵈.

والجواب عن ذلك: إنَّ ما فُهم من تلك الآثار من وجود بطون للقرآن ـ على الكلام في معناه ـ لا يعني أنَّ الكلام القرآنيَّ أُلقي على وجه التَّعمية والتَّرميز، بل هو حجَّة بحسب دلالاته العرفيَّة وفق السُّنن اللُّغويَّة دون إشكال.

لا زال يهـذي بالمواهـب دائبـاً حتَّـى ظننّـا أنَّـه محمـوم

ووجه الانتقاد أنَّ صدور المواهب من الممدوح عن سجيَّةٍ وطبعٍ دون تكلُّفٍ وإن أشبه هذيان المحموم حيث يصدر عنه بلا تروٍّ، إلَّا أنَّ للهذيان إيحاءات سلبيَّة في ذهن الإنسان؛ لأنَّه مظهر للنَّقص وعدم التَّعقُّل، ورغم أنَّ من الواضح أنَّ الشَّاعر لم يقصد إسباغ هذه الصِّفة على الممدوح، ولكن هذا الإيحاء في الكلام يجعل البيت غير موفَّق في المدح والثَّناء على الممدوح.

وعليه: يُعتبر في التَّشبيه والاستعارة أن لا يكون للمشبَّه به إيحاءاتٌ سيِّئة بالنِّسبة إلى المشبَّه، وهذا أمر معروف نبَّه عليه علماء الأدب، كالشَّيخ عبد القاهر الجرجانيّ في أسرار البلاغة.

وقد تكون لبعض التَّشبيهات إيحاءات ينبغي لأجلها تجنُّبها في بعض المقامات وإن جاز استخدامها في مقامات أخرى حسب لياقات المقام؛ بالنَّظر إلى المتكلِّم والمخاطب والمنظومة الفكريَّة والأخلاقيَّة الَّتي يجري الحديث في ضمنها.

فمن ذلك تشبيهاتٌ متعدِّدة متداولة في كلمات الأدباء حتَّى في نصوص الأدب الدِّينيّ الَّتي تتحدَّث عن الارتباط بالله سبحانه وتعالى.

تجنُّب القرآن الكريم تشبيه المحبوب الإلهيّ بالفتاة الحسناء

(التَّشبيه الأوَّل): تشبيه المحبوب بالفتاة الحسناء، والحديث عنه وعن التَّعلُّق به بما هو مشهود في شأنها، وهذا التَّشبيه شائع للغاية في نصوص عامَّة المعروفين بالتَّصوُّف أو العرفان[1]، حتَّى كان مطلع كثير من قصائدهم ـ الَّتي تُعتبر من أجمل القصائد ـ تغزُّلاً بها

(١) يلاحظ في ذلك حال أحد أبرز شعراء الحبِّ المعنويّ في اللُّغة العربيّة وهو عمر بن الحسين بن علي بن المرشد بن علي، المعروف بـ(ابن الفارض) (ت ٦٣٢هـ)، ولعلَّه أشهر هؤلاء الشُّعراء حتَّى وُصف

وتعبيراً عن غرامها وعشقها والهيام بها، ولو حذف ما يتعلَّق بالفتاة من النُّصوص الأدبيَّة المشار إليها لسقط معظم هذا التُّراث، فقلَّما يخلو هذا التُّراث عن التَّغزُّل بالفتاة الحسناء أو الإشارة إليها، ويُستخدم في ذلك صريحاً التَّعابير الخاصَّة بمحبَّة المرأة كالعشق، ويذكر بشكلٍ صريحٍ بعض أجزائها وأعضائها مثل: الشَّعر، والخصر، والسَّاق، والصَّدر، ونحوها في أسلوب تمثيليٍّ رمزيٍّ للتَّعبير عن محبَّة الله سبحانه، والوله به، والمبالغة في محبَّته.

لكنَّ هذا التَّشبيه لا يخلو بطبيعة الحال عن إيحاءات جنسيَّة واضحة، بل ربَّما يخشى بعض علماء الأخلاق من تسرُّب أحاسيس جنسيَّة إلى نفس القارئ والمنشد ويتراءى لهما

بـ(سلطان العاشقين)، من أشهر قصائده قصيدة تائيَّة معروفة.

جاء في مقدِّمة ديوانه: (وما يكاد شعر ابن الفارض يخرج عن الصَّبابة والحنين والخمريَّات .. تتعدَّد أسماء الحبيبة في شعره وإن كان المقصود فيها محبوبة واحدة هي الحضرة المحمَّديَّة فكان يكنِّيها بأسماء متعدِّدة منها: نعم، وأسماء، وأميَّة مرخَّمة بأمّي، ورقيَّة مرخَّمة برقّي، وليلى، وجمل، وريا، وعتبة، وغيرها .. يكثر في شعر ابن الفارض تعداد أسماء الخمرة وأوصافها، وما ذلك إلَّا تعبير عن حالات الغيبوبة والفناء في الله.

يقولون لي صفها فأنت بوصفها ... خبير أجل عندي بأوصافها علم

صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوى ... ونور ولا نار، وروح ولا جسم

تتعدَّد في شعره ألفاظ الحبّ، وتختلف أسماؤه حتَّى زادت على الخمسين، ونذكر من الألفاظ الَّتي دلَّت على الحبِّ: المحبَّة، والعلاقة، والهوى، والصَّبوة، والصَّبابة، والشَّغف، والوجد، والكلف، والتَّتيُّم، والعشق، والجوى، والوله، والدَّنف، والشَّجو، والشَّوق والتَّباريح، والوهن، والشَّجن، والاكتئاب، والوصب، والحزن، والكمد، واللَّوعة، والفتون، والجنون، والخبل، والدَّاء المخامر، والغرام، والهيام، والتَّعبُّد، وغيرها. (ديوان ابن الفارض، بتقديم وشرح مهدي محمَّد ناصر الدِّين).

أحاسيس ربَّانيَّة وإلهيَّة[١].

بل لم يحبِّذ بعض أهل العلم[٢] هذا النَّوع من الأدب والتَّعابير الأدبيَّة بشكلٍ مطلق.

وأيّاً كان: فسواء كان هذا التَّشبيه محموداً من النَّاحية البلاغيَّة والتَّربويَّة في سائر النُّصوص الدِّينيَّة الأدبيَّة أم لا فلا شكَّ في أنَّه لا يناسب استخدام مثله في النَّصِّ القرآنيِّ في سياق الحثِّ على محبَّة الله سبحانه، أو توصيف محبَّة المؤمنين لله تعالى.

خلوّ نصوص المحبَّة في القرآن والسُّنَّة عن التَّشبيه بالفتاة

لقد حثَّ القرآن الكريم على محبَّة الإنسان لله سبحانه، حتَّى يكون أحبُّ إلى الإنسان من كلِّ شيءٍ آخر، ووصف عظيم محبَّة المؤمنين له تعالى، لكنَّه لم يستخدم التَّشبيه بالمرأة في هذا السِّياق، كما قال تعالى[٣]: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّـهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّـهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّـهِ**﴾، وقال سبحانه[٤]: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّـهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾، وقال عزَّ من قائل[٥]: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّـهُ بِأَمْرِهِ**﴾،

---

(١) بل اكتسب الموضوع لدى فريق ممَّن يوصَف بالتَّألُّه والمعرفة إلى أن يعتبر العشق المجازيّ (للفتيان والغلمان) طريقاً إلى تحصيل العشق الحقيقيّ (لله سبحانه وتعالى) (يلاحظ ما نقله في الحكمة المتعالية في الأسفار العقليَّة الأربعة ج: ٣، ص:١٧٣ ـ ١٧٤)، وهو أمر غير لائق أدَّى إلى سوء الظَّنِّ بهم، والله الهادي.

(٢) يلاحظ: نفس الرَّحمن في فضائل سلمان ص: ٣٢٨.

(٣) سورة البقرة: ١٦٥.

(٤) سورة البقرة: ٢٠٠.

(٥) سورة التوبة: ٢٤.

ومن ذلك[١] قوله سبحانه[٢]: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾، وقوله عزّ من قائل[٣]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وقوله جلَّت آلاؤه[٤]: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.

ووصف تعالى محبَّة الله تعالى أيضاً للإنسان، قال سبحانه[٥]: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾، وقال تعالى[٦]: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، ويندرج في ذلك ما جاء من توصيفه بالرَّحمة واللُّطف بالعباد.

ومن الآيات الَّتي تذكر محبَّة الله سبحانه للخلق ما يتضمَّن ذكرهم بوصف الخصال الفاضلة من قبيل قوله تعالى[٧]: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله سبحانه[٨]: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وهكذا نلاحظ تجنُّب الأدب القرآنيّ لاستخدام التَّشبيه بالمرأة في الحديث عن المحبَّة بين الله سبحانه وخلقه.

---

(١) بناءً على رجوع الضمير في (حبِّه) في الآيتين إلى الله تعالى لا الطَّعام كما هو أحد الوجهين في الآيتين.

(٢) سورة البقرة: ١٧٧.

(٣) سورة المائدة: ٥٤.

(٤) سورة الإنسان: ٨.

(٥) سورة البروج: ١٤.

(٦) سورة هود: ٩٠.

(٧) سورة البقرة: ١٩٥.

(٨) سورة آل عمران: ٧٦.

وقد ذكر القرآن الكريم نعيم الجنَّة وتمتُّع أهلها بالجواري المتَّصفات بالحسن والجمال، تشويقاً للنَّاس إلى التَّمسُّك في هذه الحياة بمقتضيات المنطق والفضيلة، إلَّا أنَّه رغم ذلك تجنَّب الدُّخول في تفاصيل أحوال المرء معهنَّ ـ بما نشهده في نصوص المحبَّة الدِّينيَّة المتأخِّرة ـ رعايةً للحشمة والوقار.

وقد كان العرف الجاري في الأدب الجاهليّ ابتداء القصيدة بوصف الأطلال والخمرة والنِّساء، لا على سبيل التَّرميز لشيءٍ آخر، بل كذكرياتٍ يستمتع المرء بذكرها، فهي تذكِّر الشَّاعر بأيَّام لهوه وشوقه ولوعته، وتمثِّل همومه واهتماماته، كما نجد ذلك في أشعار امرئ القيس، وعمرو بن كلثوم، والنَّابغة، وزهير، وعنترة، والأعشى. واستمرَّ ذلك بعد الإسلام، كما نجده لدى حسَّان، والحطيئة، ثُمَّ الفرزدق، وجرير، والأخطل، وذي الرِّمة، والكميت، وجميل، وغيرهم.

ولكن أدَّت الثَّقافة القرآنيَّة تدريجاً إلى بعض التَّهذيب للشِّعر، واهتمَّ العديد من الأدباء في الكثير من قصائدهم بابتداء القصيدة بالحِكَم، وسنن الحياة ونحوهما من المعاني الرَّاقية، كما رُصد ذلك في الأبحاث المعنيَّة بتاريخ الأدب العربيّ.

وقد اقتفت الخطب والأدعية المأثورة عن النَّبيِّ ﷺ وأهل البيت عليهم السلام أثر القرآن الكريم في عدم استخدام تشبيه المحبَّة لله سبحانه وأوليائه بمحبَّة الفتاة الحسناء، فهي تخلو عن استخدام هذا التَّشبيه بقول مطلق(١) رغم أنَّها تحدَّثت مكرَّراً عن محبَّة المؤمنين لله

---

(١) وقد يُنقض على ذلك بما جاء في السِّيرة النَّبويَّة من أنَّ كعب بن زهير قدم على رسول الله ﷺ فتلى قصيدة (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول) وقد سمعها رسول الله ﷺ وخلع عليه بردته (السِّيرة النَّبويّة ج: ٤، ص: ٩٣٩، والمستدرك عل الصَّحيحين ج: ٣، ص: ٥٨٠)، وقد جاء في أوَّلها غزل، وفي ضمنها في صفة ريقها (كأنَّه منهل بالرَّاح معلول) وهو تشبيه لريقها بـ(الرَّاح) وهي الخمرة، وقد وهب له رسول الله ﷺ بردته.

سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ نظر إلى مصعب بن عمير مقبلاً، وعليه إهاب كبش قد تمنطق به، فقال ﷺ: ((انظروا إلى الرَّجل الَّذي قد نوَّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطَّعام والشَّراب فدعاه حبُّ الله ورسوله إلى ما ترون)).

وفي الحديث الصَّحيح عن أبي عبد الله عليه السلام(١)، قال: ((العبُّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزَّ وجلَّ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثَّواب فتلك عبادة الأُجراء، وقوم عبدوا الله تعالى حبّاً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة)).

وعن عليّ بن الحسين عليهما السلام(٢)، في دعاء له في الصَّحيفة كان يدعو به إذا ذكر الموت أو نُعي إليه ميت: ((واجْعَلْ لَنَا مِنْ صَالِحِ الأَعْمَالِ عَمَلًا نَسْتَبْطِئُ مَعَه الْمَصِيرَ إِلَيْكَ ، ونَحْرِصُ لَه عَلَى وَشْكِ اللَّحَاقِ بِكَ)).

ولكن ينبغي أن يلاحَظ:

أوَّلاً: أنَّ ما جاء في قصيدة كعب بن زهير هذه جرى فيه على عادة معروفة في الأدب الجاهليّ سبق ذكرها، وهي ابتداء القصيدة بذكريات أو هواجس وجدانيَّة ومعاشة لديهم ـ ومن جملتها ذكرى العلاقة بالمحبوبة ـ وعليه لم يكن ذكر ذلك من جهة التَّرميز إلى محبَّة الله سبحانه ورسوله ﷺ كما يجري عليه قسمٌ من الشِّعر الصُّوفيّ.

على أنَّه ربَّما قيل: إنَّ كعباً هذا كان رسول الله ﷺ قد أهدر دمه لبعض صنيعه، فهام على وجهه هارباً، وانقطع عن أهله، ثُمَّ جاء إلى رسول الله ﷺ مسلماً معتذراً إليه، فهو قد وصف في مستهلِّ شوقه إلى أهله، ثُمَّ تطرَّق إلى مدح رسول الله ﷺ، وسأله العفو عن جرمه، فليس ذلك من قبيل التَّمهيد للمديح بالغزل والتَّشبيب لذاته.

وثانياً: أنَّ سياق القضيَّة وملابساتها وظروفها ربَّما لم تكن تناسب تنبيه النَّبيّ ﷺ كعباً في هذا الاتِّجاه، فلاحظ.

(١) الكافي ج: ٢، ص: ٨٤، ح: ٥.

(٢) الصَّحيفة السَّجَّاديَّة ص: ١٧٢، الدُّعاء: ٤٠.

بل جاء في الحديث الصَّحيح عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال[١]: ((هل الدِّين إلَّا الحبّ؟ ألا ترى إلى قول الله: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّـهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾))، ونحوه عن أبي عبد الله عليه السلام[٢].

تجنُّب القرآن الكريم تشبيه المحبوب الإلهيّ بالغلام

(التَّشبيه الثَّاني): هو تشبيه المحبوب بالحبِّ الإلهيِّ بالغلام الحسن، ووصف حسنه وخصائصه الجميلة والحسنة، وهذا التَّشبيه أيضاً معروفٌ جدَّاً في نصوص المحبَّة الإلهيَّة لدى بعض المتصوِّفة.

وهو أيضاً تشبيه غير ملائم في شأن الذَّات الإلهيَّة، وأين الذَّات الإلهيَّة في عظمتها من هذا الغلام وذاك، وهذه الوردة أو تلك! فليس كلُّ شبه بالَّذي يجعل التَّشبيه أو الاستعارة مناسباً، ومن ثَمَّ لا تصحُّ استعارة الأسد للدِّيك الشُّجاع ـ وإن تمَّت المشابهة في الشُّجاعة ـ؛ من جهة صغر حجم الدِّيك، وحجم ما يناله أذاه.

بل قد لا يخلو التَّشبيه بالغلام عن إيحاءات سلبيَّة، كما في تشبيه المحبوب بالفتاة الحسناء، ولم يرد في النُّصوص القرآنيَّة والنَّبويَّة.

نعم، جاء في القرآن الكريم في وصف نعيم الجنَّة أنَّ من جملته خدمة ولدان حسان للمؤمنين فيها، وذاك أمرٌ آخر غير تشبيه المحبوب بالحبِّ الإلهيِّ بالولدان الحسان.

تجنُّب القرآن الكريم تشبيه مشاعر الحبِّ ومبادئه بالسُّكر والخمر

(التَّشبيه الثَّالث): تشبيه مشاعر الحبِّ بالسُّكر ومبادئ الحبِّ بالخمر، وهذا أيضاً تشبيه معروف جدَّاً في الأدب الإنسانيِّ الدِّينيِّ.

---

(١) المحاسن ج: ١، ص: ٢٦٢ ـ ٢٦٣، ح: ٣٢٧.

(٢) الخصال ص: ٢١، ح: ٧٤.

وهذا التَّشبيه أيضاً ذو إيحاءٍ سلبيٍّ سيّء في المنظور القرآنيِّ؛ لأنَّ الله سبحانه حرَّم الخمر واعتبرها نجساً، كما حرَّم رسول الله ﷺ المسكر من كلِّ شراب، وذلك بالرَّغم من انتفاع الإنسان به في إلهائه عن الهموم وشعوره بالانتشاء؛ بالنَّظر إلى ما يؤدِّي إليه من غياب الوعي والتَّوازن الإدراكيِّ والعجز عن التَّحكُّم في السُّلوك، فجاء في سورة البقرة ـ وهي أوَّل سورة نزلت بالمدينة ـ قوله تعالى[1]: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، ثُمَّ جاء تصريح أشدّ بشأنه، قال تعالى[2]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْـخَمْرُ وَالْـمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّـهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

ومن ثَمَّ لا يكون ذكر الخمر والسُّكر في سياق الحديث عن الله سبحانه ومحبَّته في القرآن الكريم مناسباً للنَّصِّ القرآنيِّ[3].

تجنُّب القرآن للتَّشبيهات الَّتي تعبِّر بالاتِّحاد مع الله سبحانه

(**التَّشبيه الرَّابع**): هو جعل الإنسان متَّحداً مع الخالق من شدَّة التَّعلُّق به سبحانه حتَّى كأنَّه منه، وهذا أيضاً تشبيه معروف، بل اعتقد به بعض الغلاة على وجه الحقيقة، ونظَّر له بعض الفلاسفة بتنظيرات واهنة، يغلب عليها الإغراق في التَّخيُّل، وإثارة

---

(١) سورة البقرة: ٢١٩.

(٢) سورة المائدة: ٩٠ ـ ٩١.

(٣) نعم، ورد في مورد ذكر الخمر في جملة نِعَم الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْـجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْـمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ (سورة محمَّد ﷺ:١٥)، لكن هذا باب آخر غير تشبيه محبَّة الله سبحانه بالسُّكر وتشبيه منشئه بشرب الخمر كما هو واضح.

الأحاسيس بدلاً عن الأسلوب المنطقيِّ والفكريِّ السَّليم.

وهذا أيضاً أسلوب غير لائق حتَّى لو كان على وجه التَّجوُّز؛ لما فيه من الإيحاءات غير الملائمة، بل وتناسبها مع أفكار الغلوّ في الأديان، وقد كانت معهودةً، كقول النَّصارى بحلول الله سبحانه في المسيح.

ومن ثَمَّ لا نجد أيَّ أثرٍ لهذا النَّحو من التَّعابير في نصوص الأدب الدِّينيّ، لا في القرآن الكريم، ولا في أقوال النَّبيِّ ﷺ، والإمام عليّ عليه السلام، والأدعية الموثوقة عن أهل البيت عليهم السلام[1]، فهذه النُّصوص دائماً تشتمل على توقيرٍ كبيرٍ لله سبحانه وتعالى، وتنظر إليه بمنظر الخشوع لعظمته، ولا تمزج بين الله عزَّ وجلَّ وبين أحدٍ من خلقه في حالٍ من الأحوال، فالإنسان والملائكة والأنبياء وسائر الخلق إنَّما هم مخلوقون لله سبحانه، متصاغرون أمام عظمته وجلاله، وعلى الخلق أن يستحضروا هذا الجلال وهذه العظمة، ونسبتهم إليها، ويلتفتوا إلى موقع كلٍّ ومحلِّه في الوجود، وإلَّا أدَّى ذلك إلى مضاعفات سلبيَّة نفسيَّة وتربويَّة للإنسان.

وقد أدَّت هذه التَّعابير والتَّخيُّلات ـ الَّتي ربَّما كانت مشاعر أدبيَّة في الأصل ـ إلى تلقِّيها حقائق راقية لن يصل إليها الإنسان إلَّا بالمعايشة والإحساس من خلال التَّرقِّي في سُلَّم الوجود، حتَّى صُبغت بالصِّبغة الفكريَّة والفلسفيَّة، وادُّعي حقَّانيَّتها بحسب المكاشفات الَّتي قُدِّر أنَّها زوال للحجب المادِّيّة، مع أنَّها بطبيعتها أشبه بالمنامات الَّتي تخطئ

---

(١) وربَّما تُذكر أحاديث تتضمَّن ذلك؛ لكنَّها غير موثوقة، من قبيل ما ورد في مصباح الشَّريعة المنسوب إلى الصَّادق عليه السلام: ((العبوديَّة جوهرة كنهها الرُّبوبيَّة))، وهذه النِّسبة خاطئة جزماً بأدنى مقارنة بين ثوابت ما يؤثَر عن الإمام الصَّادق عليه السلام وبين ما جاء في هذا الكتاب. ومن هذا القبيل حديث قدسيّ يتضمَّن: ((عبدي أطعني تكن مثلي .. أنا مهما أشأ يكن أجعلك مهما تشأ يكن))، وقد ذكره البرسيّ (في مشارق أنوار اليقين ص: ١٠٠) وهو متَّهَم بالغلوّ، ولا يُعوَّل على شيءٍ من منفرداته، وهو أمر واضح.

وتصيب.

هذا، ولا ينتقض ما ذكرناه بما جاء في القرآن الكريم من خلق الإنسان من نفخ الله سبحانه روحاً في جسمه بعد اكتماله، كما في قوله تعالى في قصَّة خلق آدم عليه السلام(1): ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾، ولا ما جاء في المسيح عليه السلام من التَّعبير بمثل ذلك في قوله سبحانه(2): ﴿**وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾، وقوله عزَّ من قائل(3): ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّـهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّـهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّـهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّـهُ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّـهِ وَكِيلًا**﴾.

ووجه عدم الانتقاض: أنَّ الرُّوح تعبير عن (شيءٍ معنويٍّ وغير مادِّيٍّ) كما يعبَّر عن بعض الكائنات الرُّوحانيَّة في القرآن الكريم بـ(الرُّوح)، ونسبته إليه تعالى في قصَّة الخلق ﴿**مِن رُّوحِي**﴾ قد يكون تشريفاً للإنسان، حيث احتقرته الملائكة من قبل، فكان الغرض إعلاء شأنه، كما أنَّ نسبته الرُّوح إليه تعالى في قوله عن مريم: ﴿**مِن رُّوحِنَا**﴾ تعبير عن تنزيه المولود عن أن يكون عن علاقة غير شرعيَّة، وأمَّا جعل (الرُّوح) منه تعالى فهو إضافة بعلاقة المنشأيَّة؛ لأنَّه تعالى خالق هذا الرُّوح وموجدها، كما في قوله تعالى(4): ﴿**وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّـهِ**﴾، وقوله سبحانه(5): ﴿**فَضْلًا مِّنَ اللَّـهِ وَنِعْمَةً**﴾، ولو كانت هذه

---

(١) سورة الحجر: ٢٩.

(٢) سورة الأنبياء: ٩١.

(٣) سورة النِّساء: ١٧١.

(٤) سورة الصَّفّ: ١٣.

(٥) سورة الحجرات: ٨.

الإضافة ذات إيحاء مختلف لتجنَّبته الآية الأخيرة؛ لأنَّها في مقام الرَّدع عن الغلوِّ وإبطاله.

وكذلك لا ينتقض ما ذكرناه بحديث[١]: (وإنَّه ليتقرَّب إليّ بالنَّافلة حتَّى أحبُّه، فإذا أحببته كنت سمعه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يبصر به، ولسانه الَّذي ينطق به، ويده الَّتي يبطش بها).

ووجه عدم الانتقاض أنَّ المفهوم من الحديث أنَّ الله سبحانه يكون عوناً له في أموره كلِّها، يُقال: (إنَّ فلاناً عين فلان وسمعه) إذا كان يعينه في الاطِّلاع على ما ينبغي له الاطِّلاع عليه من مشاهد وأقوال، ويُقال: (إنَّ فلاناً لسان فلان ويده) إذا كان يقول عنه ما ينبغي أن يقوله ويفعل لصلاحه ما ينبغي له أن يفعله، فالمراد أنَّ الله سبحانه يكون عونه في أموره كلِّها، وهو من مراتب كونه سبحانه وليّاً لَمن تولَّاه، ووكيلاً لَمن توكَّل عليه، كما ورد في آيات القرآن الكريم، كما قال تعالى[٢]: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّـهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْـمُؤْمِنُونَ**﴾، وقال سبحانه[٣]: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّـهَ وَعَلَى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٤]: ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّـهِ وَعَلَى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْـمُؤْمِنُونَ**﴾، وقال جلَّ ثناؤه[٥]: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّـهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّـهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّـهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾، فهذه الآيات تبيِّن كيف أنَّ الله

---

(١) الكافي ج: ٢، ص: ٣٥٢، ح: ٧، يلاحظ: صحيح البخاريّ ج: ٧، ص: ١٩٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٢.

(٣) سورة المائدة: ١١.

(٤) سورة المجادلة: ١٠.

(٥) سورة الطَّلاق: ٢ ـ ٣.

سبحانه كان عوناً لَمن تولَّاه فيما ينبغي أن يفعله أو يطَّلع عليه، والقرآن الكريم ينبِّه على تفسير ما تشابه من الآثار المرويَّة.

وهناك تعابير تتكرَّر في كلمات فئةٍ من أهل العلم من قبيل (فناء العبد في الله وبقائه بالله) ونحو ذلك ممَّا لم يرد في القرآن ولا السُّنَّة، ولكنَّها توسُّعٌ في التَّعبير من بعض أهل العلم حتَّى شاعت وعمَّت، وينبغي أن تُحمل أو يُحتمل فيها معنى صحيح من قبيل شدَّة تعلُّق الإنسان بالله سبحانه حتَّى كأنَّه يراه، إلَّا أن يتبيَّن إباؤها لذلك بشكلٍ واضح[1].

وهكذا يتَّضح في ضوء ما تقدَّم اختلاف الأدب الإلهيِّ القرآنيِّ عن الأدب المعنويِّ الإنسانيِّ في جهاتٍ عدَّة أهمّها تجنُّب التَّشبيهات المتقدِّمة المتعلِّقة بالذَّات الإلهيَّة في القرآن الكريم والنُّصوص الَّتي اقتفت أثره على خلاف جلِّ النُّصوص المعنويَّة الإنسانيَّة.

(١) وقد يُطرح أنَّ الفرق بين النُّصوص القرآنيَّة وبين قسم من النُّصوص الإنسانيَّة المتعلِّقة بالعلاقة بين الله سبحانه وبين الكائنات والإنسان والصَّادرة من بعض مَن عُرف بالتَّصوُّف ليس فرقاً أدبيَّاً محضاً، بل هو فرقٌ فكريٌّ، فالنُّصوص القرآنيَّة تبني على تنزيه الذَّات الإلهيَّة عن الاتِّحاد مع الكائنات ومع الإنسان، فالكائنات كلُّها مخلوقات له سبحانه خاضعة له جارية على إرادته، فهي تمثِّل القدرة الإلهيَّة، ولكن فكرة قسم من النُّصوص المعنويَّة الإنسانيَّة تختلف عن ذلك، فهي ترى الكائنات تمثُّلات للذَّات الإلهيَّة نفسها، وترى أنَّ الإنسان يصل بالتَّعلُّق بالذَّات الإلهيَّة إلى درجةٍ يفنى فيها، حتَّى يكون أشبه بالقطرة من البحر بالنِّسبة إلى البحر، وهي جزء من البحر بطبيعة الحال.

ولهذه الفكرة امتدادات فيما يتعلَّق بحقيقة الكائنات عامَّةً والإنسان خاصَّةً، وبحقيقة علم الله سبحانه بالأشياء، ومدى حدوث الكائنات وقدمها، وهذا موضوع لا يسعنا توصيفه، والقول فيه هنا.

المنظور القرآنيّ

في حدود تحريك المشاعر

المنظور القرآنيّ في حدود تحريك المشاعر من خلال الأساليب الأدبيَّة

(**الموضوع الثَّاني**): في بيان المنظور القرآنيِّ في حدود تحريك المشاعر من خلال الآداب القوليَّة والعمليَّة.

ولنذكر أوَّلاً مقدِّمة:

وهي أنَّ توظيف الآداب للتَّأثير على المشاعر يمكن أن يكون على وجوه مختلفة: بعضها راشد يسوق إلى التَّعقُّل والهدى، وبعضها خاطئ يؤدِّي إلى مضاعفات سلبيَّة فكريَّة وتربويَّة.

توضيح ذلك: أنَّ الأدب والبلاغة هو فنُّ تحريك المشاعر أصالةً، فالأديب يتحكَّم في نفوس المخاطبين من خلال الأساليب المؤثِّرة.

ومن ثَمَّ يكون للآداب تأثيرٌ تربويٌّ كثير على المجتمع من خلال الانطباعات والرَّواسب الَّتي تتركها في نفوس النَّاس ولو كان على الأمد البعيد.

بل للآداب تأثيرٌ كبيرٌ على الأفكار الفرديَّة والاجتماعيَّة من خلال مساعدتها على تقريب الأفكار[1]، أو تأثيرها على الأحاسيس والعواطف الإنسانيَّة؛ من جهة العلاقة الوثيقة بين التَّربية والتَّعليم، فكم من موقفٍ فكريٍّ للإنسان ينبع عن تأثُّره بعواطفه،

---

(١) كما نجد أنَّنا كثيراً ما نوضِّح فكرةً دقيقةً معقولةً بأمثلةٍ حسِّيَّةٍ قريبةٍ من الإدراك.

وإعراضه عن المبادئ المنطقيَّة والموضوعيَّة.

وكذلك تؤثِّر الآداب في السُّلوك الإنسانيِّ؛ لأنَّ السُّلوك ينشأ عن عاملين: الفكر، والعاطفة، وللآداب تأثيرٌ في كلٍّ منهما كما سبق.

هذا، وينقسم التَّأثير على المشاعر إلى قسمين:

١ ـ **التَّأثير الإيجابيّ**: وهو أن يكون التَّأثير في الشُّعور لأجل نفوذ الفكرة الصَّائبة والرَّاشدة في النَّفس الإنسانيَّة ليؤدِّي إلى الموقف الصَّائب والسُّلوك السَّليم.

٢ ـ **التَّأثير السَّلبيّ**، وهو أن يكون هذا التَّأثير لأجل تقوية أفكار خاطئة، أو للدَّفع باتِّجاه سلوكٍ خاطئ.

بل من التَّأثير السَّلبيِّ أن تُستخدم إثارة المشاعر لأجل إسناد أفكار راشدة بدلاً عن المنطق والدَّليل، وهو يؤدِّي إلى خللٍ منهجيٍّ في أذهان المخاطبين.

وبالنَّظر إلى ذلك ينقسم توظيف الآداب من قبل المتكلِّم إلى قسمين:

أ ـ التَّوظيف الرَّاشد والحكيم، وهو ما يكون لإثارة مشاعر ذات تأثيرٍ إيجابيٍّ على الإنسان.

ب ـ التَّوظيف الخاطئ، وهو ما يكون لإثارة مشاعر ذات تأثيرٍ سلبيٍّ على الإنسان.

ويختلف قسما التَّوظيف طبيعةً في نوع الأساليب الَّتي تُستعمل فيهما، فصاحب التَّوظيف الرَّاشد والحكيم للخطاب لا يستسيغ الأسلوب الأدبيّ لمجرَّد أنَّه قادر على تأجيج المشاعر، بل ينظر إلى أبعاده الفكريَّة والتَّربويَّة في الأمد المنظور، ولكن صاحب التَّوظيف الخاطئ ينتفع بكلِّ أسلوبٍ خطابيٍّ وجدليٍّ لتأجيج المشاعر في الاتِّجاه الَّذي يسعى إليه من غير ملاحظة الحدود الَّتي ينبغي رعايتها.

فهذه مقدِّمة لزم ذكرها.

ومن الملاحظ في ضوء هذه المقدِّمة بتأمُّل نصوص القرآن الكريم وتعاليمه رعاية النَّصِّ القرآنيِّ لمحدِّدات حكيمة في مقام إثارة المشاعر، كما هو المتوقَّع منه؛ بالنَّظر إلى موقعه الأساس، باعتباره النَّصّ الَّذي يرسي هذا الدِّين، ويكون واجهةً له وموجِّهاً لجمهوره بشكلٍ دائم، فهو النَّصُّ المرشد والمربِّي والمثير في آنٍ واحد.

ولا تنحصر رعايةُ النَّصِّ القرآنيِّ لهذه المحدِّدات في الأساليب الأدبيَّة الَّتي استخدمها هذا النَّصُّ في مقام بيان الدِّين والحقائق الكبرى، بل تتمثَّل فيما شرَّعه الله سبحانه من الشَّعائر العمليَّة من قبيل العبادات؛ لأنَّها أيضاً من قبيل الآداب الَّتي ترسِّخ المشاعر الصَّحيحة الملائمة لتلك الحقائق في النَّفس الإنسانيَّة.

وفيما يلي جملة من تلك المحدِّدات الحكيمة المرعيَّة في النَّصِّ القرآنيِّ:

١ ـ أن تكون إثارة النَّصِّ للمشاعر في حدود المشاعر الإنسانيَّة العامَّة المتعارفة والمناسبة دون المشاعر الخارجة عن حدود التَّعارف العامّ، الَّتي تؤدِّي إلى خفَّة العقل، وشذوذ السُّلوك، وافتقاد الاعتدال العقليِّ والنَّفسيِّ.

ومن المشاعر المتعارفة: المشاعر الَّتي تساعد الإنسان على الرُّشد والحكمة، وتثبِّته على الإيمان، ومشاعر الانتباه والاستيقاظ للحقائق الكبرى، ومشاعر الاطمئنان والثِّقة والرَّجاء بالله سبحانه وتعالى، ومشاعر التَّسلية والصَّبر على الابتلاءات في الحياة، ومشاعر الشُّكر والامتنان والمحبّة لله سبحانه، ومشاعر الخشوع والبكاء الَّتي يستتبعها استحضار الإنسان للحقائق الكبرى بشكلٍ حيٍّ.

وقد جاء ذكر المشاعر الَّتي توجبها الآيات القرآنيَّة في نفوس سامعيها وتاليها في طائفةٍ من آيات القرآن الكريم، وقد تقدَّم ذكر مجموعةٍ منها من قبل، ومنها قوله تعالى[1]:

---

(١) سورة التَّوبة: ١٢٤.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وقوله سبحانه(١): ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَـنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

وهناك آياتٌ أخرى تتضمَّن ذكر مشاعر المؤمنين عند ذكرهم لله سبحانه، وهو ما ينطبق على مَن يتلو القرآن الكريم، كقوله تعالى(٢): ﴿إِنَّمَا الْـمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّـهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وقوله سبحانه(٣): ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّـهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّـهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، وقوله عزَّ من قائل(٤): ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّـهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْـمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وقوله جلَّت آلاؤه(٥): ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّـهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّـهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ويشابه ذلك آيات تشير إلى مواطن ذكر الله تعالى، كقوله سبحانه(٦): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّـهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقوله تعالى(٧): ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّـهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

فالملاحظ أنَّ المشاعر الحادثة بتلاوة القرآن الكريم هي مشاعر متعارفة وفق توصيف النُّصوص القرآنيَّة، فتكون إثارتها هي المنظورة بهذه النُّصوص.

---

(١) سورة مريم: ٥٨.

(٢) سورة الأنفال: ٢.

(٣) سورة الرَّعد: ٢٨.

(٤) سورة الحجّ: ٣٥.

(٥) سورة آل عمران: ١٣٥.

(٦) سورة الأنفال: ٤٥.

(٧) سورة البقرة: ١٥٦.

كما أنَّ الممارسات العمليَّة الَّتي يشرِّعها القرآن الكريم من قبيل الصَّلاة ـ بما تشتمل عليه من الأقوال: كالتَّكبير، والتَّهليل، والتَّسبيح، والتَّحميد، وقراءة القرآن، والأعمال من قبيل: القيام، أو الجلوس على الأرض في محضر الله سبحانه، والرُّكوع له، والسُّجود بين يديه ـ هي أمورٌ تلامس الرُّوح، وتملأ الوجدان عند الإقبال عليها، ولكن لا تتعدَّى مفاعيلها في النَّفس إلى أكثر من المشاعر المتعارفة المتقدِّم ذكرها كما يصفه القرآن، كما قال سبحانه[1]: ﴿**الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾.

ويبيِّن ذلك الآيات المتقدِّمة في شأن الذِّكر؛ فإنَّ الصَّلاة أبرز مصاديق الذِّكر شرعاً، كما قال تعالى[2]: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْـمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّـهِ أَكْبَرُ**﴾.

كما أنَّ هذه المشاعر هي المحكيَّة في ذكر سِيَر الأنبياء في القرآن الكريم والتَّاريخ الرّوائيّ الموثوق.

٢ ـ أن تكون المشاعر الَّتي يثيرها النَّصُّ القوليّ أو العمل مشاعر وقورة ومتينة ورزنة، والمراد بها ما يقابل المشاعر الخفيفة، وهي مشاعر تتوجَّه بالمرء باتِّجاه الخفَّة والطَّرب.

فهذا النَّوع من الإثارة لا يناسب القرآن الكريم، ولا المتكلِّم بالكلام القرآنيّ، ولا مضمون القرآن وهو الحقائق الكبرى في الحياة.

ومن ثَمَّ ورد في بعض النُّصوص الشَّرعيَّة عدم جواز قراءة القرآن على وجه الغناء، ومثله استخدام أدوات الطَّرب والتَّلهِّي كالضَّرب على الطَّبل، أو الاستمتاع بالصَّوت

---

(١) سورة المؤمنون: ٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

الأنثويّ النَّاعم في الإصغاء إلى القرآن. وما حُثَّ عليه في الآثار من أداء القرآن بالصَّوت الحسن إنَّما كان النَّظر فيه بما يحافظ على لياقات النَّصِّ من الوقار والخشوع.

فهذه عوامل تزيد الشُّعور بالإثارة عند تلاوة النَّصِّ يبتعد عنها النَّصُّ القرآنيّ.

ومثلها الحركات الَّتي تعطي شعوراً بالخفَّة من قبيل: الرَّقص والدَّوران، وكذلك رفع الصَّوت، فلا يوجد في الشَّريعة الاستعانة بمثل هذه الأفعال لإثارة المشاعر المعنويَّة حتَّى لو كانت تجاه الله سبحانه، بل نجد في حدود الصَّلاة وجوب الاستقرار، إلَّا في حال مطاردة العدوّ كما قال تعالى[١]: ﴿**فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّـهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾، ونجد أيضاً منع الصَّوت المرتفع في أدائها، كما قال تعالى[٣]: ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا**﴾.

ويقع في مقابل ذلك ما نجده في ممارسات بعض أصحاب النُّصوص المعنويَّة الإنسانيَّة ومنشديها من استعمال الأدوات والحركات والأصوات الَّتي توجب الخفَّة والطَّرب.

والواقع: أنَّ قسماً من المشاعر الَّتي تحدث عند إنشاد هذه النُّصوص لا تتعلَّق ببلاغتها، بل تحدث عن هذه الممارسات الَّتي تقترن بإنشادها.

٣ ـ أن تكون إثارة المشاعر وسيلةً للغايات الحميدة وليست غاية، وذلك بأن تكون إثارتها لأجل إزالة العوائق النَّفسيَّة أمام إدراك العقل وفاعليَّة الضَّمير، وإخضاع القلب،

---

(١) سورة النِّساء: ١٠٣.

(٢) سورة البقرة: ٢٣٩.

(٣) سورة الإسراء: ١١٠.

وحسن التَّصرُّف والسُّلوك.

ومن ثَمَّ يلزم أن يكون مقدار هذه الإثارة بمستوى يناسب هذه الغايات.

ولا يصحُّ إثارة المشاعر لمجرَّد الاستمتاع بها، ولا من غير غايةٍ حكيمةٍ وراشدةٍ منظورة بها.

وفي مقابل ذلك ما نجده أحياناً من ممارسات تؤدِّي إلى هياج المشاعر حتَّى كأنَّها مطلوبة لذاتها، وقد تؤدِّي إلى أفكار معرفيَّة خاطئة، أو اعتقادات للمرء بنفسه مبالغ فيها، أو سلوكيَّات غير محمودة.

٤ ـ أن تكون المشاعر المثارة حالة طبيعيَّة وغير متكلَّفة تكلُّفاً مذموماً.

وذلك أنَّ التَّكلُّف على ضربين:

(الأوَّل): تكلُّفٌ محمود، وهو التَّكلُّف في إيجاد الشُّعور عندما يجد الإنسان جموداً في قلبه بالنَّظر إلى ما ينبغي أن يكون عليه، فيسعى أن يتكلَّف هذا الشُّعور الفاضل فيما بينه وبين نفسه، تعبيراً عن حزنه في عدم حركة مشاعره، ومن هذا الباب ما يرد في مدح البكاء والتَّباكي من خوف الله سبحانه، فلا يُراد بـ(التَّباكي) التَّظاهر بالبكاء أمام الآخر، بل فيما بين الإنسان وبين نفسه.

(الآخر): تكلُّفٌ مذموم، وهو ما كان الباعث على الشُّعور إطلاع الغير على أحوال الإنسان، أو كان ذلك جزءاً دخيلاً في انبثاق الشُّعور، فيتكلَّف إيجاد الشُّعور لهذه الغاية.

والاجتماع مظنَّة لإيجاد الشُّعور المتكلَّف خاصَّةً إذا كان المجتمعون يركِّزون على مَن يبدي شعوره لهم.

ومن ثَمَّ مُدح في النُّصوص الدِّينيَّة أن يأتي المرء بالعمل الصَّالح في خلواته إلَّا الفرائض، فإنَّ المجاهرة بها أفضل؛ لأنَّها مراعاةٌ لاحترام الدِّين في الاجتماع.

على أنَّنا لا نجد في تشريع الجماعة في الفرائض كون الاجتماع بنحوٍ يجتمع آخرون حول المصلِّين للنَّظر إلى حالاتهم ومشاعرهم، ولا التفات بعض المصلِّين أنفسهم إلى حال بعضٍ آخر.

وفي مقابل ذلك ما نجده لدى قوم ممَّن يحضر إنشاد النُّصوص المعنويَّة من الاجتماع على وجه يقع التَّركيز على القائمين بالنَّشاط المفترض، وتتمّ المقارنة بينهم، وإبراز حالات قد تكون مظنَّةً للتَّكلُّف.

والشَّاهد في ذكر هذا المورد رعاية التَّشريع الدِّينيِّ للأعمال العباديَّة للبعد عن التَّكلُّف فيها.

٥ ـ أن تكون إثارة المشاعر في مقام تثبيت المبادئ الحقَّة الَّتي أدركها الإنسان من خلال السُّبل الموضوعيَّة والمنطقيَّة، ولا تكون إثارة المشاعر لأجل التَّلقين من خلالها بمعان لم يتبيَّنها المرء، ولم يستوثق منها؛ فإنَّ القناعة بالمعاني لا بُدَّ أن تنشأ من التَّفكير الرَّاشد من خلال الحجَّة والبرهان والتَّبصُّر ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ وليس عن طريق التَّلقين المحض، وإثارة المشاعر بطرقٍ خطابيَّة، لتقوم مقام الحجَّة والدَّليل. وقد أوضحنا هذا المعنى من قبل.

وفي مقابل ذلك ما نجده لدى فريق من تضمين النُّصوص المعنويَّة أفكاراً لم يسبق لَمَن ينشدها ويلتذُّ بها الاطِّلاع على ثبوتها وسلامتها، بل يتلقَّاها على سبيل التَّلقين من خلال النَّصِّ ابتداءً.

٦ ـ أن تكون إثارة المشاعر المناسبة بأنواعها بشكلٍ متوازن، ولا يُقتصَر على نوع دون سائر الأنواع، فالإنسان يحتاج تجاه الله سبحانه إلى صفة المحبَّة والودِّ قطعاً، ولكنَّه يحتاج تجاهه أيضاً إلى مشاعر الشُّكر لنعمه؛ فإنَّ صفة الشُّكر إن لم تكن أفضل القيم

الفاضلة فهي من أعلاها، وقد رُكِّز في القرآن الكريم مكرَّراً على هذه الصِّفة وأهمِّيّتها حتَّى عُدَّ الإيمان بالله شكراً له، وجحوده نكراناً لجميله، كما قال تعالى[١]: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٣]: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّـهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّـهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّـهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾.

وكذلك يحتاج الإنسان تجاه الله سبحانه إلى مشاعر الخوف والرَّجاء؛ لأنَّ مشهد هذه الحياة مشهد في غاية الجدِّ من جهة اختيارات الحياة، وابتلاءاتها، ومبادئ التَّقاعُس، والإهمال، والتَّعمية، ونحوها في النَّفس الإنسانيَّة، فلا ينبغي أن يثق الإنسان بنفسه عن أن يزلَّ أو يضلَّ كما وقع لآخرين من قبل، ولا تقيه مشاعر المحبَّة عن مضاعفات أيِّ سلوكٍ خاطئ، ثُمَّ الإنسان بحسب خلقته يحتاج إلى ما يتمتَّع به من طعامٍ وشرابٍ وملبسٍ وغير ذلك، فهو يرجو الحصول على ذلك في الدُّنيا والآخرة، كما أنَّه لا يطيق العناء والشِّدَّة، فهو يخاف من تبعات أعماله في كلٍّ منهما، ومن المعلوم أنَّ الخالق سبحانه جادٌّ مع العباد كلِّهم، فهو ينزل كلَّ امرئٍ منزلته، وليس له مع أحد قرابة، فلا غنى عن مشاعر الخوف والرَّجاء فيما عند الله سبحانه، قال الله تعالى عن زكريّا عليه السلام[٤]: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا**

---

(١) سورة البقرة: ١٥٢.

(٢) سورة الأعراف: ١٠.

(٣) سورة لقمان: ١٢ ـ ١٣.

(٤) سورة الأنبياء: ٩٠.

خَاشِعِينَ﴾، وقال سبحانه[١]: ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾**، وقال عزَّ من قائل[٢]: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْـمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّـهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْـمُحْسِنِينَ﴾**.

وقد جاء في خطبة المتَّقين للإمام عليّ ﵇ وصفهم فيها بكلِّ خصلةٍ فاضلةٍ، ومنها[٣]: ((لَوْلاَ الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْن، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ)).

لكنَّه رغم ذلك قال عنهم: ((قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَض، وَيَقُولُ: قَدْ خُولِطُوا! وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ. إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسي! اللَّهُمَّ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ)).

فهذه هي التَّربيَّة الإلهيَّة القرآنيَّة للإنسان.

وفي مقابل ذلك ما نجده في قوم من أهل العلم من الاهتمام بمشاعر المحبَّة دون مشاعر الشُّكر والخوف والرَّجاء، حتَّى زعموا لأنفسهم مزاعم غريبة.

---

(١) سورة السَّجدة: ١٥ ـ ١٦.

(٢) سورة الأعراف: ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) نهج البلاغة ص: ٣٠٣ ـ ٣٠٥، الخطبة:١٩٣.

٧ ـ أن تكون إثارة المشاعر على وجه يساعد على تقوية رعاية المرء للقيم الفاضلة والصَّحيحة، ولا يؤدِّي إلى تهوينها والتَّقليل منها، كما نجده في بعض مشاعر المحبَّة لدى قوم.

بيان ذلك: أنَّ مشاعر المحبَّة على ضربين:

ضربٌ يمثِّل تعلُّقاً عميقاً بالمحبوب يؤدِّي إلى الثُّبات في الاختبارات الصَّعبة، ويرشد الإنسان إلى ما ينبغي أن يتَّصف به، ويتعامل معه، ويقتدر من خلاله على نقد نفسه نقداً موضوعيَّاً.

وضربٌ لا يزيد على مشاعر وهواجس تجاه المحبوب، تموج في نفس الإنسان في أثر ذكره أو في ممارسات مهيِّجة، فهو لا يزيد على بُعدٍ مشاعريٍّ وعاطفيٍّ بحت من جهة أُنسٍ أو عادةٍ أو حاجةٍ أو نحو ذلك، من غير أن يوجب اتِّصاف الإنسان بالرُّشد، ويهديه إلى الحقِّ، وينبِّهه على عيوبه تجاه الآخر المحبوب.

ونحن نجد مثل هذا التَّقسيم في المحبَّة بين الأزواج أو الأصدقاء، فمنها ما لا يزيد على ضربٍ من المشاعر الموجبة للاستئناس والرَّغبة في حالات السَّلامة والعافية والغنى، وقد يقترن بوجوهٍ من الإجحاف والظُّلم والتَّعسُّف يسكت عنها المحبوب. وضرب يقي صاحبه من هذه الأمور الذَّميمة، ويوجب الوفاء في الشِّدَّة، واستحضار وجوه الإحسان منه، وإيثاره على النَّفس.

هذا، ومحبَّة الإنسان لله سبحانه ينبغي أن تكون محبَّةً عميقةً تؤدِّي إلى الاتِّصاف بالخصال الحميدة، وتجنُّب الخصال الذَّميمة، ومساواة السِّرِّ للعلن، وتجنُّب الرِّياء والتَّجمُّل بذكر الله سبحانه أمام النَّاس، والبحث عن الحقِّ والإذعان به حيثما كان، والقدرة على نقد النَّفس واتِّهامها في مظانِّ التَّقصير والغفلة، والثُّبات على الموقف الصَّائب في الاختبارات

الصَّعبة.

وليس من الصَّحيح أن يستغني المرء بمشاعر محبَّة الله سبحانه عن شيءٍ من هذه الخصال، فمَن خفَّت لديه قيمة الأعمال الحسنة الَّتي يستطيع منها ـ كمراعاة اليتامى والأرامل وإعانة الضُّعفاء ـ بسبب ما يجده من مشاعر المحبَّة لله سبحانه، أو غطَّت مشاعر المحبَّة والوثوق بها خطاياه ومعايبه، فقد كانت محبَّته مدخولةً ـ بعض الشَّيء أو كلِّه حسب اختلاف الموارد ـ من منظور الدِّين.

لأجل ذلك نجد أنَّ القرآن الكريم يؤكِّد في مقام ذكر المحبَّة على محبَّته تعالى للخصال الفاضلة ولأصحابها من (المحسنين، المتَّقين)، وينفي محبَّته للخصال السَّيِّئة وأصحابها من (المعتدين، الظَّالمين، الخائنين، الآثمين، المسرفين، المستكبرين، الكافرين (الجاحدين))، ليكون ذلك ضبطاً للمحبَّة بالخصال الفاضلة والقيم المثلى.

على أنَّ الله سبحانه قد يحبُّ المرء ويكره عمله إذا كان عمله هوىً عابراً، وقد يحبُّ العمل ويكره صاحبه إذا كان عمله ذاك فلتةً منه، كما قال الإمام عليّ عليه السلام[1]: ((وقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ صلى الله عليه وآله: ((إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْعَبْدَ ويُبْغِضُ عَمَلَه، ويُحِبُّ الْعَمَلَ ويُبْغِضُ بَدَنَه)))).

وقد يتَّفق أن تشتبه المحبَّة على الإنسان فيجب اختبارها بملاحظة مقتضيات المحبَّة والاستجابة للمحبوب في السُّلوك العمليِّ، كما تشير بعض النُّصوص كقوله تعالى[2]: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّـهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

---

(١) نهج البلاغة ص: ٢١٦ الخطبة: ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران: ٣١.

وفي الحديث عن أبي عبد الله الصَّادق عليه السلام[1]: ((ما أحبَّ الله عزَّ وجلَّ مَن عصاه، ثُمَّ تمثَّل فقال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبَّه ... هذا محال في الفعال بديع
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إنَّ المحبَّ لِمَن يحبُّ مطيع

وعليه: فإنَّه ينبغي أن يكون الخطاب المثير لمشاعر المحبَّة تجاه الله سبحانه على نحوٍ متوازن، بحيث ينبِّه على أهمِّيّة المشاعر الباعثة على جميع الخصال الفاضلة، ويوازن بين مشاعر الحبِّ، ومشاعر الشُّكر، والخوف والرَّجاء، ويحذِّر من الثِّقة بالنَّفس لمجرَّد المشاعر الَّتي تثيرها النُّصوص الأدبيَّة والألحان الغنائيَّة والحركات الخاصَّة، ويبعِّد المرء من الأنانيَّة والمراءاة والابتداع والتَّفرُّق والامتياز.

٨ ـ أن تكون المشاعر المثارة مناسبة مع شخصيَّة صاحب الشُّعور وشخصيَّة الآخر الَّذي يتعلَّق به الشُّعور. وذلك أنَّ للمشاعر لياقات تحكمها، كما نجد ذلك في ملاحظة مشاعر النَّاس بعضهم تجاه بعض، حيث هناك مشاعر مناسبة تجاه كلٍّ من: الأمّ، والأب، والأولاد، والأرحام، والأصدقاء، والشَّخصيَّات الاجتماعيَّة وغيرها.

وعليه: فمن الضَّروريّ في مشاعر الإنسان تجاه الله سبحانه الانتباه إلى ما يليق بالإنسان ككائنٍ له مؤهِّلاتٌ محدودة، وما يليق بشأن الله سبحانه الخالق للوجود والمهيمن عليه والمتحكِّم فيه.

هذا، ولا شكَّ من المنطلق الفطريِّ والشَّرعيِّ في أصل لياقة الشُّعور بالمحبَّة والتَّعلُّق بالله سبحانه الَّذي هو الخالق للإنسان والقيِّم عليه، والوليّ له، والودود به، والمشفق عليه، كما أنَّ من اللَّائق بالإنسان أن يتَّصف بمشاعر الامتنان تجاه نعمه، ومشاعر الرَّجاء

---

(١) الأمالي للشَّيخ الصَّدوق ص: ٥٧٨، المجلس الرَّابع والسَّبعون ح:٣.

والخوف منه، لكن مع ذلك فإنَّ تقدير تفاصيل ذلك وحدوده ومظاهره وأسبابه ممَّا ينبغي أن يُنظَر فيه إلى معطيات الرِّسالات الإلهيَّة، وسيرة الأنبياء والصَّالحين.

٩ ـ إنَّ من الضَّروريّ الانتباه إلى أنَّ المشاعر ليست مأخذاً للعقائد، ولا دليلاً على الحقائق، فتلقِّي العقائد والحقائق الكبرى وحدودها إنَّما يكون من خلال العقل الرَّاشد فيما وفى به، ثُمَّ بالخطاب الدِّينيِّ، وإنَّما شأن المشاعر أن تكون استجابةً صادقةً للعقائد الثَّابتة والحقائق الظَّاهرة ومساعدةً على العمل بمقتضياتها.

وفي مقابل ذلك ما نجده من بعض أهل العلم والرِّياضة، حيث عوَّلوا على المشاعر وإيحاءاتها في إثبات العقائد والحقائق، بدعوى أنَّ ما يجدونه إنَّما هو شيءٌ وجدانيٌّ، ولا يصحُّ رفع اليد عنه بالأدلَّة النَّقليَّة، بل ينبغي تأويل هذه الأدلَّة على وفقها.

وهذا خطأ كبير، فلا بُدَّ للمرء من أن يقيِّم مشاعره في ضوء قضاء العقل الرَّاشد، والضَّمير المستنير، وثوابت الرِّسالات الإلهيَّة. ويخطِّئ أيَّ شعورٍ يخالف أو يتجاوز تلك المقتضيات والثَّوابت، بل يتَّهم ويستريب في أيِّ شعورٍ لم يحرز صواب مقتضاه ومضمونه من خلال الحجَّة الرَّاشدة وإن كان أمراً محتملاً.

١٠ ـ إنَّ التُّراثيَّات الَّتي تحصل للإنسان في أثر المشاعر النَّفسيَّة القويَّة ـ والَّتي توجب ضعف الوعي أو غيابه ـ فهي وفق المنظور الشَّرعيِّ أشبه بالمنامات، فهي تخطئ وتصيب، وليست بالضَّرورة انكشافاً معتبراً وموثوقاً، ومن الخطأ افتراض إصابتها جميعاً، كما أنَّ من الخطأ جعلها غايةً للأعمال والمشاعر، وقد وقع في مثل هذه الأخطاء بعض أهل العلم، وانتبه إليها آخرون.

هذا، وليست النُّبوَّة في المنظور الشَّرعيِّ من قبيل ما يتَّفق لصاحبه في أثر المشاعر، بل هي نوعٌ من الوحي الإلهيِّ الَّذي ينزل على الإنسان باختيارٍ من الله سبحانه من غير أن

يكون له سببٌ تامٌّ من جهة الإنسان. **نعم**، لا بُدَّ أن يكون المرء قابلاً بحسب عقله وخصاله لأن يكون محلَّاً للوحي الإلهيِّ.

هذه محدِّدات في المنظور القرآنيِّ ـ الَّذي يمثِّل المنظور الإلهيِّ في الأديان ـ في إثارة المشاعر، وهو ينعكس بطبيعة الحال على تحديد الأساليب الأدبيَّة والفنِّيَّة الَّتي يصحُّ استخدامها.

ومن الملاحظ في بعض النُّصوص الإنسانيَّة الدِّينيَّة الَّتي تحثُّ على محبَّة الله سبحانه وتعالى أنَّها قد واظبت على هذه الحدود، ورُوعي فيها مقتضياتها، ولكن نجد في طائفةٍ منها لم يُراعَ فيها ذلك بدرجةٍ أو أخرى، ممَّا ولَّد محاذير في الوسط الدِّينيِّ، من قبيل إيجاد طُرقٍ معنويَّة متعدِّدة، ومحاولة بعض الطُّرق خلق امتيازٍ لنفسها ولو كان مُبتدَعاً، وطرح دعاوٍ غير لائقة مثل الخِرَق[1] الَّتي تُنسب إلى أهل البيت ﷺ وبعض الصَّحابة والتَّابعين، مع أنَّها أمور خارقة تعيُّناً وفق الحقائق التَّاريخيَّة، والغلوّ في بعض الأولياء أو المحسوبين منهم.

نتيجة ما تقدَّم

لقد اتَّضح من مجموع ما ذكرناه حول المقارنة بين القرآن الكريم والنُّصوص المعنويَّة الإنسانيَّة أنَّ القرآن الكريم هو فعلاً نصٌّ متميِّزٌ بالقياس إلى هذه النُّصوص كلِّها، وأنَّ هناك محدِّدات حكيمة للقرآن مانعة عن استعمال بعض الأساليب والأدوات من حيث ما يليق بهذا النَّصّ الَّذي هو النَّصُّ الأوَّل، والمؤسِّس للدِّين، والصَّادر من خالق الكون والكائنات، والصَّادع بالحقائق الكبرى الماثلة، والقيم النَّبيلة والفاضلة، والَّذي عليه أن يمثِّل أساساً سليماً لعمليَّة التَّربية المعنويَّة للإنسان.

---

(١) الخِرَق جمع الخرقة، ويُعنى بها لدى الصُّوفيَّة قطعة قماش متوارثة في السِّلسلة إلى أن تنتهي إلى الرَّجل الأوَّل المؤسِّس لها.

ذكر أسئلة تُطرح في شأن الإعجاز البلاغيّ للقرآن

تساؤلات حول بلاغة بعض النُّصوص القرآنيَّة

سرّ عدم شعور كثير من النَّاس بالامتياز البلاغيّ للقرآن الكريم

مدى حجِّيَّة الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم على مَن لا يشخِّص ذلك

كيفيَّة ثبوت إعجاز القرآن الكريم لأهل سائر اللُّغات غير العربيَّة

ملخَّص ما تقدَّم حول الإعجاز البلاغيّ للقرآن

تساؤلات

عن الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم

ذكر أسئلة تُطرح في شأن الإعجاز البلاغيِّ للقرآن

وينبغي التَّعرُّض في خاتمة هذا البحث ـ عن الإعجاز البلاغيِّ للقرآن الكريم ـ لعدَّة أسئلة تتعلَّق بالموضوع:

١ ـ إنَّ هناك تساؤلات أدبيَّة مطروحة تتعلَّق بعدد من النُّصوص القرآنيَّة تتضمَّن تسجيل ملاحظات بلاغيَّة على هذه النُّصوص، فما هو الموقف منها؟

٢ ـ لماذا لا يشعر كثيرٌ من النَّاس بامتياز النَّصِّ القرآنيِّ رغم التَّوصيفات المتقدِّمة لهذا الامتياز؟

٣ ـ كيف يكون الإعجاز البلاغيِّ للقرآن الكريم حجَّةً في حقِّ مَن لا يجد بنفسه امتياز القرآن؟

٤ ـ كيفيَّة ثبوت إعجاز القرآن الكريم لأهل سائر اللُّغات غير العربيَّة.

تساؤلات حول بلاغة بعض النُّصوص القرآنيَّة

(السُّؤال الأوَّل): إنَّ هناك كلمات وجمل في القرآن الكريم وقع البحث عن مدى موافقتها للبلاغة، منها ما يرجِّح استخدام كلمةٍ بدل أخرى، ومنها ما يرجِّح تقديم جملةٍ على أخرى، من قبيل ما قيل عن أوَّل سورة الرَّحمن ـ وهو قوله تعالى[1]: ﴿**الرَّحْمَـنُ * عَلَّمَ**

---

(١) سورة الرَّحمن: ١ ـ ٤.

الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ـ، من أنَّ المفروض تقديم خلق الإنسان على تعليم القرآن؛ لأنَّ تعليم القرآن إنَّما كان للإنسان، فهو فرع خلق الإنسان.

وقد يبلغ بعض النَّاس في إثارته للسُّؤال في هذه الموارد إلى مستوى التَّشكيك في تميُّز القرآن الكريم وإعجازه بالمقارنة مع سائر النُّصوص الأدبيَّة.

وهنا ملحظان على ذلك: ملحظ منطقيّ إجماليّ، وملحظ أدبيّ تفصيليّ.

أمَّا الملحظ المنطقيّ: فهو يتضمَّن عدَّة نقاط:

١ ـ إنَّ مقتضى المنهج المنطقيّ في الموضوع الانطلاق من الأمور الثَّابتة والواضحة والبديهيَّة ثُمَّ معالجة الحالات المبهمة والمتشابهة والغامضة في ضوئها.

وقد عرفنا من قبل أنَّ القرآن الكريم يمثِّل وفق المنظور الوجدانيّ نصَّاً راقياً ومتميِّزاً في البلاغة دون ريب، وليس من المعقول معارضة هذه البديهة الواضحة من خلال السُّؤال عن الحكمة في انتقاء هذا اللَّفظ دون ذاك، أو هذا التَّرتيب دون التَّرتيب الآخر، بل ينبغي أن تُعتبر هذه الحالات غامضة ومتشابهة في ضوء تلك البديهة الواضحة.

٢ ـ إنَّ من الأسئلة والاعتراضات المطروحة ما لو صحَّت فعلاً فإنَّ المفروض التفات أيِّ متكلِّمٍ لها ولو لم يكن بليغاً ـ كالسُّؤال المطروح في شأن ترتيب الجملتين الأوَّليَّتين في أوَّل سورة الرَّحمن ـ، والقرآن الكريم إن لم يكن كلاماً معجزاً فهو كلامٌ بليغٌ بلا إشكال، لا يفوت صاحبه مثل هذه النُّكتة الواضحة، فكيف يمكن الثِّقة بمثل هذا الاعتراض.

على أنَّه إذا كان فهل غفل عنه عامَّة العرب الَّذين تحدَّاهم القرآن الكريم بالنَّصِّ القرآنيِّ؟

٣ ـ إنَّ من الأسئلة المطروحة ما هي توصيفيَّة بحتة، بمعنى أنَّ السُّؤال يعتمد على

إثارة نكتةٍ فنِّيَّة بينما يجد صاحب الذَّوق أنَّ النَّصَّ بوضعه القرآنيِّ أجمل وأبلغ، وقد تقدَّم من قبل أنَّ البلاغة في أصلها ذوق رائع يتحسَّس جمال الكلام، وليس تصنيعاً بحتاً يسعى فيه المرء إلى مراعاة قواعد توصيفيَّة فنِّيَّة بمقدار ما يُتاح له، فيكون كلُّ مَن استطاع مراعاة قواعد أكثر أبلغ من الآخرين.

وهكذا يظهر: أنَّه ليس من الصَّحيح منطقيَّاً أن تعارَض بلاغة نصٍّ في حجم القرآن الكريم ـ والَّذي كان الرَّائد الأساس للنُّصوص البليغة فيما بعده والمؤثِّر عليها بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر ـ بأسئلةٍ من هذا القبيل.

وأمَّا البيان التَّفصيليّ: فهو يقتضي الإجابة الأدبيَّة التَّوصيفيَّة عن السُّؤال، ونحن نقتصر هنا على ملاحظة المثال المتقدِّم والسُّؤال القديم بشأنه[1] الَّذي يتكرَّر طرحه جديداً.

إنَّ مبنى السُّؤال: أنَّ المتكلِّم ساق الجمل الأربع في أوَّل السُّورة سوقاً واحداً، وحينئذٍ فالمفروض تقديم خلق الإنسان على تعليم القرآن.

ولكنَّ الظَّاهر أنَّ نظر المتكلِّم بهذا النَّصِّ إلى جعل هذه الفقرة مقطعين، ففي المقطع الأوَّل ـ الَّذي هو بداية السُّورة ـ يذكِّر بموقع القرآن الكريم، ثُمَّ يبدأ في المقطع الثَّاني بسائر أغراض السُّورة، فكأنَّه قال: (إنَّ الرَّحمن الَّذي علَّم القرآن هو الَّذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان).

ويجري ذلك على ما جرى عليه عدد من سور القرآن الكريم من الابتداء بذكر مكانة القرآن الكريم، ففي سورة البقرة قال سبحانه[2]: ﴿**الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ**

---

(١) أُشير إليه وإلى جوابه في كلام جماعةٍ (يلاحظ على سبيل المثال: الكشَّاف للزمخشريّ ج: ٤، ص: ٤٣، تفسير الرَّازيّ ج: ٢٩، ص: ٨٤).

(٢) سورة البقرة: ١ ـ ٢.

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وفي سورة آل عمران قال تعالى[١]: ﴿**الم * اللَّـهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْـحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْـحَقِّ**﴾، وجاء مثل ذلك في سور عديدة أخرى[٢].

وعلى الإجمال فذكر تعليم القرآن في مستهلِّ السُّورة إنَّما كان للتَّأكيد على أهمِّيّة القرآن الكريم، ولو أُخِّر ذكر ذلك إلى موضعٍ لاحقٍ من الكلام لكان في عداد سائر المذكورات، ولم يكتسب التَّركيز الَّذي تعطيه صدارته في الكلام، وقد تقدَّم من قبل أنَّ صدارة الكلام تمثِّل موقعاً متميِّزاً في الكلام، وليس على حدِّ سائر مواضعه، فما يُذكر فيه يكون واجهةً للكلام، ويُعطَى مزيد اهتمامٍ به من المتكلِّم، كما يوجب مزيد تركيز عليه من المخاطب.

هذا، وقد سيقت سورة الرَّحمن ـ فيما يبدو منها ـ للتَّأكيد على آلاء الله سبحانه ونعمه على الإنسان في هذه الحياة، ومن ثَمَّ التزمت من الآية الثَّالثة عشرة من أوَّل السُّورة تكرار قوله سبحانه: ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ بعد كلِّ آية أو آيتين؛ ولذلك بدأت السُّورة بذكره تعالى بوصف (الرَّحمن) وهو أفخم من (الرَّحيم) لفظاً ومعنى، مع مناسبته مع أواخر الآيات، وابتدأت السُّورة بذكر القرآن الكريم كأوَّل نعمةٍ تُذكر فيها اهتماماً بهذا الكتاب المتميِّز، ثُمَّ ذكر سائر النِّعم على الإنسان، وأوَّلها أصل خلق الإنسان، ثُمَّ تعليمه البيان، ثُمَّ سائر الكائنات المحيطة بالإنسان.

---

(١) سورة آل عمران: ١ ـ ٣.

(٢) لاحظ أوائل سورة الأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرَّعد، وإبراهيم، والحجر، والكهف، والفرقان، والشُّعراء، والنَّمل، والقصص، ولقمان، والسَّجدة، والزُّمر، وغافر، وفُصِّلت، والزُّخرف، والدُّخان، والجاثية، والأحقاف.

سرُّ عدم شعور كثير من النَّاس بالامتياز البلاغيَّ للقرآن الكريم

(السُّؤال الثَّاني): إنَّه إذا كان القرآن الكريم بهذا التَّميُّز البلاغيّ الموصوف، فلماذا لا يجد كثير من النَّاس هذا التَّميُّز بوجدانهم الأدبيّ؟

والجواب عن هذا السُّؤال:

أمَّا إجمالاً: فإنَّ هذه الظَّاهرة لا تختصُّ بالقرآن الكريم، بل تصدق في شأن سائر النَّصوص الأدبيَّة الرَّاقية؛ فإنَّ كثيراً من النَّاس لا يجدون تميُّزاً لها بالمقارنة مع نصوصٍ أخرى تُعتبر دونها.

وأمَّا تفصيلاً: فإنَّ من الجائز أن لا يشعر المرء بمزايا النَّصِّ القرآنيِّ بالقياس إلى سائر النُّصوص شعوراً فعليَّاً، لأحد أسباب:

(السَّبب الأوَّل): أن لا يكون للمرء اهتمام بهذا الموضوع؛ فإنَّه قد يؤدِّي إلى عدم إدراكه لذلك، حتَّى إذا كان ممَّن يعتقد بالدِّين، ويواظب على تلاوة القرآن الكريم، لكن يكون المهمُّ عنده في اعتقاده بالقرآن الكريم أنَّه كلام الله سبحانه، أو يكون الَّذي يجده من بلاغته هو جماله الصَّوتيّ الَّذي يجده الإنسان عند ترتيله بصوتٍ حسن.

ومن المعلوم أنَّ الإنسان لا يشعر بمزايا شيءٍ حتَّى يكون مهتمَّاً بإدراكها باحثاً عن وجودها، ومعجباً بها إن كانت موجودةً فعلاً، فأمَّا إذا لم يكن يهتمُّ بتلك المزايا وُجدت أم لا فهو لا يتفاعل مع توصيفها تفاعلاً يساعده على إدراكها.

وهذا شعورٌ إنسانيٌّ عامٌّ مشهودٌ في جميع مجالات الحياة، فمَن لا يهتمُّ بشيءٍ يملُّ من توصيف مزاياه له ولا يعيشها، كمَن لا يملك سيَّارةً ولا يرغب في امتلاكها؛ فإنَّ من غير النَّافع أن تصف له امتياز سيَّارةٍ عن أخرى بإمكاناتها، وأجهزتها، والخيارات المتاحة فيها بالقياس إلى سائر أنواع السَّيَّارات، ولكن مَن يملك السَّيَّارة ويستمتع بالوقوف على

إمكاناتها، وينتفع بها يكون معجباً بهذا التَّوصيف طبيعةً.

(**السَّبب الثَّاني**): أن يكون المرء مأنوساً بالقرآن؛ فإنَّ من الأنس بالنَّصِّ والاعتياد عليه ما يحول دون معرفة مزاياه بالمقارنة مع غيره، بخلاف ما لو عاش الإنسان جوَّ فقدان هذا النَّصِّ مع اهتمامه بالدِّين والأدب الدِّينيّ، ثُمَّ يجد هذا النَّصَّ ويطَّلع عليه، فهو ينتقل إلى مزاياه جدَّاً.

والوجه في ذلك: أنَّ الواقف على النَّصِّ القرآنيِّ منذ نشأته ـ كما هو حال كثيرٍ من العرب المسلمين ـ لا تخطر في باله صورةٌ أخرى للنَّصِّ الدِّينيِّ يمكن أن يكون عليها، ومن ثَمَّ فإنَّه يشعر أنَّ المفروض بالنَّصِّ الدِّينيِّ أن يكون كذلك من حيث أساليبه ومضامينه المعنويَّة، وإلَّا فما هو الوجه الآخر الَّذي يمكن أن يكون عليه.

وهذه الحالة تندرج في شعورٍ إنسانيٍّ عامّ، وهو أنَّ كلَّ ما هو حاصل فالمفروض أن يحصل، فهو الخيار الوحيد بطبيعة الأمور، ولا محلَّ للبحث عن خيارٍ آخر. وإلى هذا الشُّعور قد يستند ما يُطرح وجهاً للإلحاد وإنكار وجود الخالق، رغم ما يجده الإنسان من الرَّوعة والتَّعقيد في الكون والكائنات، وهو أنَّ هذا العالم بكلِّ ما فيه لا دلالة له على صانعٍ قدير؛ لأنَّ المفروض به أن يكون كما نجده، وليس من المتوقَّع أن يكون على وجهٍ آخر، حتَّى نكتشف وجود عنايةٍ في حصول هذا دون ذاك.

ومثل هذه النكتة تجري في الشَّأن القيميِّ والأخلاقيِّ، حيث تجد أنَّ المرء لا يعتقد في وجوه الإحسان الَّتي عهدها وعاش في كنفها ـ مثل إحسان الوالدين ـ أنَّها تستوجب الشُّكر والمجازاة بالإحسان؛ لأنَّ هذا هو الشَّيء الطَّبيعيّ، ولكن إذا أسدى إليه صديقٌ إحساناً فإنَّه يشكره ويشعر تجاهه بالامتنان، ويرى أنَّه يجب أن يراعي جانبه ويحسن إليه بمثل إحسانه في مظانِّه؛ لأنَّ حدوث هذا الإحسان منه أمرٌ غير طبيعيٍّ ولا متوقَّع.

وهكذا نلاحظ أنَّ الأنس بالشَّيء قد يؤدِّي إلى عدم الشُّعور بمزاياه أحياناً؛ لعدم تخيُّل وجهٍ آخر كان من الممكن أن يكون عليه الشَّيء.

نعم، يمكن للإنسان أن يتخلَّص عن هذا الشُّعور الَّذي يوجبه الاعتياد إذا استطاع تجريد نفسه من الواقع الموجود، والارتقاء بوعيه وسعة تخيُّله إلى افتراض ظرف الفقدان حتَّى كأنَّه يعيش فيه، ليجد حينئذٍ مزايا هذا الشَّيء الخاصّ، كالنَّصِّ القرآنيِّ في محلِّ الكلام.

فالحاصل: أنَّ للاهتمام والمفاجأة بالنَّصِّ دوراً في الانتقال إلى مزايا النَّصِّ فعلاً.

وهذه الحالة كانت تتحقَّق بشكلٍ طبيعيٍّ في أوَّل الإسلام؛ لأنَّ القبائل العربيَّة ـ كقريشٍ ـ كان لها دين تعتقد به، فهي كانت تعتقد بالله سبحانه وبالأصنام جميعاً، وكانت لها أدبيَّات دينيَّة ـ تناسب مضامين دينهم ـ، فلمَّا جاء الإسلام بالقرآن ـ وهو مطروح على وجه التَّحدِّي ـ قارنت بين ما كان لديها وما جاء في القرآن، فكان النَّصُّ القرآنيّ لديهم مفاجأةً كبيرة، كما أنَّ أهل الكتاب أيضاً كانت لديهم أدبيَّات دينيَّة من خلال ما لديهم من التَّوراة والإنجيل، فهم كانوا يقارنون بين النَّصِّ القرآنيّ وبين التُّراث الَّذي كانوا يجدونه، فكانوا يقفون بذلك على مزايا النَّصِّ القرآنيّ.

وأعتقد أنَّ علماء الأديان الأخرى ـ كالمسيحيَّة والصَّابئة ـ العارفين باللُّغة العربيَّة يمكن أن يجدوا مزايا القرآن الكريم بشكلٍ أوضح من عامَّة المسلمين؛ لأنَّ اعتناءهم بكتب أديانهم وتراثها وتعلُّق القرآن الكريم بدينٍ آخر يتيح لديهم مقارنةً طبيعيَّةً بين القرآن وبين تراثهم الدِّينيّ، ممَّا يوجب تمثُّل حجم إبداع القرآن الكريم في الجوانب المعنويَّة للنَّصِّ الدِّينيِّ، وقد أذعن بعضهم بالمكانة العالية لـ(نهج البلاغة) في حين أنَّه لا يرقى إلى مستوى النَّصِّ القرآنيّ.

(السَّبب الثَّالث): أن لا يتَّصف المرء بالذَّوق الأدبيّ الَّذي يميِّز القيمة الفنِّيَّة للكلام

ومزاياه البلاغيَّة؛ فإنَّ هذا الذَّوق ليس أمراً مطَّرداً في النَّاس؛ لأنَّه ـ وإن كان يعتمد على أساسٍ فطريٍّ مشتركٍ على العموم بين النَّاس ـ يحتاج إلى تنمية هذا الاستعداد من خلال الممارسة، والاطِّلاع على النَّماذج المختلفة، ومعايشتها والمقارنة بينها، حتَّى يستطيع المرء من تمييز مستوى الكلام لفظاً ومعنى.

وممَّا ينبِّه على ذلك أنَّك تجد في النَّاس مَن ينظم أشعاراً اعتياديَّة أو حسنةً بعض الشَّيء في مستواها، ولكن يقارنها بأشعار كبار الشُّعراء ولا يفهم وجه الفرق بينهما، مع وضوح الفرق بينهما في الجوِّ الأدبيّ[1].

مدى حجِّيَّة الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم على مَن لا يشخِّص ذلك

(السُّؤال الثَّالث): ـ حول الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم ـ هو أنَّه ما مدى حجِّيَّة القرآن الكريم من جهة تميُّزه البلاغيّ على كثيرٍ من النَّاس ممَّن لا يستطيع أن يشخِّص هذا الامتياز فعلاً.

والجواب عن ذلك: إنَّه يمكن أن يكون الإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم حجَّةً على هؤلاء من وجهين:

(الوجه الأوَّل): تاريخيٌّ، وهو وضوح أنَّ القرآن الكريم عند نزوله كان له وقع المعجزة في مكَّة والجزيرة العربيَّة رغم الاهتمام الأدبيّ السَّائد آنذاك باللُّغة، وآدابها، وبلاغتها، فهذا الأمر يبلغ حدَّ البديهة التَّاريخيَّة الَّتي يسهل اطِّلاع الأجيال اللَّاحقة عليها،

---

(١) وقد يُعَدُّ من هذا الباب ما ورد في بعض التُّراث المنقول من اشتباه بعض الصَّحابة بين جمل اعتياديَّة ـ يمكن أن تكون دعاءً أو حديثاً نبويَّاً ـ بآيات القرآن الكريم، بل من المتأخّرين مَن أذعن بكون تلك الجمل في الأصل آيات قرآنيَّة، ولكن رجَّح أنَّه قد نُسخت تلاوتها، وهذا رغم التَّمايز الواضح بين هذه النُّصوص وبين القرآن الكريم، فهذا النَّقل لو صدق يدلُّ على عدم وجود ذوقٍ أدبيٍّ عالٍ يميِّز بين هذين النَّموذجين، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ.

والإذعان بها على ما وصفناه من قبل.

(**الوجه الثَّاني**): معاصر، وهو أن تكون حجِّيَّة القرآن الكريم على مَن لا يشخِّص تميُّزه البلاغيّ بالاعتماد على النُّخبة الأدبيَّة المعاصرة والقرينة الَّتي تُميِّز ذلك.

ويتَّضح هذا الوجه ببيان مقدِّمتين:

(**المقدِّمة الأولى**): إنَّ الاعتماد في الإذعان بالأشياء على تشخيص نخبة مميِّزة لها أمر متعارف عند العقلاء، فالمجتمع يعتمد في شأن المعلومات الَّتي ليست في مستوى الإدراك العامّ على تشخيص النُّخبة، وهذا هو الحال في المعلومات التَّخصُّصيَّة الَّتي تُعَدُّ من الحقائق الثَّابتة ـ كما في كثيرٍ من المعلومات الصِّحِّيَّة والطِّبِّيَّة ـ، وكلَّما كانت النُّخبة أوسع كان الوثوق بقولها أكبر بطبيعة الحال.

وقد يشير بعض الآثار التَّاريخيَّة إلى أنَّ من العرب مَن لم يكن يميِّز مستوى بلاغة القرآن بالمقارنة مع بعض النُّصوص الأخرى المتضمِّنة لبعض الحكمة، أو التَّشريع، أو الدُّعاء ـ كما هو الحال في بعض ما رُوي عن اشتباه آحادٍ من الصَّحابة لبعض الآثار بالقرآن الكريم ـ.

ومع ذلك فقد وثق عامَّة النَّاس آنذاك بأنَّ النَّصَّ القرآنيّ هو فعلاً نصٌّ مميَّزٌ ومعجزٌ؛ من جهة تحدِّي القرآن الكريم لعامَّة العرب ـ وقد كانوا مشركين ـ بما فيهم من البارزين في مجال اللُّغة كالشُّعراء وغيرهم، فلم يستطع أحدٌ من إبراز عيبٍ في هذا النَّصِّ، أو إيجاد نصٍّ يماثله أو يدانيه.

والحال كذلك في النُّصوص المتميِّزة في كلِّ اللُّغات؛ فإنَّ مَن يشخِّص تميُّزها عن النُّصوص الأخرى الَّتي هي دونها إنَّما هم جماعة من أهل اللُّغة والأدب، وليس عامَّة أهل تلك اللُّغات.

إذن، من الوارد اعتماد عامَّة النَّاس على تشخيص النُّخبة من الأدباء الَّذين تكون لديهم الممارسة الكافية في النُّصوص الأدبيَّة، ويتَّصفون بالذَّوق الأدبيّ العالي الَّذي يرصد المستوى الأدبيّ للنَّصِّ القرآنيّ.

(المقدِّمة الثَّانية): إنَّه لا يزال في هذا العصر نخبةٌ واسعةٌ من أهل اللُّغة العربيَّة يميِّزون التَّميُّز الأدبيّ للنَّصِّ القرآنيّ بشكلٍ واضحٍ من خلال أذواقهم وممارستهم، بما يمثِّل حجَّةً على عامَّة أهل اللُّغة وأهل اللُّغات الأخرى.

وهؤلاء النُّخبة ليسوا من طبقةٍ أو فئةٍ خاصَّة؛ لأنَّ اللُّغة والأدب والبلاغة ظواهر فطريَّة ومعاشة في أوساط عامَّة النَّاس، ومن ثَمَّ توجد في كلِّ فريقٍ من النَّاس مجموعة يميِّزون النَّصَّ الرَّاقي سواء كانوا في الرِّيف أو المدينة، وسواء كانوا من المتعلِّمين للأدب الوصفيّ ـ من خلال دراسة العلوم الأدبيَّة ـ، أو ممَّن يجري على الفطرة والسَّليقة في تذوُّق النَّصّ الأدبيّ.

ولا ينحصر هؤلاء بأوساط العرب المسلمين، بل يوجد في أوساط العرب من غير المسلمين كالمسيحيّين والصَّابئة، كما يوجد في أوساط سائر المتعلِّمين للغة العربيَّة؛ فإنَّ الكثير منهم يلتفت إلى بلاغة النُّصوص العربيَّة التفاتاً جيِّداً جدَّاً، كما نلاحظ ذلك في الخطباء والأدباء في العصور السَّابقة من الأقوام الأخرى.

على أنَّ بعض النَّاس قد لا يميِّز امتياز كلِّ نصٍّ قرآنيٍّ عن كلِّ نصٍّ غير قرآنيٍّ في مستواه البلاغيّ، لكنَّه يميِّز امتياز بعض النُّصوص القرآنيَّة من جهة اختلاف هذه النُّصوص في مستوى البلاغة ووضوحها حسبما كان يسمح به موضوع الحديث والفكرة الَّتي يُراد تفهيمها وأدوات اللُّغة، فمَن يشعر ببلاغة سورة النَّبأ ـ وهي من أبلغ السُّور القرآنيَّة ـ يمكن أن لا يشعر ببلاغة سورة النَّاس مثلاً، على وجهٍ يميِّزها عن النُّصوص

المعنويَّة الإنسانيَّة.

ولعلَّ هذا هو الباعث على تحدِّي القرآن طوراً بسورةٍ واحدةٍ، وطوراً بعشر سورٍ مماثلةٍ مع سور القرآن الكريم، قال تعالى[1]: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[3]: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّـهِ وَأَن لَّا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾.

كيفيَّة ثبوت إعجاز القرآن الكريم لأهل سائر اللُّغات غير العربيَّة

(**السُّؤال الرَّابع**): هو أنَّه كيف يثبت إعجاز القرآن الكريم لأهل سائر اللُّغات غير العربيَّة.

والجواب عن ذلك: إنَّه يمكن أن يقع ذلك على أحد وجهين:

(**الوجه الأوَّل**): الاعتماد على شهادة أهل اللُّغة العربيَّة بذلك:

إمَّا في زمان نزول هذا النَّصِّ ـ حيث تقدَّم أنَّ الشَّواهد التَّاريخيَّة واضحة في وقوع القرآن الكريم موقع المعجزة في المجتمع الجاهليّ العربيّ ـ.

وإمَّا في الزَّمان المعاصر بالاعتماد على شهادة الأدباء الموثوقين.

---

(١) سورة البقرة: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) سورة يونس: ٣٨.

(٣) سورة هود: ١٣ ـ ١٤.

وإذا كان من الصَّعب على سائر اللُّغات الوثوق بشهادة المسلمين من أهل اللُّغة العربيَّة فإنَّه يمكن أن يعوِّلوا على شهادة غير المسلمين من العارفين بهذه اللُّغة، وهم عدد غير قليل.

(الوجه الثَّاني): الاعتماد على ترجمة القرآن الكريم؛ فإنَّه يمكن أن يفي بجانبٍ من تميُّز القرآن الكريم.

توضيح ذلك: إنَّ عناصر تميُّز القرآن الكريم وبلاغته هي عناصر مختلفة من حيث إمكان حفظها في أيّة ترجمة للقرآن.

أ ـ فهناك عناصر لفظيَّة: من قبيل سلاسة الألفاظ في نفسها، وسلاسة الانتقال من لفظٍ إلى لفظٍ آخر في داخل الجملة الواحدة والكلام الواحد. وهذه العناصر لا تتمثَّل في التَّرجمة إلَّا إذا كان المترجم ـ فضلاً عن تذوّقه للمزايا اللَّفظيَّة في النَّصِّ العربيّ للقرآن الكريم ـ أديباً ذوَّاقاً ومقتدراً في تلك اللُّغة، فتكون التَّرجمة رائعةً بمقدار مقدرة الأديب المترجم، ولا يمكن أن يرتقي إلى مستوى مماثل لمستوى الرَّوعة والجمال في النَّصِّ الأصليّ والَّذي امتاز به عن سائر النُّصوص في اللُّغة العربيَّة بفاصلٍ محسوسٍ وغير قليل.

ب ـ وأمَّا العناصر المعنويَّة: فقد تقدَّم أنَّها على ثلاثة أقسام: عناصر أسلوبيَّة، وأخرى مضمونيَّة، وثالثة فكريَّة.

ويمكن نقل روعة العناصر الفكريَّة وقسم من العناصر الأسلوبيَّة والمضمونيَّة إلى أيّة لغةٍ أخرى يُترجم إليها القرآن الكريم؛ لأنَّها تتعلَّق بالمضمون والفكر وليس بالأداء، وإن كان الأداء الجميل دخيلاً في تمثُّل روعة المضمون والفكر بنحوٍ غير قليل.

لكن يبقى هناك قسم من العناصر الأسلوبيَّة والمضمونيَّة لا يمكن نقلها إلى لغةٍ أخرى، من جهة الاختلاف بين اللُّغات في الأذواق، والأدوات الأدبيَّة والظَّواهر الدَّخيلة

فيها، وفيما يلي بعض الأمثلة لذلك:

١ ـ فمن الاختلاف في الأذواق أنَّ بعض أنواع التَّخيُّل وأشكال التَّوسُّع يُستحسن في بعض اللُّغات دون بعضٍ، فإذا كانت علاقة الكلِّ والجزء تبيح التَّجوُّز في اللَّغة العربيَّة حتَّى يُقال على الجاسوس العين؛ لأنَّه بتمام وجوده معنيٌّ بالرُّؤية البصريَّة، فكأنَّه عين كبيرة، فإنَّها قد لا تبيح التَّجوُّز في بعضٍ آخر من اللُّغات، وقد عُرفت اللُّغة العربيَّة بسعة التَّخيُّل فيها حتَّى قيل: إنَّ أكثر اللُّغة مجازات.

٢ ـ ومن الاختلاف في الأدوات الأدبيَّة أنَّ لبعض المفردات في اللُّغة العربيَّة ـ مثلاً ـ إيحاءات صوتيَّة قويَّة ـ بحسب أصولها ـ ممَّا يعطي للكلام روعةً كبيرةً إذا نُفخ[(١)] فيها، وقد لا تكون المفردة المرادفة لها في لغةٍ أخرى كذلك، ويبدو بالتَّأمُّل أنَّ حجم الإيحاء الصَّوتيِّ للمفردات في اللُّغة العربيَّة أكثر من بعض اللُّغات الأخرى.

٣ ـ ومن الاختلاف في الظَّواهر الَّتي تبتني عليها الآداب أنَّ بعض التَّشبيهات الرَّائعة أو الذَّميمة في اللُّغة مبنيٌّ على انطباع أهلها عن المشبَّه به، فلا يصحُّ إيراد ذلك التَّشبيه بعينه في لغةٍ أخرى، فالتَّشبيه بالحمار للمبالغة في الصَّبر يحسن في بعض اللُّغات؛ من جهة كونه حيواناً صبوراً على العمل والشِّدَّة، ومن ثَمَّ اتُّخذ رمزاً لبعض الأحزاب من أهل تلك اللُّغات، ولكنَّه في اللُّغة العربيَّة حسب الموضع الفعليّ فيها ليس كذلك؛ لأنَّه وإن اشتهر بالصَّبر ولكنَّه اشتهر أكثر بالبلادة، فيكون للتَّشبيه به إيحاءٌ سلبيٌّ سيِّء في شأن الممدوح.

ولأجل ما ذكرنا تواجه عمليَّة التَّرجمة صعوباتٍ كثيرةً يجدها المترجم، لا سيَّما إذا

---

(١) المراد بـ(النَّفخ) في مثل هذا الكلام إثارة الحيثيَّة الصَّوتيَّة والانتفاع بها في اتِّجاه الكلام كما يقع ذلك من خلال النَّبرة.

كان النَّصُّ المترجَم نصّاً أدبيّاً.

فهذه أمور عامَّة في عمليَّة التَّرجمة.

ومن الأمور الخاصَّة بالقرآن الكريم: هو الإشكال الَّذي تثيره التَّرجمة الأدبيَّة غير الحرفيَّة. ذلك أنَّ من طُرق التَّخلُّص عن بعض مشاكل التَّرجمة لإيجاد نصٍّ أدبيٍّ رائعٍ من خلالها هو عدم تقيُّد المترجم بالتَّرجمة الحرفيَّة، فيحافظ على روح النَّصِّ ومضمونه الكلِّيّ، وهذا أمر مشكل في شأن القرآن الكريم؛ من جهة أنَّ هذا يعني نحو تصرُّف في الكلام، والمطلوب في ترجمة القرآن الكريم الدِّقَّة وعدم التَّصرُّف حتَّى يقف النَّاظر من خلال التَّرجمة على المعنى المذكور في القرآن الكريم بعينه.

يُضاف إلى ذلك أنَّ أيَّ تصرُّفٍ في مثل هذا النَّصّ الحسَّاس قد يعطي إيحاءاتٍ غير مقصودة، ولا مناسبة للنَّصِّ القرآنيِّ.

لكن رغم ذلك كلّه: فإنَّه لا شكَّ في أنَّ وجود ترجمة أدبيَّة ومناسبة لقسم من النُّصوص القرآنيَّة يمثِّل جانباً من الرَّوعة والتَّميُّز في هذا النَّصِّ البليغ.

ملخَّص ما تقدَّم حول الإعجاز البلاغيِّ للقرآن

هذا آخر ما أردنا ذكره في الحديث عن الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم، وقد تبيَّن ثبوت هذا الإعجاز بالمنظور المعاصر كما كان في العصر الأوَّل، وسوف يبقى هذا الإعجاز ما بقت العربيَّة لغةً حيَّةً، توجد فيها نخبةٌ واسعةٌ من أهلها يتذوَّقونها ويهتمُّون بظرائفها وآدابها، ويميِّزون بين مستويات الكلام فيها، وسوف تبقى اللُّغة العربيَّة كذلك بفعل القرآن الكريم نفسه الَّذي حال بتصدُّره للمشهد اللُّغويّ والبلاغيّ في اللُّغة العربيَّة دون تحرُّك اللُّغة إلى وضعٍ مختلف، وأبقى اللُّغة الفصيحة بمفرداتها المعهودة في القرآن لغةً حيَّةً وفاعلةً ونشطةً في أوساط العرب والمسلمين.

الإعجاز
العلميّ للقرآن الكريم

تحديد موضوعات البحث

هل يدلُّ القرآن الكريم على اشتماله على الإعجاز العلميّ

إنَّ مقولة الإعجاز العلميّ للقرآن هل هي أمر معقول في حدِّ نفسها

شروط تحقُّق الإعجاز العلميّ

اشتباه الإعجاز العلميّ بحالاتٍ أخرى

التَّمثيل لما ادُّعي فيه الإعجاز العلميّ وهو لا يستوفي للشُّروط المعتبرة

نماذج من أمثلة الإعجاز العلميّ في القرآن

دلالة القرآن الكريم على حدوث الكون بتجمُّع أجزاء الغبار الكونيّ

دلالة القرآن الكريم على أنَّ الأرض متحرِّكة

إشارة القرآن الكريم إلى قانون الجاذبيَّة

دلالة القرآن الكريم على تأثير الجبال في استقرار الأرض

دلالة القرآن الكريم على قاعدة اشتمال النَّباتات على ذكر وأنثى

تلخيص

ما يُطرح من منافاة بعض الآيات مع العلم

أهمّيّة عدم ورود ما يخالف العلم في القرآن الكريم

الإعجاز
العلميّ للقرآن الكريم

الإعجاز العلميّ للقرآن الكريم

(الوجه الثَّاني): ـ لتقرير إعجاز القرآن الكريم على وجهٍ معاصرٍ ـ هو الإعجاز العلميّ للقرآن الكريم، بمعنى أنَّ القرآن الكريم نظر ـ في ضمن ما جاء فيه ـ إلى حقائق لم تكن مكتشفة ومعروفة في المجتمع العربيّ الَّذي نزل فيه آنذاك، وبذلك فهو يدلُّ على أنَّه ليس من إنشاء النَّبيِّ ﷺ أو شخص آخر أعانه على ذلك، بل هو من جهة مصدر غيبيّ مطَّلع على الحقائق.

والنَّظر الجاري في طرح الموضوع هو إلى المعلومات الَّتي جاءت في القرآن الكريم ممَّا تتعلَّق بالعلوم الطَّبيعيَّة من قبيل: علوم الكونيَّات، والأحياء، والفيزياء، والكيمياء، والطِّبّ، والزِّراعة.

ويمكن مبدئيَّاً أن يُفرض اكتشاف تلك الحقائق في إحدى مراحل ثلاث:

(المرحلة الأولى): ما كان قد اكتُشف في زمان نزول القرآن، ولكن في بيئاتٍ أخرى غير المجتمع العربيّ مثل اليونان. وقد يكون من مصاديق ذلك ما نجده لدى بعض المفسِّرين من تفسير بعض الآيات المتعلِّقة بالسَّماء والنُّجوم وفق علم الهيئة اليونانيِّ، إلَّا أنَّهم لم يطرحوا ذلك ـ فيما اطَّلعت ـ على أنَّه يمثِّل إعجازاً للقرآن الكريم.

(المرحلة الثَّانية): ما اكتُشف بعد زمان القرآن الكريم من قبل علماء المسلمين إلى عصر النَّهضة العلميَّة الحديثة في العلوم الطَّبيعيَّة، فقد تطوَّر مختلف العلوم الطَّبيعيَّة خلال

هذه الفترة بعض الشَّيء؛ ولكن لم يحضرني ربط شيءٍ من الأمور المنكشفة بتفسير القرآن الكريم.

(**المرحلة الثَّالثة**): ما اكتُشف بعد النَّهضة العلميَّة الحديثة في الغرب.

ففي هذه المرحلة طُرح من قِبَل بعض الباحثين المسلمين وربَّما من غيرهم موافقة جملة من النُّصوص القرآنيَّة لمعطيات العلوم الطَّبيعيَّة الحديثة، بما يمثِّل سبقاً علميَّاً بالنَّظر إلى عدم معروفيَّة تلك الحقائق من قبل.

تحديد موضوعات البحث

وقد تناول الحديث حول ذلك موضوعات أربعة:

(**الموضوع الأوَّل**): إنَّ القرآن الكريم نفسه هل دلَّ على هذه الفكرة؟ بمعنى أنَّه تضمَّن ذكر اشتماله على معانٍ سوف يهتدي إليها النَّاس بعد حين، ويكون دليلاً على حقَّانيَّة هذه الرِّسالة للأجيال المقبلة؟

و(**الموضوع الثَّاني**): إنَّ هذا الطَّرح هل هو أمر معقول في حدِّ نفسه ـ بمعنى أن يكون القرآن الكريم فضلاً عن بعده الدِّينيِّ مشتملاً على ذكر حقائق علميَّة حديثة ـ أو لا؟

و(**الموضوع الثَّالث**): في شروط دلالة القرآن الكريم على حقيقة علميَّة على وجه الإعجاز العلميّ.

و(**الموضوع الرَّابع**): هل هناك نماذج واقعيَّة لدلالة القرآن الكريم على ذلك أو لا؟

هل يدلُّ القرآن الكريم على اشتماله على الإعجاز العلميّ

أمَّا عن (**الموضوع الأوَّل**): فإنَّ هناك من الباحثين المسلمين مَن ذهب إلى أنَّ القرآن الكريم نفسه نبَّه على هذه الفكرة من خلال جملة من الآيات، إلَّا أنَّه لم يتَّضح لي صحَّة ذلك بمقدار ما تيسَّر لي من تأمُّل الآيات الَّتي ذُكرت لإثبات هذا المعنى، وإن لم يكن في عدم

ذكر القرآن لهذه الفكرة ما يدلُّ على عدم صحَّتها، بل لا بُدَّ من ملاحظة ذلك بالنَّظر الاستقرائيِّ.

والآيات المذكورة ثلاث:

(الآية الأولى): قوله تعالى[1]: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾.

ووجه الدّلالة أنَّ كلمة (شيء) ذات معنى عامّ يشمل كلَّ المعلومات، ولا توجد كلمةٌ أعمّ منها في اللُّغة، وقد أُضيفت إليها كلمة (كلّ) للتَّعميم، فيكون مقتضاه اشتمال القرآن الكريم على كلِّ المعلومات.

ولكن يُلاحَظ عليه بوضوح:

(أوَّلاً): أنَّ هذا يصادم الوجدان؛ إذ لا دلالة ظاهرة للقرآن الكريم على كلِّ المعلومات في المجالات المختلفة.

فإن حُملت الآية على أنَّ المنظور بها يشمل الدّلالة بنظامٍ خاصٍّ لا يعلمه غير الرَّسول ﷺ أو هو وعترته عليهم السلام فهذا لا ينتج ما يكون إعجازاً علميّاً؛ إذ شرط الإعجاز العلميِّ دلالة القرآن عليه بدلالته المفهومة، وليس ما يكون بأسلوب الرَّمز الَّذي لا يعلمه عامَّة العلماء والعقلاء والنَّاس بشكل مباشر[2].

و**(ثانياً)**: أنَّه لا دلالة لهذه الآية في نفسها على أنَّ القرآن بظاهره يدلُّ على جميع

---

(١) سورة النَّحل: ٨٩.

(٢) **نعم**، لو ثبتت آثار موثوقة عن النَّبيِّ ﷺ أو عترته عليهم السلام تشتمل على تلك المعلومات بحيث يدلُّ على مصدر غيبيّ لها لكان ذلك دليلاً على صدق الرِّسالة، ولكن لا فرق حينئذٍ بين فهمها من القرآن الكريم أو الإيحاء بها إلى النَّبيِّ ﷺ مثلاً.

المعلومات المتعلِّقة بالأشياء، بل المفهوم منها وفق سياقات الكلام هو ما ينبغي أن يشتمل على بيانه الدِّين هدىً للنَّاس وإرشاداً إلى الحقِّ فيما اختُلف فيه.

وهذا كقول الصَّيَّاد وقد رجع من الصَّيد: (لم أحصل على أيِّ شيء) وإنَّما يريد بذلك الصَّيد، ولو قال الحطَّاب مثل ذلك فُهم منه الحطب، ولو قاله التَّاجر فُهم منه الرِّبح.

ومن هذا القبيل قول سليمان عليه السلام[١]: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَـهُوَ الْفَضْلُ الْـمُبِينُ**﴾، وقول الهدهد لسليمان عليه السلام عن ملكة سبأ[٢]: ﴿**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾، وقال سبحانه عن ذي القرنين[٣]: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾.

فكلَّما ارتسم غرض للكلام فُهم من لفظ العموم فيه العموم في دائرة الغرض المفترض.

والقرآن الكريم كرسالةٍ من الله سبحانه إلى النَّاس بتوسُّط النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم شأنه أن يبيِّن ما يليق بيانه في الدِّين من الحقائق الكبرى، ودعائم الدِّين، وسبل الرُّشد، وأصول الحكمة، وكذلك المهمّ ممَّا اختُلف في أمره من الرِّسالات السَّابقة، وقد اشتمل على ذلك فعلاً، كما بيَّنّا ذلك في الأبعاد المختلفة في هذه السِّلسلة من: حقيقة الدِّين، إلى اتِّجاهه في مناحي الحياة، إلى ضرورة المعرفة الدِّينيَّة، إلى القواعد العامَّة للمعرفة الإنسانيَّة والدِّينيَّة، إلى الحقائق المتعلِّقة بالله سبحانه، وصفاته، وعود الإنسان إلى الحياة، والرِّسالة، وهو موضوع

---

(١) سورة النَّمل: ١٦.

(٢) سورة النَّمل: ٢٣.

(٣) سورة الكهف: ٨٤.

الكتاب الحاضر، على أنَّ هناك أبعاداً أخرى كثيرة يمكن استنطاق القرآن بشأنها، مثل أصول تزكية النَّفس وتوعيتها، وهو ما ذكرته في بحث آخر.

وقد اشتمل القرآن الكريم على نفي تعرُّضه لجملة من الأشياء، منها: بعض قصص الأنبياء السَّابقين، كما قال تعالى[١]: ﴿**وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ**﴾، وقال سبحانه[٢]: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٣]: ﴿**إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَـهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾.

وينبِّه على ما ذكرنا ـ من النَّظر في التَّعميم في الآية المتقدِّمة إلى ما ينبغي أن تشتمل عليه الرِّسالة الدِّينيَّة الَّتي يبعثها الله سبحانه إلى الخلق ـ ما جاء في بعض الآيات من تضمُّن الكتاب لتفصيل كلِّ شيء، كما قال عزَّ من قائل[٤]: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾، وقال جلَّت آلاؤه[٥]: ﴿**وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّـهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

ووجه الدّلالة: أنَّ تفصيل الشَّيء يقتضي بيانه بنحوٍ مفصَّل، ولا شكَّ في أنَّ القرآن الكريم لا يتضمَّن بظاهره البيان المفصَّل لكلِّ المعلومات، بل لا يصدق ذلك حتَّى لو اشتمل على ذلك بنظام الرُّموز، فإنَّ البيان بهذا النِّظام لا يصدق عليه التَّفصيل.

---

(١) سورة النِّساء: ١٦٤.

(٢) سورة غافر: ٧٨.

(٣) سورة النَّمل: ٧٦ ـ ٧٧.

(٤) سورة يوسف: ١١١.

(٥) سورة يونس: ٣٧.

بل جاء هذا المعنى في شأن التَّوراة أيضاً، وأنَّها اشتملت على تفصيل كلِّ شيء، كما قال تعالى[(١)]: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، وقال سبحانه[(٢)]: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

هذا، وقد جاء في بعض الآيات الكريمة أنَّه ما من شيءٍ إلَّا وهو مثبَّت في كتاب، كقوله تعالى[(٣)]: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، وقوله سبحانه[(٤)]: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، ومثلهما آيات أخرى[(٥)].

لكنَّ المراد بالكتاب في مثل هذه الآيات ليس هو القرآن وسائر الرِّسالات الإلهيَّة إلى الخلق؛ بل كتاب محفوظ عند الله سبحانه، فيه مقادير الأمور كلِّها، وهذا أمرٌ واضح.

(الآية الثَّانية): قوله تعالى[(٦)]: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: ١٥٤.

(٢) سورة الأعراف: ١٤٥.

(٣) سورة الأنعام: ٥٩.

(٤) سورة يونس: ٦١.

(٥) سورة النَّمل: ٧٥، سبأ: ٣، فاطر: ١١، الحديد: ٢٢.

(٦) سورة الأنعام: ٦٦ ـ ٦٧.

فقد قيل إنَّ في هذه الآية دلالة على أنَّ ما ورد في القرآن من معلومات علميَّة سوف يُكتشف مع مرور الزَّمن.

ولكن يلاحَظ على ذلك وضوح عدم دلالة الآية على هذا الأمر، بل مفادها لا يتجاوز أنَّ في القرآن نبأ لم يصدِّق به الكفَّار، وسوف يستقرُّ الأمر في شأنه، ويتبيَّن مدى صدقه في المستقبل.

والظَّاهر أنَّ المراد بهذا النَّبأ هو إرسال الرَّسول من قبل الله سبحانه، أو وجود النَّشأة الأخرى بعد هذه الحياة، كما هو المناسب مع الآية السَّابقة على هذه الآية، بل جاء في الآيات السَّابقة على الآيتين بفصلٍ قليلٍ ذكر تكذيب الكفَّار لهذين النَّبأين وطلبهم إثبات ذلك، كما قال سبحانه(١): ﴿**قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْـمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّـهِ يَقُصُّ الْـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ * قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّـهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ**﴾.

وحُكي في آياتٍ أخرى تكذيب الكفَّار لنبأ القيامة، وجاء إنذارهم بأنَّ هذا اليوم قادم لا محالة، وسوف يعلمون ذلك لاحقاً في يوم لا تنفع فيه النَّدامة، قال تعالى(٢): ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَـذَا يَوْمٌ عَسِرٌ**﴾، وقال

---

(١) سورة الأنعام: ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) سورة القمر: ١ ـ ٨.

سبحانه[(١)]: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، وقال جلَّت آلاؤه في ردِّ ما قيل من كون القرآن افتراءً على الله تعالى[(٢)]: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، وقال تعالى في آيةٍ أخرى بعد ذكر المعاد[(٣)]: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

ومن هذا القبيل ما تكرَّر في الآيات الكريمة من إنذار الكفَّار والمكذِّبين بأنَّهم سوف يعلمون[(٤)]، كما قال سبحانه[(٥)]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّـهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

(الآية الثَّالثة): قوله تعالى[(٦)]: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

---

(١) سورة النَّبأ: ١ ـ ٥.

(٢) سورة يونس: ٣٩.

(٣) سورة الأعراف: ٥٣.

(٤) يلاحظ: سورة العنكبوت: ٦٦، والرُّوم: ٣٤، والصَّافَّات: ١٧٠، والزُّمر: ٣٩ ـ ٤١، والزُّخرف: ٨٩، والرَّعد: ٤٢، ومريم: ٧٥، والشُّعراء: ٢٢٧، والقمر: ٢٥ ـ ٢٦، والجنّ: ٢٤.

(٥) سورة غافر: ٦٩ ـ ٧٠.

(٦) سورة فُصِّلت: ٥٢ ـ ٥٤.

ومحلُّ الشَّاهد قوله: (سنريهم)، بناءً على أنَّ المفهوم منه أنَّ عمليَّة إراءة الآيات الإلهيَّة للنَّاس في أنفسهم وفي الآفاق سوف تستمرُّ، وهذا إنَّما يتحقَّق بانكشاف صدق الآيات القرآنيَّة الَّتي تتحدَّث عن الأنفس والآفاق من خلال الاكتشافات العلميَّة للإنسان، فبذلك تكون الآيات القرآنيَّة المتعلِّقة بتلك الحقائق حجَّةً مستمرَّةً على الإنسان كلّما مشى في طريق العلم، واكتشف أموراً جديدة.

ولكن يلاحَظ على ذلك: أنَّ هذا المعنى غير مفهوم من الآية؛ لأنَّه يتوقَّف على أن يُراد بالآيات في قوله (آياتنا) الآيات القرآنيَّة، فيكون المراد سنريهم صدق الآيات المنزلة في الآفاق وفي أنفسهم.

ولكنَّ الظَّاهر أنَّ المراد بالآيات هو نفس الأمور المعجزة المشهودة في الأنفس والآفاق، واستمرار إراءة الله سبحانه لهذه الآيات يحصل بتطوُّر العلوم الطَّبيعيَّة؛ لأنَّ ذلك يكشف عن مزيدٍ من السُّنن الدَّقيقة والرَّائعة، ولا يقتضي ذلك دلالته تعالى على تلك الآيات من خلال القرآن الكريم.

وكذلك يتوقَّف ظهور الآية في المعنى المذكور أيضاً، على أنَّ المراد بالضَّمير في (سنريهم) ليس خصوص الموجودين في زمان الخطاب، ليشمل الأجيال اللَّاحقة الَّذين اكتشفوا الحقائق العلميَّة الَّتي نبَّهت عليها الآيات القرآنيَّة.

ولكنَّ الظَّاهر من الآية وما حولها أنَّ النَّظر في الضَّمير إلى الموجودين في نفس زمان الخطاب ـ وإن كان المعنى يجري في حقِّ الأجيال اللَّاحقة؛ من جهة النَّظر الـمَثَليّ في القرآن إلى مضامين من هذا القبيل ـ.

وعليه: فلا بُدَّ أن يكون النَّظر في الآية إلى أحد أمرين:

١ ـ أن يكون المراد أنَّه تعالى سوف يوصف لهم مزيداً من الآيات الإلهيَّة في المشهد

الخارجيّ، وهذا التَّوصيف يكون إراءةً منه تعالى الآيات لهم، كما جاء مكرَّراً في القرآن الكريم تنبيههم على آيات الله في الكون بمثل قوله: (ألم يروا) (ألم ينظروا).

٢ ـ أن يكون المراد بالآيات نصرة المسلمين عليهم رغم قلَّة عددهم، فتكون الآيات الَّتي تظهر لهم في أنفسهم إثارةَ الرَّعبِ في قلوبهم، وتقليلَ المسلمين في أعينهم[(١)].

كما تكون الآيات في الآفاق نصرةَ المسلمين في الحروب، وإبطالَ مكائد الكفَّار والمنافقين، كما وُصف في آيات عديدة في القرآن الكريم.

هذا توضيح الآيات الثَّلاث الَّتي ذُكرت في الموضوع.

وقد ظهر من خلال ذلك: أنَّه لا دلالة للقرآن الكريم نفسه على أنَّه تضمَّن حقائق علميَّة سوف تنكشف، لتكون دليلاً على كون القرآن الكريم رسالةً من الله تعالى.

لكنَّ هذا المقدار بطبيعة الحال لا يمنع من وقوع ذلك فعلاً، فربَّما تجنَّب القرآن الكريم التَّنبيه على ذلك ـ رغم صياغته على نحو يتضمَّن الحقائق العلميَّة في صمت ـ؛ لأنَّ ذلك لم يكن ممَّا يمكن استيعابه من قبل للمخاطبين.

معقوليَّة مقولة الإعجاز العلميّ للقرآن في حدِّ نفسها

و(**الموضوع الثَّاني**): إنَّ مقولة الإعجاز العلميّ للقرآن الكريم هل هي مقولة معقولة في حدِّ نفسها، بمعنى أنَّه هل من الوارد أن يكون القرآن الكريم قد تضمَّن الدّلالة على حقائق علميَّة انكشفت لاحقاً أو لا؟

فهناك مَن يستبعد ذلك بشكلٍ مبدئيٍّ، وذلك لوجهين:

(**الأوَّل**): لأنَّ القرآن قد جاء لهداية النَّاس إلى الدِّين، ولا شأن له بإرشاد النَّاس إلى

---

(١) يلاحظ في ذكر إلقاء الرُّعب في قلوب الكفَّار: سورة آل عمران: ١٥١، والأنفال: ١٢، والأحزاب: ٢٦، والحشر: ٢، ويلاحظ في تقليل المسلمين في أعينهم: سورة الأنفال: ٤٤.

العلوم الطَّبيعيَّة، نعم يصف الدِّين الطَّبيعة والكائنات الطَّبيعيَّة لإيضاح قدرة الله سبحانه وإبداعه، وهو لا يقتضي أزيد من وصف ما هو المشهود من الطَّبيعة لعامَّة النَّاس لغرض استنطاقه عن وجود الخالق.

(**الثَّاني**): إنَّه إذا كان القرآن الكريم قد تضمَّن حقائق علميَّة فعلاً فلماذا لم يهتدِ إليها النَّاظرون فيه من علماء المسلمين من قبل؟

ولكنَّ الأقرب أنَّه لا يصحُّ استبعاد الموضوع مبدئيَّاً بشكلٍ مطلق، بل الموضوع رهن استقراء الآيات القرآنيَّة الَّتي تتحدَّث عن الطَّبيعة، والتَّأمُّل في مدى وفائها من دون تكلُّف بحقيقة علميَّة.

وما ذُكر من الوجهين محلُّ نظر:

أمَّا (**الوجه الأوَّل**): ـ وهو أنَّ غاية الدِّين هداية النَّاس، وليس إرشادهم إلى الحقائق العلميَّة ـ فيُلاحَظ عليه: أنَّنا لا نشكُّ في أنَّ الدِّين على العموم ليس معنيَّاً بالإرشادات العلميَّة للنَّاس لذاتها، لكن مع ذلك يمكن أن يرد فيه بيان بعض الحقائق العلميَّة ضمناً على أحد وجهين:

١ ـ إنَّ النَّصَّ الدِّينيّ كان معنيَّاً ببيان بداية الكون والإنسان أيضاً، وكانت المناسبة الباعثة على بيان بداية الكون ذكر أنَّها كانت بخلق الله سبحانه له، ولولا خلقه للكون لم يكن الكون موجوداً، مضافاً إلى أنَّ تنبيه الإنسان على بداية الكون بخلق الله سبحانه ممهِّدٌ للحديث عن خلق الإنسان بعد خلق المادَّة والنَّبات والحيوان.

وقد يُتساءل عن وجه الحاجة إلى ما جاء في القرآن الكريم وفي التَّوراة من قبل من تحديد مدَّة الخلق بالأيَّام ـ ولم يرد بها اليوم المتعارف ـ.

والجواب: إنَّ تحديد مدَّة الخلق بالأيَّام ربَّما كان ناظراً إلى سؤال الإنسان عن مدَّة

الخلق ليكون ذلك جواباً إجماليَّاً في الموضوع؛ فإنَّ من النَّاس مَن يسأل الرُّسل عن أمور طبيعيَّة أو روحانيَّة لا يستطيع استيعابها، وقد جاء في القرآن الكريم عدَّة أسئلة من هذا القبيل، كما في قوله تعالى[1]: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْـحَجِّ**﴾.

ومن الملاحَظ أنَّ الآية الأولى اقتصرت في الجواب عن الرُّوح بأنَّها من مخلوقات الله سبحانه، وأمَّا الآية الثَّانية فقد عدلت عن الجواب عن السُّؤال إلى ذكر فائدة الأهلَّة للنَّاس.

وعليه: فربَّما كان ذكر خلق السَّماوات والأرض في أيَّامٍ معدودة على وجه الإجمال نحوَ إيفاءٍ بجوابِ سؤالٍ واقعٍ أو متوقَّع من أهل الدِّين ـ بعد إرشادهم إلى أنَّ الكون مخلوق لله سبحانه ـ يسألون فيه عن أنَّه متى خلقه وكيف كان ذلك، فذكر لهم بعض المعلومات في شأن بداية الخلق إشباعاً لروح السُّؤال فيهم، وإزالةً للاستبعاد الأوَّليّ في أذهانهم.

إذن، فقد اعتنى القرآن الكريم وقبله التَّوراة بوصف بداية الكون بخلق الله سبحانه.

وكذلك اعتنى النَّصُّ الدِّينيّ بذكر بداية خلق الإنسان لبيان اهتمام الله سبحانه

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥. والأقرب أنَّ المراد بالرُّوح في الآية ليس هو نفس الإنسان، بل الكائن الرُّوحانيّ الَّذي ذُكر في آياتٍ أخرى بعنوان (الرُّوح)، كقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْـمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا**﴾ (سورة النَّبأ: ٣٨)، أو بعنوان (روح القدس)، كما قال سبحانه: ﴿**وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ (سورة البقرة: ٨٧)، ويبدو أنَّ السَّائلين عن الرُّوح كانوا قد سمعوا بالملائكة ولم يسمعوا بالرُّوح.

(٢) سورة البقرة: ١٩٠.

بخلق الإنسان، وغايته تعالى من وراء ذلك، لمثل الأسباب المتقدِّمة لبيان بداية الكون. مضافاً إلى أنَّ لمعرفة الإنسان ببداية خلقه على الوجه المذكور تأثيرات تربويَّة إيجابيَّة على الإنسان، ليعرف قيمة نفسه، وعمله، والمسار الصَّحيح له في هذه النَّشأة.

وعليه: فلا ضير إذا اشتمل النَّصُّ الدِّينيّ في مقام بيان بداية خلق الكون والإنسان على أمورٍ تنكشف بالعلم حقَّانيَّتها. وقد جاء في القرآن الكريم آية قيل إنَّها تدلُّ على انبثاق الكون في أثر تجمُّع الغبار الكونيّ، وقد تقدَّم ذكرها في مباحث وجود الإله، وسنذكِّر بها قريباً.

٢ ـ إنَّ القرآن الكريم وصف كائنات وظواهر طبيعيَّة عديدة: كونيَّة، وأحيائيَّة، وإنسانيَّة لبيان عنصر الإبداع في الخلق، وبيان دلالتها على خالقٍ مبدعٍ لها. ولا ضير في أن يرد في ضمن هذا التَّوصيف عناصر تناسب الحقائق العلميَّة، فالمتكلِّم العالم في موضوعٍ ما إذا تحدَّث عن ذلك الموضوع ليصفه للوسط العامّ بما يلائم أفهامهم قد لا يخلو كلامه عن بصماتٍ من علمه واطِّلاعه في شأن ذلك الشَّيء، ممَّا قد لا يُلفت نظر عامَّة المخاطبين، لكن ينتبه إلى ذلك مَن يحيط بالموضوع الَّذي تحدَّث عنه.

وعليه: فمن الجائز أنَّ الله سبحانه ـ العالم بالأشياء كلِّها ـ حيث يصف الطَّبيعة وكائناتها يتضمَّن وصفه بصمات من علمه المحيط بالأشياء ممَّا يبيِّن للإنسان بعد اهتدائه الحقائق العلميَّة بالطُّرق الموثوقة، فهذا أمر جائز.

وأمَّا (**الوجه الثَّاني**): ـ المتقدِّم للاستبعاد المبدئيّ للإعجاز العلميّ من أنَّ النَّصَّ القرآنيَّ لو اشتمل على حقيقة علميَّة غير معروفة في حين نزوله وفي المجتمع المحيط به لاكتشف ذلك أهل العلم في الأزمنة السَّابقة ـ فيلاحَظ عليه:

(**أوَّلاً**): أنَّ المجتمع قد يفهم مثل هذا النَّصِّ على وجه الإجمال دون التَّفصيل، من

جهة عدم تبيُّن مغزاه وما يرمي إليه قبل اكتشاف الحقيقة العلميَّة المنظورة، وهذه حالة معروفة؛ فإنَّ من دلالات الكلام ما لا يتَّضح إلَّا بالإحاطة بالموضوع وملابساته.

و(**ثانياً**): أنَّ معرفة الحقيقة العلميَّة من خلال الإنباء بالغيب لا تنفع في تقدُّم العلوم الطَّبيعيَّة الإنسانيَّة؛ لأنَّ عالم الطَّبيعة حيث يطَّلع على المعلومة من جهة إنباء القرآن فإنَّه لا يعرفها إلَّا بوصفه مؤمناً بالغيب، فهي تمثِّل عنده معلومةً غيبيَّةً لا معلومةً علميَّةً بالمعنى المنظور؛ لأنَّها لا ترتبط لديه بنظام المعلومات العلميَّة الَّتي تأكَّد منها الإنسان، ولا يستطيع العالم معرفة مبناها وأثرها وعلاقتها بسائر الظَّواهر والأشياء.

إذن، لا يصحُّ أيُّ استبعادٍ مبدئيٍّ مطلق للإشارة إلى حقيقة علميَّة في النَّصِّ القرآنيِّ، بل الأمر مرهون بوفاء النَّصِّ بها وفق أساليب الدَّلالة اللُّغويَّة والمعرفيَّة من دون تكلُّفٍ أو تحميل.

شروط تحقُّق الإعجاز العلميّ

و(**الموضوع الثَّالث**): في شروط تحقُّق الإعجاز العلميّ.

لقد عرفنا فيما سبق أنَّه ليس هناك مانعٌ مبدئيٌّ عن تضمُّن القرآن الكريم في مقام توصيفه للكون والكائنات على حقائق لم تُعرف في حينه.

ولكن ينبغي في هذا السِّياق الالتفات إلى أنَّ تحقُّق الإعجاز العلميّ يتوقَّف على شروطٍ ثلاثة:

(**الأوَّل**): شرط موضوعيّ، وهو أن تكون الفكرة العلميَّة قد بلغت إلى درجة الحقيقة، وأمَّا إذا كانت نظريَّةً غير جازمة أو فرضيَّةً واردة من غير شواهد عليها، فلا يكون ظهور النَّصِّ فيها محقِّقاً للإعجاز بشكلٍ جازم.

نعم، لا بأس بالتَّنبيه على موافقة مدلول الآية مع النَّظريَّات العلميَّة الرَّاجحة الَّتي

تقترن بقرائن قويَّة؛ لأنَّ هذه الدّلالة توجب ترجيح اطِّلاع صاحب النَّصِّ على الواقع المتوقَّع.

(الثَّاني): شرط تاريخيّ، وهو أن لا تكون تلك الفكرة الَّتي أفادها النَّصُّ أمراً معروفاً ولا معهوداً لدى العرب حين مجيئ الإسلام. وأمَّا إذا كانت الفكرة معهودةً ـ ولو على سبيل الحدس بها، وليس على أساس قيام شواهد جازمة عليها ـ فلا يكون إثبات النَّصِّ لها إعجازاً علميَّاً طبعاً، بل يكفي في عدم انطباق الإعجاز العلميّ ـ على دلالة النَّصِّ القرآنيِّ على حقيقة علميَّة ثابتة ـ احتمال أن تكون تلك الحقيقة معهودةً لدى العرب.

وعليه: لا بُدَّ من مراجعة تاريخ العرب قبل الإسلام في الموضوعات الَّتي يجري الحديث عنها، لأجل تقييم مدى سبق الانتباه إلى تلك الحقيقة في الوسط العربيّ، وإذا تعذَّر تحقيق ذلك من جهة قصور المعلومات التَّاريخيَّة فلا بُدَّ من النَّظر إلى طبيعة تلك الحقيقة بالمقارنة مع المستوى العلميّ للعرب، لملاحظة أنَّه هل تُحتمل معروفيَّة تلك الحقيقة عندهم أو لا؟

وقد يُضاف في هذا الشَّرط: عدم ورود المعلومة القرآنيَّة في العهدين (التَّوراة والإنجيل) أو سائر التُّراث الدِّينيّ والبشريّ من قبيل: قصص الآشوريِّين والبابليِّين والكلدانيِّين ونحوها، فإذا كانت المعلومة معهودةً فيها لم يتَّصف اشتمال القرآن عليها بالإعجاز العلميّ.

(الثَّالث): شرط دلاليّ، وهو أن يدلَّ النَّصُّ القرآنيُّ دلالةً وافيةً وناضجةً على الحقيقة المفترضة من دون أيِّ تكلُّفٍ أو تحميل.

وهذه الدّلالة يمكن أن تكون دلالةً قاطعةً في مستوى التَّصريح والتَّنصيص، وقد تكون في مستوى الظُّهور الوافي والنَّاضج وإن احتمل الخلاف.

وعليه: لا جدوى من تحميل الدّلالة ـ على تلك الحقيقة المفترضة ـ على النَّصِّ القرآنيِّ، كما لا يكفي أن يدلَّ النَّصُّ القرآنيُّ على تلك الحقيقة على وجهٍ محتملٍ في الآية فحسب.

اشتباه الإعجاز العلميّ بحالاتٍ أخرى

هذا، وقد يشتبه الإعجاز العلميّ بحالاتٍ تكون الحقيقة العلميَّة ذات صلة بمدلول النَّصِّ، ولكن من غير دلالة النَّصِّ عليها، ومن جملة هذه الحالات:

١ ـ التَّفصيل العلميّ، والمراد به أن يرد في النَّصِّ ذكر حقيقة كانت معهودةً في العصر الأوَّل، ولكنَّ العلم الحديث حلَّلها وفصَّلها واكتشف السَّبب فيها.

فهذه الحالة لا تندرج في الإعجاز العلميّ؛ إذ لا دلالة للنَّصِّ على التَّفصيل والشَّرح الَّذي هو الإنجاز العلميّ الحديث، بل المذكور فيه أصل الحقيقة الَّتي كانت معهودةً من قبل.

فالقرآن الكريم ـ مثلاً ـ تضمَّن عدم اختلاط ماء البحار والأنهار، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَـذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا**﴾، وهذا الأمر فيما قيل كان معلوماً من قبل من خلال الملاحظة الخارجيَّة، ولكنَّ العلم الحديث حلَّل السَّبب في ذلك، وهو التَّفاوت بين كثافة الماء المالح والعذب، فيحتفظ كلُّ سائلٍ باستقلاله في مجاله ـ مع مزيد تفصيلٍ وتوضيح ـ. فهنا لم يدلّ القرآن الكريم على هذا السَّبب الَّذي هو الإنجاز العلميّ، بل على تمايز المياه وعدم اختلاطها.

٢ ـ التَّنبيه العلميّ، والمراد به أن يكون العلم الحديث منبِّهاً على المعنى الصَّحيح لآيةٍ طرأ الإبهام في شأنها، وقد يُمثَّل لذلك بما ورد في آيات خلق السَّماوات والأرض في بضعة

---

(١) سورة الفرقان: ٥٣.

أيّام[١]، وينفي العلم الحديث ذلك إذا كان المراد باليوم المعنى المعروف الَّذي يتألَّف من (٢٤) ساعة، فإنَّ الوضع الكونيّ المشهود ـ الَّذي تشير إليه هذه الآيات ، والمشتمل على المجرَّات، ومنها مجرَّة درب التبَّانة المشتملة على الأرض وما حولها من الشَّمس والقمر ـ قد تكوَّن خلال ملايين السِّنين..

وعليه، فيرجَّح تفسير اليوم بمرحلةٍ تاريخيَّةٍ دون مقدار اليوم القمريّ والشَّمسيّ.

وإنَّما اعتبرنا هذه الآيات مبهمة بعض الشَّيء والعلم منبِّهاً على معناها، من جهة أنَّ استظهار كون اليوم فيه بالمعنى المعروف ليس استظهاراً موثوقاً في نفسه، ومن ثَمَّ اختلف فيه المفسِّرون القدامى، كما تحدَّثنا عن ذلك في بحثٍ سابقٍ.

٣ ـ التَّفسير العلميّ، والمراد به تفسير الآية بالحقيقة العلميَّة، ولكن بعد الفراغ عن حقَّانيَّة الدِّين، وعلم صاحب النَّصِّ بالكائنات وأحوالها، ومثل هذا يصدق عليه التَّفسير العلميّ، ولكن لا يصدق عليه الإعجاز العلميّ؛ لأنَّ شرط الإعجاز أن يكون حجَّةً على صدق النَّصِّ، وعلم صاحبه بالغيب، ولا يصحُّ أن يكون متفرِّعاً على افتراض ثبوت ذلك من قبل.

التَّمثيل لما ادُّعي فيه الإعجاز العلميّ وهو لا يستوفي الشُّروط المعتبرة

ومن أمثلة ادِّعاء الإعجاز العلميّ من غير استيفاء الشُّروط الثَّلاثة قوله تعالى[٢]: **﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْـمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾**، فقد قيل إنَّ الآية تفيد الحقيقة الَّتي اكتشفها علم الأحياء الحديث من أنَّ الماء جزءٌ ضروريٌّ من الكائنات الحيَّة.

---

(١) سورة الأعراف: ٤٥، ويونس: ٣، وهود: ٧، والفرقان: ٥٩، والسَّجدة: ٤، وفُصِّلت: ١٠، وق: ٣٨، والحديد: ٤.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

وهذا ليس صحيحاً.

توضيح ذلك: أنَّ مفاد هذه الآية أنَّ هناك علاقة ضروريَّة بين الحياة والماء، وهذه العلاقة يمكن تقريرها بأحد وجهين(١):

(الأوَّل): ما نجده من أنَّ بقاء الكائنات الحيَّة سواء كانت نباتاً أم حيواناً منوط بوجود الماء، فالماء جزء من التَّغذية الضَّروريَّة لها.

وهذا المقدار معنى معهود ومشاهد، وقد نُبِّه في العديد من الآيات الكريمة على علاقة الماء بوجود النَّباتات والحيوانات.

(الثَّاني): إنَّ الماء جزءٌ من تكوين كلِّ كائنٍ حيٍّ، فالماء يشكِّل (٧٠٪) من جسم الإنسان مثلاً.

والمراد بالماء في هذا الوجه ليس هو الماء بالإطلاق اللُّغويِّ والعرفيّ؛ إذ لا يصدق الماء على الموادَّ الموجودة داخل الكائنات الحيَّة، بل المراد هو الماء بالإطلاق الكيميائيّ (المؤلَّف من الأوكسيجين والهيدروجين) نظير قولهم إنَّ هناك كثيراً من العناصر في جسم الإنسان بنسبة محدودة كالحديد.

وهذا المعنى هو الحقيقة العلميَّة الَّتي اكتُشفت حديثاً، ولا تفيدها الآية المتقدِّمة؛ لأنَّ

---

(١) وهناك معنىً ثالث ذكره بعض المفسِّرين، وهو أنَّ المراد بالماء هو نطفة الذَّكر الَّتي تتولَّد منها الحيوانات والنَّباتات، كما قال تعالى: ﴿**وَاللَّـهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّـهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّـهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سورة النُّور:٤٥)، وقال سبحانه: ﴿**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ**﴾ (سورة السَّجدة:٨)، وقال عزَّ من قائل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْـمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**﴾ (سورة الفرقان:٥٤).

وهذا المعنى غير وارد؛ فإنَّ إطلاق الماء على نطفة الذَّكر مجازيٌّ، فيحتاج إلى القرينة، مع أنَّه مخالف مع سياق الآية ونظائرها، على أنَّه لم يرد في القرآن خلق النَّباتات من الماء بهذا المعنى.

المفهوم من الماء فيها الإطلاق العرفيّ، وليس الإطلاق الكيميائيّ الحديث.

على أنَّ ظاهر الآية أنَّها تستشهد بهذا المعنى ليكون دليلاً على الإيمان بالله سبحانه، حيث جاء في أوَّلها: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾، وجاء في آخرها: ﴿**أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾، ومن المعلوم أنَّ ذلك يقتضي كون مضمون الآية أمراً مشاهداً للنَّاس، وأمَّا ذكر حقيقة علميَّة لا سبيل للمخاطبين إلى التَّحقُّق منها فلا يكون حجَّةً عليهم كما هو ظاهر.

ويساعد على إرادة الوجه الأوَّل بالآية مناسبة هذا الوجه مع سائر الآيات الَّتي ذكرت الإنعام بالماء؛ فإنَّها نبَّهت على دوره في حياة الأرض والإنسان والحيوانات، كقوله تعالى[1]: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ**﴾، وقوله سبحانه[2]: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾.

وهكذا نلاحظ عدم دلالة هذه الآية على ما فُسِّرت به من المعجز العلميّ.

ومثلها ما طُرح في آياتٍ أخرى[3].

---

(١)سورة السجدة: ٢٧.

(٢)سورة العنكبوت: ٦٣.

(٣) من الأمثلة الأخرى: ما قيل من دلالة القرآن الكريم على وجود شيءٍ أصغر من الذَّرَّة، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ (سورة يونس: ٦١)، وقد ثبت في العصر الأخير في علم الفيزياء أنَّ الذَّرَّة بدورها تتكوَّن من أجزاء أصغر منها.

وهذا المثال خطأ؛ لأنَّ المراد بالذَّرَّة في الآية هو معناها العرفيّ لا العلميّ المذكور في علم الفيزياء، ووجود أجزاء للذَّرَّة بالمعنى العرفيّ أمر متوقَّع وليس حقيقة علميَّة.

ومن الأمثلة الأخرى لدعوى الإعجاز العلميّ على أساسٍ غير دقيق ما قيل من دلالة القرآن الكريم

نماذج من أمثلة الإعجاز العلميّ في القرآن

(**الموضوع الرَّابع**): في ذكر نماذج من أمثلة الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم.

إنَّ من لاحظ الآيات القرآنيَّة الَّتي تتحدَّث عن الطَّبيعة يجد موارد تقرَّب فيها دلالة القرآن الكريم على بعض الحقائق العلميَّة، بمستويات مختلفة من الدّلالة، ونحن نذكر هنا نماذج من الأمثلة المطروحة لهذه الظَّاهرة في كلمات الباحثين:

دلالة القرآن الكريم على حدوث الكون بتجمُّع أجزاء الغبار الكونيّ

(**المثال الأوَّل**): دلالة القرآن الكريم على حدوث الكون من خلال تجمُّع أجزاء من الغبار الكونيّ المسمَّى بـ(السَّديم)(١)، بقوله تعالى(١): ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**

على تلقيح الرِّياح للنَّباتات، وذلك لقوله تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾ (سورة الحجر: ٢٢).

وهذا المثال فاقد للشَّرط الثَّاني والثَّالث:

أمَّا الشَّرط الثَّاني: فلأنَّ من الجائز معهوديَّة هذا المعنى لدى العرب عند مجيئ الإسلام، وقد جاء عن بعض المفسِّرين القدامى كابن عبَّاس تفسير الآية بتلقيح النَّباتات من خلال الرِّياح.

وأمَّا الشَّرط الثَّالث: فلأنَّ تفسير الآية بالمعنى المذكور ليس صحيحاً؛ بل المعنى الصَّحيح للآية أنَّ الرِّياح تلقِّح السَّحاب فينزل منها الماء، وقد شبَّهت الآية دور تلك الرِّياح في إمطار السَّحاب بعمليَّة التَّلقيح في النَّباتات والحيوانات.

وقد ذُكر دور الرِّياح في إمطار السَّحاب بقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ (سورة الروم: ٤٨).

وقد تكرَّر في الآيات الكريمة ذكر كون الرِّياح مبشِّرات بالمطر (يلاحظ سورة الأعراف: ١٥٧، والفرقان: ٤٨، والنَّمل: ٦٣، والرُّوم: ٤٦، وفاطر: ٩).

(١) السَّديم هي تجمُّعات سماويَّة من ذرَّات منتشرة وغير منتظمة من الغاز والغبار الكونيّ، والمادَّة

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

وتُقرَّر دلالة هذه الآية على ذلك بأنَّه يستوفي الشُّروط الثَّلاثة المتقدِّمة:

أمَّا (**الشَّرط الأوَّل**): ـ وهو كون المعلومة حقيقة أو نظريَّة قويَّة ـ فهو يتمُّ بالنَّظر إلى أنَّ حدوث الكون بالانفجار الكبير يُعتبر نظريَّةً قويَّةً ذات شواهد متعدِّدة، بل قد تُعَدُّ حقيقةً علميَّةً؛ من جهة تزايد شواهدها في العصر الحاضر.

وأمَّا (**الشَّرط الثَّاني**): ـ وهو عدم معهوديَّة المعلومة ـ فيرجَّح تحقُّقه أيضاً؛ وذلك لأنَّه لا شاهد على معهوديَّة هذه الفكرة لدى العرب أو غيرهم، بل كان انطباع عامَّة العرب غير المؤمنين بالدِّين أنَّ الوضع الكونيّ حالة قديمة وتستمرُّ إلى النِّهاية، ومن البعيد طرح هذه الفكرة في أوساطهم.

كما أنَّنا لم نجد ذكر هذه المعلومة في العهدين (التَّوراة والإنجيل)، ولا في ضمن قصَّة الخلق المذكورة عن السُّومريِّين والكلدانيِّين والآشوريِّين وغيرهم من الأمم القديمة.

وأمَّا (**الشَّرط الثَّالث**): ـ وهو دلالة الآية على تلك الحقيقة ـ فلأنَّ الآية ناظرة إلى كيفيَّة تكوين السَّماوات والأرض، وقد دلَّت على أنَّها كانت في الحالة السَّابقة قبل تكوينها دخاناً، ولا يبعد أن يكون المراد بالدُّخان ما يُعبَّر عنه في علم الكونيَّات الحديث بالغبار الكونيّ النَّاشئ عن الانفجار الكبير؛ لأنَّه أشبه ما يكون بالدُّخان، كما سبق إيضاح ذلك في بحث سابق.

المكوِّنة للسُّدم متخلخلة جدَّاً، ويُعتقد أنَّ هذه الذَّرَّات انبعثت بانفجار كبير في كتلةٍ مكثَّفة، أدَّى تجمُّع كثيرٍ منها إلى تكوُّن الأجرام السَّماويَّة.

(١) سورة فُصِّلت: ١١.

دلالة القرآن الكريم على أنَّ الأرض متحرِّكة

(**المثال الثَّاني**): دلالة القرآن الكريم على حركة الأرض، وذلك بقوله تعالى[1]: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾.

وقد قيل إنَّ هذه الآية تفي بالإعجاز العلميّ لاستيفائها الشُّروط الثَّلاثة المتقدِّمة:

أمَّا (**الشَّرط الأوَّل**): ـ وهو كون المعلومة حقيقة علميَّة ـ فهو متحقِّق؛ لأنَّ من الواضح المحسوس اليوم أنَّ للأرض حركتين: حركة حول نفسها، وحركة حول الشَّمس.

وأمَّا (**الشَّرط الثَّاني**): ـ وهو عدم الاهتداء إلى هذه المعلومة من قبل ـ فهو أيضاً واضح، فقد كان النَّاس ـ حتَّى أهل العلم بالفلك ـ يعتقدون أنَّ الأرض ساكنة، وأنَّ الشَّمس تدور حولها، وإنَّما اهتدى إلى حركتها لأوَّل مرَّة العالم الإيطاليّ (غاليلو ت١٦٤٢م)، والَّذي عارضته الكنيسة في حينها بدعوى معارضته للكتاب المقدَّس، وأرغمته على الإقرار بأنَّ الأرض ثابتة ولا تتحرَّك.

وأمَّا (**الشَّرط الثَّالث**): وهو دلالة الآية على حركة الأرض؛ فلأنَّ الآية تدور بين معنيين:

(**أحدهما**): أن تكون ناظرةً إلى التَّقلُّبات الكونيَّة الَّتي تحصل في يوم القيامة، وهذا هو الَّذي يناسب سياقها بالنَّظر إلى الآية السَّابقة عليها والآيات اللَّاحقة لها إلى آخر المشهد في يوم القيامة، حيث جاء قبلها[2]: ﴿**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي**

---

(١) سورة النَّمل: ٨٨.

(٢) سورة النَّمل: ٨٧.

الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّـهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾، وجاء بعدها[١]: ﴿**مَن جَاءَ بِالْـحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾، وقد تكرَّر ذكر سير الجبال في يوم القيامة في سياق ذكر الأحداث فيها، كما قال تعالى[٢]: ﴿**يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْـجِبَالُ سَيْرًا**﴾.

و(**الآخر**): أن تكون ناظرةً إلى وصف مشاهد عظمة الله تعالى في هذا الكون، كما جاء في الآية الَّتي قبلها بفاصل آيةٍ واحدة من قوله سبحانه[٣]: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾. فتكون حركة الجبال من جملة تلك المشاهد، ومن المعلوم أنَّ حركة الجبال لن تنفكَّ عن حركة الأرض معها، لالتصاقها بها.

وهذا المعنى الثَّاني يبدو هو المناسب مع مضمون الآية وصياغتها، كما رجَّحه عدد من أعلام المفسِّرين في العصر الحاضر؛ وذلك لأمور:

١ ـ إنَّ الجبال في يوم القيامة تسيَّر من مكانها لإزالتها فيكون ذلك مرئيّاً بطبيعة الحال، كما قال تعالى[٤]: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا**﴾، وقال سبحانه[٥]: ﴿**وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا**﴾، وقال عزَّ من قائل[٦]: ﴿**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْـجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ**

---

(١) سورة النَّمل: ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) سورة الطُّور: ٩ ـ ١٠.

(٣) سورة النَّمل: ٨٦.

(٤) سورة طه: ١٠٥ ـ ١٠٧.

(٥) سورة النَّبأ: ٢٠.

(٦) سورة الكهف: ٤٧.

نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، وقال جلَّت آلاؤه[(١)]: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْـجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ**﴾.

٢ ـ إنَّ اضطراب المشهد في يوم القيامة أمر مشهود للنَّاظر كما تصفه سائر الآيات الكريمة، فلا تخفى على النَّاظر، بينما المذكور في هذه الآية أنَّ النَّاظر يرى الجبال جامدة.

٣ ـ إنَّ حركة الجبال لأجل إزالتها إنَّما هو هدم للوضع الكونيّ وليس صنعاً، كما وُصف بقوله تعالى[(٢)]: ﴿**صُنْعَ اللَّـهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾.

وعليه: يرجَّح هذا المعنى الثَّاني المعجز في تفسير الآية[(٣)].

إشارة القرآن الكريم إلى قانون الجاذبيَّة

(المثال الثَّالث): دلالة القرآن الكريم على وجود عوامل تثبِّت الأجرام السَّماويَّة، وذلك حيث قال تعالى[(٤)]: ﴿**اللَّـهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾، وقال سبحانه[(٥)]: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾.

ووجه الدّلالة: أنَّ الآيتين حيث نفتا وجود عمد للسَّماوات لم تنفياه بشكل مطلق، بل قيَّدتاه بـ(ترونها)، وهذا يعطي أنَّ هناك عمداً غير مرئيٍّ للسَّماوات، كما فسَّر الآية بذلك

---

(١) سورة الحاقَّة: ١٣ ـ ١٥.

(٢) سورة النَّمل: ٨٨.

(٣) أمَّا إيداعها في سياق آيات الآخرة فقد يكون لأجل إيهام ارتباطها بالآخرة، كي لا يعترض النَّاس آنذاك على مضمون الآية ويرونها مخالفةً للمحسوس، على أساس أنَّ هذه الحركة لو كانت فعلاً لكانت مرئيَّةً ولأدَّت إلى اضطراب الأرض واختلال الحياة، فجُعلت الآية في هذا السِّياق كي تظهر في وقتها، والله أعلم.

(٤) سورة الرَّعد: ٢.

(٥) سورة لقمان: ١٠.

جماعة من المفسِّرين القدامى[١] ورُوي عن الإمام الرِّضا ﷺ، وهذا ينطبق على قانون الجاذبيَّة الَّذي اكتُشف في العصر الحديث.. **وعليه**، لا يبعد تلميح الآيتين إليه بهذا التَّقييد.

(**فإن قيل**): إنَّ من المحتمل نظر الآية إلى أنَّه لا ممسك لهذه الأجرام إلَّا الله سبحانه من دون أيِّ سببٍ مادِّيٍّ لثباتها في موضعها.

فـ(**الجواب**): إنَّ هذا الاحتمال قد يكون بعيداً بالتَّأمُّل؛ وذلك من جهة أنَّ المفهوم من القرآن الكريم من خلال سبره أنَّه لا يعتبر الأسباب الرُّوحانيَّة مغنيةً عن الأسباب المادِّيَّة على الوجه العامّ[٢]، فالإنسان مثلاً يتوفَّاه الله تعالى من خلال ملائكته، ولكنَّه لن يموت إلَّا بقتل أو مرض. والنَّباتات تنبت بإذن الله تعالى، ولكن من خلال الأرض والمطر والشَّمس، وهكذا.

وأمَّا وجه الاحتجاج في الآيات القرآنيَّة على وجود الله سبحانه بما لا يبدو سببه؛ فلأنَّ الشُّحنات الدّلاليَّة في مثله أقوى ممَّا عَلِمَ الإنسان السَّبب فيه، كما أوضحنا ذلك في بحثٍ آخر.

هذا تقرير الإعجاز العلميّ في هذه الآية.

ولكن من المحتمل في الآية أن يكون هذا الوصف للتَّوضيح لا للتَّقييد، والمراد الإشارة إلى أنَّه لو كان في البين عَمَدٌ لكان مرئيَّاً، كما قد يقول القائل: (ليس في الدَّار أحد يُرى)، وإنَّما يريد أنَّه لا يوجد فيها أحد؛ إذ لو كان لرُئي، وهذا وجه احتمله المفسّرون القدامى.

---

(١) يلاحظ: تفسير العياشيّ ج: ٢، ص: ٢٠٣، ح: ٣، تفسير القميّ ج: ٢، ص: ٣٢٨، مجمع البيان ج: ٩، ص: ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٢) والمراد بالوجه العامّ الاحتراز عن الخوارق الإلهيَّة الَّتي تُسمَّى بالمعاجز.

وعليه: فلا دلالة في الآية على وجود عاملٍ غير مادّيٍّ كي تكون من قبيل الإعجاز العلميّ.

هذا، إلَّا أن يرجَّح المعنى المعجز على أساس أنَّ كون هذا الوصف للاحتراز أقرب لا سيَّما مع تكراره في موضعين، فالآية تلمِّح بهذا التَّوصيف إلى وجود سبب غير مرئيٍّ.

ويساعد على ذلك أنَّ كثيراً من المفسِّرين ذهبوا أو احتملوا في هذا الوصف أن يكون احترازيّاً يشير إلى وجود (عمد غير مرئيّ) للسَّماوات، رغم أنَّ انطباعهم عن المادَّة والعوامل المادِّيّة كان محدوداً، ممَّا يقتضي أن يتعيَّن لديهم جعل القيد في الآية للتَّوضيح، لكنَّهم فيما يبدو شعروا من التَّقييد في الآية أنَّه يشير إلى عامل غير مرئيٍّ.

دلالة القرآن الكريم على تأثير الجبال في استقرار الأرض

(**المثال الرَّابع**): دلالة القرآن الكريم على تأثير الجبال في استقرار الأرض، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾، وقوله (تميد) بمعنى (تضطرب)، فالمراد أنَّه جعل في الأرض جبالاً لكي تثبِّت الأرض، وتقيها من الاضطراب، ويقرب منها آيات أخرى[2].

فقد ذهب عدد من أهل العلم إلى كون هذه الآيات من مصاديق الإعجاز العلميّ لاستيفائها الشُّروط الثَّلاثة المتقدِّمة:

أمَّا (**الشَّرط الدّلاليّ**): ـ وهو دلالة الآية على وقاية الجبال للأرض عن الاضطراب ـ فهو واضح.

---

(١) سورة النَّحل: ١٥.

(٢) لاحظ سورة لقمان: ١٠، وجاء ذكر كون الجبال رواسي دون ذكر (أن تميد بكم) في سورة الأنبياء: ٣١، والنَّمل: ٦١، وجاء في آيةٍ أخرى: ﴿**وَالْـجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾ (سورة النَّبأ: ٧).

ويبقى بيان تماميَّة الشَّرطين الآخرين:

أمَّا (**الشَّرط الأوَّل**): ـ وهو كون المعلومة حقيقة علميَّة ـ فقد أُفيد في تقريره أنَّ للأرض طبقاتٍ ثلاث بعضها فوق بعض:

١ ـ القشرة الأرضيَّة الصَّلبة، وهي تصل إلى عمق نحو خمسين كيلومتراً.

٢ ـ طبقة وسطى سميكة تُسمَّى بالغلاف الأرضيّ، وتصل سماكته إلى (٤٠٠٠) كيلومتر، وهو سائل عالي اللُّزوجة يخرج أحياناً في صورة صهارة إلى سطح الأرض عندما تنشط البراكين، وهذا اللُّبُّ الخارجيّ في حركةٍ دائمةٍ تعمل على توليد المجال المغناطيسيّ للأرض، وصهارة الغلاف الأرضيّ شديدة تبلغ بدرجة حرارة نحو (١٧٠٠) درجة مئويَّة ويزداد معدَّلها مع الاقتراب من مركز الأرض الحديديّ.

٣ ـ نواة الأرض الصَّلبة، وهي تتكوَّن من الحديد والنِّيكل.

والقشرة الأرضيَّة في الأصل عدَّة صفائح تكتونيَّة عظيمة ظهرت تدريجاً على سطح الأرض بسبب برودتها عبر ملايين السِّنين، وتطفو تلك القشرة الرَّقيقة نسبيَّاً فوق الغلاف الأرضيّ.

وبناءً على ذلك قيل[1] إنَّ للجبال دخلاً كبيراً في إرساء القشرة الأرضيَّة على الغلاف الأرضيّ السَّائل، وتثبيتها في مواجهة الغازات الضَّاغطة المؤدِّية إلى الزَّلزال.

وينبغي التَّأكُّد من هذا الموضوع.

وأمَّا (**الشَّرط الثَّاني**): ـ وهو عدم معهوديَّة هذا المعنى لدى العرب ـ فيقرَّر بأنَّه لا يوجد هناك أيُّ شاهدٍ تاريخيٍّ على اطِّلاع العرب على هذه الحقيقة، بل يبدو ذلك بعيداً؛ إذ لم يكن هناك سبيل لهم أو لغيرهم في تلك العصور للاطِّلاع على ما يوجد داخل الأرض

---

(١) يلاحظ: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج: ١٣، ص: ٢٨.

من الموادّ السَّائلة، حتَّى يفترضوا أنَّ الآية ناظرة إلى تثبيت القشرة الأرضيَّة بالجبال عليها.

هذا، ولكن يلاحَظ على ذلك أنّه كان من الشَّائع بين العرب وغيرهم آنذاك أنَّ الأرض كلَّها إنَّما هي على الماء كالسَّفينة.

وعليه: فيتوجَّه بدواً احتمال نظر الآية إلى هذا المعنى.

لكن بما أنَّ هذا المعنى مبنيٌّ على توهُّمٍ خاطئٍ فلا يصحُّ تفسير الآية به بطبيعة الحال، بل ينبغي تفسيرها وفق ما انتهى إليه العلم، فيكون المورد من قبيل التَّفسير العلميّ، وليس من قبيل الإعجاز العلميّ، لعدم وفاء الآية بهذا المعنى لولا الكشف العلميّ الحديث، والبناء على تنزيه القرآن عن الاتِّباع الخاطئ للأوهام[1].

هذه نماذج ممَّا طُرح إثباتاً للإعجاز العلميّ.

هذا، وليس من الصَّحيح منهجيَّاً تسرُّع الباحثين إلى إثبات الإعجاز العلميّ ـ كما نجده في بعض الكتابات المعاصرة ـ؛ فإنَّ ذلك فضلاً عن مخالفته للمنهج العلميّ يوجب فقدان الثِّقة للنَّاظرين في الموضوع، ويسلب الوثوق بهذه الظَّاهرة حتَّى في موارد صدقها

---

(١) (**فإن قيل**): ولكن إذا كان الشَّائع آنذاك أنَّ الأرض راسيةٌ على الماء، فالمفروض تنزيل الآيات عليه؛ لأنَّ هذا المعنى يكون هو المفهوم من الآيات في وقته.

(**قيل**): لا يصحُّ ذلك؛ فإنَّ مجرَّد انتشار فكرة خاطئة في أجواء المخاطبين بالآية لا يقتضي نظر الآية إلى تصحيحها، بل يمكن أن يكون نظرها إلى معنى صحيح، ويتَّضح ذلك من أنَّ بعض الأفكار المتعلِّقة ببداية الخلق ووضع السَّماء والأرض ربَّما كانت في الأصل جزءاً من مضامين الرِّسالات الإلهيَّة في اهتمامها بذكر قصَّة الخلق ـ لبعض الدَّواعي المتقدِّمة ـ، إلَّا أنَّها قد زِيدَ فيها ونُقص بمرور الزمان، وربَّما اختلطت ببعض الأساطير والعقائد الحادثة، كما نجده في قصَّة الخلق لدى البابليِّين وغيرهم من الشُّعوب القديمة، فلا موجب لحمل القرآن الكريم ـ الَّذي خلا عن كثيرٍ من الأوهام الشَّائعة في هذا الشَّأن ـ على المعاني الخاطئة.

وتماميَّتها.

كما أنَّه ليس من الصَّحيح منهجيًّا تسرُّع باحثين آخرين إلى نفي كلِّ ما يُطرح في هذا الصَّدد أو التَّشنيع على أصل الظَّاهرة والقول بها بعرض أمثلة غير دقيقة ومتكلَّفة ذكرها بعض الباحثين، بل المفروض وفق المنهج العلميّ التَّدقيق في الموارد المطروحة من خلال الأساليب الفنِّيَّة، والبناء على نتيجتها.

دلالة القرآن الكريم على قاعدة اشتمال النَّباتات على ذكرٍ وأنثى

(المثال الخامس): دلالة القرآن الكريم على أنَّ النَّباتات كالحيوانات تتوالد من ذكرٍ وأنثى، قال تعالى[1]: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[3]: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾، وقال جلَّت آلاؤه[4]: ﴿**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ**﴾، وقال سبحانه[5]: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾، وقال تعالى[6]: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا**

---

(١) سورة الرَّعد: ٣.

(٢) سورة الشُّعراء: ٧ ـ ٨.

(٣) سورة لقمان: ١٠.

(٤) سورة ق: ٧ ـ ٨.

(٥) سورة الذَّاريات: ٤٩.

(٦) سورة يس: ٣٦.

تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ويقرِّر الإعجاز العلميّ في هذه الآيات بتوفُّر الشُّروط الثَّلاثة:

فـ(**الشَّرط الأوَّل**): كون نظام التَّزاوج حقيقة علميَّة في النَّبات كالحيوان، وهذا المعنى ممَّا تحقَّق بوضوح في العلم الحديث، فالنَّبات كالحيوان يتألَّف على العموم[1] من ذكرٍ وأنثى، لكن بعض النَّباتات يحمل أعضاء التَّذكير فيها نبات مذكَّر، ويحمل أعضاء التَّأنيث فيها نبات مؤنَّث كالنَّخل، وهي تُسمَّى بـ(النَّباتات ثنائيَّة المسكن)، وأكثر النَّباتات يحمل كلّاً من أعضاء التَّذكير والتَّأنيث نبات واحد كالصُّنوبر، ويُسمَّى (أحاديّ المسكن)، ومنها النَّباتات المزهرة، ويزيد عددها على ربع مليون نوع.

و(**الشَّرط الثَّاني**): عدم معلوميَّة عموم نظام التَّزاوج في النَّباتات آنذاك سواء لدى العرب أو غيرهم، وهذا أيضاً أمر محقَّق ـ فيما قيل ـ[2]، بل قيل إنَّ العرب لم يكونوا يعرفون الذُّكورة والأنوثة في غير النَّخل، ومن ثَمَّ ذهب كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ المراد بـ(الزَّوج) مطلق وجوه الثُّنائيَّة في النَّباتات لا خصوص كونها ذكراً وأنثى، مثل كون النَّبات حلواً وحامضاً، أو عذباً وملحاً، أو أبيض وأسود وأحمر وأصفر.

على أنَّ جماعةً منهم رجَّحوا نظر الآية إلى الزَّوجيَّة بالذُّكورة والأنوثة، لكن اعتبروه

---

(١) وهناك حالات قليلة من التَّكاثر اللَّاجنسيّ في كلٍّ من النَّبات والحيوان.

(٢) وقد قيل: إنَّ العالم السُّويديّ (لينه) ـ والمراد به كارلوس لينوس (ت ١٧٧٨م) ـ هو الَّذي توصَّل إلى هذه الحقيقة في حوالي منتصف القرن الثَّامن عشر الميلاديّ، وهي أنَّ التَّزويج في عالم النَّباتات يُعتبر قانوناً عامَّاً تقريباً كالحيوانات، ولها نطف ذكريَّة وأنثويَّة، وأنَّ الثَّمرة تتكوَّن من التَّلقيح.. وليس من شكٍّ أنَّ ما قبل لينه كان كثير من العلماء يعتقدون بوجود الذُّكور والإناث في بعض الأشجار، حتَّى النَّاس العاديِّين كانوا يعلمون بذلك، ولكن لم يعلم أيُّ أحدٍ أنَّ هذا القانون عامّ، حتَّى كشفه لينه ومن قبله القرآن الكريم. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج: ٧، ص: ٣٣٣، وأيضاً ج: ١١، ص: ٣٤٦).

أمراً خفيًّاً كما يُحكى عن الماورديّ أنَّه قال(١): (أحد الزَّوجين ذكر وأنثى كفحول النَّخل وإناثها، وكذلك كلّ النَّبات وإن خفي).

وأمَّا (**الشَّرط الثَّالث**): وهو دلالة هذه الآيات على التَّزاوج بين الذَّكر والأنثى في النَّباتات، فهو بالنَّظر إلى أنَّ الآية تدور بين معنيين عند المفسِّرين:

(**الأوَّل**): أن يُراد بالزَّوجين فيها التَّنوُّع في الأشياء، حيث إنَّ الإنسان يجد التَّنوُّع في عامَّة النَّباتات وغيرها من الكائنات، وهذا التَّنوُّع في حدِّ نفسه أمر جميل ورائع، وقد جاء في آية أخرى ذكر التَّنوُّع في الأثمار، كما قال تعالى(٢): ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾، وقال سبحانه(٣): ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾، وقد جاء التَّنبيه على روعة التَّنوُّع في الإنسان إذ قال عزَّ من قائل(٤): ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾.

و(**الآخر**): أن يُراد بالزَّوجين المذكَّر والمؤنَّث، ويُرجَّح ذلك على أساس عدَّة مرجِّحات:

---

(١) النُّكت والعيون (تفسير الماورديّ) ج: ٢، ص: ٢٩٧.

(٢) سورة الأنعام: ٩٩.

(٣) سورة الأنعام: ١٤١.

(٤) سورة الرُّوم: ٢٢.

١ ـ إنَّ هذا المعنى هو المتبادر من ذكر الزَّوجين، ومن ثَمَّ نلاحظ أنَّ العديد من المفسِّرين القدامى فسَّروا الزَّوجيَّة بهما رغم عدم تبيُّن ذلك في العصور السَّابقة.

٢ ـ إنَّ التَّنوُّع في النَّباتات لا يقتصر على التَّنوُّع النَّباتيّ، بينما نجد في موضعٍ وصف الزَّوجين بـ(اثنين).

٣ ـ إنَّ في بعض هذه الآيات قد ذُكرت الزَّوجيَّة في الإنسان ـ وهو قوله تعالى[1]: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ ـ والمفهوم منها فيه إنَّما هو الذَّكر والأنثى.

وعليه رجَّح جمعٌ من أهل العلم إشارة هذه الآيات إلى ثنائيَّة التَّذكير والتَّأنيث في النَّباتات.

هذا، بل قيل إنَّ بعض الآيات المتقدِّمة تنظر إلى آفاق أوسع من الزَّوجيَّة العامَّة في النَّبات والحيوان، وذلك قوله تعالى[2]: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**﴾، فلم يخصّ الزَّوجيَّة بالنَّبات والحيوانات، وكذلك قوله سبحانه[3]: ﴿**خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾، ففي الجملة الأخيرة إشارة إلى التَّزاوج في أشياء لا يعلم المخاطب بها (أي بوجودها)، وقد ذُكر فيه احتمالان:

(**الأوَّل**): إنَّه ناظر إلى أنواع من النَّباتات والحيوانات لا علم لهم بوجودها أصلاً[4].

---

(١) سورة يس: ٣٦.

(٢) سورة الذَّاريات: ٤٩.

(٣) سورة يس: ٣٦.

(٤) وأمَّا الحيوانات المشهودة فقد تدخل في قوله: ﴿**مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ**﴾ (سورة يس:٣٦)، فإنَّه يصدق على الحيوانات بمنظور أعمّ، كما قال تعالى: ﴿**وَاللَّـهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا**﴾ (سورة نوح:١٧)، وقد قيل: إنَّه يؤيِّد ذلك أنَّ ظاهر سياق البيان استيعابه للمبيِّن مع عدم ذكر الحيوان في عداد الأزواج. (يلاحظ

وعليه: يمكن النَّظر إلى الزَّوجيَّة بالتَّذكير والتَّأنيث.

(الآخر): إنَّه ناظر إلى وجود نحو زوجيَّة في كلِّ شيءٍ في عالم المادَّة، ومثلها قوله تعالى[١]: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**﴾.

وهذا ممَّا تحتمله إطلاقات الزَّوجيَّة في اللُّغة[٢]، وهذا الاحتمال أنسب بلسان التَّعميم في الآية.

وتفريعاً على ذلك احتمل بعض أهل العلم[٣]: (أن يشمل الزَّوجان الذَّرَّات الموجبة والسَّالبة، حيث ثبت من النَّاحية العلميَّة أنَّ الذَّرَّات مؤلَّفة من أجزاء مختلفة، منها ما يحمل طاقةً سالبةً تُدعى بالإلكترون، ومنها ما يحمل طاقةً موجبةً وتُدعى بالبروتون).

ومع هذا، فإنَّ للتَّأمُّل في ظهور الآيات في المعنى المعجز المذكور ـ وهو الزَّوجيَّة بالتَّذكير والتَّأنيث ـ مجالاً، بل قد يبدو النَّظر فيها إلى التَّنوُّع في كلِّ شيءٍ أقرب بالنَّظر إلى أنَّه يناسب تعميم الزَّوجيَّة في بعض هذه الآيات إلى كلِّ شيءٍ.

على أنَّه جاء في بعضها (أولم يروا)، وهو يقتضي أنَّ الزَّوجيَّة في كلِّ شيءٍ كان أمراً

تفسير الميزان ج: ١٧، ص: ٨٨).

(١) سورة الذَّرايات: ٤٩.

(٢) قال الرَّاغب: يُقال لكلِّ واحدٍ من القرينين من الذَّكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة: زوج، ولكلِّ قرينين فيها وفي غيرها: زوج كالخفّ والنَّعل، ولكلِّ ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضادّ: زوج .. وقوله: ﴿**خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**﴾ فبيَّن أنَّ كلَّ ما في العالم زوج من حيث أنَّ له ضدّاً ما أو مثلاً أو تركيباً ما، بل لا ينفكُّ بوجهٍ من تركيب). (يلاحظ: مفردات ألفاظ القرآن ص: ٣٨٤ـ ٣٨٥.

ومحلُّ الشَّاهد قوله (ولكلِّ ما يقترن..)، فهو يشير إلى إطلاق الزَّوجيَّة بمنظورٍ أعمّ.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج: ١٧، ص: ١٢٤.

مشهوداً لهم، والمفروض أنَّه لم تكن عموم الزَّوجيَّة بالتَّذكير والتَّأنيث مشهوداً لهم[1].

يُضاف إلى ذلك: أنَّ لسان الآيات الكريمة هو خلقه تعالى من كلِّ شيءٍ زوجين، وليس خلق كلِّ شيءٍ من زوجين.. **وعليه،** فهو لا ينطبق على النَّباتات الَّتي يحمل فيها عضو التَّذكير وعضو التَّأنيث نبات واحد، إذ المخلوق منها فرد وليس زوجاً.

وبذلك يظهر أنَّه لا يصحُّ اعتبار تعميم الزَّوجيَّة لكلِّ شيءٍ منطوياً على تأليف الذَّرَّات من جزأين سالب وموجب؛ لأنَّ هذا من قبيل تأليف شيءٍ من زوجين، لا خلق زوجين من كلِّ شيءٍ.

وعليه: فلا أقلَّ من عدم ظهور الآية في المعنى المعجز.

هذا بعض ما تيسَّرت دراسته من الأمثلة الَّتي تُذكر للإعجاز العلميّ، ولم يتَّسع الوقت لدراسة جميع تلك الأمثلة، ولعلَّ فيها ما تتمُّ دلالته بمستوى مقبول.

تلخيص

في ضوء ما تقدَّم يتَّضح أنَّ طرح الإعجاز العلميّ هو طرح وارد في نفسه، ولكن ينبغي التَّدقيق في تطبيقه من الزَّوايا الثَّلاث (العلميَّة، والتَّاريخيَّة، والدّلاليَّة) بكلِّ موضوعيَّة وإتقان.

ما يُطرح من منافاة بعض الآيات مع العلم

هذا، وقد يُطرح في مقابل ما تقدَّم ظاهرة معاكسة، وهي منافاة ما جاء في بعض الآيات القرآنيَّة مع العلم الحديث، وقد تقدَّم القول في بعضها في ضمن هذه الدِّراسة.

---

(١) إلَّا أن يُقال إنَّ من الجائز أن لا يُراد بهذا التَّعبير اطِّلاعهم على ذلك فعلاً، بل يكون المراد حثَّهم على رؤية ذلك والاطِّلاع عليه، وإنَّه ينبغي لهم أن يروا ذلك ويطَّلعوا عليه، كما قد يُقال: (ألا ترى كذا) إذا كان الشَّيء ممَّا ينبغي اطِّلاع المخاطب عليه، أو سعى إلى معرفته لتأتَّى له ذلك.

وهناك مَن يجيب عن ذلك: بأنَّ القرآن الكريم قد جرى في مثل تلك الموارد على الانطباع السَّائد في حينه، لا من جهة تقريره والشَّهادة بصوابه، بل انتقالاً إلى الجوانب الثَّانويَّة الَّتي تنظر إليه من الدّلالة على سلطان الله سبحانه وقدرته وإنعامه، وكذا إثارة العظة والاعتبار والتَّأمُّل والتَّفكير، وليس في ذكر شيء في هذا السَّياق دلالة على الإقرار به.

والصَّحيح: أنَّ الأمر لا يخلو في الموارد المذكورة بحسب التَّتبُّع والاستقراء عن أحد أمرين:

(الأوَّل): ما لم تثبت المعلومة المذكورة في العلم الحديث كحقيقة علميَّة جازمة، ولكن قد تكون نظريَّة راجحة أو فرضيَّة قريبة، ولكن من المثقَّفين من يظنُّ بعض المعلومات في مستوى الحقيقة الجازمة، بينما يراها أهل التَّخصُّص في مستوى النَّظريَّة بعد.

(الآخر): ما ليس هناك دلالة ناضجة للنَّصِّ القرآنيّ على ما يخالف الحقيقة العلميَّة الثَّابتة.

نعم، قد يكون بعض المفسِّرين من قبل قد فسَّروا النَّصَّ بما يعطي ذلك، لكن ما يصادم النَّصَّ حينئذٍ توضيح هذا البعض لا مدلول النَّصِّ بنفسه.

وهناك مَن يخلط بين دلالة النَّصِّ على نفي شيءٍ وبين سكوته عنه، فإذا جاء ما يدلُّ على خلق الإنسان من ماء الرَّجل قيل إنَّ ذلك ينافي ما ثبت من خلقه من ماء الرَّجل وبويضة الأنثى مع أنَّ سكوت الآية عن دور الأنثى ليس فيه ما ينفي وجود هذا الدَّور لها؛ لأنَّ الآية لم تكن بصدد شرح حقيقة علميَّة ـ ولا سيَّما إذا كان ذكرها يوجب إثارة شبهة إضافيَّة تجاه الدِّين وفق عقليَّة المجتمع آنذاك ـ، بل كانت بصدد الاعتبار بحقائق الحياة.

أهمّيّة عدم ورود ما يخالف العلم في القرآن الكريم

والواقع: أنَّ عدم ورود ما يخالف العلم في القرآن الكريم في حدِّ نفسه نقطة مهمَّة

جديرة بالانتباه، وذلك بالنَّظر إلى أمرين:

١ ـ إنَّ القرآن الكريم تطرَّق كغيره من الكتب والثَّقافات الدِّينيَّة السَّابقة لبداية خلق الكون والإنسان، كما تطرَّق للاستشهاد بالظَّواهر الطَّبيعيَّة الرَّائعة كثيراً، ولم يشتمل رغم ذلك على ما يثبت كونه من قبيل الأساطير والخرافات، رغم أنَّ عامَّة الكتب الأخرى بما فيها التَّوراة والإنجيل ـ بصورتهما الَّتي بقيت لدى اليهود والمسيحيِّين ـ ابتلت بذلك، من قبيل ما جاء في التَّوراة من تحديد عمر الكون بعدَّة آلاف سنة، وهو تقدير خلا عنه القرآن الكريم.

وهذا أمر ذو دلالة كبيرة؛ إذ لم يكن لأحد آنذاك أن يدخل في هذه المواضيع ويتجنَّب الوقوع في ما يخالف العلم، لا سيَّما أنَّه بطبيعة الحال يكون متأثِّراً بما جاء في التَّوراة والإنجيل وسائر المدوَّنات السَّابقة.

هذه هي المباحث الثَّلاثة الأصليَّة حول الرِّسالة، وقد تحقَّقنا فيها عن المضمون الإجماليّ للرِّسالات الإلهيَّة، وأدوات الإثبات فيها لَمن بُعثت إليهم، وأدوات إثباتها للأجيال اللَّاحقة.

وقد تبيَّن من خلال ذلك اتِّصاف الرِّسالة الدِّينيَّة في المواضيع الثَّلاثة كلِّها بنصاب مقبول من العقلانيَّة والرُّشد ـ رغم ارتكاز الدِّين على النَّظر إلى آفاق غير محسوسة للإنسان ـ، لكنَّها مع ذلك ابتنت على أُسسٍ معقولة وراشدة خالية عن المعاني الخرافيَّة والأساطير المجعولة ونحوها من الأمور السَّلبيَّة المتوقَّعة في أيِّ مجموعةٍ عقائديَّة ومعرفيَّة من هذا القبيل.

(المبحث الرَّابع)

نقاط يُثار

السُّؤال فيها حول الرِّسالات الإلهيَّة

وقبل الحديث عن ذلك ينبغي التَّذكير بنكتتين منطقيِّتين مهمَّتين:

لا يمثِّل كلُّ إبهام تحدِّياً أمام حقَّانيَّة الدِّين

(**النُّكتة الأولى**): أنَّه لا ينبغي للباحث أن يجعل من كلِّ إبهامٍ وغموضٍ في شأن الدِّين تحدِّياً أمام حقَّانيَّة الدِّين.

فإنَّ الإبهامات المتوقَّعة على ضروب ثلاثة:

(**الأوَّل**): إبهامات بدويَّة، ترتفع بالتَّأمُّل الجامع في موضع الإبهام، ولو استشار المرء أهل العلم والخبرة في شأنه لاتَّضح له ذلك.

وهذا حال أكثر الأسئلة الَّتي تُثار حول حقَّانيَّة الدِّين في الوقت الحاضر؛ فإنَّها أسئلة بدويَّة وليست معمَّقة، وإن كان استيعاب جوابها يتوقَّف على بعض الاهتمام والتَّثبُّت.

وللباحث أن يستوضح ذلك بأسئلة دينيَّة أو غير دينيَّة سأل عنها أو طالع حولها فظهر له وجهها وتغيَّرت قناعاته في أثر ذلك حولها.

(**الثَّاني**): إبهامات تتوجَّه إلى اتِّجاه معيَّن في تفسير الدِّين ونصوصه، فهي إنَّما تتوجَّه على هذا الاتِّجاه، وليس على عمق الدِّين وثوابته المتيقَّنة، فلا يصحُّ فنِّيَّاً احتسابها إبهاماً في شأن الدِّين.

(**الثَّالث**): إبهامات موجودة في شأن الدِّين فعلاً، ولكن وجود هذا المقدار من

الإبهام في شأن الدِّين طبيعيٌّ، لمرور فترة طويلة على آخر نبيٍّ بعثه الله سبحانه إلى العباد، فليس للإنسان اتِّصال مفتوح مع السَّماء، حتَّى يتبيَّن نقاط الإبهام في شأن الدِّين، وكلَّما تأمَّل الإنسان حول كلام صادر من مصدر معيَّن ولم يُتَح له أن يفاتح صاحب الكلام بما يخطر في ذهنه من خلال تأمُّلاته فإنَّه سوف تحدث نقاط إبهامٍ حول ذلك الكلام بطبيعة الحال.

وعليه: فمن الطَّبيعيّ أن تزداد التَّأمُّلات والأسئلة والإبهامات حول الدِّين بمرور الزَّمان.

لكن يجب على الباحث ـ إذا أراد أن يبحث عن الدِّين وفق منهجٍ منطقيٍّ وموضوعيٍّ ـ أن يستحضر ثقل المؤشِّرات في جانب أصل حقَّانيَّة الدِّين والرِّسالات الإلهيَّة بجنب ما يصادفه من الأسئلة والإبهامات، حتَّى يستطيع من عمليَّة الموازنة بين المؤشِّرات المتعاكسة بشكل صحيح، فمَن لم يستحضر ثقل المؤشِّرات القائمة على حقَّانيَّة الدِّين ربَّما يشكُّ في حقَّانيَّته بأوَّل عارضٍ من شبهة.

هذا، ولن يستطيع الإنسان من استحضار هذا الثُّقل حتَّى يكوِّن له ثقافة دينيَّة مناسبة من خلال اهتماماته ومطالعاته.

نقد صناعة دينٍ بشريٍّ مذعنٍ بالله والقيم الفاضلة

(النُّكتة الأخرى): أنَّ من الباحثين عن الحقيقة في شأن الله سبحانه والرِّسالات الإلهيَّة مَن أذعن بوجود الله سبحانه واستجابته له، ولكنَّه توقَّف في صدق الرِّسالات الإلهيَّة؛ بالنَّظر إلى عددٍ من الأسئلة الَّتي تتوجَّه في شأنها، وهو ما يُعرف بـ(الاتِّجاه الرُّبوبيّ).

وقد بنى فريق من أصحاب هذا الاتِّجاه ـ ممَّن عُني بملء الفراغ الرُّوحيّ للإنسان بعد عدم الإيمان بالرِّسالات الإلهيَّة ـ على مبدأين يضمنان الحاجة الرُّوحيَّة للإنسان في

الارتباط بالإله والتَّوجُّه إلى القيم الفاضلة.

(أحدهما): البناء على عناية الإله بالإنسان واستجابته له وودِّه له، وينبغي للإنسان أيضاً أن يمجِّد الإله ويشكره.

و(الآخر): الأخذ بالقيم الفاضلة تجاه الآخرين بالعمل على أساس العدل والإحسان والشُّعور بالمودَّة والمحبَّة للآخر وحبّ الخير والنَّجاح له.

وهذا التَّوجُّه أشبه بدينٍ إنسانيٍّ، لا يعتمد على توجيه من الإله للخلق، وإنَّما يعتمد على ما يشخِّصه الخلق بعقولهم وتجاربهم فيما ينبغي أن يكونوا عليه من النَّاحية المعنويَّة والرُّوحيَّة.

ويلاحَظ بشأن هذا الاتِّجاه ما يلي:

١ ـ إنَّه ليس هناك أيَّةُ قيمةٍ موضوعيَّةٍ وفكريَّةٍ لهذا الاتِّجاه؛ إذ لا مثبت للمبدأ الأوَّل فيه، وهو عناية الله سبحانه بالإنسان، فلعلَّ إله هذا الكون قد خلق الإنسان كسائر الكائنات وأوكله إلى السُّنن الَّتي جعلها في وجوده، وفيما حوله، ولم يعتنِ به أيَّة عنايةٍ خاصَّة، بل هذا المعنى هو الَّذي يعطيه عدم مخاطبته للإنسان بعد إنكار الرِّسالات الإلهيَّة، فلو كان الإله معنيَّاً بالإنسان حقَّاً لكان لهذه العناية مظهر من خلال مخاطبة الإنسان، ودلالته على المنهج الصَّحيح في الحياة.

ومن ثَمَّ يكون الوجه المنطقيّ لقبول هذا المبدأ تصديق الرِّسالات الإلهيَّة فيما جاءت به عن الله سبحانه، فالدِّين يشتمل على كلا المبدأين المذكورين؛ فإنَّهما من أصول التَّعاليم الدِّينيَّة، وبذلك يطابق الحاجات الرُّوحيَّة والمعنويَّة للإنسان.

٢ ـ إنَّ من الضَّروريّ للإنسان في مقام تحقيقه في شأن وجود الله سبحانه وحقَّانيَّة الرِّسالات أن يفرِّق بين محكمات العقل والفطرة وبين مذاقه ومشتهياته فيما يرجِّح أن تكون

عليه الأمور، حتَّى لا يقع في بناء واقع موهوم لنفسه فيتَّخذه ديناً أو ينفي به الدِّين، فليس من الضَّروريّ أن يكون أسلوب تدبير الله سبحانه ـ في موقعه المهيمن على الوجود كلّه في نشأته واستمراره ونهايته ـ مطابقاً مع الأسلوب الَّذي يرجِّحه الإنسان، ويأمل أن يكون الأمر عليه، فالإنسان مجهَّز بمقدار ما يتعلَّق بتدبير حياته، وليس مجهَّزاً بمستوى من العقل والإدراك يحكم من خلاله باللَّياقات الكونيَّة العامّة، بحيث يستطيع أن يستنبط منه دلالةً ذات قيمة يبني عليها، فلا يصحُّ له ـ مثلاً ـ أن ينفي وجود الله سبحانه لما يقع من الكوارث في الطَّبيعة أو الحروب بين النَّاس، على أساس أنَّ اللَّائق به سبحانه أن يجنِّب الطَّبيعة هذه الكوارث والأحداث المؤلمة.

فمَن بحث عن دين على مقاسه وذوقه كان عرضةً لبناء واقع موهوم لنفسه، وعدم إدراكه للحقيقة الَّتي تُطلَب من خلال البحث عن الخالق والدِّين.

أصول النُّقاط الَّتي يُثار السُّؤال فيها حول تصديق الرِّسالة

وفيما يلي ذكر أصول النُّقاط الَّتي يتوجَّه فيها السُّؤال إلى تصديق الرِّسالة، وقد تقدَّم منّا طرح بعض هذه النُّقاط والحديث حولها، ولكنَّ المراد هنا ضبط أصول النُّقاط الَّتي تُطرح في شأن الرِّسالة بالذَّات، والإشارة إلى الحديث فيها وفق المنظور العقليّ والدِّينيّ.

وجه الحاجة إلى الدِّين

(النُّقطة الأولى): هو عن وجه الحاجة إلى الدِّين أساساً.

فقد يُطرح استغناء الإنسان عن الدِّين على أنَّ الإنسان قد جُهِّز بأدوات من قبيل العقل والضَّمير، يستطيع من خلالها تدبير أموره الفرديَّة والاجتماعيَّة، وهو يتطوَّر تدريجاً حسب السُّنن الَّتي وُجد عليها.

ويتأكَّد ذلك في شأن الإنسان المعاصر؛ لأنَّ الإنسان قد وصل في هذا العصر إلى

درجةٍ كبيرةٍ من البلوغ العقليّ والوجدانيّ حتَّى استطاع من وضع قوانين مدنيَّة تنظِّم الحياة وتضمن العدالة.

والجواب عن هذا السُّؤال: أنَّ هناك حاجةً للإنسان إلى الدِّين والرِّسالات الإلهيَّة في أمور ثلاثة:

١ ـ إدراك الحقائق الكبرى المؤثِّرة في شأن الإنسان، ونعني بها:

(**أوَّلاً**): مزيد التَّأكُّد حول وجود الله سبحانه وخلقه وعنايته بالإنسان؛ فإنَّ هذا الوجود وإن كان يجد الإنسان دلائل عليه، إلَّا أنَّه قد يكون مقروناً بشوائب الشَّكِّ والتَّرديد، كما أنَّه لا يستطيع أن يدرك اتِّصافه تعالى بالضَّمير الأخلاقيّ في سلوكه العمليّ، ولا عنايته بالإنسان، واستجابته له على وجه موثوق ومؤكَّد.

و(**ثانياً**): بقاء الإنسان بعد الممات وإعادته إلى الحياة ليُجازىٰ بما عمله في هذه الحياة من خيرٍ أو شرٍّ.

فهذه المعلومة أمر غاية في الأهمّيّة ولن يستطيع الإنسان أن يطمئنَّ به إلَّا من خلال الدِّين والرِّسالات الإلهيَّة.

٢ ـ التَّعاليم العمليَّة، ذلك أنَّ أصول التَّعاليم العمليَّة وإن كانت مغروسةً في فطرة الإنسان، لكن مع ذلك يحتاج الإنسان إلى الانتباه إلى واجبه الأخلاقيّ تجاه الله سبحانه، وأسلوب الارتباط به، ويحتاج أيضاً إلى إسعافه في مواضع التَّشابه والاختلاف؛ لإيجاد تشريع يكون أوفق بالفطرة والعدالة.

ولا شكَّ في أداء الدِّين لهذا الدَّور تاريخيّاً، كما كانت التَّشريعات الإسلاميَّة مصدراً قانونيّاً لضمان العدل في أدوار تاريخيَّة كثيرة، ولا يزال الدِّين يلهم الإنسان بتعاليمٍ راشدةٍ لو اهتدى الباحثون إليها، كما تطرَّقنا لذلك في البحث عن الدِّين والقانون.

٣ ـ التَّربية الأخلاقيَّة على القيم الفاضلة، فإنَّ هذه جزء من الرِّسالة التَّاريخيَّة للدِّين، ولا يزال الدِّين يؤدِّي دوراً كبيراً في التَّربية السَّليمة على العفاف والإحسان والعدل في كثيرٍ من المجتمعات البشريَّة، كما أنَّ له دخلاً كبيراً في التَّكافُل الاجتماعيِّ بين النَّاس في مختلف الدُّول عند طروِّ الكوارث والحروب والأزمات الإنسانيَّة، وذلك أمر مشهود.

وأمَّا المآسي الَّتي وقعت باسم الدِّين: فإنَّنا نعتقد أنَّ النَّزعات الخاطئة في الإنسان هي الَّتي أدَّت إليها، وقد استغلَّ الإنسان الدِّين لتوجيه تلك النَّزعات وسوق النَّاس إليها، كما شرحنا ذلك في البحث حول (الدِّين والعدالة)، وإنَّنا نتوقَّع أن يكون تطوُّر الرُّشد الإنسانيّ في هذا العصر في جملة من النَّواحي مساعداً على فهمٍ أفضل للدِّين يحول دون استغلاله السَّيّء للنَّزعات الشَّخصيَّة والأُسريَّة والقوميَّة ونحوها.

وعلى العموم: فإنَّ للإنسان بعدين: بعد مادّيٍّ يتمثَّل في احتياجاته المعروفة، وبعد معنويٍّ روحيٍّ يشدَّه إلى الخالق المبدع والقدير لهذه الحياة، ويشعر تجاهه بالمحبَّة والشُّكر والرِّعاية والأمل، ويعمِّق فيه الشُّعور بالمسؤوليَّة عن أعماله الصَّحيحة والخاطئة سواء ارتكبها سرَّاً أو علناً، ويجنِّبه الشَّره تجاه المادَّة والشُّؤون المادِّيّة، ويحفِّز فيه المعاني الفاضلة والنَّبيلة كمحبَّة الآخرين، وتمنِّي الخير لهم، والسَّعي في الإحسان إليهم، ومراعاة العفاف والصِّدق والوفاء.

وذلك كلُّه إنَّما يتحقَّق على الوجه الأمثل من خلال الدِّين الَّذي يفتح نافذة الارتباط بين الإنسان وبين الله سبحانه القيِّم على هذه الحياة، والرَّاعي للقيم فيها، وهو الإله المطَّلع على سرائر الإنسان وأعماله، إله يحبُّ ويقدِّر الخير والعدل والإحسان، ويبغض البغي والفحشاء والمنكر ويلوم عليها، وسوف يوفي كلَّ إنسانٍ بما كسبه من خيرٍ أو شرٍّ في نشأةٍ أخرى، فيكون مشهد الحياة حينئذٍ كمدرسةٍ يقدِّر مديرها المعاني الإيجابيَّة في طلبتها، وينزِّل

كلَّ طالبٍ منزلته حسب مستواه العلميّ والأخلاقيّ، فيعيش الطَّلبة تنافساً في العلم والدَّراسة والأخلاق الفاضلة.

إنَّ الأفق الَّذي يفتحه الدِّين للإنسان بحبلٍ ممدودٍ إلى الله سبحانه وبحبلٍ إلى مستقبل الإنسان ـ الَّذي يتعيَّن به مستواه في اختباراته في هذه الحياة ـ أفق يحتاج إليه الإنسان بفطرته، ويعيش خلأً من دونه، ولن يمتلئَ هذا الخلأ إلَّا من خلال هذين الارتباطين، وهما الارتباط بالخالق والارتباط بالمستقبل، وذلك أمر لن يكونَ الإنسان على بيِّنةٍ منه بحيث يقيه من الخرافات والأوهام ـ مثل عبادة آلهةٍ أخرى أو الدُّخول في العوالم الرُّوحانيَّة من خلال التَّجربة الخاصَّة مثل الرِّياضات الصَّعبة ونحوها ـ إلَّا من خلال الدِّين.

ومن الخطأ: أن يزعم المرء عدم التَّأثير الإيجابيّ للدِّين في التَّاريخ البشريّ، واستغناء الإنسان المعاصر عنه، فالعلم لن يغني الإنسان عن التَّعلُّقات الرُّوحيَّة والمعنويَّة، ولن يوجد حافزاً على الفضيلة في الاختبارات الصَّعبة، وإذا تأمَّل الإنسان الحياة الاجتماعيَّة والأُسريَّة الَّتي يتعلَّق بها وجد في الآباء والأمّهات والأقارب كثيراً من المعاني الفاضلة الَّتي رسخت وأنبتت بفضل التَّعاليم الدِّينيَّة.

هل يُعقَل الوحي إلى الإنسان من الله سبحانه

(النُّقطة الثَّانية): حول معقوليَّة الوحي إلى الإنسان من الله سبحانه.

فقد يُثار الإشكال حوله على أساس أنَّ الإنسان لا يملك فيما جُهِّز به وفق العلوم الحديثة أيَّة آليَّة للاتِّصال بما وراء الطَّبيعة، فكلُّ الفعَّاليَّات الرُّوحانيَّة في الإنسان هي فعَّاليَّات ذاتيَّة في داخل الإنسان من خلال ما ارتكز في عقله الباطن، واستجابته للنَّشاطات والرِّياضات الَّتي يقوم بها، وحيث يشعر الإنسان بالوحي الذِّهنيِّ أو السَّمعيِّ فإنَّما هو في

حقيقته ضرب من الهلاوس الذِّهنيَّة والسَّمعيَّة الَّتي هي في أصلها ظواهر مشهودة في الإنسان في موارد لا شكَّ فيها، كما في الحالات المرضيَّة المعروفة في الطِّبِّ النَّفسيِّ.

ولكن يلاحَظ على هذا الإشكال ما يلي:

أ ـ إنَّ العلم أذعن باستقبال النَّفس الإيحاءات من الآخرين في حالات التَّنويم المغناطيسيِّ، وهو من قبيل الإيحاء من مصدرٍ خارجيٍّ، وليس هناك من فرقٍ بين كون المصدر الخارجيِّ للإلهام إنساناً آخر أو كائناً روحانيَّاً.

ب ـ إنَّ العلم لا يستطيع أن ينفي أو يثبت حدوث الإلهام للإنسان من مصدرٍ خارجيٍّ بشكلٍ مباشر؛ لأنَّه لا آليَّة فيه تحدِّد ما إذا كان هذا النَّشاط ذاتيَّاً منبعثاً من العقل الباطن، أو ناشئاً من مصدرٍ خارجيٍّ.

وعليه: يبقى تشخيص ذلك بطريقٍ غير مباشرٍ اعتماداً على القرائن الحافَّة بهذا النَّشاط.

وهناك قرائن موثوقة في مورد الرِّسالات الإلهيَّة تدلُّ على أنَّ الإيحاءات الَّتي حكاها الرُّسل هي فعلاً من مصدرٍ خارجيٍّ، وليس نشاطاً لعقلهم الباطن.

وهذه القرائن:

(منها): ما يرتبط بشخصيَّة الرَّسول، من حيث كونه إنساناً معتدلاً مستقيماً، لم تُعهد منه قبل البعثة أو بعدها حالاتٍ غريبة تشبه الهلاوس.

و**(منها)**: ما يرتبط بالأقوال الَّتي يحكي إلهامه بها من جهة الفاصل بين هذا الإيحاء وبين قدراته الذِّهنيَّة والنَّفسيَّة، نظير حكاية نبيِّ الإسلام ﷺ للقرآن الكريم عن الله سبحانه، وهو نصٌّ لم يكن قادراً على إيجاد مثله لا قبل البعثة ولا بعدها بدلائل تاريخيَّة واضحة.

و(**منها**): قرائن الخوارق الَّتي تحقَّقت لهم، وهي أمورٌ غير مقدورة للإنسان، وقد تقدَّم توضيح هذه القرائن من قبل.

وقد ينطلق بعض الباحثين في نفي الوحي من منطلق الاستبعاد؛ من جهة غرابة هذه الظَّاهرة لا سيَّما في العصر الحاضر الَّذي ابتعد فيه الإنسان عن عهد الرِّسالات فصار يشكِّك فيها وفي تاريخها.

ولكنَّ الاستبعاد ليس دليلاً فنِّيّاً وعلميّاً على نفي شيء، نعم غرابة الفكرة المطروحة تقتضي مزيداً من التَّأكُّد بشأنها كما يجري عليه العقلاء، ولكنَّ التَّأكُّد من الشَّيء يختلف عن نفي معقوليَّته وإنكاره بتاتاً.

ومن الباحثين مَن يطرح أنَّ حقيقة ما يحصل للرُّسل صورٌ وتمثُّلات روحانيَّة، ولكنَّ الرَّسول هو الَّذي يترجمه إلى الكلام، نظير ما نلاحظه في المكاشفات الرُّوحانيَّة الَّتي يحكيها أهلها، ونظير المنامات الَّتي تقع للنَّاس كلِّهم، فيعبِّرها المعبِّرون للرُّؤيا.

ولكنَّ هذا الطَّرح غير صائب جدّاً؛ إذ من الواضح أنَّ الأنبياء الَّذين وقع في حقِّهم هذا الإلهام إنَّما يحكون كلاماً أُوحي إليهم بلفظه، وليس فكراً يحكونه بتعابيرهم، فضلاً أن يكون صورةً يعبِّرونها كما تعبَّر الرُّؤيا، على أنَّ أصحاب المكاشفات الرُّوحانيَّة من شيوخ المتصوِّفة وغيرهم يفرِّقون بوضوح بين تلقِّيهم لكلامٍ أو دعاءٍ يقولون إنَّهم سمعوه بنصِّه من النَّبيِّ ﷺ ـ مثلاً ـ وبين المكاشفات الَّتي اطَّلعوا فيها على العالم الرُّوحانيِّ وتمثَّلت لهم الأمور بأشباحها.

على أنَّ هذا الاحتمال لا يرد في شأن نبيِّ الإسلام ﷺ؛ لأنَّ صياغة القرآن هي فوق القدرة البلاغيَّة للنَّبيِّ ﷺ وفق مشهدٍ تاريخيٍّ واضح وصفناه من قبل.

وصف الله سبحانه بالشِّدَّة تجاه العباد

(النُّقطة الثَّالثة): حول صفة (الله) سبحانه في الأديان.

فقد يُطرح: أنَّ الرِّسالات تصف الله سبحانه بالشِّدَّة على العباد، وهذا يخالف ما يتوقَّعه العقل، وترجِّحه الفطرة من أنَّ اللَّائق بالله سبحانه في عظمته وقدرته واستغنائه عن الكائنات كلِّها، وصغر الإنسان في جنبه هو الرِّعاية للخلق باللُّطف والودِّ والعناية والرَّحمة، ولأجل ذلك نجد أنَّ هناك مَن لم يذعن بالأديان الإبراهيميَّة لتوقُّفه في شأنها، من جهة ما فيها من أوصافٍ شديدة للذَّات الإلهيَّة، ولا سيَّما ما جاء من خلق جهنَّم لعذاب غير المؤمنين والعاصين، ولكنَّه أذعن بالله سبحانه كخالقٍ للكون، وراعٍ للإنسان، ويُعرف هذا الاتِّجاه بـ(الاتِّجاه الرُّبوبيِّ).

والجواب عن هذا السُّؤال يتَّضح ممَّا قدَّمناه في مباحث حول الله سبحانه، وحول المعاد.

وإجماله: أنَّ الدِّين أثبت لله تعالى ضميراً أخلاقيَّاً ـ ببعض التَّوسُّع في التَّعبير ـ يشتمل على التزام العدل، وتجنُّب الظُّلم، والأخذ بالفضل، والمحبَّة للإنسان، كما قال تعالى[1]: ﴿**وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**وَاللَّـهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾، وقال عزَّ من قائل[3]: ﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ**﴾، وقال جلَّت آلاؤه[4]: ﴿**إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**﴾، وقال سبحانه[5]: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾.

---

(١) سورة ق: ٢٩، ومثلها آيات عديدة أخرى.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٤.

(٣) سورة البروج: ١٤.

(٤) سورة هود: ٩٠.

(٥) سورة البقرة: ١٤٣، والحجّ: ٦٥.

ولكنَّه مع ذلك رأى أنَّ الله سبحانه حيث أعطى للإنسان العقل والوعي والضَّمير والاختيار فإنَّ الإنسان يتحمَّل مسؤوليَّة أعماله في هذا السِّباق والاختبار في الحياة، وذلك ضربٌ من العدل في أن يقدِّر كلّ إنسانٍ بما اكتسبه، قال تعالى(١): ﴿**إِنَّ اللَّـهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾، وقال سبحانه(٢): ﴿**إِنَّ اللَّـهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ**﴾، وقال عزَّ من قائل(٣): ﴿**اللَّـهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّـهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ**﴾، وقال جلَّت آلاؤه(٤): ﴿**مَّا يَفْعَلُ اللَّـهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّـهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾، وقال سبحانه(٥): ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّـهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾.

وقد سبق إيضاح هذا المعنى في مباحث المعاد.

مدى معقوليَّة خرق سنن الطَّبيعة

(النُّقطة الرَّابعة): حول مدى معقوليَّة المعاجز المذكورة في الأديان.

وذلك لأنَّ الدِّين تضمَّن ـ في مقام إثبات حقَّانيَّته ـ الحوادث الخارقة (المعجزات)؛ فإنَّ الخوارق نقض لقوانين الطَّبيعة واطِّرادها، وهو أمرٌ غير معقول؛ لأنَّه ينقض قانون السَّببيَّة، ومفاد هذا القانون أنَّ هناك علاقة ضروريَّة بين الأشياء، حيث يستتبع بعضها بعضاً، كما تؤدِّي الحرارة إلى تمدُّد الحديد وتبخُّر الماء.

---

(١) سورة يونس: ٤٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٣.

(٣) سورة غافر: ٦١.

(٤) سورة النِّساء: ١٤٧.

(٥) سورة البقرة: ٢٨٦.

وعليه: لا يمكن حصول أيِّ مسبَّبٍ من دون وجود سببه، ولا وجود أيِّ سببٍ تامٍّ من غير حصول مسبَّبه، فكيف يمكن الإذعان بما ينقض قانون السَّببيَّة، وينفي اطِّرادها؟! مثل ما جاء من طوفان نوح ﷺ، وجعل النَّار برداً وسلاماً على إبراهيم ﷺ، وفلق البحر لموسى ﷺ وانقلاب عصاه حيَّة، وإحياء عيسى ﷺ للموتى وإبرائه للأكمه والأبرص.

ولا يمكن إثبات وقوع أيِّ شيءٍ خارقٍ في عالم المادَّة، وما يُحكى من وقوع الخوارق للأنبياء لا يمكن الوثوق به، كما يُحكى عن بعض فلاسفة الغرب أنّه قال: إنَّه لم تتحقَّق هناك أيَّة معجزةٍ رآها قدر كافٍ من النَّاس.

والجواب عن ذلك:

(**أوَّلاً**): أنَّ الحجَّة الأولى في الدِّين إنَّما كانت على أساس إدراك العقل لعناصر: الرُّشد، والحكمة، والهدى في ما جاء به الأنبياء، بالمقارنة مع العقائد والسُّلوكيَّات السَّائدة لدى الأقوام الَّتي بُعثوا إليها ـ كما يمثِّله القرآن الكريم بوضوح ـ، وقد سبق توضيح ذلك.

و(**ثانياً**): فيما يتعلَّق بكون المعجزة خرقاً لقانون السَّببيَّة، فينبغي ملاحظة ما يلي:

١ ـ إنَّه لا شكَّ في أصل قانون السَّببيَّة بنحوٍ عامٍّ، فكلُّ شيءٍ يستتبع شيئاً آخر فإنَّما يكون بعلاقةٍ ضروريَّةٍ قائمةٍ بينهما[١].

ووقوع الخوارق لا يتخرَّج على إنكار هذا القانون، بل على أنَّ هناك أموراً روحانيَّة يمكن أن تقع سبباً لوجود الأمور المادِّيَّة أو انتفائها، وما يلحظه الإنسان في المادَّة من استتباع أشياءٍ لأشياءٍ أخرى لا ينفي منطقيَّاً وجود أمور روحانيَّة قادرة على أن تحول دون

---

(١) على أنَّ هناك في أصحاب الاتِّجاهات المادِّيَّة في الفلسفة مَن نفى وجود علاقةٍ ضروريَّة بين الأشياء ونتائجها، نظراً إلى أنَّ هذه العلقة ليست شيئاً محسوساً ولا مبرهناً، بل المقدار الَّذي يقتضيه الاستقراء هو المقارنة بين أشياء وأخرى، وبناءً عليه فيرتفع هذا الإشكال من أصله. ولكنَّ هذا الرَّأي غير صائب.

تأثير الأسباب المادِّيّة أو تؤدِّي إلى مثل مسبَّباتها.

٢ ـ إنَّ في وجود الإنسان شاهداً على تأثير الأمور الرُّوحانيَّة في الأمور المادِّيّة؛ وذلك لأنَّ الإنسان يتألَّف من بُعدٍ مادِّيٍّ يتمثَّل في هذا الجسد، وبُعدٍ آخر روحيٍّ يتمثَّل في جملةٍ من الظَّواهر غير المادِّيَّة الَّتي نشهدها فيه من قبيل: الإحساس، والإدراك، والضَّمير الأخلاقيّ، والإرادة الحرَّة. فهذه الظَّواهر ليست مادِّيَّة؛ لأنَّها لا يمكن اختزالها في نشاطاتٍ كيميائيَّةٍ وفيزيائيَّةٍ، كما تأكدَّ ذلك في علم طبِّ الأعصاب، وأقرَّ به عدد من كبار أطبَّاء الجملة العصبيَّة، على ما أوضحناه في بحث حقيقة الإنسان[1].

وعليه، فإنَّ في اندفاع الإنسان من عوامل إدراكيَّة وأخلاقيَّة فيما يقوم به من نشاطاتٍ بدنيَّة، أو تجري فيه من تغييراتٍ كيميائيَّةٍ وفيزيائيَّةٍ تبعاً لتلك العوامل الرُّوحيَّة مثالاً محقَّقاً من تأثير أمرٍ غير مادِّيٍّ في أمر مادِّيٍّ.

٣ ـ إنَّ مقتضى المنهج الاستقرائيِّ المتَّبع في العلوم الطَّبيعيَّة تجويز (تأثير عاملٍ غير طبيعيٍّ في أمر طبيعيٍّ) إذا لاحظناه في نماذج مؤكَّدة.

وما جاء في الأديان الثَّلاثة (اليهوديَّة، والمسيحيَّة، والإسلام) من وقوع الخوارق للأنبياء عليهم السلام فيه ما هو مؤكَّد من المنظور التَّاريخيِّ المقبول ـ كما يثق به كثيرٌ من أهل العلم في الأديان الثَّلاثة ـ.

ودعوى أنَّ ذلك كلَّه أساطير وضعها رجال الدِّين لمصلحتهم مبالغةٌ في التَّشكيك.

٤ ـ على أنَّ القرآن الكريم شاهدٌ ثابتٌ وحاضرٌ في دين الإسلام؛ فإنَّه لا شكَّ لدى مؤرِّخي المسلمين وغيرهم في أنَّه قد جاء به النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم، كما لا ينبغي الشَّكُّ من خلال ثوابت التَّاريخ الإسلاميِّ المتمثِّل في سيرة النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم طيلة ثلاث وعشرين سنة بعد البعثة

---

(١) هذا البحث جاء في هذا السِّلسلة في نهاية بحث المعاد.

أنَّ هذا النَّمط من النَّثر كان فوق مقدرته الشَّخصيَّة الملحوظة بالمعايشة معه قبل البعثة وبعدها، فيكون ذلك ضرباً من الإعجاز، على ما أوضحناه في ما تقدَّم حول إعجاز القرآن.

والواقع: أنَّ الإشكال العقليَّ في الخوارق يستند إلى استبعادات أوَّليَّة، أو انتفاء الثِّقة بحكايتها؛ من جهة ما يُلحَظ من كثرة التَّوهُّم والادِّعاء الكاذب لوقوع الخوارق، أو إلى التَّساؤل عن وجه عدم وقوع الخوارق في هذا الزَّمان، وكلُّ ذلك ليس حجَّةً عند التَّأمُّل الجامع في الأمر على نفي معقوليَّة هذه الظَّاهرة ولا على نفي وقوعها.

مدى مطابقة التَّشريعات الدِّينيَّة للعدالة

(**النُّقطة الخامسة**): ـ في شأن الرِّسالات الإلهيَّة ـ ما يتعلَّق بمضمونها التَّشريعيِّ.

فقد يُطرَح أنَّ في المضمون التَّشريعيِّ لهذه الرِّسالات ملاحظات[1]، من جملتها وجود ما لا يطابق العدالة فيها، كما في الموارد التَّالية:

١ ـ سلب جملة من الحقوق والحرِّيَّات العامَّة، مثل اختيار الدِّين لَمن كان قد دان بالإسلام، وحرِّيَّة العلائق غير الشَّرعيَّة برضا طرفيها، وحرِّيَّة تناول الأطعمة والأشربة مثل لحم الخنزير والمسكرات وغير ذلك.

٢ ـ تفريق المجتمع الإنسانيِّ إلى المؤمن بالرِّسالة والكافر بها، والتَّبعيض بين النَّاس على هذا الأساس، وسلب حقوقٍ فطريَّة وعادلة لغير المؤمنين.

٣ ـ التَّفريق بين الإنسان الذَّكر والإنسان الأنثى، وغمط حقِّ الأنثى في التَّسوية بالذَّكر، والإيفاء لها بحقوقٍ مماثلة له سواء في: السِّتر والحجاب، أو الزَّواج، أو الطَّلاق، أو

---

(١) تتوزَّع الملاحظات الَّتي تُذكر في هذا السِّياق على محاور عديدة تعرَّضنا لها في كتاب (اتِّجاه الدِّين في مناحي الحياة) واقتصرنا هنا على طرح أهمِّها وهو العدالة.

الميراث، أو الدِّية والقصاص.

٤ ـ جعل أحكام جزائيَّة شديدة على المعاصي الشَّرعيَّة، مثل القصاص في القتل العمديِّ، وقطع يد السَّارق، ورجم الزَّاني وغير ذلك.

وقد تعرَّضنا للحديث عن هذا الموضوع في مباحث حقيقة الدِّين، واتِّجاه الدِّين في محور العدالة. وذكرنا أنَّ أصل العدالة موضع إذعان الدِّين، بل هو الأصل العامّ في التَّشريعات الإسلاميَّة، ولكنَّ البحث يقع في تحديد مصاديق العدالة ومقتضياتها؛ لأنَّ مفهوم العدالة تعبيرٌ عن رعاية حقوق النَّاس، كما أنَّ مفهوم الظُّلم تعبيرٌ عن تجاوز تلك الحقوق وعدم الإيفاء بها.

وعليه: لا بُدَّ من تشخيص الحقوق الثَّابتة للإنسان وضمانها بحسب التَّشريع. ولا شكَّ في أنَّ مناط ثبوت الحقِّ هو الفطرة الإنسانيَّة وما أُودع فيها، وإنَّما يقع البحث في الموارد الأربعة في تشخيص المنحى الفطريِّ الموافق للصَّلاح النَّوعيِّ للإنسان.

والتَّشريعات الدِّينيَّة في تلك الموارد على قسمين: منصوصة قطعيَّة، ومستنبطة.

أمَّا المنصوصة منها: فهي على أنواع ثلاثة:

(**الأوَّل**): ما يوافق العدالة وفق المنظور الدِّينيّ، من قبيل بعض وجوه الاختلاف التَّشريعيِّ بين الذَّكر والأنثى، مثل حظر ظهور الأنثى بمظهر الإغراء للرَّجل من غير حظر مثله على الرَّجل، وهذا ناشئ عن اختلاف الرَّجل والأنثى في الانجذاب إلى الجنس الآخر، وهو اختلاف مشهود يتمثَّل في الإحصاءات والأرقام.

(**الثَّاني**): ما يقع في المساحة المتشابهة والغامضة بين العدالة والظُّلم، ولا ضير في ورود التَّشريع في هذا القسم بأحد الطَّرفين، بعد أن لم يكن هناك موقف عقليٌّ حاسم.

(**الثَّالث**): ما تختلف مقتضيات العدالة فيه بحسب اختلاف الزَّمان. وبناءً عليه

يُعتبر الحكم من قبيل المتغيِّر الَّذي يحلُّ محلّه ما يليق بالعدالة في حينه.

وأمَّا التَّشريعات المستنبطة: فهي تُعرَض على أصل العدالة، فإن تبيَّن مخالفتها لهذا الأصل فلن يثبت التَّشريع في الشَّريعة، كما جاء في أخبار معتبرة عن أئمَّة أهل البيت عليهم السلام لزوم عرض الأخبار على القرآن الكريم، وطرح ما يخالفه[1]، إلَّا أنَّ هذا العرض بطبيعة الحال لا بُدَّ أن يكون من قبل المتخصِّصين في الفقه، ولا يصحُّ أن يُناط بآحاد النَّاس.

هذا، وقد تضمَّن القرآن أصل العدالة ونفي الظُّلم بشكلٍ واضحٍ في كلٍّ من الموارد الأربعة المذكورة.

أمَّا (**المورد الأوَّل**): ـ العامّ ـ فقد قال تعالى[2]: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْـمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾، وقال سبحانه[3]: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾.

وأمَّا (**المورد الثَّاني**): ـ حول التَّفريق بين المسلم والكافر ـ فقد قال تعالى عن غير المؤمنين[4]: ﴿**لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْـمُقْسِطِينَ**﴾، وقال سبحانه[5]: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِبُّ الْـمُعْتَدِينَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[6]: ﴿**فَمَا**

---

(١) يلاحظ: الكافي ج: ١، ص: ٦٩ (باب الأخذ بالسُّنَّة وشواهد الكتاب).

(٢) سورة النَّحل: ٩٠.

(٣) سورة الحديد: ٢٥.

(٤) سورة الممتحنة: ٨.

(٥) سورة البقرة: ١٩٠.

(٦) سورة التَّوبة: ٧.

اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَـهُمْ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْـمُتَّقِينَ﴾.

وأمَّا (**المورد الثَّالث**): ـ حول التَّفريق بين الذَّكر والأنثى ـ فقد أكَّدت الآيات الشَّريفة أنَّ التَّفريق بينهما في بعض الأحكام لم يكن للنَّظر إلى الأنثى بدونيَّةٍ واستصغارٍ، وإنَّما كان وفق مقتضيات تنظيم الحياة والنَّظر إلى الاختلاف الـخَلقيّ والـخُلقيّ بين الاثنين، كما قال سبحانه في آية القوامة:[1] ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّـهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾، وقد نهى القرآن الكريم عن ظلم النِّساء في مناسباتٍ عديدة، وأمر بمعاشرتهنَّ بالمعروف.

وأمَّا (**المورد الرَّابع**): ـ من الأحكام الجزائيَّة ـ فقد ابتنى الدِّين على إنصاف المجنى عليه ورادعيَّة الجزاء، كما قال تعالى[2]: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾، وقال سبحانه[3]: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّـهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾.

فهذا هو التَّأصيل العامّ والأصل الكلِّيّ وفق المنظور الدِّينيِّ والقرآنيِّ، وما عداه تطبيقات لهذا الأصل وفق مقتضيات المورد.

مدى مخالفة ما جاء في الدِّين مع العلم في المعلومات التَّاريخيَّة والعلميَّة

(**النُّقطة السَّادسة**): حول مدى موافقة المعلومات الَّتي يشتمل عليها الدِّين للعلم الحديث.

فقد يُطرح عدم انسجام جملة ممَّا جاء في الدِّين مع المعلومات المتجدِّدة في العلوم

---

(١) سورة النِّساء: ٣٤.

(٢) سورة البقرة: ١٧٩.

(٣) سورة الشّورى: ٤٠.

الحديثة.

وتلك المعلومات على ضربين: تاريخيَّة، وعلميَّة.

أمَّا المعلومات التَّاريخيَّة: فالمراد بها ما ورد في الكتب الدِّينيَّة من تاريخ الإنسان والحوادث المهمَّة من قبيل نشأة الإنسان من خلال الخلق، ووقوع الطَّوفان الشَّامل في عهد نوحٍ ﷺ، وغرق فرعون مصر في زمان موسى ﷺ، ومجيئ إبراهيم وإسماعيل ﷺ إلى مكَّة المكرّمة، وغير ذلك من الأمور الَّتي قيل إنَّه لا شاهد عليها في التَّاريخ الإنسانيّ.

والجواب عن ذلك فيما يتعلَّق بنظريَّة الخلق ما بيّنّاه في البحث عن التَّطوُّر الأحيائيِّ من أنَّ فكرة نشأة الإنسان ـ بخصوصه ـ عن التَّطوُّر ليست حقيقة علميَّة ثابتة، وإنَّما هي نظريَّة أحيائيَّة فحسب، ولا سبيل إلى البتِّ الجازم بها كي ينفي ما جاء في الدِّين، ومن أهل الدِّين مَن أوَّل النُّصوص الدِّينيَّة ولم يرَ مانعاً من القبول بهذه النَّظريَّة، ولكنَّه لم يأتِ بوجهٍ موثوق.

وأمَّا سائر الموارد المذكورة: فالواقع أنَّ معلومات الإنسان عن العصور السَّابقة ليست معلومات متكاملة، بل هناك نواقص كثيرة فيها، ومن ثَمَّ لا يمكن أن نعتبر عدم رصد بعض الحوادث والوقائع في التَّاريخ الميسَّر دليلاً على نفي وقوعها.

وأمَّا المعلومات العلميَّة: فالمراد بها مخالفة المعلومات الَّتي تتخلَّل النُّصوص في مواضيع اكتشفها العلم الحديث، من قبيل ما يدلُّ على أنَّ (القلب) هو مركز التَّفكير، وماء الرَّجل هو مبدأ خلق الإنسان بلا دخل للمرأة إلَّا بمقدار احتضان نطفة الرَّجل وتنميتها، وغير ذلك.

وقد سبق الحديث عن هذا الموضوع بنحوٍ عامٍّ وذكرنا أنَّه لم يثبت مخالفة النُّصوص القرآنيَّة للعلم في شيءٍ من الموارد، كما تطرَّقنا لبعض الأمثلة بمناسبات مختلفة.

مدى أهليَّة الرُّسل لتسنُّم هذا الموقع

(النُّقطة السَّابعة): حول مدى أهليَّة الرَّجال المبعوثين لأداء الرِّسالة.

فقد يُطرح التَّشكيك في أهليَّة هؤلاء الرِّجال لهذه المهمَّة بالنَّظر إلى ما ورد عنهم في الكتب الدِّينيَّة نفسها، وبذلك تسقط الثِّقة بقولهم.

وقد أُثيرت حول نبيِّ الإسلام ﷺ أسئلة عدَّة من قبيل تعدُّد أزواجه، وقضيَّة زواجه بزينب بعد طلاق زيدٍ لها وغير ذلك.

والجواب عن هذا السُّؤال: أنَّ الكتب الدِّينيَّة ـ كالقرآن الكريم ـ تحكي سيرة الأنبياء بشكلٍ تاريخيٍّ موثوق ـ كما أوضحناه في ذكر أدوات إقناع الأقوام بصدق الرِّسالة وفق المنظور الدِّينيِّ ـ، وهذه السِّيرة تدلُّ على اتِّصافهم بالطِّيبة، والصِّدق، والصَّفاء، والاسترسال، وسائر الصَّفات الَّتي توجب الثِّقة بهم، ولا تمثِّل أيَّ شيءٍ يوجب سلب الثِّقة بالأنبياء، ويحكي عن وجود مآرب شخصيَّة لهم في ادِّعاء الرِّسالة.

وإذا لاحظنا حال نبيِّ الإسلام ﷺ فإنَّنا نجد أنَّ سيرته ﷺ بين النَّاس كانت سيرة مرضيَّة، ولم يُطعن فيه ﷺ من قبل المجتمع الَّذي بُعث إليه بأيِّ مأربٍ شخصيٍّ له في دعوى الرِّسالة، وكان النَّبيّ ﷺ يسعى إلى العمل على وجهٍ يكون ممثِّلاً لقيم الرِّسالة ويصلح أسوةً للمؤمنين بها ويتجنَّب ما يوجب سوء الظَّنِّ به.

وأمَّا قضيَّة تعدُّد أزواجه ﷺ: فقد عُلم أنَّ الباعث على زواجه ﷺ من أكثرهنَّ كان لغاية اجتماعيَّة، وهي تأليف النُّفوس والقلوب بالمصاهرة ـ كما كان ذلك متعارفاً في المجتمع العربيِّ ـ وليس لمأربٍ شخصيٍّ، كما يبيِّن ذلك ملاحظة خصائص نسائه ﷺ، ومن ثَمَّ لا نجد أنَّ أحداً من خصومه المشركين من أهل الكتاب والمنافقين أثار من هذه الجهة شبهةً في حقِّه ﷺ.

وأمَّا قضيَّة زواجه ﷺ من زينب ـ والَّتي جاءت في القرآن الكريم ـ فقد أُثير الشَّكُّ فيها بدعوى أنَّه ﷺ رغب في زينب عندما رآها وهي بعد على ذمَّة (زيد)، ولكنَّ الله سبحانه أبدى ذلك بقوله(١): ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّـهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّـهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**﴾.

وهذا خطأ، بل هذه القضيَّة عند التَّأمُّل فيها تؤكِّد استقامته ومتانته، وابتعاده عن مواضع الشُّبهة وسوء الظَّنِّ؛ لأنَّ ما كان النَّبيُّ ﷺ قد أخفاه في نفسه ليس إلَّا ما أُمر به ﷺ من أنَّه يجب عليه الزَّواج بزينب بعد طلاق (زيد) إيَّاها، ليكون ذلك تثبيتاً لإلغاء التَّبنِّي وأحكامه في المجتمع آنذاك، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ تحرَّج من إبداء ذلك للنَّاس لما يؤدِّي من سوء الظَّنِّ به ﷺ وتوهُّم أنَّه كان راغباً في زوجة ابنه بالتَّبنِّي، ثم امتثل ذلك خضوعاً لأمر السَّماء، ثُمَّ جاءت الآية تحكي هذه القصَّة، وتبدي ما كان قد تحرَّج عن إبدائه أوَّلاً من أمره من قبل الله سبحانه بالزَّواج من زينب: ﴿**لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْـمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ**﴾، وتنفي عنه الحرج في ذلك بعد أمر الله سبحانه بهذا الزَّواج، كما قال تعالى عقيب الآية(٢): ﴿**مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّـهُ لَهُ**﴾، وردَّ سبحانه على المجتمع الَّذي كان يذمُّ هذا التَّصرُّف بقوله(٣): ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـكِن رَّسُولَ اللَّـهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾.

ففي هذه الحادثة ما يدلُّ على طهارة نفس النَّبيِّ ﷺ ونصحه للنَّاس، وخضوعه لله تعالى، حتَّى فيما ثقل عليه، وهو يؤكِّد الوثوق به ﷺ.

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٧.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٨.

(٣) سورة الأحزاب: ٤٠.

اختلاف الأديان والرِّسالات الإلهيَّة

(النُّقطة الثَّامنة): حول اختلاف الأديان فيما بينها.

فقد يُطرح أنَّ الأديان والرِّسالات الإلهيَّة والمذاهب المتفرِّعة عليها مختلفة، ولا يستطيع الباحث عن الحقيقة الاطمئنان بشيءٍ منها.

والجواب: إنَّ الأديان على أقسام:

(الأوَّل): أديان بشريَّة تنتهي إلى رجالٍ كانت لهم تجارب روحانيَّة، وسعوا إلى هداية الآخرين إليها، وقد يُعَدُّ منها دين (بوذا) المنتشر في الصِّين وما والاها.

وهذا القسم في نفسه غير مهمٍّ؛ إذ لا وثوق بأيَّة تجربةٍ بشريَّةٍ روحانيَّةٍ في الكشف عمَّا وراء الطَّبيعة.

(الثَّاني): أديان تعتقد بالإله وبشركاء معه من كائناتٍ أخرى.

وهذه الأديان أيضاً ليست ذات قيمة معرفيَّة؛ لأنَّ الاعتقاد بألوهيَّة كائنٍ غير الله سبحانه اعتقادٌ واهنٍ بوضوح.

(الثَّالث): أديان إلهيَّة تعتقد بالإله الواحد الأحد، وتحكي رسالة الله سبحانه إلى الإنسان، وتوجب عليه تعاليم محدَّدة، وتعد بعود الإنسان إلى الحياة ليُجازى بأعماله.

وهذا القسم هو المهمُّ من جهة قوَّة دلائله وأهمِّيَّة مضمونه بالنِّسبة إلى الإنسان، حيث يعد الإنسان بحياةٍ أخرى بحسب ما عمله في هذه الحياة من خيرٍ أو شرٍّ، ويتضمَّن محبَّة الله سبحانه للإنسان، واستجابته له فيما تسمح به مقادير هذه الحياة.

وينحصر هذا القسم فعلاً في الأديان الإبراهيميَّة الثَّلاثة: اليهوديَّة، والمسيحيَّة، والإسلام[1].

---

(١) أمَّا البهائيَّة: فهي دين نشأ أخيراً منذ قرن ونصف من قبل رجالٍ انتموا في الأصل إلى المذهب

كون الأديان الإبراهيميَّة في قوَّة دينٍ واحد

وهذه الأديان في الحقيقة هي في قوَّة دينٍ واحدٍ يعترف كلٌّ لاحقٍ من هذه الأديان الثَّلاثة بالسَّابق، وتشترك في تعاليمها العقائديَّة وكثيرٍ من أصول التَّعاليم التَّشريعيَّة، ولكن عمدة ما فرَّق بينها هو ما التصق ببعضها من الأخطاء.

فالمسيحيَّة تعترف باليهوديَّة ورسلها وكتابها التَّوراة، وتروي عن المسيح عليه السلام في الإنجيل التَّوصية بالعمل بالنَّاموس عدا تحليله لبعض ما كان قد حُرِّم عليهم عقوبةً، وإنَّما جاء المسيح عليه السلام ـ كما يتمثَّل في الإنجيل ـ لأجل تنمية الأخلاق الفاضلة بين بني إسرائيل من جهة السَّلبيَّات الَّتي انتشرت في أوساطهم، ولا سيَّما في أوساط أصحاب المناصب الدِّينيَّة والدُّنيويَّة منهم المتصدِّرين في هذا الدِّين. ولولا عدم استجابة هؤلاء اليهود للتَّصديق بالمسيح عليه السلام لكان المفروض أن لا تكون هناك ديانة يهوديَّة في مقابل الدِّين المسيحيِّ، كما لا توجد أديان أخرى[1] تذعن بالتَّوراة، وتنكر بعضاً من رسل بني إسرائيل

الإماميّ، وقد تدرَّجت في دعاويها حتَّى ادَّعت ديناً جديداً ناقضاً ختم النُّبوَّة بالنَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الَّذي صرَّح به القرآن الكريم والَّذي هو من ثوابت الإسلام البديهيَّة ـ، وتتَّسم دعاويها بالغلوِّ وفقدان الحجَّة، على أنَّ في ملاحظة ملابسات نشأتها الواضحة ما يدلُّ بجلاءٍ أنَّها عقيدة ملفَّقة.

علماً أنَّ مؤسِّسيها ممَّن درسوا العلوم الشَّرعيَّة، ومن ثَمَّ كان من الطَّبيعيِّ أن يستطيعوا من ترتيب اعتقادات وشرائع جديدة ببعض التَّحوير لشريعة الإسلام، وهذا بخلاف ما عُلم من أحوال الأنبياء السَّابقين ـ كنبيِّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ـ، حيث لم يكونوا من المتعلِّمين للعلوم الدِّينيَّة أو غيرها.

(١) هذا ما عدا الفرقة السَّامريَّة وهي مجموعة عرقيَّة تُنسب إلى بعض أسباط بني إسرائيل وتختلف عن اليهود، فإنَّها لا تعترف بغير موسى عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل، ولا تذعن من التَّوراة إلَّا بالكتب الموسويَّة الخمسة، وهي الَّتي كتبها موسى عليه السلام وهي التَّكوين، الخروج، اللَّاويين، العدد، وتثنية الاشتراع، وتختلف توراتها عن توراة اليهود في بعض الألفاظ والمعاني، وهي تعتبر توراتها هي الأصحّ، ويقول السَّامريُّون

الَّذين جاءوا بعد موسى ﷺ مثل داود وسليمان ﷺ، فالمسيح عيسى بن مريم ﷺ إنّما كان رسولاً من رسل بني إسرائيل ليس إلَّا، فلو آمن به اليهود لكان بنو إسرائيل كلُّهم مؤمنين بالمسيح ﷺ.

تعاليم طرأت على المسيحيَّة بعد المسيح ﷺ افترقت به عن الدِّين اليهوديّ

ولكن حدثت لاحقاً امتيازات أخرى في المسيحيَّة من نوعين:

(**النَّوع الأوَّل**): ما يتعلَّق بأصول الدِّين، ويتمثَّل في عدَّة مبادئ كما يلي:

١ ـ الغلوُّ في المسيح ورفعه من درجة الرَّسول المعلِّم والمؤدِّب إلى درجة الألوهيَّة. وقد ساعد على ذلك بعض الشَّيء ولادة المسيح من غير أبٍ، والتَّعبير عنه بأنَّه ابن الله تعالى ـ على سبيل المجاز ـ، وهو تعبيرٌ مجازيٌّ وقع في الإنجيل أحياناً في شأن غير المسيح ﷺ أيضاً، وكذلك صدور المعاجز منه من قبيل إحياء الموتى، ثُمَّ ردُّ الفعل على مظلوميَّة المسيح ﷺ؛ فإنَّ المظلوميَّة تستتبع الغلوّ في المظلوم.

وقد أدَّى هذا الأمر إلى ترسيخ الفاصل بين جمهور بني إسرائيل وبين المسيح ﷺ؛ إذ لم يكن بالإمكان في إطار تعاليم الأنبياء السَّابقين بحسب التَّاريخ الدِّينيِّ المذكور في التَّوراة من أوَّل خلق آدم إلى نوحٍ، ثُمَّ إبراهيم، ثُمَّ إسرائيل، ثُمَّ أنبياء بني إسرائيل أن يتبوَّأ أيُّ نبيٍّ مقام الألوهيَّة، فالدِّين الإلهيِّ من أوَّل الخليقة حتَّى مجيئ المسيح كان ديناً توحيديَّاً، وكان

إنَّهم من نسل إسرائيل القديم، وهم سكّان مملكة الشَّمال وعاصمتها السَّامرة، وإنَّ أصل تقاليدهم الدِّينيَّة يرجع إلى يوشع، ويُقدَّر عدد أفرادها بـ(٧٥٠) شخص تقريباً موزَّعون بين مدينة نابلس ومنطقة حولون بالقرب من تل أبيب ويتوجَّهون في صلاتهم إلى جبل جرزيم بينما تتوجّه اليهود إلى جبل صهيون، وهم يعتقدون بالمعاد. وقد ظهر الخلاف بين الفريقين بعد العودة من السَّبي البابليّ وتمسَّك كلُّ فريقٍ بتوراته على أنَّها هي الصَّحيحة وغير المحرَّفة.

الأنبياء رسلاً صالحين من الله سبحانه إلى الخلق[١]، فلا يُعقل في هذا السِّياق ألوهيَّة المسيح ﷺ من بين الأنبياء المرسلين، والمفروض أنَّ المسيح كان يذعن بالأنبياء السَّابقين وبالتَّوراة، ويبني رسالته على أساسها، فكيف يُعقل أن يخرج عن أصول تعاليمها.

٢ ـ الغلوّ في روح القدس واعتباره إلهاً مع الله سبحانه ومع المسيح ﷺ، وهذا أيضاً خطأ في منظور الأديان الإبراهيميَّة قبل المسيحيَّة وبعدها، فروح القدس كائنٌ روحانيٌّ وسيط بين الله سبحانه وبين بعض أنبيائه، وقد تُناط به مهمَّة تسديد الأنبياء والأولياء والمؤمنين، وليس هناك معنى من جعله إلهاً مع الله سبحانه.

٣ ـ الغلوّ في شأن الإيمان بالمسيح ﷺ، ذلك أنَّه لا شكَّ في أنَّ الإيمان بالرَّسول الجديد شرط في اكتمال الإيمان؛ إذ لا يُقبل في الدِّين الإلهيِّ التَّفريق بين الرُّسل بالإيمان ببعضٍ والكفر ببعضٍ آخر جحوداً، ولكنَّ المسيحيَّة لم تكتفِ بهذا المقدار، وزعمت أنَّ المرء لا يمكن أن يدخل السَّماء بفعل الأعمال الحسنة، وإنَّما يحتاج إلى الإيمان بالمسيح، وأنَّه مات من أجل خطاياه، وكان موته على الصَّليب هو الطَّريقة الوحيدة لغفران الخطايا.

وعليه: استقرَّت العقيدة المسيحيَّة:

(**أوَّلاً**): على أنَّه لا نجاة في الحياة الأخرى بغير الإيمان بالمسيح، فمَن لم يؤمن به فإنَّه لا ينجو في الحياة الأخرى.

و(**ثانياً**): على أنَّ الإيمان بالمسيح يوجب النَّجاة لا محالة حتَّى إذا أهمل المرء العمل

---

(١) **نعم**، يبدو من القرآن الكريم أنَّ اليهود المخاطبين به (في المدينة) أو بعضهم كانوا يعتبرون (عزيراً ابن الله)، قال سبحانه: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّـهِ**﴾ (سورة التَّوبة:٣٠)، ولكن عامَّة اليهود لا يقولون بذلك، بل لا دليل غير الآية الكريمة على قول اليهود بذلك، إلَّا أنَّ الآية نفسها دليلٌ تاريخيٌّ؛ لأنَّها نصٌّ يخاطب اليهود والنَّصارى في حينه، فلو لم يكن هناك مَن يقول بذلك لم يُعقَل إلقاء هذا النَّصُّ إلى يهود المدينة.

بالتَّعاليم الشَّرعيَّة، وارتكب المنكرات والفواحش، وقد اعتبرت المسيحيَّة صَلْبَ المسيح ﷺ فداءً لأجل مغفرة ذنوب النَّاس الَّذين يؤمنون به.

وهذا المبدأ الاعتقاديّ خطأٌ خطير في الدِّين، فالنَّجاة في الدِّين تعتمد على دعامتين: إيمان، وعمل. وبذلك يتميَّز النَّاس في مراتب الفضيلة والصَّلاح.

ولعلَّ أصل هذه الفكرة الخاطئة أقوال للمسيح ﷺ دلَّت على أنَّه ضحَّى[1] في سبيل هداية بني إسرائيل، وتضمَّنت أنَّه يشفع لَمن آمن به عند الله تعالى، وهي شفاعة يكرم بها الله سبحانه الأنبياء في بعض أممهم من الَّذين آمنوا بهم ممَّن تسعهم قواعد المغفرة الإلهيَّة، وقد جاء مثلها في الإسلام، فمثل هذه المعاني يمكن أن تكون قد حُرِّفت إلى المعاني المذكورة الخاطئة؛ فإنَّ أغلب الحكايات الخاطئة ذات أصول سليمة، ولكن حدث الخطأ بتحويرها.

و(**النَّوع الآخر**): يتعلَّق بفروع الدِّين، وذلك من وجهين:

١ ـ إنَّ المسيح ﷺ قد جاء برفع بعض ما حُرِّم من قبل على بني إسرائيل عقاباً لهم، إلَّا أنَّه قد زِيد على ذلك في الدِّين المسيحيّ تشريعات أخرى تولَّدت من الخطأ في فهم التَّعاليم الأخلاقيَّة للمسيح ﷺ[2]، من جهة عدم الفرز بين التَّوجُّهات الأخلاقيَّة

---

(١) والمراد بـ(التَّضحية) ما لاقاه من المشاقّ في هذا السَّبيل، والَّذي انتهى إلى صلبه وفق الرِّواية المشهورة لدى المسيحيِّين، أو رفعه كما جاء في القرآن الكريم.

(٢) ولعلَّ من جملتها تحريم الطَّلاق الَّذي فُهم من تشديد المسيح ﷺ في شأنه، مع أنَّ المسيح ﷺ إنَّما أراد بذلك التَّشديد الأخلاقيّ فيه وليس حظره التَّشريعيّ من أصله، ليغيِّر ما جاء في التَّوراة بشأنه، فالحاجة إلى الطَّلاق سنَّة من سنن الحياة الَّتي لا غنى عنها.

وكذلك قد يُعَدُّ من هذا القبيل اختلاف التَّعامل مع الآخر المختلف في الدِّين في تعاليم المسيح عمَّا كان في تعاليم التَّوراة، فقد استُفيد من التَّوراة المقابلة مع العدوّ، بينما وجَّه المسيح ﷺ إلى إسداء المحبَّة إلى العدوّ والصَّديق. وهذا المعنى أيضاً لا يزيد على توصية أخلاقيَّة في تربية النُّفوس؛ إذ كانت الغاية من

والأحكام التَّشريعيَّة، فكانت هذه التَّشريعات فاصلاً بين الدِّين اليهوديِّ والدِّين المسيحيِّ.

٢ ـ إنَّه قد وقع التَّساهل في المسيحيَّة في شأن التَّعاليم الفقهيَّة العمليَّة في التَّوراة والَّتي لم يشتمل عليها الإنجيل، وقد وقع هذا رغم أنَّ المسيح ﷺ قد أوصى بالعمل بالتَّوراة بوضوح، ومن عوامل هذا التَّساهُل ما طرأ على الدِّين المسيحيِّ من الغلوّ في شأن الإيمان بالمسيح ﷺ، حيث اكتفى به عن العمل بالفروع إلى حدٍّ كبير.

وعليه: فليست المسيحيَّة ديناً مغايراً لليهوديَّة في شيء، بل هي امتداد لها، وإنَّما كان المسيح عيسى بن مريم ﷺ رسولاً من رسل بني إسرائيل ﷺ ولكن قصَّر في شأنه جماعةٌ، وغلا فيه آخرون.

اتِّحاد الإسلام مع الدِّين اليهوديّ والمسيحيّ مع تصحيح الأخطاء العقائديَّة فيهما

وأمَّا الإسلام: فهو أيضاً مقرٌّ بالدِّين اليهوديِّ والمسيحيِّ في سياق الدِّين الإلهيِّ منذ نشأة الخليقة إلى سائر الأنبياء ثُمَّ أنبياء بني إسرائيل، وقد جعل الإذعان بكلِّ هؤلاء الأنبياء من جملة أصول الدِّين، وقد جاء في القرآن الكريم ذكرٌ كثيرٌ لموسى وعيسى وسائر أنبياء بني إسرائيل ﷺ بشكلٍ ملفتٍ ينبِّه على أنَّه امتداد لهذين الدِّينين المتفرِّعين عن دين إبراهيم ﷺ الجدّ الأعلى للجميع.

وفي هذا السِّياق أكَّد الإسلام على وحدة الدِّين اليهوديِّ والمسيحيِّ وأوضح أنَّ عيسى ﷺ لم يكن إلَّا رسولاً من الرُّسل إلى بني إسرائيل قد جاءهم لتزكية نفوسهم.

كما تضمَّن الإسلام عن نفسه أنَّه استمرار في تعاليمه الاعتقاديَّة وأصول تعاليمه

رسالة المسيح أخلاقيَّة في داخل مجتمع بني إسرائيل الَّذي انتشرت فيه المحاذير الأخلاقيَّة. وأمَّا تعاليم التَّوراة فكانت في مقام إرساء كيانٍ لبني إسرائيل، والدِّفاع عنه في مقابل الأعداء، فلا تدلُّ توجيهات من هذا القبيل في خطاب المسيح ﷺ على اختلافٍ له مع جوهر تعاليم التَّوراة.

التَّشريعيَّة مع الدِّين اليهوديِّ والمسيحيِّ.

لكنَّه صحَّح نقاطاً خاطئة حدثت وسادت في هذين الدِّينين تتعلَّق بأصول الدِّين أو فروعه، كما غيَّر بعض التَّفاصيل في التَّشريعات الفقهيَّة المتعلِّقة بفروع الدِّين، وكان هذا التَّصحيح من جملة عوامل إرسال الله سبحانه لهذه الرِّسالة الجديدة، لكي يبيِّن التَّحريفات الواقعة في هذين الدِّينين، قال تعالى[(١)]: ﴿**إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾، وقال سبحانه[(٢)]: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّـهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّـهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ هُوَ الْـمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّـهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْـمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّـهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، وقال عزَّ من قائل[(٣)]: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّـهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾، وقال جلَّت آلاؤه[(٤)]: ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾.

---

(١) سورة النَّمل: ٧٦.

(٢) سورة المائدة: ١٥ ـ ١٧.

(٣) سورة البقرة: ٧٥.

(٤) سورة آل عمران: ٧٨.

الأخطاء العقائديَّة الطَّارئة في اليهوديَّة بحسب الإسلام

أمَّا التَّحريفات الَّتي وقعت في أصول الدِّين اليهوديِّ: فأبرزها تصوير الله سبحانه كإلهٍ قوميٍّ لبني إسرائيل، واختياره إيَّاهم دون سائر النَّاس(١).

وهذا الأمر يخالف ثوابت العقل والفطرة والحياة والعلم، فليس هناك تميُّز روحيّ ومعنويّ لبعض الأقوام بالنِّسبة إلى بعضٍ على ما هو مشهود بالمعايشة، بل المفروض أن يكون النَّاس سواسيةً لا فضيلة لأحدٍ على آخر إلَّا بالمعرفة والقيم الفاضلة.

وقد كان الإسلام على وضوح شديد في ذلك، فقد أصَّل تساوي الجميع بقوله تعالى(٢): ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾.

وأوضح القرآن الكريم الالتباس الحاصل في هذا الشَّأن الموجب لهذا الاعتقاد الخاطئ والعصبيَّة الذَّميمة، فالذَّي كان قد حصل في شأن بني إسرائيل إنَّما هو بعث أنبياء فيهم؛ بالنَّظر إلى مقتضيات استوجبت ذلك، كوجود رجال ربَّانيِّين مستنيرين فيهم، يستوعبون الرِّسالة الإلهيَّة، ويصبرون على أدائها في ظروف عصيبة، أو لرفع الظُّلم والحيف عنهم، إلى غير ذلك، فكان ذلك نحو تفضيلٍ لهم؛ من جهة هدايتهم من خلال

---

(١) في سفر التَّثنية، الأصحاح: ١٤، الفقرة: ٢، قال:(**لأَنَّكَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ، وَقَدِ اخْتَارَكَ الرَّبُّ لِكَيْ تَكُونَ لَهُ شَعْبًا خَاصًّا فَوْقَ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ**).

وفي سفر اللَّاويين، الأصحاح: ٢٠، الفقرة: ٢٤، ٢٦، قال: (**أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمُ الَّذِي مَيَّزَكُمْ مِنَ الشُّعُوبِ... وَتَكُونُونَ لِي قِدِّيسِينَ لأَنِّي قُدُّوسٌ أَنَا الرَّبُّ، وَقَدْ مَيَّزْتُكُمْ مِنَ الشُّعُوبِ لِتَكُونُوا لِي**).

وعن التَّلمود: (**كلّ اليهود مقدَّسون.. كلّ اليهود أمراء.. لم تُخلَق الدنيا إلّا لجماعة إسرائيل.. لا يُدْعى أحد أبناء الإله إلّا جماعة إسرائيل.. لا يحبّ الإله أحداً إلّا جماعة إسرائيل**).

(٢) سورة الحجرات: ١٣.

هؤلاء الأنبياء إلى الحقيقة والفضيلة، ولم يكن ذلك تفضيلاً قوميّاً لهم، بمعنى أنَّهم أحبَّاء الله سبحانه وأولياؤه من دون سائر النَّاس، وأنَّهم ناجون مهما عملوا وارتكبوا، بل صاروا بهذه النَّعمة أحوج إلى الإيمان والعمل الصَّالح من سائر النَّاس من جهة تمام الحجَّة عليهم، فلو كفروا بالله سبحانه وعصوا أوامره يكون حالهم أسوأ من الآخرين؛ من جهة كفرانهم بالنِّعمة الَّتي منَّ الله بها عليهم في إرسال الأنبياء إليهم ومنهم.

فهذا هو المعنى الأصليّ الَّذي حُرِّف إلى التَّفضيل القوميّ من قبل الله سبحانه لبني إسرائيل، وعنايته تعالى بهم دون باقي النَّاس، ويوافق هذا المعنى شواهد في التَّوراة نفسها[١].

قال سبحانه[٢]: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٣]: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّـهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ**﴾، وقال جلَّت آلاؤه[٤]: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْـحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**

---

(١) من ذلك ما جاء في التَّوراة مكرَّراً من ذمِّ بني إسرائيل، كما في سفر التَّثنية: الأصحاح: ٣٢، الفقرة: ٢٨، وصفهم بأنَّهم أمَّة عديمة الرَّأي، وفي سفر أشعياء، الأصحاح: ١، الفقرة: ٣، قال: (**اَلثَّوْرُ يَعْرِفُ قانيه وَالْحِمَارُ معلف صاحبه، أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يَعْرِفُ. شَعْبِي لاَ يَفْهَمُ**)، ومن ذلك ما جاء في التَّوراة من أنَّ المؤمن الغريب يعامَل معاملة المؤمن من بني إسرائيل.

(٢) سورة البقرة: ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) سورة البقرة: ٨٣.

(٤) سورة الجاثية: ١٦ ـ ١٧.

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وفي الردِّ على دعواهم الامتياز على النَّاس قال سبحانه[١]: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّـهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِـمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْـمَصِيرُ**﴾، وقال تعالى[٢]: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْـمُتَّقِينَ**﴾.

على أنَّ القرآن الكريم ردَّ ما اعتقده اليهود من انحصار الأنبياء ببني إسرائيل، كما قال تعالى[٣]: ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾، وقد ذُكر في القرآن الكريم أنبياء بُعثوا من قبل في الجزيرة العربيَّة ليسوا من بني إسرائيل ولم يرد ذكرهم في التَّوراة والإنجيل، مثل هود عليه السلام المبعوث إلى عاد، وصالح عليه السلام المبعوث إلى ثمود[٤].

الأخطاء العقائديَّة الطَّارئة في المسيحيَّة في منظور الإسلام

هذا عن الدِّين اليهوديِّ، وأمَّا الدِّينُ المسيحيُّ فهو أيضاً وقع في أخطاء وتحريفات في أصول الدِّين ـ على ما وصفناه من قبل ـ.

فمن الأخطاء الَّتي وقعت فيه الاعتقاد بتفضيل بني إسرائيل على سائر النَّاس، كما

---

(١) سورة المائدة: ١٨.

(٢) سورة آل عمران: ٧٥ ـ ٧٦.

(٣) سورة فاطر: ٢٤.

(٤) نعم، ربَّما يُقال: إنَّ هذين النَّبيِّين هما قبل فترة بني إسرائيل، ولم يُذكر نبيٌّ في القرآن من غير بني إسرائيل بعد نبوِّتهم عدا نبيِّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم.

تدلُّ عليه نصوصٌ من الإنجيل[١]، وهذا عين الخطأ الَّذي وقع فيه رجال الدِّين اليهوديِّ؛ ولكن تحرَّرت المسيحيَّة تدريجاً عن هذا الأمر، وبنت على أنَّ شعب الله قد تحوَّل مع المسيح إلى جميع البشر وكلِّ الأمم.

ومن جملة تلك الأخطاء الفادحة ـ كما ذكرنا ـ خطأ المسيحيَّة بالغلوِّ في شخص المسيح ﵇ ورفعه إلى درجة الألوهيَّة، وقد أبانه الإسلام بكلِّ وضوح، قال تعالى[٢]: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّـهِ إِلَّا الْـحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّـهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّـهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّـهُ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّـهِ وَكِيلًا * لَّن يَسْتَنكِفَ الْـمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّـهِ وَلَا الْـمَلَائِكَةُ الْـمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا**﴾، وقال سبحانه[٣]: ﴿**وَقَالَ الْـمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّـهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّـهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّـهُ عَلَيْهِ الْـجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ***

---

(١) كما جاء في إنجيل متى: (وَإِذَا امْرَأَةٌ كَنْعَانِيَّةٌ خَارِجَةٌ مِنْ تِلْكَ التُّخُومِ صَرَخَتْ إِلَيْهِ قَائِلَةً: ((ارْحَمْنِي، يَا سَيِّدُ، يَا ابْنَ دَاوُدَ! اِبْنَتِي مَجْنُونَةٌ جِدًّا))... فَأَجَابَ وَقَالَ: ((لَمْ أُرْسَلْ إِلَّا إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ))، فَأَتَتْ وَسَجَدَتْ لَهُ قَائِلَةً: ((يَا سَيِّدُ، أَعِنِّي!)) ، فَأَجَابَ وَقَالَ: ((لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ))، فَقَالَتْ: ((نَعَمْ، يَا سَيِّدُ! وَالْكِلاَبُ أَيْضًا تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا!))، حِينَئِذٍ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: ((يَا امْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ! لِيَكُنْ لَكِ كَمَا تُرِيدِينَ)). فَشُفِيَتِ ابْنَتُهَا مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ).

(٢) سورة النِّساء: ١٧١ ـ ١٧٢.

(٣) سورة المائدة: ٧٢ ـ ٧٥.

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّـهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَّا الْـمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، وقال تعالى[1]: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّـهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّـهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّـهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّـهِ وَالْـمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـهًا وَاحِدًا لَّا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّـهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللَّـهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَـهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّـهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾، وقال عزَّ من قائل[3]: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّـهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّـهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾.

ومن أخطاء المسيحيَّة أيضاً الغلوّ في روح القدس والاعتقاد بألوهيَّته مع الله سبحانه، وإنَّما روح القدس كائنٌ روحانيّ يُعَدُّ من جملة الملائكة ينزل على بعض الأنبياء من قبل الله تعالى ويسدِّد أهل الإيمان، كما قال تعالى[4]: ﴿**تَنَزَّلُ الْـمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ**

---

(١) سورة التَّوبة: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) سورة المائدة: ١١٦ ـ ١١٧.

(٣) سورة آل عمران: ٦٤.

(٤) سورة القدر: ٤.

رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، وقال سبحانه[١]: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْـمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا**﴾.

وقد نزل على عيسى بن مريم ﷺ، كما قال تعالى[٢]: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾، وقال سبحانه[٣]: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّـهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾، وقال عزَّ من قائل[٤]: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّـهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾.

وقد تمثَّل لمريم ﷺ، كما قال تعالى[٥]: ﴿**فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾.

وهو الَّذي نزل بالوحي على نبيِّ الإسلام ﷺ، كما قال تعالى[٦]: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾.

---

(١) سورة النَّبأ: ٣٨.

(٢) سورة البقرة: ٨٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٤) سورة المائدة: ١١٠.

(٥) سورة مريم: ١٧.

(٦) سورة الشُّعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤.

وقد سُئل الرَّسول ﷺ عن الرُّوح، فجاء قوله تعالى[(١)]: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾.

وقد يُطلَق الرُّوح على الجانب الرُّوحيِّ من الإنسان، كما قال تعالى في شأن خلق آدم عليه السلام[(٢)]: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾.

وقد يُطلَق على نفخةٍ تنزل منه تعالى على الخلق بالسَّكينة والتَّسديد، كما قال تعالى[(٣)]: ﴿**أُولَـئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَـئِكَ حِزْبُ اللَّـهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّـهِ هُمُ الْـمُفْلِحُونَ**﴾.

ومن أخطاء المسيحيَّة أيضاً كما ذكرنا الغلوّ في الإيمان بالمسيح عليه السلام والاستغناء من الخصال الفاضلة والعمل الصَّالح، وهو ما بيَّن خطأه الإسلام بكلِّ وضوح، كما قال تعالى[(٤)]: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّـهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّـهِ قِيلًا * لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّـهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾.

وبذلك نلاحظ ـ بكلِّ وضوح ـ أنَّ الإسلام يرى أنَّه استمرارٌ للدِّين اليهوديِّ والمسيحيِّ تماماً، ولا يختلف في أصوله عمَّا كانا عليه في الأصل، ولكن طرأ عليهما بمرور

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

(٢) سورة ص: ٧٢.

(٣) سورة المجادلة: ٢٢.

(٤) سورة النِّساء: ١٢٢ ـ ١٢٤.

الزَّمن أخطاء كبيرة في أصول الدِّين.

وحقَّاً إنَّ روايةَ الإسلام هذه روايةٌ تدعو إلى الوثوق والاعتماد؛ لأنَّ ما جاء به في تصحيح الاعتقادات الأساسيَّة في الدِّين اليهوديِّ والمسيحيِّ معانٍ راشدة، ومنيرة، وصائبة توافق العقل، وتطابق الفطرة، وتلائم الواقع الإنسانيِّ المشهود، وتنسجم مع صفات الله سبحانه في الدِّين.

هذا فيما يتعلَّق بأصول الدِّين.

نقاط الاشتراك والافتراق بين الإسلام وبين اليهوديَّة والمسيحيَّة

وأمَّا فروع الدِّين: فالإسلام أكَّد على أنَّ تعاليمه إلى حدٍّ كبير تتماثل مع تعاليم الدِّينين اليهوديِّ والمسيحيِّ.

بيان ذلك: أنَّ التَّشريعات في الدِّين على ثلاثة أقسام في المنظور الإسلاميِّ:

(أحدها): القضايا الفطريَّة الوجدانيَّة، مثل: قبح الكذب، والظُّلم، والرِّياء، والخيانة، والغدر، ونحوها. فالإسلام أكَّد على هذه القضايا، واعتبر ذلك جزءاً مشتركاً بين الأديان، فهي جزءٌ من الدِّين الإلهيِّ الجامع.

و**(ثانيها)**: الأعمال العباديَّة، مثل: الصَّلاة، والصَّوم، والحجّ. وهذه الأعمال مشتركة في أصولها بين هذه الأديان الثَّلاثة، فهي من الدِّين الإبراهيميِّ الجامع، ولكن تختلف كيفيَّتها بعض الشَّيء بطبيعة الحال.

وقد اهتمَّ الإسلام ببيان هذا الاشتراك، كما قال تعالى[1]: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا**..﴾، وقال سبحانه[2]: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**

---

(١) سورة الشُّورى: ١٣.

(٢) سورة البقرة: ١٨٣.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وجاء عن عيسى بن مريم ﷺ[(١)]: ﴿..**وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**﴾.

(الثَّالث): سائر الفروع الدِّينيَّة، ممَّا يتعلَّق بالتَّعاقدات الماليَّة، وقوانين الأحوال الشَّخصيَّة من النّكاح والطَّلاق والميراث، وحدود الأطعمة المحلَّلة والمحرَّمة والحجاب، وقوانين القصاص والدِّية.

وهناك اشتراك غير قليل بين الإسلام وبين اليهوديَّة والمسيحيَّة في هذا القسم، مع تغييرات اقتضاها الزَّمان والمكان وعموم الرِّسالة الإسلاميَّة للأمم كلِّها.

إذن، نلاحظ بما ذكرنا أنَّه لا تناقض بين الأديان الثَّلاثة بالنَّظر الجامع، والتَّأمُّل فيها من زاوية الإسلام.

فالمسيحيَّة تعترف بالدِّين اليهوديِّ، وبكتابه وهو التَّوراة، وتبني على استمرار تعاليمه عدا قليل ممَّا نُسخ في الإنجيل، وتزيد ادِّعاء تميُّز المسيح ﷺ بين الأنبياء المرسلين بالألوهيَّة.

والإسلام يعترف بكلٍّ من اليهوديَّة والمسيحيَّة ويصحِّح بعض العقائد الخاطئة فيها، فينفي امتياز اليهود على سائر النَّاس، كما ينفي ألوهيَّة المسيح ﷺ وروح القدس، ويشاركهما في أصول التَّعاليم الإلهيَّة، مثل: الصَّلاة، والزَّكاة، والصِّيام، والحثِّ على أعمال البرِّ والخير، والتَّرغيب عن أعمال الشَّرِّ كالظُّلم والفحشاء، فهو بذلك مهيمنٌ عليهما، كما قال تعالى[(٢)]: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ..**﴾.

---

(١) سورة مريم: ٣١.

(٢) سورة المائدة: ٤٨.

وعليه: فإنَّه لا منافاة بين ما جاءت به هذه الرِّسالات حقَّاً.

وعليه: يستطيع الباحث أن يتحقَّق من دين الإسلام الَّذي هو وارث الأديان الإلهيَّة التَّوحيديَّة وخاتمها، وقد وصلت المعلومات التَّاريخيَّة عنه بشكل أوثق ممَّا قبله؛ من جهة حفظ كتابه الكريم، وانتشار الكتابة من حينه، والحركة الواسعة الَّتي تحقَّقت في أثره في التَّدوين والتَّأليف، بل لولا إذعانه بالرِّسالات السَّابقة لأمكن تسرُّب الشَّكّ إليها، ولكن الإذعان بها، وتقويم تراثها أدَّى إلى الوثوق بها.

هذا كلُّه عن اختلاف الأديان.

اختلاف المذاهب في دين الإسلام

وأمَّا عن اختلاف المذاهب في الإسلام: فإنَّ هذا الاختلاف عموماً لا يمسُّ أصول العقيدة والتَّعليمات الدِّينيَّة؛ بالنَّظر إلى حفظ القرآن الكريم الممثِّل: لأصول الدِّين، والتَّعليمات الدِّينيَّة، والآثار المتواترة المتَّفق عليها في التُّراث والتَّاريخ الإسلاميِّ.

إلَّا مسألة واحدة مهمَّة، وهي مسألة موقع أهل البيت ﷺ في الإسلام، الَّذي هو محلُّ خلاف بين أهل السُّنَّة بالمعنى العامّ[1] والشَّيعة.

فهذا الخلاف لو كان خلافاً سياسيَّاً محضاً في وجود نصٍّ نبويٍّ على تعيين قائدٍ سياسيٍّ بدلاً عن آخر كان شأنه شأن سائر الاختلافات في داخل الإسلام.

ولكنَّه في حقيقته خلاف في اصطفاء أهل البيت ﷺ، فأهل السُّنَّة يبنون على أنَّ المصطفى من أمَّة الإسلام إنَّما هو رسول الإسلام ﷺ فحسب، وليس هناك سلالة مصطفاة في عترته في هذه الأمَّة، كما كانت في بعض الأمم السَّابقة، على ما جاء في القرآن

---

(١) نعني بـ(المعنى العامّ) كلَّ مَن لا يرى الاصطفاء الإلهيِّ لأهل البيت ﷺ، فيشمل ـ مضافاً إلى أهل الحديث ـ المعتزلة، وفريق من الزَّيديَّة، والخوارج.

الكريم، مثل (آل إبراهيم) و(آل عمران).

ولكن الشَّيعة يرون أنَّ (آل محمَّد) قد اصطفوا من هذه الأمَّة مع (محمَّد) ﷺ، إلَّا أنَّ الأمَّة همَّشتهم بتنافسٍ من قوم، وتقاعسٍ من آخرين، فاستُضعفوا في أثر ذلك، وهو أمر وقع مثله في تاريخ الأنبياء في الأمم السَّابقة كبني إسرائيل، حتَّى قُتل عدد من أنبياء بني إسرائيل في أثر اختلاف بطونهم في القبول بمَن يكون نبيَّاً أو وصيَّاً بعد مَن مضى.

وممَّا يلفت النَّظر في الموضوع ـ حسب تأمُّلي فيه ـ وجود دلالة إجماليَّة وافية ومقبولة في القرآن الكريم على اصطفاء أهل البيت عليهم السلام من خلال آية التَّطهير، وهو قوله تعالى[1]: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّـهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾، مضافاً إلى بعض الآيات الأخرى الَّتي ترتبط بذلك، من خلال ملاحظة شأن نزولها.

كما أنَّ هناك شواهد مقنعة عليه من خلال التَّاريخ والتُّراث الإسلاميّ العامّ المنقول عن النَّبيّ ﷺ ـ الَّذي هو محلُّ إقرار جمهور المسلمين ـ كحديث الثَّقلين الَّذي يجعل أهل البيت عليهم السلام قرين القرآن الكريم في الصِّيانة عن الضَّلالة، وقَرَنَهم بسائر المصطفين، مثل جعل الإمام عليّ عليه السلام بمثابة هارون من موسى عدا أنَّه لا نبي بعده ﷺ، وفضَّلهم على سائر الأمة، كما جاء أنَّ الزَّهراء عليها السلام أحدى أفضل النِّساء على الإطلاق مع مريم وخديجة وآسية، وأنَّ الحسنين عليهما السلام سيدا شباب أهل الجنَّة، وغير ذلك.

وكذلك ما جاء عن الإمام عليّ عليه السلام ممَّا تمثَّل في نهج البلاغة؛ حيث كرَّر في خطبه المعلنة من على منبر الخلافة امتياز آل محمد ﷺ بين هذه الأمة بالعلم والفهم والوصية، كما وصف نفسه بأوصاف مميَّزة لا يتَّصف بها إلَّا المصطفين، ومثل ذلك ما روي عن سائر أئمة

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

آل البيت ﷺ، وقد أوضحنا ذلك في بحث حول اصطفاء أهل البيت ﷺ في الإسلام[1].

وأيّاً كان، فإنَّ هذا الأمر وإن لم يكن من أصول الدِّين باتِّفاق المسلمين ـ بمعنى أنَّ مَن لم يقف عليه لم يخرج عن الإسلام، وأنَّ مَن لم يعرفه عن قصورٍ لم يكن مؤاخَذاً عليه في الدِّين ـ، ولكنَّه أمرٌ خطيرٌ ومهمٌّ في الدِّين بطبيعة الحال.

ولا أظنُّ أنَّ أحداً من علماء المسلمين يشكُّ في أنَّ من المهمِّ للمسلم أن يكون على بصيرةٍ تجاه هذا الأمر، وأن يؤمن بهذا الاصطفاء إن كان محقَّقاً فعلاً.

لكن رغم ذلك فإنَّ هذا الاختلاف لا يعيق تشخيص حقَّانيَّة أصل الإسلام، وأهمِّيَّة الوقوف عليه للمتبصِّر في أمر الدِّين.

كما أنَّه لا يقتضي الصِّراع والتَّخاصُم بين الفريقين، بل ينبغي الحفاظ على التَّعايُش السِّلميِّ ومقتضياته بين المسلمين، كما هو الحال مع سائر أتباع الأديان والعقائد المختلفة، وتحميل كلِّ امرئٍ مسؤوليَّة اعتقاده في هذه الحياة، فإنَّ ذلك أدعى لانكشاف الحقيقة وانتشار الحقِّ، وهو الموافق مع سيرة الأئمَّة من آل البيت ﷺ.

لماذا لم يرسل الله سبحانه رسولاً إلى كلِّ أمَّة

(النُّقطة التَّاسعة): حول قلَّة الرُّسل إلى الخلق، وعدم استيعابها للمجتمعات البشريَّة زماناً ومكاناً.

---

(١) وسيأتي إلحاق بحث الرِّسالة هذا ببحث حرَّرته حول اصطفاء أهل البيت ﷺ، وذلك ليُعلم أنَّني لم أذكر ما ذكرته هنا عن عصبيَّةٍ وتهجُّمٍ، ولكن ذلك ما تحقَّقتُ منه لنفسي في أمر ديني، وقد اشتملت الرِّسالة على الأمرين اللَّذين أشرنا إليهما هنا:

أحدهما: حول أهمِّيَّة أمر اصطفاء أهل البيت ﷺ في الدِّين.

والآخر: قيام مؤشِّرات قرآنيَّة وروائيَّة وتاريخيَّة قويَّة في التُّراث والتَّاريخ الإسلاميِّ لدى سائر المسلمين على اصطفاء أهل البيت ﷺ في الإسلام، فراجع.

فقد يُطرح أنَّه إذا كان الله سبحانه معنيَّاً بعباده وقد أرسل إليهم رسلاً، فالمفروض أن تكون هذه حالةً عامَّةً في النَّاس في جميع الأزمنة والأمكنة، بأن يكون قد بعث رسولاً منه إلى جميع الأقوام على وجه البسيطة، وكلّما تشوَّهت واضمحلَّت معالم الدِّين واحتيج إلى رسولٍ جديدٍ أرسل إليهم رسولاً جديداً فعلاً.

وهذا أمر لا نشهده فعلاً، فليس هناك في التَّاريخ ما يدلُّ على رسلٍ مبعوثين إلى أغلب المجتمعات البشريَّة في القارَّات الخمس، وإنَّما الَّذي ورد في كتب الأديان الإبراهيميَّة بعثُ الرُّسل في بلاد: الشَّام، والعراق، واليمن، والجزيرة العربيَّة[١].

والجواب عن هذا السُّؤال بملاحظة أمرين:

(أحدهما): إنَّنا قد نحتمل أن يكون هناك رسلاً مبعوثين إلى كثيرٍ من الأقوام[٢]، إلَّا أنَّه قد انقرضت آثارهم تدريجاً، إذ لم يكن القرآن الكريم بصدد ذكر جميع الأنبياء، كما قال تعالى[٣]: ﴿**وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ**﴾، ولعلَّ بعض الرِّجال البارزين عند الأمم

---

(١) جاء في الإنجيل أنَّ المسيح ﷺ اختار من تلاميذه اثني عشر ليكونوا رسلاً لتبليغ الدِّين إلى عامَّة النَّاس، وقد تفرَّقوا في البلاد بعد غيابه، وقد قيل إنَّهم بلَّغوا في شمال أفريقيا، وإسبانيا، وجزر بريطانيا، وسوريا، وفلسطين، وبلاد ما بين النَّهرين (العراق)، وبلاد فارس، وأفسس (تركيا)، وآسيا الصُّغرى، وبلاد الهند، وأرمينيا، وصور، وصيدا، والحبشة، وبلاد الأكراد، وغيرها.

(٢) كما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْـحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ (سورة فاطر:٢٤)، وقوله سبحانه: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ**﴾ (سورة يونس:٤٧)، وقوله عزَّ من قائل: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا**﴾ (سورة النَّحل:٣٦)، وجاء في بعض الآثار النُّبويَّة أنَّ عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً، والرُّسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر، إلَّا أنَّ الأحاديث الواردة في ذلك كلَّها ضعيفة عند علماء الحديث.

(٣) سورة النِّساء: ١٦٤.

كـ(بوذا، وكونيفوش، وزردشت) كانوا في الأصل رُسلاً تشوَّهت معالم دينهم بمرور الزَّمان، حتَّى اختلف الانطباع عنهم، كما أنَّ من الجائز أن تكون آثار الدِّين والعبادة ـ وهي موجودةٌ عند مختلف الأقوام تقريباً ـ ناشئةً عن رسولٍ أُرسل إلى هؤلاء الأقوام، ولا يضرُّ اتِّخاذِها آلهةً أخرى؛ لأنَّ السَّعي إلى إيجاد إلهٍ محسوس نزعةٌ قديمةٌ لدى المجتمعات البشريَّة، وذلك يؤدِّي إلى الشِّرك، وقد لاحظنا كيف أنَّ المسيحيَّة آل أمرها إلى الشِّرك رغم كون المبعوث فيها رسولاً من عند الله سبحانه، وإقرار المسيح عليه السلام بالأنبياء السَّابقين، وجاء في القرآن الكريم أنَّ قوم موسى عليه السلام طلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً مادِّيّاً كي يعبدوه، كما جاء في القرآن الكريم[1]: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

و(**الآخر**): إنَّنا لا نستطيع أن ننفي بشكل باتٍّ ـ من جهة عدم تحقُّق ما نتوقَّعه من إرسال رسولٍ إلى كلِّ المجتمعات البشريَّة في الأزمنة المختلفة ـ إرسال الله سبحانه الرُّسل للَّذين قامت على إرساله إيَّاهم حجج مقنعة كنبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله. ولعلَّ هناك اعتباراتٌ حكيمةٌ أوجبت ذلك في المنظور الإلهيِّ.

ومن الجائز أن يكون مقدار ما اهتمَّ به سبحانه أن لا تخلو الأرض من قائم لله سبحانه بحجَّة؛ ليكون هناك خيط من الارتباط قائم بين الأرض والسَّماء، كما يبدو من جملةٍ من الأقوال المرويَّة عن الأئمَّة من آل البيت عليهم السلام كما رُوي عن الإمام عليّ عليه السلام[2]: ((اللَّهُمَّ بَلَى، لاَ تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لله بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، وإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً،

(١) سورة الأعراف: ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٢) نهج البلاغة ص: ٤٩٧، القول: ١٤٧.

لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وَبَيِّنَاتُهُ)).

الحاجة في هذا العصر إلى رسالةٍ جديدة

(النُّقطة العاشرة): في الحاجة في هذا العصر إلى رسالةٍ جديدةٍ.

فقد يُطرح أنَّ الرِّسالات السَّابقة لا تفي بتوضيح معالم الدِّين واتِّجاهاته في شؤون الحياة في هذا العصر، بل هناك حاجةٌ إلى رسالةٍ جديدةٍ من الله سبحانه إلى النَّاس؛ من جهة المتغيِّرات الكبيرة الطَّارئة على الحياة الإنسانيَّة، بالمقارنة مع العصور السَّابقة الَّتي كانت تترى فيها الرُّسل من قبل الله تعالى، فلماذا لا يبعث الله سبحانه رسولاً إلى الخلق في هذا العصر، وخَتَمَ الرِّسالة بنبيِّ الإسلام ﷺ كما جاء في القرآن الكريم؟

والجواب: إنَّه ينبغي ملاحظة أمرين:

١ ـ إنَّ هذه النُّقطة مهما عُدَّت مبهمة، إلَّا أنَّها لا تبلغ حدَّاً نستطيع أن نتحدَّى من خلالها صدق الرِّسالات السَّابقة وحقَّانيَّتها، فمن الجائز أن تكون هناك اعتباراتٌ ملحوظة ـ بحسب المنظور الإلهيِّ ـ لبعث الرُّسل وتوقيته قد اقتضت ختم الرِّسالة، ولعلَّ منها محفوظيَّة القرآن الكريم ـ الَّذي هو آخر رسالة إلهيَّة إلى العباد ـ بشكلٍ واضح.

ذلك أنَّ محفوظيَّة القرآن الكريم ـ دون أيِّ تحريفٍ وتغييرٍ وزيادةٍ ونقصانٍ ـ أمرٌ في غاية الأهمِّيَّة؛ لأنَّه نصُّ رسالة الله سبحانه إلى العباد، فيمثِّل منظور السَّماء في شأن الكون والإنسان تمثيلاً صادقاً مصوناً من تدخُّل النَّقلة وانطباعات الرّواة، ومن جملة وجوه أهمِّيَّته:

أ ـ تثبيته للعقائد الصَّحيحة بشكلٍ نهائيٍّ، من توحيد الله سبحانه، ونفي الشُّركاء عنه، وإبطال الغلوِّ في الأنبياء، وإثبات الحياة الأخرى للإنسان، والتَّسوية بين النَّاس في المنظور الإلهيِّ، وتعميم الرِّسالة لجميع الأقوام.

فهذه أصول الحقائق الَّتي جاء الدِّين لتنبيه الإنسان عليها وإقناعه بها، وكانت هذه

الحقائق تُشوَّه في الرِّسالات السَّابقة كلّما مضى زمن عليها، من جهة عدم مصونيَّة الكتب عن الزِّيادة والنَّقيصة، والنَّقل بالمعنى، وتسرُّب الشِّرك والغلوّ وإغفال الحياة الآخرة إلى نصوصها، حتَّى لا يبقى مجالٌ للوثوق بها.

ب ـ تثبيته لمنطق الفكر الدِّينيِّ في إقناع النَّاس من التَّعويل على: التَّعقُّل، والتَّأمُّل، والتَّفكير، والاعتماد على تزكية النَّفس عن الأهواء والانفعالات المؤثِّرة على تشخيص الواقع.

جـ ـ تأصيل المنهج الصَّحيح في التَّشريع من مراعاة العدل والإحسان، وتجنُّب الظُّلم والفحشاء والمنكر.

ولا شكَّ أنَّ حفظ هذه الأصول بشكلٍ يقينيٍّ وبيِّنٍ من خلال الثُّبوت الواضح والبديهيّ للقرآن الكريم يحدُّ من الحاجة إلى إرسال رسولٍ جديد؛ لأنَّ هذه الأصول هي بطبيعتها عابرة للأزمنة والأمكنة والأقوام.

وعليه: لا يسعنا استنتاج نتيجة محدَّدة من خلال هذا السُّؤال في شأن صدق الرِّسالات الإلهيَّة السَّابقة.

٢ ـ إنَّنا نعيش فعلاً في وسط هذا المشهد، ولعلَّ الله سبحانه يهيِّئ عبداً صالحاً مسدَّداً وهو ـ في الإسلام ـ المهديُّ ﷺ الَّذي يرجو ظهوره المسلمون عموماً؛ لما ورد من البشارة به في الآثار الإسلاميَّة، بل هو ـ وفق مذهب الشِّيعة الإماميَّة ـ موجودٌ فعلاً، ولسوف يظهر عند تقدير الله تعالى المصلحة في ظهوره.

وقد يُقرَّر الحديث عن الحاجة إلى نبيٍّ آخر بتقريرٍ آخر مبني على أنَّ القانون الحكيم أمرٌ متغيِّرٌ ـ لا محالة ـ باختلاف الزَّمان والمكان.

وهذه حالة مشهودة على الإجمال، ومن ثَمَّ نرى أنَّ القوانين الوضعيَّة الَّتي يجعلها

الإنسان تتفاوت بتفاوت الأمكنة والأزمنة، ومن ثَمَّ اشتهر في العصر الحاضر تقسيم القوانين إلى: ثابتة ـ تُسمَّى بـ(الدّستور) ـ، وقابلة للتَّغيير، وهو سائر التَّشريعات المجعولة من قبل السُّلطة التَّشريعيَّة، على أنَّنا نجد أنَّ الدَّساتير تتضمَّن آليَّة لتغييرها؛ لأنَّ ثباتها لا يمكن أن يكون ثباتاً مطلقاً، بل هو ثباتٌ نسبيٌّ ومحدود، ولذلك تجد أنَّ بعض الدُّول ـ مثل بريطانيا ـ ليس لديها دستور ثابت أصلاً.

وعلى هذا الأصل يبتني اختلاف الأديان فيما تتضمَّنه من التَّشريع، كما قال تعالى[1]: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾**.

والسِّرُّ في تغيُّر القانون أنَّ القانون ينظِّم المصالح العامَّة للنَّاس، وهذه المصالح تختلف باختلاف البيئة الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة والحضاريَّة.

وبناءً على ذلك يُذكر أنَّ دين الإسلام وإن كان مشروعاً إصلاحيَّاً سعى إلى تنظيم الحقوق والاستحقاق بشكلٍ يكون أقرب إلى العدالة، لكنَّه متأثِّرٌ في تشريعاته بالبيئة الَّتي جاء فيها، وهي بيئة الجزيرة العربيَّة في القرن السَّابع الميلاديِّ.

وعليه فهو لا يصلح لسائر الأقوام الَّذين كانوا آنذاك ممَّن كانوا أصحاب حضارةٍ وثقافةٍ مختلفةٍ: كالرُّوم، واليونانيِّين، والفرس. كما لا يصلح لهذا الزَّمان مع التَّغيُّر الثَّقافيّ والحضاريّ الهائل الطَّارئ على عموم الملل والأقوام.

ومن ثَمَّ يمكن القول: بأنَّنا نثق ـ بعد التَّأمُّل الجامع في طبيعة التَّشريعات الإسلاميَّة وفي ملاءمتها مع الأجواء الثَّقافيَّة والاجتماعيَّة في المجتمع العربيِّ دون الأجواء الَّتي كانت قائمةً في المجتمعات الأخرى آنذاك ـ أنَّه لو أنَّ نبيَّ الإسلام ﷺ أُرسل آنذاك في مجتمعٍ

---

(١) سورة المائدة: ٤٨.

آخر غير المجتمع العربيِّ، كالمجتمع اليونانيِّ، والرُّومانيِّ، والفارسيِّ، والصِّينيِّ، والهنديِّ، لكانت تعاليمه وقوانينه الَّتي يأتي بها مختلفةً عمَّا جاء بها في المجتمع العربيِّ، كما نثقُ أيضاً أنَّه لو جاء نبيُّ الإسلام ﷺ في المجتمع المعاصر لكان له تعاليم وقوانين مختلفة بعض الشَّيء عمَّا جاء به؛ بالنَّظر إلى متغيِّرات الزَّمان.

ويلاحَظ على هذا الطَّرح مجموع نقطتين:

(**أوَّلاً**): أنَّ هذا الطَّرح لا يتناول كلِّ الدِّين؛ ذلك أنَّه لا يشمل الموارد التَّالية:

١ ـ التَّعليمات الاعتقاديَّة، من قبيل منظومة الأفكار المتعلِّقة بالله سبحانه، وبالدَّار الآخرة، وبآثار الأعمال الفاضلة ونتائجها، فتلك جزءٌ ثابتٌ من الدِّين.

٢ ـ موارد الأحكام العقليَّة، من قبيل الحقوق والاستحقاقات الفطريَّة، ومحاسن الأفعال ومقابحها، من قبيل حسن: الصِّدق، والوفاء، والعفاف، والعدل، والشُّكر، وقبح: الكذب، والغيبة، والتُّهمة، والاعتداء، والظُّلم. فهذه الأحكام جزءٌ مهمٌّ وأساسيٌّ للتَّشريع الدِّينيِّ.

٣ ـ أصول أحكام العبادات الَّتي هي آداب لائقة بالإنسان تجاه الله سبحانه وتعالى، مثل وجوب: الصَّلاة، والصِّيام، والحجّ. فهذه التَّشريعات أيضاً يجوز أن تكون جزءاً ثابتاً من الدِّين، وليست ممَّا يجب تغييره باختلاف المكان والزَّمان.

(**ثانياً**): أنَّ المواضيع الَّتي هي مظنَّة لتغيُّر التَّشريع فيها بحسب الأمكنة والأزمنة لا يخلو التَّشريع الوارد فيها ـ وفق المنظور الدِّينيِّ ـ عن أحد قسمين:

(**الأوَّل**): أن يحرز بشكلٍ يقينيٍّ دخل الزَّمان والمكان في جعل التَّشريع المفترض، بمعنى أنَّ جوهر التَّشريع وغايته لم يعد قائماً في هذا العصر.

وفي هذه الحالة يتعيَّن اعتبار التَّشريع الوارد فيه متغيِّراً وليس ثابتاً، بمعنى أنَّه كان

حكماً ولائيَّاً من صلاحيَّات الحاكم المشروع، فيجوز لَمن بعده تغيير الحكم بإلغائه، أو جعل حكمٍ بديل، كما جاء أنَّ الإمام عليّ ﷺ وضع الزَّكاة على الخيل العتاق، ولم يستمر هذا الحكم بعده ﷺ.

لكن لا بُدَّ في اندراج الحكم في هذا القسم من كون اليقين المفترض يقيناً موضوعيَّاً موجباً للثِّقة في الأوساط التَّخصُّصيَّة العليا، وليس بضربٍ من الميول والاستحسانات المؤدِّية إلى الفوضى.

(الآخر): ما لا يحرز فيه بشكلٍ يقينيٍّ وعلميٍّ دخل الزَّمان والمكان في جعل التَّشريع، دخلاً يفقد التَّشريع جوهر ملاكه في الزَّمان الحاضر مثلاً. وفي هذا القسم يتعيَّن البناء على التَّشريع طبعاً؛ أخذاً بأصالة الثّبات في الوضع القانونيِّ.

وينبغي الالتفات في هذا السِّياق إلى أنَّه قد يُغتفر في التَّشريع الموحَّد تفاوت المقتضيات التَّشريعيَّة للمجتمعات المختلفة بعض الشَّيء في حال ضرورة وجود تشريعٍ مركزيٍّ واحد فيها.

فالدّساتير والقوانين كثيراً ما تُجعل لدى العقلاء بالنَّظر إلى مقتضيات زمان جعلها، ويستمرُّ العمل بها ولو مع بعض الاختلاف في تلك المقتضيات في الأزمنة اللَّاحقة، حتَّى يثبت عدم صلاحيَّتها، ويوجد تشريع أوفى بدلاً عنها. وكذلك قد توضَع التَّشريعات بالنَّظر إلى مركز البلد في مبرِّرات جعلها وتُعمَّم على جميع البلد وإن اختلفت الأطراف بعض الشَّيء عن المركز.

وعليه: فليس اختلاف المقتضيات التَّشريعية بعض الشَّيء بالَّذي يوجب ضرورة اختلاف التَّشريع.

ومن الجائز اشتمال الأحكام التَّشريعيَّة الثَّابتة في الدِّين على ما يكون من هذا القبيل؛

لأنَّ التَّشريع الدِّينيِّ ينطلق من زمانٍ ومكانٍ مركزيٍّ، ويُنظَر في الرِّسالات العامَّة ـ كالإسلام ـ إلى تعميمه لجميع المجتمعات الحاضرة والمستقبليَّة والَّتي تختلف فيها المقتضيات بعض الشَّيء، فالمهمُّ أن يكون التَّشريع حالةً مقبولةً بالنَّظر إلى نقطة ارتكازه من جهة، وعمومه لكلِّ زمانٍ ومكانٍ من جهةٍ أخرى.

وليس من الصَّحيح النَّظر في شأن المقتضيات التَّشريعيَّة إلى هذا البلد أو ذاك في زمانٍ خاصٍّ، بل المفروض النَّظر فيه إلى ما يناسب المركز من جهة، ويلائم سائر المجتمعات في مستوىً مقبول من جهةٍ أخرى.

وقد تعرَّضنا للقول في هذا الموضوع بشكلٍ أكثر تفصيلاً في مباحث الدِّين والقانون.

هذا آخر ما وسعنا إيراده في هذا الكتاب، وبه يتمُّ الحديث حول الحقائق الكبرى الثَّلاث.

وقد حاولنا في هذا الكتاب استجلاء معالم الدِّين في شأن الحقائق الثَّلاث الكبرى من خلال القرآن الكريم، كما حاولنا فيما سبقه من الكتب استجلاء حقيقة الدِّين بنحوٍ جامعٍ، ثُمَّ اتِّجاهه في مناحي الحياة، ثُمَّ ضرورة المعرفة الدِّينيَّة، ثُمَّ القواعد الفطريَّةالعامَّة للمعرفة الإنسانيَّة والدِّينيَّة.

وقد اتَّضح على ضوء ذلك أنَّ الدِّين يمثِّل منظومةً متكاملةً من الأمور المعرفيَّة والاعتقاديَّة.

(خاتمة)

شهادة في شأن الدِّين

شهادة في شأن تجربتي مع الدِّين في هذه الحياة

(خاتمة)

شهادة في شأن الدِّين

إنَّني أختم هذا الكتاب ـ كمحصِّلةٍ لما جاء للأبحاث الَّتي أوردتها فيه وفي باقي هذه السِّلسلة حول منهج التَّثبُّت في الدِّين ـ بشهادتين: شهادة تتعلَّق بالدِّين، وشهادة تتعلَّق بتجربتي الشَّخصيَّة مع الدِّين، ولست أشهد بهذه الشَّهادات رغبةً في قبولها من غير إمعان لَمن وقف عليها، فإنَّ المطلوب في الإيمان بالدِّين أن يكون عن تبصُّرٍ واستيثاق، وليس عن تقليدٍ وتلقين، ولكن لأستحثّ الباحثين على طلب الحقيقة بجدٍّ، والبحث عنها بأناة، حتَّى لا توقفهم الشُّبهة، وتقنعهم الظِّنَّة، على أنَّ الرَّائد لا يكذب أهله.

<u>شهادة في شأن الدِّين</u>

أمَّا (**الشَّهادة الأولى**): ـ في شأن الدِّين ـ فهي تشتمل على شهاداتٍ ثلاث:

الأولى: شهادتي على وجود الله الواحد الأحد، وجوداً يتمثَّل في كلِّ الكائنات، والظَّواهر: المنتظمة، والجميلة، والرَّائعة، والذَّكيَّة، والمذهلة في الكون والحياة. وجوداً يتأكَّد ويتجلَّى كلّما اكتشف الإنسان شيئاً جديداً من قوانين الكون والكائنات، والسُّنن الَّتي سُنَّت عليها، وكلّما استطاع الإنسان من إضافة إنجازٍ جديدٍ في ضوء الانتفاع بمعرفة تلك السُّنن والقوانين، فكلُّ كائنٍ في هذا الكون الواسع المترامي الأطراف أو ذرَّة منه لوحةٌ جميلةٌ ورائعةٌ ممثِّلةٌ لقدرة الله سبحانه وفنِّه، لوحةٌ لم توجدها الرُّسوم والألوان، بل أوجدتها سننٌ وقوانينٌ منتظمة يجري كلُّ كائنٍ عليها ولا تخلُّف لها، فما أجمل هذا المشهد الرَّائع في كلِّ أجزائه وتفاصيله، وما أعظم علم صانعه وقدرته وإبداعه، حقَّاً إنَّ إله هذا الكون

الفسيح إلهٌ عظيمٌ يستوجب من الإنسان الإعجاب والتَّقدير، بل الخضوع والخشوع أمام هذه العظمة والجلال، كما جاء في الدِّين.

والثَّانية: شهادتي بصدق رسالة الأنبياء فيما جاءوا به عن الله سبحانه من المعاني الخطيرة.

فإنِّي أشهد بصدق ما جاء فيها من مخاطبة الله سبحانه للإنسان وتذكيره تعالى إيَّاه بآفاق هذا الوجود وأبعاده، ودلالاته على الخالق العظيم.

وأشهد أيضاً بصدق ما جاء فيها من اتِّصاف الله سبحانه بالصِّفات الفاضلة، فهو يتَّصف: بالعدل، والفضل، والإحسان واللُّطف، ويكره الظُّلم، والفساد، والمنكر، كما يحثُّ سبحانه الإنسان على هذه الأخلاق الكريمة بعد أن أودعها في نفسه وركَّزها في وجدانه.

وكذلك أشهد بصدق ما تضمَّنته هذه الرِّسالات من غائيَّة هذا الخلق العظيم، فهذا الكون لم يُخلق عبثاً ولعباً، بل يتحرَّك إلى غايةٍ منظورةٍ لخالقه، فقد صِيغَ صياغةً دقيقةً، وُجِّهت فيها الأمور إلى غاياتٍ محدَّدة منذ نشأته المتوقَّعة بالانفجار الكبير حتَّى تكوُّن المجرَّات والنُّجوم، ثُمَّ نشأة الأرض الصَّالحة للحياة، ثُمَّ إيجاد الكائنات الحيَّة النَّباتيَّة والحيوانيَّة عليها، ثُمَّ خلق الإنسان وتسخير ذلك كلّه له، فالتَّأمُّل الكونيّ التَّاريخيّ ينبِّه الإنسان على أنَّ لهذا الكون ـ حقّاً ـ غايةً منظورةً به، وهو صائر إليها.

وكذلك أشهد بصدق تلك الرِّسالات فيما تضمَّنته من خصوصيَّة الإنسان من بين هذا الخلق، والعناية الخاصَّة للخالق به من بين الكائنات، فهو كائنٌ مميَّزٌ وهب الله سبحانه له العقل المدرك ـ الَّذي يهتدي من خلاله إلى إدراك هذا المشهد ـ والضَّمير الأخلاقيّ ـ الَّذي هو هديه في هذه الحياة ـ وقد سخَّر له ما حوله من الكون والكائنات، وهو محلُّ

اهتمام الإله ومحبَّته وودِّه، خاطبه من خلال رسالاته، ورغب في تعرُّفه عليه بعقله، وشكره إيَّاه بضميره، ووعده بالاستجابة له فيما تسمح به مقادير الحياة، وقد جعل هذه الحياة اختباراً معرفيَّاً وأخلاقيَّاً للإنسان، ليتنافس النَّاس في المعرفة والخُلق النَّبيل.

وأشهد أنَّ رسالة الإسلام ـ الَّتي اشتملت على تصديق الرِّسالات السَّابقة المتمثِّلة في الأديان الإبراهيميَّة ـ هي رسالةٌ موثوقةٌ وصادقةٌ يقيناً، كما تمثَّلت في القرآن الكريم الَّذي جاء به رسول الإسلام محمَّد بن عبد الله ﷺ، وكما تمثَّلت في روائع أقواله وسيرته، وكذلك أقوال وسيرة عترته من أئمة آل البيت عليهم السلام.

والثَّالثة: شهادتي بالإيمان بما جاءت به الرِّسالات الإلهيَّة من وجود نشأةٍ أخرى، يعود فيها الإنسان إلى الوجود، ليلقى حصاد ما زرعه خلال الاختبار المعرفيّ والأخلاقيّ في الحياة الأولى، ويُجازى الَّذين أساؤوا بما عملوا، كما يُجازى الَّذين أحسنوا بالحُسنى.

وأشهد أنَّ اليقين بوجود الله سبحانه، وبصدق الرِّسالات لهو ـ وفق المؤشِّرات القائمة عليها وحجمها ـ يقينٌ لا يدخله الشَّكُّ والتَّرديد بالأسئلة والاستبعادات الَّتي تُثار تجاه ذلك؛ لأنَّ هذه الأسئلة ـ كما وجدتها بعد التَّأمُّل الجامع فيها والموازنة المنطقيَّة بينها وبين دلائل حقَّانيَّة الدِّين ومؤشِّراتها ـ هي بين ما يتَّجه على أمورٍ دخيلة امتزجت بالدِّين بمرور الزَّمان، أو على اجتهادات نشأت في فهمه وتفسيره، أو هي لا تزيد على استبعادات أوَّليَّة لا وزن كبير لها ليصحّ الاحتجاج بها والاعتماد عليها.

في شأن تجربتي مع الدِّين في هذه الحياة

وأمَّا (**الشَّهادة الثَّانية**): فهي حول تجربتي الشَّخصيَّة مع الدِّين، فإنِّي أشهد أنِّي انتفعت بالدِّين انتفاعاً كبيراً ـ وأعتقد أنَّ ذلك من شأن الدِّين تجاه أيِّ إنسانٍ آخر ـ، فقد أضاء عقلي، وحفَّز تفكيري، وأنار ضميري بحقائق نبَّه عليها، وآفاق كشف عنها.

فقد نبَّهني على وجود الله سبحانه على نحو تنبيه الغافل على شيءٍ يجده بنفسه بعد تنبُّهه، ففسَّر لي بذلك ما أجده من النَّظم والرَّوعة والجمال والإبداع في هذا الكون.

وحثَّني الدِّين على الاتِّصاف بالعقلانيَّة في الأمور كلِّها من خلال التَّأمُّل والتَّثبُّت والتَّفكير، ونهاني عن التَّسرُّع والاستعجال، وحذَّرني من الأوهام والخرافات، وشجَّعني على تعلُّم الحكمة والازدياد منها مدى الحياة، والاعتبار بالحوادث، والاتِّعاظ بالأمثال، والتَّعلُّم من تجارب الآخرين.

وأفصح لي الدِّين عن خالق يرعى الإنسان، فكان مصدراً للطَّمأنينة والسَّكينة والتَّسلية والأمل، حيث أتعبَّد له بما أوصاني به من العبادات اليسيرة تأدُّباً معه وشكراً لإنعامه، وإيفاءً بحاجاتي المعنويَّة والرُّوحيَّة، أبثُّ إليه سبحانه همومي وأناجيه في ذات نفسي، وأثق برعايته لي في مصاعب الحياة من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب، وإن كنت أعلم أنَّ هذه الحياة سُنَّت على سُننِ الاختبار والاجتهاد، ولكنَّه يبارك لي في ثوابت مقاديرها، ويرعاني في متَّسعاتها، ويحتسب لي الأجر في مضائقها.

وقد أكَّد لي الدِّين على مكارم الأخلاق ـ الَّتي ينطوي عليها الضَّمير الإنسانيّ ـ، فدعاني إلى الصِّدق في الكلام، وترك القول بغير علم، والإيفاء بالوعد والالتزام، وتجنُّب الإساءة إلى الآخر، والإحسان إلى المسيء، والشُّكر على الإحسان، وحبُّ الخير للآخرين كما أحبُّه لنفسي، وكراهة الشَّرِّ لهم كما أكرهه لها، والتَّواضع مع النَّاس، والاعتدال في السُّلوك، والصَّفاء في النَّفس، والإنصاف للغير، وتجنُّب التَّعلُّقات المفرطة والمُذلَّة بالأمور المادِّيَّة، وتجنُّب المباهاة بها، وإثارة روح التَّنافُس لدى الآخرين في شأنها، ومراعاة العفاف في النَّظر والمظهر والتَّصرُّفات كلّها، والحزم في مواضعه، والاعتماد على النَّفس ما أمكن، والكدّ في سبيل تحصيل الرِّزق الحلال، ومواساة الفقراء، والاعتذار عن الخطأ، والاستغفار من الخطيئة، ومحاسبة النَّفس، والطُّموح في اكتساب الفضيلة، والتَّجاوز عن المخطئ، إلى

قيم فاضلة أخرى.

وأوضح لي الدِّين أنَّ هذه الحياة ليست هي الغاية ولا النَّهاية، بل هي البداية لمسيرة طويلة يُختبر فيها النَّاس في المعرفة والفضيلة، فيلاقي المرء غداً ما يعمله اليوم بعينه في مشهدٍ تُنصَب فيه موازين القسط، فيكون للنَّاس درجات بحسب أعمالهم وأخلاقهم، ويكون لكلِّ إنسانٍ ما سعى، فبدَّل لي هذه الحياة إلى الجدِّ بعد اللَّعب، والتَّرقُّب بعد التَّلهِّي، حيث فتح لي آفاقاً لا أستطيع أن أتصوَّرها من عظمتها، ممَّا تصغر في جنبها هذه الحياة بكلِّ ضجيجها وضوضائها؛ لما كشفه من حياةٍ خالدةٍ فيما بعدها، فصرت أجد ـ في لحظات التَّبصُّر ـ كلَّ عملٍ أعمله أمام عيني، وأيقن أنِّي ملاقيه غداً خيراً كان أو شرَّاً، في مشهدٍ يجتمع فيه النَّاس جميعاً، ويتميَّز فيه السَّابقون إلى المعرفة والفضيلة في هذه الحياة.

ونبَّهني الدِّين على أهمِّيَّة معرفة الحقيقة الَّتي عرَّفنيها، للاهتمام بالحفاظ عليها، والتَّبصُّر بها، وإيقاظ الآخرين للانتباه إليها، والالتفات إلى خطورتها بالحكمة والموعظة الحسنة، من دون إحراجٍ أو إكراه.

فتلك أمورٌ خطيرةٌ ومهمَّةٌ تعلَّمتها من الدِّين، وبقيت عليّ عهدة العمل بها، والاجتهاد في سبيلها، أسأل الله سبحانه التَّوفيق والتَّسديد في ذلك.

هذه شهادات يشهد بها عقلي ونفسي، شهادة نابعة عمَّا انتهى إليه تبصُّري لنفسي في هذه الحياة بالنَّظر في الكون والكائنات وفي الرِّسالات الإلهيّة، وقد تجنَّبت في أمرها عوارض التَّلقين، وشوائب التَّقليد، ودواعي الاستقطاب.

وأوصي الأخوة الأعزَّاء بالبحث الجادّ والتَّثبُّت الكافي في هذا الأمر الخطير الَّذي هو أهمُّ الأمور الَّتي تتعلَّق بالإنسان. والله أسأل أن يهدينا إلى الحقِّ ويوفِّقنا للعمل به إنَّه سميعٌ مجيب.

(١٤/ ع٢/ ١٤٣٩هـ)

الفهرس